النمو والتربية فى المجتمعات البدائية

تأليف : الدكتورة مارجريت ميد

ترجمة : الدكتورة نعيمة محمد عيد

مراجعة : الدكتور أحمد زكى صالح



الناشر : دار النهضة العربية

هذه ترجمة لكتاب

GROWING UP
IN
NEW GUINEA
By
NARGARET MEAD

المطبعة العالمية ١٦،١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

فهرس

القسم الأول

النمو فى مجتمع مانوس البدائى

القسم الثانى

مناقشة لبعض المشكلات التربوية المعاصرة

على ضوء تجربة مانوس

ملحقـــــات

مقدمة المراجع

قد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتى : لماذا اختير هذا الـكتاب لنقله إلى اللغة العربية ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال يجب أن نشير إلى مبدأ رئيسى هام يجب مراعاته فى عمليات النقل إلى اللغة العربية ، وهو ضرورة أن يكون النقل هادفاً ، أى يحقق النقل أغراضاً معينة تتفق مع الثورة الاجتماعية التى نمر بها ، والثورة الفكرية التى نحاول أن نهضم أسسها ، والمشكلات الاجتماعية والعلمية الراهنة التى تقابلنا فى مجتمعنا بصورته الجديدة .

وفى رأيى أن كتاب النمو والتربية فى المجتمعات البدائية يحقق هذه الأهداف جميعها ، فكاتبته السيدة « مارجريت ميد » أستاذة فى علم النفس الاجتماعى وصاحبة اتجاه معين فى دراسة الظواهر السلوكية فى إطارها الثقافى ، وهذا الاتجاه لم يؤثر فحسب على علم النفس بل أثر كذلك على كثير من العلوم الإنسانية الأخرى ، ولعل أهم ما تأثر به هـذا الاتجاه من علوم هما : علم الاجتماع وعلم التربية .

والمشكلة التى يعالجها هذا الـكتاب مشكلة فذة فى موضوعها ، إذ أنه يحاول أن يدرس ظواهر النمو النفسى المختلفة فى مجتمع بسيط و بين عدد محدود وفى إطار ثقافى معين ، حيث يستطيع أن يضع لنا الـكثير من الدلائل الموضوعية على صحة ما ننتهى إليه من نتائج فى دراستنا لنفس الظواهر فى مجتمعات معقـدة وعلى وعلى أعداد ضخمة متباينة .

ولا شك أن المنهج الذى اتبع فى دراسـة ظواهر النمو والعمليات التربوية فى مجتمع « غينيا الجديدة » يمثل لنا نموذجاً حياً عن المنهج الموضوعى الذى يمكن أن يتبع فى دراسة الظواهر السلوكية فى إطارها الطبيعى ؛ ولم يقتصر الـكتاب على

ذكر خطوط المنهج العريضة إنما نجد فى ملاحقه السبع مجموعة من البيانات والوثائق التى تيسر لنا اتباع هذا المنهج فى مجتمعات أخرى بعد تعديلها والإضافة إليها وفقاً لموضوع الدراسة .

ويمثل الإطار الموضوعى التى فسرت فيه الوقائع التى استحدثت من هذه التجربة أسلوباً حيا من أساليب الفكر الموضوعى فى المشكلات الاجتماعية ، ونحن نعانى فى تفسيرنا للظواهر السلوكية من تأثير الأفكار السابقة أو النظريات التى يسلم بها الباحث أو الفروض التى يضعها لنفسه أو المسلمات التى نجدها تتحكم فى تفكيره ، وهذا كله قد يفسد على عالم النفس صحة التصور للظاهرة التى يدرسها ويحجب عن ناظريه العلاقات المتداخلة بين هذه الظواهر والتى يهدف إلى الكشف عنها . وقد إتجهت « مرجريت ميد » إلى تفسير الوقائع فى ضوء الإطار الثقافى العام للقرية البدائية التى أجرت فيها بحثها وحاولت أن تربط بين سلوك الأطفال وسلوك الكبار و بين قيم هؤلاء و بين الأسس التى يتبعها الكبار فى تربيتهم لأطفالهم ، وهذا التفسير الموضوعى للظواهر السلوكية نحن فى مسيس الحاجة إليه حتى نستطيع أن نتصور حقيقة ما يقوم عليه المجتمع من أسس وأن نكشف عن العوامل التى تلعب دوراً رئيسياً فى تشكيل سلوك الصغار فى اكتسابهم لعادات التوافق والتكيف مع المجتمع الكبير .

وبعد أن انتهت « مارجريت ميد » من مناقشتها لظواهر النمو المختلفة عند الأفراد من الجنسين تعرضت فى الباب الثانى من هذا الكتاب لمجموعة من المشكلات التربوية فى المنزل والمدرسة فى مجتمعاتنا المعاصرة ولا شك أن هذه المناقشة تمثل تحدياً حقيقياً لأسلوبنا كآباء ومعلمين فى تربيتنا لأطفالنا وقد عالجت المؤلفة فى هذا الباب مشكلة العناية بالتقاليد ، وأهميتها فى احتفاظ الناشئة بتراث الأجيال ، كما عالجت مشاكل تربية الشخصية ، بكل مكوناتها الرئيسية ، وأخيراً ضرورة اعتماد الطفل على تراث مجتمعه .

وقبل أن نختم هذه المقدمة أود أن أشير إلى بعض المميزات التى يمكن أن تعود على قارىء هذا الكتاب ، وأولى هذه المميزات أنها تتيح للقارىء فرصة ممارسة الفهم والتذوق للعلاقات الإنسانية كما توجد فى مجتمع بسيط ، ولعلنا إذا أنعمنا النظر فى هذه العلاقات لاستطعنا أن ندرك الكثير من العلاقات التى نمارسها فى مجتمعاتنا المعقدة ولا شك أن هذا إذا تحقق يعود علينا بفائدة مباشرة فى تنظيم علاقاتنا الواحد منا بالآخر على ضوء الأسس الثقافية للعلاقات الإنسانية .

وثانية هذه المميزات أننا كآباء ومربين نكتسب قطعاً نوعاً من القدرة على فهم سلوك الصغار على ضوء معاملاتنا لهم ، وبالتالى نرى أبناءنا فى صورة ما نقرره من قيم وما نمارسه من اتجاهات إزاءهم وما نتيح له من فرص النضج والتعلم الحقيقية ، الأمر الذى يترتب عليه أننا نستطيع أن نغير فى سلوكنا وآرائنا إزاء أطفالنا حتى نستطيع أن نعودهم على العادات الاجتماعية التى تتطلبها عملية التوافق المعقدة .

والميزة الثالثة هى الفائدة النموذجية لطلاب البحث فى العلوم الإنسانية عامة والعلوم السلوكية — علم النفس — على وجه الخصوص فالكتاب وإن كان فيه بساطة الكتابة المألوفة والعرض اللطيف إلا أنه يكمن وراءه منهج علمى من الطراز الأول يتميز بالموضوعية والدقة .

والخلاصة أن هذا الكتاب لم يترجم بغرض الترجمة والنقل فقط إنما نقل إلى العربية بقصد تحقيق أهداف معينة تخدم العلوم الإنسانية فى مجتمعنا الجديد .

القسم الأول

النمو فى مجتمع مانوس البدائى

تمهيد

وجدت الباحثة الأمريكية « مارجريت ميد » مجتمعاً بدائياً يعيش فى عزلة عن الحضارة فى جزيرة مانوس Manus لم تصل إليه وسائل المدنية الحديثة فلم تطأ أرضه أية بعثات تبشيرية أو تجارية . وقد عاشت مارجريت ميد بين أهل هذه الجزيرة حيث سجلت مشاهداتها عن الأطفال فى مراحل نموهم ، كيف يتدربون على مهارات البحر ليبرعوا فى فنون الصيد وكيف يتكيفون لظروف الحياة فى الجزيرة ومطالبها .

ولكن ماذا عن التكيف الاجتماعى لأهل هذه المنطقة ؟ إن مفهوم أهل مانوس عن التدريب الاجتماعى كما وجدته الباحثة مفهوم رخو مطاط يتعارض مع صرامة وسائلهم فى التربية الجسمية وعدم تهاونهم حيالها . فالطفل هناك ملك متوج ما دام طفلا ، ولكن إذا ما تخطى مرحلة الطفولة بما فيها من مرح وتدليل ، كان عليه أن ينضوى تحت لواء قانون اجتماعى صارم دقيق .

ولقد بدأت الباحثة دراستها هذه بأن تناولت قطاعاً صغيراً من الجماعة الإنسانية التى تعيش هناك ، ثم استطردت فى النصف الثانى من الكتاب فتعرضت لجوانب أشمل وأعم مما يواجهنا من مشاكل تربوية ووجدانية فى هذا العالم المتحضر .

وهى إذ تناقش هذه المسائل فإنها تتساءل عما إذا كنا حقيقة نهيىء لأولادنا نوعاً من التربية يعدهم للحياة فى عصرنا وحضارتنا ؟ وهل استطاع جيل الأمس أن ينقل مكاسبه إلى جيل اليوم ؟ وهل منح الأطفال بالفطرة موهبة الخلق والتجديد أم أنهم يعيشون فى عالم أساسه الميراث التقليدى ؟ وما هو المثل

الأعلى عندنا . هل هو الشخص صاحب الثروة ؟ وما هو الحب الأفلاطونى هل هو مجرد خداع ؟

لقد طبع الكتاب الحالى « الحياة فى غينيا الجديدة » سنة ١٩٣٠ وقد أحدث طبعه هزة عنيفة فى ميدان التربية الحديثة إذ اعتبره علماء التربية حدثاً جديداً أضاف إلى التربية ونظرياتها . ولا غرو فهو يتناول الكثير من مشكلاتنا بالنقد والتحليل والتعقيب ، و يتحدى الكثير من النظريات التى قدمت منها .

الفصل الأول

مقـــــدمة

إن الطريقة التى يتم بها تحول الطفل الآدمى إلى شخص مكتمل النمو فى الإطار المعقد لبلده أو جيله ، لمن أكثر الموضوعات استثارة للباحثين . وسواء شاء المرء أن يتعقب السبل المتشعبة التى يمر فيها الطفل قبل الميلاد أو أن يتنبأ بمستقبل طفل لا زال فى دار الحضانة ، أو أن يقوم بإدارة مدرسة ، أو أن يجرى دراسة فلسفية لمستقبل الولايات المتحدة — مثلا — فإن المشاكل الآتية تحتل مدار تفكيره — ما هو مقدار ما يحمله الطفل معه من سمات وخصائص عند مولده ؟ و إلى أى مدى يسير نموه وفقاً لقوانين منتظمة ؟ وما هى الدرجة التى يتأثر بها نمو الطفل ونضوجه بما تلقاه من تدريب سابق ، وما هى وسائله ؟ وما مبلغ تأثر الطفل بشخصية الوالدين والمدرسين ورفاق اللعب ، والعصر الذى ولد فيه ؟

وهل إطار الطبيعة الإنسانية من الجمود والصلابة بحيث يتهشم إذا تعرض لبعض الاختبارات القاسية ؟

وما هى حدود هذه الطبيعة ؟ وهل من الممكن أن ننظم الصراع التقليدى بين الكبار والصغار بحيث نقلل من حدته أو نوجهه وجهة أكثر جدوى ؟

مثل هذه الأسئلة لا بد منها قبل اتخاذ أى إجراء اجتماعى — مثلا كأن تقرر إحدى الأمهات إطعام طفلها الرضيع بملعقة بدلا من إجباره على امتصاص اللبن من زجاجة يكره الطفل مرآها ، أو أن نقرر مصادرة مليوناً من الدولارات لنبنى بها مدرسة للتدريب المهنى ، أو لننفق منها على الدعاية ضد النشاط الشيوعى إننا لا نعلم إلا القليل عن هذا كله ، ولذا فنحن فى بداية الطريق نحو إعداد وسائل مواجهتها .

وحين أخذ التاريخ يتجه وجهته التى بدأت بقصة اللغات المختلفة ، وما أدت إليه من تشتت الناس فى مختلف الجهات بعد برج بابل ، لم يكن أمام الباحثين فى طبيعة الإنسان إلا نوعاً واحداً من المعامل .

ففى كافة أنحاء العالم ، فى أغوار الغابات الكثيفة ، وفوق جزر المحيط النائية ، تعيش جماعات من البشر يختلف بعضها عن البعض الآخر فى اللغة والعادات .

وقد هيأت هذه الجماعات ميداناً طيباً لدراسة الطبيعة الإنسانية . وقد استرسل خيال بعض الباحثين ، وتشعب تصورهم لتاريخ هذه الجماعات ، وما اخترعوه من آلات وأدوات ، والحكومات التى كانت تدير شئونهم وما كانوا يعتنقونه من مفاهيم عن الخير والشر ، وموقف الفرد فى هذا العالم . وقد قام بعض العلماء بقياس أهمية المركز الاجتماعى وما يحوطه من مظاهر مصطنعة ، وقاس فريق آخر النتائج الاجتماعية المترتبة على التضحية الجماعية . وقاس فريق ثالث نتائج تطبيق ديموقراطية رخوة لا رابط لها . وقد وجد هؤلاء أن إحدى الجماعات تمارس البغاء علانية وتجهر به ، فى حين أن جماعة أخرى تنص على وجوب انفصال الزوجين عن بعضهما مدة قد تبلغ فصلا أو عاماً بأكمله . و بينما نجد أحد الشعوب يعبد موتاه و يخلع عليها صفات الآلهة ، نجد شعباً آخر يتجاهل الموتى و يعتنق فلسفة تقول بأن الناس كالعشب تنمو فى الصباح ، وتقطع عند هبوط الظلام .

وعلى هذه الخطوط الأولى التى رسمتها لنا هذه الاتجاهات القديمة ، والتى يبدو أنها تشكل ميراثنا الإنسانى ، قامت أجيال لاحصر لها من الدارسين بإجراء تجارب عن إمكانيات الروح الإنسانية ، وليس على أولئك الذين يعرفون قيمة هذه التجارب الأولى ، إلا أن يقرأوا نتائجها مسطرة فى أساليب حياة الجماعات المختلفة .

ولسوء الحظ كنا دائماً مهملين ، وعاجزين عن استغلال تلك الوثائق

الثمينة . فلم نسمح إلا بتسجيل تجربة واحدة استغرق إجراؤها آلافاً من السنين وليس فى الإمكان أن نعيدها مرة ثانية . ورغماً من ذلك تركناها تطمس بفعل الحرب والحر والأمراض الفتاكة .

وهكذا كانت الشعوب الأولى يفنى الواحد منها بعد الآخر ولا يترك واحد منها ما يدل عليه .

ولو كان عدد من علماء علم الأحياء اهتم بتكاثر نوع من الحيوانات أو الحشرات خلال مائة عام مثلا ، وقام أولئك العلماء بتسجيل نتائج أبحاثهم طيلة تلك الفترة ، ثم شب حريق نتيجة للاهمال أو التهاون فأحرق جميع الوثائق التى استغرق إعدادها هذه المدة الطويلة ، وقتل جميع من بقى من هؤلاء العلماء . أقول لو كان هذا قد حدث فعلا ، لكنا أطلقنا صيحات الذعر والاستنكار على ما فقده العلم من ذخيرة نادرة . أما إذا قدم لنا التاريخ نتائج تجارب ألف سنة لا مائة فقط على الكائنات الآدمية ، فإننا لا نحرك ساكناً إذا فقدنا سجلاتها ومعالمها .

ورغماً عن أن معظم هذه الثقافات الأولى التى تدين باستمرارها لا للوثائق المسجلة بل لذاكرة بضع مئات من الأفراد ، قد اندثر معظمها ، إلا أن القليل منها لا يزال باقياً . فهناك فى بقاع نائية منعزلة من جزر المحيط الهادى ، وهناك فى أعماق غابات أفريقيا وفى متاهات آسيا لا يزال فى استطاعتنا أن نعثر على مجتمعات لم تمسسها يد العمران ، ولا زالت تعالج مشكلاتها بوسائل تختلف كل الاختلاف عما عهدناه فى مجتمعاتنا ، مما يدل على ليونة الطبيعة البشرية .

ومن هذه الجماعات المجهولة سكان جزيرة مانوس ، وهم جماعة من البشر يعيشون فى إحدى الجزر الواقعة فى شمال غينيا الجديدة . و يسكن أفراد تلك الجماعة أكواخاً من البوص ترتكز على دعائم أقيمت فى أعماق البحيرة الواسعة الخضراء ، وهم يعيشون بنفس الطريقة التى عاش بها أجدادهم منذ آلاف السنين . ولم يحدث فى تاريخهم أن وفد عليهم بعض أفراد البعثات التبشيرية لتنشر بينهم ديناً جديداً

كما لم يأت إليهم تجار من الأجانب ينتزعون أرضهم ويجعلون منهم شعباً من المعدمين .

أما الأمراض القليلة التى تصيبهم والتى جاءت إليهم من دنيا البيض فعددها قليل وينظر إليها الأهالى على أنها عقاباً لهم على إثم أتوه . وهم يشترون الحديد والثياب وحبات الخرز من التجار فى المناطق الأخرى . وقد تعلموا تدخين تبغ الرجل الأبيض ، وأن يتعاملوا بنقوده . كما تعلموا أن يذهبوا بقضاياهم إلى ضابط المنطقة . ومنذ عام ١٩١٢ لم تقم حروب بينهم ، وهو استقرار يرحب به شعب يعيش على التجارة والملاحة .

ويذهب شباب البلدة للعمل فى إقطاعيات الرجل الأبيض ، وقد يعمل الواحد منهم سنتين أو ثلاثاً بتلك المزارع ولكنه يعود إلى قريته بدون أن يطرأ عليه أى تغير أو تبديل . فهو إذن مجتمع بدائى فى كافة أساليب حياته ، وليس لديه أية وثائق مسجلة ولا يعتمد فى معيشته على الشعوب البيضاء بل يحافظ على سلوبه وتقاليده المتوارثة .

ولا شك أن للطريقة التى ينشأ بها الأطفال فى هـذه المجتمعات البحرية ، ويتشربون بها عادات الكبار ، ومحرماتهم وقيمهم ، ويصبحون بدورهم مساهمين فى نشاط الجزيرة الحافلة بالمعلومات لها مغزى خاصاً بالنسبة للدراسات التربوية . ويلاحظ أن مجتمعنا الحالى من التعقيد بحيث أن الباحث مهما ثابر وصبر ، لا يسعه فى دراسته للعملية التربوية إلا أن يقتصر على جانب واحد منها فقط . ففى دراسته لمشكلات الأطفال مثلا لا يستطيع إلا أن يركز على جانب واحد منها ، ولا بد أن يهمل الجوانب الأخرى . بيد أنه فى المجتمعات البسيطة الخالية من تقسيم العمل ، والتى ليس لها تاريخ ثقافى مسجل ، والمحدودة العدد ، لا يضطر الفرد فى دراسة التقاليد والعادات إلا لاسترجاع ما يتذكره بعض الأفراد القلائل . ثم عن طريق الاستعانة بالكتابة ، والالتجاء للتحليل الثقافى يستطيع الباحث أن يلم فى مدى شهور قليلة بمعظم العادات والتقاليد التى يستغرق الأهالى فى تعلمها سنين طويلة .

وعن طريق هـذا الاختيار الذى ييسر الإحاطة بالتاريخ الثقافى للجماعة ، يصبح فى الإمكان دراسة عملية التربية وتقديم الاقتراحات لمواجهة مشاكلها ، الأمر الذى لا يتيسر تنفيذه عن طريق التجريب فى مجتمعاتنا المتحضرة . أما هناك فإن جزيرة مانوس تقدم لنا التجربة ، وما علينا إلا أن نشاهد ونستنتج .

ويهمنى أن أثبت هنا أننى قمت بدراسة أساليب التربية فى جزيرة مانوس ، لا لأثبت نظرية معينة ، ولا لأؤيد فكرة سابقة ، بل على العكس كانت معظم النتائج التى وصلت إليها مفاجئة لى . وإن وصف أسلوب المعيشة البسيط الذى يعيشه هؤلاء القوم السذج ، والذين يسكنون فوق بحيرات ضحلة فى جزيرة بعيدة من جزر البحر الجنوبى ، وكيف يدربون أطفالهم على الحياة ، إنما يقدم للقارىء صورة مصغرة لأحد أساليب التربية ، أما مغزى هذه الصورة واتصالها بالتربية الحديثة ، فلا يسعنى إلا أن أقرر هنا أنها أولاً وقبـل كل شىء مجرد تسجيل مبسط يمكن فى إطاره تجميع كافة العوامل وإدراكها . ثم إنها تقدم لنا أيضاً تجربة معقدة كما لو كانت مكتوبة فى مصور كبير ثم نظرنا إليها من خلال عدسة مصغرة . وإلى جانب ذلك فإن لأهل هذه الجزيرة اتجاهات معينة بالنسبة للنظام ، واتجاهات أخرى للأبوين يتغالى الأهالى فى تأكيدها أكثر مما هو معهود فى مجتمعاتنا . وخلاصة القول إن دراسة هذا المجتمع ذات أهمية لنا ، إذ أن أهدافه وأساليبه وإن بدت بدائية ساذجة ، إلا أن هناك بعض أوجه الشبه بينها وبين ما نجده بين ظهرانينا .

وسنرى فيما يلى من فصول الكتاب كيف نجحت هذه الجماعة نجاحاً ملموساً فى تأكيد حب الممتلكات الخاصة فى نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم ، وكيف استطاعوا أن يدربوا أطفالهم على التكيف للبيئة الطبيعية بصورة تبعث على الإعجاب فى هذه السن المبكرة . وقد لاحظت أن النظام الحازم المقترن بالاهتمام الشديد يقف وراء نجاحهم فى هاتين الناحيتين . ومع ذلك أجده يتعارض مع النظرية القائلة بأن علينا حماية الطفل ورعايته دائماً قبـل أن يشتد عوده ، كما

يتعارض أيضاً مع الرأى السائد الذى يقول بإلقاء الطفل فى بحر التجارب ليعوم أو يغرق . فالبيئة التى يعيش فيها أهل مانوس حيث يأوى الناس إلى بيوت أقيمت فوق الماء ، وحيث يعبرون البحيرة فوق ألواح رقيقة من الخشب قد لا يبلغ عرض بعضها بضع بوصات تجرى من تحتها المنحدرات المائية المتدفقة ، إنما هى بيئة حافلة بالأخطار وتحمل الأخطاء فيها نتيجة مهلكة . وعلى ذلك قامت التربية هناك لمساعدة الطفل على أن يتكيف تكيفاً كاملاً لأخطار بيئته ، وهى تربية ذات صلة وثيقة بالمشاكل التى يواجهها الأطفال فى مجتمعنا حيث تتزايد احتمالات الخطأ .

ومما هو جدير بالذكر هنا ما يشوب أساليب التربية لدى أهل مانوس من عيوب . فبالرغم من براعتهم فى تدريب صغار الرياضيين ، وإرضاعهم احترام الثروة وأملاك الغير ، إلا أنهم لم ينجحوا فى الأنواع التربوية الأخرى . فهم مثلاً لا يرون حرجاً فى السماح للأطفال بالتعبير عن شعورهم بلا أى قيد أو ضابط ، فلهم أن يطلقوا لحدة ألسنتهم ، ولسوء طباعهم العنان . كما أن الأطفال لم يتعودوا احترام الوالدين ، ولا الاعتزاز بتقاليدهم . بل إن افتقارهم إلى أى تدريب يؤهلهم لتحمل مسؤولياتهم وواجباتهم نحو عشيرتهم عن طيب خاطر ، لمن الظواهر البارزة هناك . فإن للأطفال الحرية المطلقة فى أن ينطلقوا إلى ملاعبهم بدون أية مسؤوليات من جانبهم وبدون أن يتوقع الناس منهم أى شكر أو تقدير لمن يكدحون من أجلهم ويوفرون لهم طفولة لاهية سعيدة .

وإلى أولئك الذين يقولون بأن الأطفال موهوبون بالفطرة ، وأنهم بطبيعتهم أصحاب خيال خصب خلاق ، وما علينا إلا أن نهيء لهم المجال والحرية لتنمية وتطوير الأساليب المثمرة التى تلائمهم ؛ إلى هؤلاء أقول إن أطفال جزيرة مانوس لم يظهروا فى سلوكهم ما يشير إلى صحة هذه الأقوال . ففى تلك الجزيرة نجد أن جميع الأطفال قد تحرروا من كافة المسؤوليات والواجبات ، ولم يتلقوا من العلم إلا أقله خصوصاً وأنهم يعيشون فى مجتمع لا تهمه إلا الكفاية اليدوية ، واحترام الثروة والممتلكات الخاصة ، ومراعاة بعض الشعائر ، وتحريم بعض أنواع من السلوك .

وصحة أطفال هذه الجزيرة جيدة فنسبة الوفيات بينهم ٥٠ ٪ فلا يعيش منهم إلا أقوى وأصلح الأطفال . وهم على قدر كبير من الذكاء ولا يتعدى عدد الأغبياء بينهم ثلاثة أو أربعة فى المائة . وهم يتميزون بتناسق القوام وحدة الحواس وسرعة الإدراك ودقته . وعلاقة الطفل بأبيه علاقة سليمة لا يشوبها أى إحساس بالنقص أو القلق .

ويسمح للأطفال أن يقضوا اليوم بطوله إذا شاءوا فى اللهو واللعب . ولكن ألعابهم — بعكس ما يحاول تأكيده أصحاب نظريات معينة عن اللعب — تشبه إلى حد كبير لعب صغار الحيوانات كالقطط والكلاب . وليس عندهم دوافع اللعب المعروفة فى المجتمعات الأخرى ، وعلى ذلك لا يخرج لعب الطفل عن الجرى والقفز والتجوال فى مرح وسرور ، حتى يشعر بالتعب فيستلقى على ظهره لاهثاً حتى يستريح فينطلق إلى لهوه مرة ثانية .

أما صورة الأسرة فى مانوس فهى الأخرى ذات طابع غريب يكشف عن عدة مظاهر جديرة بالتسجيل . فالأب هناك يقوم بالدور الرئيسى فى حياة الأسرة فهو يولى الأطفال عطفه ورعايته . أما الأم فتأتى بعد الأب فى الأهمية فى حياة الطفل الوجدانية .

ولما كنا معتادين فى مجتمعنا على صورة الأب المستبد المتباعد عن أطفاله ، فى حين تحتل الأم مكان ناصح الطفل وحارسه الأمين ، كان من العجيب أن نجد هذه الصورة معكوسة فى مانوس ، حيث يقوم الأب بدور الأم عندنا . وقد استطاع علماء النفس أن يحددوا الصعاب والمشكلات التى يقابلها الطفل الذكر فى أسرة يقوم الأب فيها بدور صاحب السلطة ، والأم بدور مانح العطف والرعاية ، بيد أن شروط التربية فى جزيرة مانوس تقدم لنا نموذجاً عن الدور الخلاق الذى يمكن أن يلعبه الأب العطوف فى تشكيل شخصية الطفل ومثالاً لما يمكن أن نفعله حلاً لهذه المشكلة . فالأوضاع العائلية هناك تقدم حلاً لمشاكل الأسرة يتلخص فى تبادل الأبوين لدوريهما فى حياة الطفل بدلاً من تخلى كل منهما عن مسؤولياته كلية .

وإلى جانب هذه الملاحظات الخاصة بالتربية فى جزيرة مانوس ، فإن هناك بعض جوانب تلفت النظر وتوجد بعض التشابه بين المجتمع فى مانوس والمجتمع الأمريكى . فإن كلا من المجتمعين يقدس الكفاح فى سبيل العيش ، ويفضله على معاملة الحياة كفن . وكما هو الحال فى أمريكا نجد أن مجتمع مانوس يحترم العمل حتى إن قيمة الفرد تقاس بمدى نجاحه المادى وكفاحه . أما الشخص الحالم الخيالى الذى يتكاسل عن الخروج للصيد أو للتجارة ، فإنه يكون موضع ازدراء الآخرين فى كل اجتماع أو احتفال ، بل يعتبره الجميع مخنثاً وليس جديراً بصفة الرجولة .

ولا يوجد فى مجتمع مانوس فنانون ، ولكن هذا لا يمنع الجار الغنى من أن يشترى من جاره الفقير ما تصنعه يداه من تحف كما هو الحال فى المجتمع الأمريكى .

ولا يعترف أهل مانوس بأوقات الفراغ وما يتخللها من أحاديث أو قصص أو موسيقى أو رقص أو مطارحة الغرام . فالحديث يجب أن يكون حول موضوع هام ، والقصص يجب أن تكون موجزة مختصرة ، والغناء لا يسمع إلا فى أوقات الملل . أما الرقص فيقام احتفالا بعقد صفقات تجارية ، والصداقة من وسائل التجارة . ولا يعرف الأهالى من أنواع الحب إلا الحب الجنسى بأساليبه البدائية فالرجل المثالى فى مانوس هو الرجل الذى لا يجد وقتاً للفراغ ، فهو دائماً منغمس فى عمله لمضاعفة ثروته .

وإلى جانب هذا الاهتمام الزائد بالعمل وباستثمار الثروة ومضاعفتها ، وتوطيد أواصر العلاقات التجارية وبناء قوارب أكبر ، وبيوتاً أوسع ، نجد اهتماماً مماثلا بالقيم الخلقية . فكما يعجبهم نشاط الشخص فى عمله فهم أيضاً يقدرون الاستقامة فى المعاملات المادية . وإن كرههم الشديد للاستدانة ، وقلقهم إزاء المسؤوليات المالية الواجب عليهم القيام بها لمن الأمور الملحوظة هناك . ولا يقيم الناس وزناً للمجاملات وآداب المعاملة ، فأهم صفة عندهم هى الصدق بلا مواربة أو مجاملة .

وكانت معاييرهم الأخلاقية ذات نوع من الازدواج ، فبينما يسمح لنساء

المانوس بمزاولة البغاء ، إذ بالتعاليم الدينية تطالب بشدة بعفة المرأة المانوسية وشرفها .

وأخيراً فإن دياناتهم فى أصلها ذات اتصال وثيق بالقيم الخلقية ، فهى عبارة عن ولاء روحى لأجدادهم السالفين ، الذين يراقبون حياة أبنائهم المادية والجنسية بشعور ممزوج بالغيرة . وأرواح الأجداد تبارك أولئك الذين يترفعون عن الإثم ويكدون فى سبيل الثراء ، ولكنها تبتلى بالمرض وسوء الحظ أولئك الذين يدوسون على قوانين العلاقات الجنسية أو يهملون فى استثمار أموال العائلة استثماراً ناجحاً . والمثل الأعلى هناك يشبه فى عدة وجوه مبادىء جماعة البيوريتان فهو يتطلب من الفرد الكفاح والحرص ونبذ مباهج الدنيا ، وتبشير المتقين بالغنى والثروة .

وفى هذا المجتمع الحافل بالكد والكفاح ، نجد أن الأطفال ليس لهم أى دور فيه ، بل على العكس نجدهم يقضون سنوات الطفولة فى حرية مطلقة كما أنهم كثيراً ما يشاكسون آباءهم بعناد ، ويحتقرونهم بسبب تساهلهم معهم . وكثيراً ما نقدم لأطفالنا نفس الصورة ، فنحن ومن على شاكلتنا ممن يعيشون فى مجتمع يخلع الحرير على أطفاله بينما تكافح الأم وتشقى فى ثياب قطنية رخيصة ، قد نجد معالم تهمنا فى دراسة تطور ونمو هؤلاء الأطفال البدائيين ، فى عالم أشبه ما يكون بالصورة الكاريكاتورية لمجتمعنا ، إذ أنه عالم يتعامل الناس فيه بعملة من نبات أسنان الكلاب وأصداف البحر : وهو عالم يستثمر فيه الناس ثرواتهم عن طريق الزواج بدلا من إنشاء المؤسسات المالية ، ويسيرون بتجارتهم فى قوارب من الخشب . وهو أيضاً عالم أهم ما يشغل بال أصحابه الممتلكات الخاصة ، والمبادىء الخلقية ، وتأمين مستقبل الجيل القادم .

إن هذا الكتاب نتيجة عمل متواصل استغرق ستة شهور ، وقد تعلمت اللغة القومية هناك خلال إقامتى فى كوخ من القش فى وسط القرية ، كما عرفت الكثير عن ألعاب الأطفال ، وعن بعض غرائب التنظيم الاجتماعى ، والتقليد

الاقتصادى . وألممت بعاداتهم ومعتقداتهم الدينية وشعائرهم مما يضمه الإطار الاجتماعى الذى ينمو فيه الطفل . ففى حجرة الاستقبال الكبيرة ، وفى الشرفات الواسعة ، وفى الجزر الصغيرة الملحقة بالبيوت وفى البحيرة المحيطة بالقرية ، كنت أراقب الأطفال وهم يلعبون أحياناً من خلال الجماعات العابثة أو مختبئة وراء الجدران القش . لقد ركبت قواربهم وحضرت أعيادهم ، وشاهدت جنازات موتاهم ، وجلست ساكنة جامدة حين كان الوسطاء يتحدثون مع أرواح الموتى . ولقد راقبت سلوك الأطفال فى حضور الكبار وفى غيابهم . وفى إطار اجتماعى استطعت أن أحيط بكافة جوانبه ، راقبت ابن مانوس الرضيع والصبى والمراهق وعملت جهدى خلال ذلك على تفهم الطريقة التى ينمو بها كل واحد من هؤلاء إلى شخص بالغ من أفراد القرية .

الفصل الثانى

مشاهد من حياة أهل مانوس

— ١ —

إن العالم بالنسبة للفرد هناك عبارة عن منبسط فسيح ينحدر من أعلى إلى أسفل فى كل جانب ، ومن القرية المشرفة على لسان البحر حيث تقوم البيوت ذات العمد ، والتى هى أشبه ما تكون بطيور طويلة السيقان ، وقفت جامدة لا تحركها التيارات المتدفقة .

وفى الحافة الطويلة للمنبسط نجد الأرض الأصلية وقد علت من بين أطرافها الموشاة بالأحراش ، طبقات متتالية من الطين الأحمر . ويمكن الوصول إلى تلك الأرض عن طريق نصف ميل من البحر الداخل بين الجزر حيث تشق القوارب طريقها بين الشجيرات المتجمعة على امتداد البحر المغطى بالزبد . ويمكن الدخول إلى هذه البقعة أيضاً عن طريق وديان الأنهار الصغيرة المتعرجة التى تشق لها طرقاً منحدرة فى أعماق الأحراش الموحشة . ويسكن فى الأرض الأصلية قبيلة اليوسياى Usiai أو رجال الأحراش ، ويذهب لمقابلتهم رجال قرية مانوس يومياً فى ساعات معينة بالقرب من مصب النهر . وهناك تجد الصيادين الكادحين من مانوس ، وحكام البحيرات الملحة يساومون رجال اليوسياى على شراء نبات التارو ، ونشاء الساجو ، واليام[1] وأخشاب البناء ، والبندق ، وكتل الخشب لصنع هيا كل القوارب . فهم يشترون كل ضروريات الحياة ويدفعون أثمانها سمكا يستبدلونه بكل ما يحتاجون إليه من أهل الأحراش الوديعين ذى السيقان الرفيعة .

وإلى نفس المكان يذهب أهل بيرى Peri للعمل فى رقع متناثرة مزروعة بالساجو سبق أن اشتروها أو سرقوها من اليوسياى . كما يأتى الأطفال للسباحة والاستحمام فى المياه العذبة ، والنساء لجمع الحطب وجلب مياه الشرب .

(١) الساجو نبات كالنخيل ، واليام درنات نباتية تؤكل كالبطاطس (المترجم) .

ويسكن هذه الأحراش بعض البوسياى المنعزلين والحيوانات المشاكسة ، ووحوش البحر الضارية . وبسبب هذه الأخطار يكره أهل مانوس الأنهار والأرض المحيطة بها ويعملون جهدهم على تحاشى النظر إلى المياه الراكدة خشية أن يتخلف أجزاء من أرواحهم فيها .

أما فى الجانب الآخر المنبسط فيوجد شاطىء رملى يقع وراءه البحر العريض وجزر الأرخبيل . ومن هناك تقلع السفن محملة بجوز الهند والزيت والأوانى المصنوعة من الخشب ، والأسرة المزركشة . وعلى مبعدة من جزر الأرخبيل حيث جدار البحر توجد مدينة رابول Raboul عاصمة حكومة الرجل الأبيض فى مستعمرة غينيا الجديدة وعلى امتداد البصر على حافة العالم تقع مدينة سيدنى وهى أقصى بقعة فى الكرة الأرضية يعلم الأهالى عنها شيئاً . وإلى اليمين واليسار على قاعدة المنبسط توجد عدة قرى أخرى يسكنها أفراد من أهل مانوس . وتقوم هذه القرى فى صفوف متراصة تشقها ألسنة من مياه البحر الداكنة . وفى أقصى أطراف المنبسط ينحدر جدار البحر العالى انحداراً متدرجاً ، وعلى القوارب أن تتسلق ذلك الجدار إذا أراد ربانها الملاحة هناك .

ويحيط بأعمدة البيوت الضخمة تيارات جارية اكتسحت فى طريقها رمل البحيرة فتعرى قاعها ، وفى أجزاء أخرى نراها وقد تركت جزءاً من القرية غارقاً فى الطين ، وأحياناً أخرى يعلو الماء حتى يغطى أخشاب أرض البيوت .

وهناك حول أطراف القرية توجد جزر وعرة صغيرة لا تصلح للزراعة ، وهناك تنشر النساء أوراق الأشجار لتجف ويسهل نسجها ، كما ينتقل الأطفال وثباً من صخرة إلى أخرى . وفى أقصى الجزيرة نرى عظام الموتى وقد ابيض لونها من حرارة الشمس .

إن هذا العالم الصغير من سكان الماء ، حيث يقيم الأقارب بيوتهم متلاصقة ، وحيث تتناثر أشجار نخيل الساجو فى أطراف الجزيرة الصغيرة التى ورثوها عن

أجدادهم ، هذا العالم يأوى إليه الأحياء والأموات على السواء ، غير أن الأحياء يحتمون فيه من تقلبات الزوابع والأمطار تحت أسقف بيوت صنعت من البوص . وأما الأشجار وهى ليست ملكاً لأحد فهى تقوم فى أطراف الجزيرة ويستخدمها الأهالى كمروج يعقدون فيها ندواتهم ويقيمون تحتها احتفالاتهم وأعيادهم .

ويلعب الأطفال عادة داخل حدود قريتهم أما إذا كان المد منخفضاً فإنهم ينتظمون فى جماعات تنتشر حول المستنقعات ، ويقذف أفرادها الأسماك الصغيرة بحرابهم أو يقذفون بعضهم بعضاً بحشائش البحر وأعشابه . وحين يرتفع المد ، يتدافع الأطفال نحو الجزر الصغيرة أو إلى داخل بيوتهم بينما يستمر الكبار منهم يسبحون فى الماء أو يلعبون بقوارب صغيرة ، ويظلون فى لهوهم هذا حتى يدفعهم التيار المرتفع إلى ركوب قواربهم الصغيرة ويتسابقون فى مرح فوق صفحة البحيرة وليس هناك ثمة خطر من دخول أسماك القرش إلى مياه الجزيرة من البحر الكبير كما أنه ليس هناك ما يخشى على الأطفال من عدوان التماسيح . وعلى ذلك فإن الرجال لا يجدون حاجة إلى صبغ وجوههم بالألوان كما يفعلون وهم مقبلين على إحدى رحلاتهم فى عرض البحر ، دفعاً للأرواح الشريرة عن مراكبهم .

ويظل الأطفال فى لهوهم طول النهار ، فهم تارة يصيدون السمك أو يسبحون أو يتسابقون بالقوارب وهم خلال ذلك تكون أجسامهم عارية إلا من بعض أحزمة يتمنطقون بها ، وإلا من أربطة يثبتونها فى أذرعتهم مصنوعة من الخرز أو من نبات أسنان الكلاب وهم خلال لهوهم يتدربون على إتقان مهارات آبائهم الذين برعوا فى تسخير المياه وثبتوا سيادتهم على جزر الأرخبيل . وقد تكون هناك بعض الأخطار فى المناطق البعيدة أما فى هذه المنطقة فإن الأطفال يلعبون ويمرحون مطمئنين تحت رعاية أرواح أجدادهم وعيونهم الساهرة .

— ٢ —

اجتمع بعض النسوة فى وسط بيت فسيح ، ونرى اثنتين منهما وقد انهمكتا فى طهى لباب النخيل ونشاء الساجو وجوز الهند فى قدر من الفخار القديم ،

ويجوارها تجلس امرأة ثالثة — وهى عجوز مترملة كما يظهر من طوق الحبال المشدود إلى وسطها ومن مشد الصدر المصنوع من المطاط الأسود الذى شدته على ثدييها — وكانت هذه المرأة تقطف أوراق الشجر وتصنع منها ضفائر تخيط منها جونلات جديدة تضيفها إلى ما انتهت من صنعه بالفعل ، وعلقته فى صف طويل فوق رأسها . ويبدو سقف الحجرة وقد اسود بفعل الدخان المتصاعد من الحطب والأخشاب المحترقة ، والذى كان لا ينقطع خصوصاً وأنهم يتركون النار مشتعلة طول اليوم .

ونرى فوق النار بعض الأسماك معلقة فى رفوف تتأرجح . وعلى حصير من القش يرقد طفل رضيع فى الشهر الأول من عمره . وبالقرب منه أطفال آخرون يلعبون فترة من الوقت ثم يحومون حول صدور أمهاتهم فيرضعون ثم ينطلقون إلى لهوهم ولكن سرعان ما يعودوا مرة أخرى يطلبون مزيداً من الرضاعة . والحجرة مظلمة وجوها حار ، ولا يدخل البيت كله أى متنفس من الهواء إلا ما يتسرب خلال الشقوق الموجودة فى أرض الغرفة ، وإلا من خلال الفجوات بين ألواح خشب الأبواب فى طرفى الدار .

وقد ألقت كل من النساء الموجودات إزارها القطنى الذى تتدثر به عادة عند خروجها من المنزل وتخفى به وجهها عن أهل زوجها من الرجال .

ولحرارة المكان نرى حبات من العرق تتلألأ فوق رؤوس النساء الحليقة اللامعة ، والرأس الحليق علامة على أن المرأة متزوجة .

أما ثيابهن المصنوعة من الخوص والحشائش فهى عبارة عن قطعتين تلبس واحدة من الأمام والأخرى من الخلف وتثبت فى وسط المرأة بحيث تبدو أفخاذها عارية تماماً .

وتبدأ إحدى النسوة الحاضرات فى جمع حبات الخرز الذى كانت مشغولة بلضمه فى خيط وتلتفت إلى طفلة فى الثالثة من عمرها قائلة :

— هيا بنا يا ألوبوا .

فتجيبها الطفلة السمينة وهى تمط شفتيها وتلوى جسدها :

— لا أريد .

— هيا بنا . يجب أن نعود إلى البيت الآن فقد بقينا هنا وقتاً طويلا نصنع الخرز . هيا .

— لا أريد أن أذهب معك .

— بل يجب أن تقومى ، فقد آن وقت رجوع أباك من السوق ، وسيكون جائعاً بعد أن ظل يصطاد السمك طول الليل .

ولكن ألوبوا تعض شفتيها فى تحد بغيظ وهى تقول :

— لن أقوم .

— تعالى يا ابنتى ، فيجب أن نعود إلى البيت فى الحال .

— لن أقوم معك .

— إن لم تقومى الآن فمعنى ذلك أن أعود إلى هنا مرة أخرى لآخذك ، ومن يدرى فقد تكون عمتك فى تلك الأثناء قد أخذت القارب وانطلقت به وحينئذ لن أستطيع الحضور إليك وسوف تبكين وتصرخين . فمن يحضرك إلى البيت وقتئذ ؟

— سوف يأتى أبى ليأخذنى .

هكذا ترد البنت على أمها فى وقاحة .

— سيلومنى أبوك إذا عاد إلى البيت ولم يجدك فيه فهو يكره بقاؤك طويلا مع أقاربى .

هكذا تجيب الأم وهى ترمق بطرف عينها آنية الجماجم المعلقة فى سقف الغرفة حيث توجد جمجمة رب الأسرة .

— لا أبالى .

وتشد الطفلة يدها بعيداً عن أمها التى تحاول أن تجرها معها . وفجأة تستدير الطفلة وتصفع الأم على وجهها . وتضحك النسوة الحاضرات من سلوك الطفلة .

ثم تعقب خالة الطفلة بقولها .

— أولوبا . يجب أن تعودى مع أمك إلى البيت .

ويكون جواب الطفلة صفعة لخالتها هى الأخرى . وتذعن الأم لرغبة الطفلة ، فتسكت وتستأنف لضم حبات الخرز . أما أولوبا فتقفز خارجة من باب البيت وتعود ممسكة بفاكهة خضراء لم تنضج بعد ، يصنع منها الأطفال لعبة النحلة المعروفة . وتبدأ الطفلة فى التهام الفاكهة الفجة وهى تنظر إلى أمها فى خبث .

— لا تأكلى هذا يا أولوبا فهى ضارة بك .

ولكن أولوبا تتحدى أمها وتقضم قطعة أخرى .

— قلت لا تأكليها . ألا تسمعين ؟

وتشد الأم ابنتها من ذراعها محاولة انتزاع الفاكهة من يدها ، وما تكاد تفعل ذلك حتى يعلو صراخ الطفلة وعويلها ، فتترك الأم يد ابنتها فى يأس وتدفع الطفلة بالفاكهة إلى فمها . ولكن إحدى النسوة العجائز تتدخل قائلة للأم .

— لا ينبغى أن تتركيها لتأكلها . إن هذه الفاكهة ضارة وستمرض ابنتك إذا أكلتها .

— خذيها منها إن استطعت ، أما أنا فإن أفعل وإلا فسوف تحقد على .

وتمسك العجوز برسغ الطفلة وتحاول تخليص الفاكهة من قبضتها بين صراخ الطفلة وعويلها .

وإذا بنا نسمع صوت الزوج يصيح فى زوجته :

— يا ابنة كيا !

وتثب الزوجة على قدميها عند سماعها لصوت زوجها وتجمع وشاحها بينما تجمع الأخريات أطراف أوشحتهن خشية أن يدخل زوج قريبتهن عليهن فجأة .

أما أولوبا فتنسى دموعها المنهمرة ، وتجرى إلى الباب فتقفز من السلم إلى الشرفة ثم تخرج إلى الحاجز الخارجى فتثب منه إلى رصيف القارب ، ثم تجرى إلى حافته وتندفع فى سعادة إلى أبيها وتتعلق بساقيه . ويربت الأب على شعر ابنته فى حنو بينما ينظر شذراً إلى زوجته التى تنزل السلم فى وجوم وكآبة .

— ٣ —

الوقت ليلاً فى بيرى Peri ، ولا يظهر من خلال فجوات البيوت أى أثر للنيران المشتعلة . ومن آن لآخر نجد قذيفة من الرماد الملتهب تلقى فى ماء البحيرة مما يدل على أن من الناس من لم ينم بعد .

وفى تلك الساعة كان شبح أسود يتحرك وهو يحمل مصباحاً من البوص أسفل أحد البيوت القائمة فى طرف القرية . ونتبين على ضوء المصباح رجلاً يفتش عن شىء ما فى أحد القوارب . أما فى الخارج ، فى المستنقع القريب من الشاطىء الرملى ، فقد أضاء الصيادون مصابيح من البوص تتراقص شعلها فتضىء المكان . ويمر أحد القوارب منطلقاً فى الممر المائى الرئيسى ثم يقف بهدوء أسفل شرفة البيت . ويقف راكب القارب منتصب القامة وقد استند بمرفقه على الجداف ، وأرهف السمع ، ومن داخل البيت ينبعث حفيف صفير خافت ... إن صاحب البيت يعقد جلسة لاستحضار الأرواح ، وعن طريق صفير الروح الذى يسيطر على فم الوسيطة ، يتم اتصال الأحياء بأرواح الموتى . بعد فترة ينقطع الصفير ونسمع صوت امرأة تقول :

— لقد جاء بوكس Pokus . ولك أن تسأل إذا شئت .

ويتبين السامع كلمة بوكس رغم أن صوت الوسيطة وهى أم الروح يبدو مرهقاً غريباً . وينطق الروح بهذه الكلمات .

إن زوجة بوكاناس Pokanas تدير الجلسة . فيتحدث صاحب البيت بسرعة ويسأل فى لهفة :

— خبرنى يا بوكس ، ما سبب مرض ابنى ؟ لقد طال مرضه . هل السبب إننى بعت الأوانى التى كان يجب أن أحتفظ بها مهراً لابنتى ؟ تكلم واخبرنى .

وينطلق الصفير مرة أخرى ، ثم تقول المرأة الوسيطة فى تثاؤب :

— يقول بوكس أنه لا يعلم السبب .

— إذن فليذهب ويسأل عمى سيلانبلوت Selanbelot الذى آويت جمجمته تحت سقف بيتى . دعيه يذهب ويسأل عن سبب مرض ابنى .

ويعود الصفير ثم نسمع صوت المرأة الخافت :

— يقول إنه سيسأله .

ومن البيت المقابل يرتفع عويل طفل غاضب وتسمع قرقعة خشب الأرض فوق رأس الرجل الواقف فى المركب فتصيح المرأة قائلة بصوت طبيعى .

بوكاناس . استيقظ إن الطفل يبكى . هل نمت ؟ اصغ ابنى يصرخ . اذهب بسرعة .

فيتسلق السلم رجل ضخم وعندما يرى الرجل الواقف فى القارب يصيح به قائلاً :

— من هناك ؟ أهذا أنت يا ساوت Soat خذنى بسرعة فى قاربك فإن الطفل قد استيقظ ولا بد قد أصابه الفزع .

وبينما كان الشاب يجذف بوالد الطفل ، نرى الأرواح تستأنف الصفير مرة أخرى .

— ٤ —

نشاهد هنا رجلا يبدو عليه الإرهاق وقد وقف مستنداً إلى حاجز شرفة بيته . لقد قضى الليل كله فى الصيد ، وكاد يغلبه النعاس أثناء وجوده فى السوق صباحاً . ونراه وقد مشط شعره إلى الخلف وأحاط عنقه بعقد من أسنان الكلاب ومن حلمات أذنيه المنفرجتين تتدلى حلقات من قشر جوز الهند أما أنفه المثقوب فقد نفذ خلاله هلال طويل من المحار . وقد أحكم عباءته حول وسطه بحزام مجدول نقشت عليه نقوش صفراء وبنية . وقد طوق أعلى ذراعه بأطواق من المطاط ألصق فيها قطعاً من عظام ضلوع أبيه . ونرى أمام الرجل فوق ألواح الشرفة الخشبية كيساً من الخوص ، يبرز منه وعاء نقشت عليه رسوم غامضة ، وفى فوهة الوعاء تدلى ملقاط صنعت رأسه على شكل تمساح يلتهم رجلا .

وبعد فترة من الوقت تحرك الرجل ثم دس يده فى الكيس وأخرج منه الوعاء ، وأخرج أيضاً بعض حبات البندق وحفنة من أوراق الفلفل وصار الرجل يضع البندقة فى فمه ثم يطوى ورقة من أوراق الفلفل على هيئة قمع طويل ويقضم نهايتها ثم يغمس الملقاط فى داخل الوعاء ويخرجه وقد اكتسى بمسحوق الليمون ويضيفه إلى ما فى فمه . وبعد ذلك يأخذ فى مضغ الخليط بسرعة وقوة .

وفجأة تهتز أرض الشرفة نتيجة لاصطدام أحد القوارب بعارضتها . وإذ ذاك نرى الرجل يسرع بجمع أوراق الفلفل والبندق ويحاول أن يخفيها من القادم . ولكنه لا ينجح فإن رأساً صغيرة تطل عليه من حافة الشرفة وهى رأس ابنه بوبولى Popoli ، وهو صبى فى السادسة من عمره .

ويتسلق الغلام إلى حيث يقف الرجل والماء يقطر من جسمه ويبدو شعره الطويل وقد طويت بعض خصلاته على شكل دوائر ألصقت الواحدة بالأخرى بالطين الأحمر حتى يحين الوقت لقصها فى احتفال كبير .

لقد لمح الغلام ما كان أبوه يحاول إخفاءه منه ، وها هو يتعلق بحافة الشرفة

ويقول فى لهجة أهل مانوس حين يطلبون بعضاً من البندق :

— أريد بعضاً من البندق !

فيقذف الأب بواحدة لابنه فيمزق الإبن قشرتها بأسنانه ويقضمها بشراهة ثم يقول :

— واحدة أخرى !

ويعلو صوت الغلام فيرمى له الرجل بندقة ثانية ، فيمسكها الغلام بأصابعه المبتلة ويمد يده طالباً بعض أوراق الفلفل . وهنا يقطب الرجل حاجبيه ويقول :

— ليس عندى منه إلا القليل .

فيردد الغلام العبارة التالية جملة مرات :

— بعضاً من ورق الفلفل .

فيقطع الأب ورقة واحدة ويرميها للصبى الذى ينظر إلى حجمها الصغير فى احتقار وهو يقول :

— إنها صغيرة جداً ، قطعة أخرى ! قطعة أخرى ! قطعة أخرى !

ويتعالى صوت الغلام حتى يتحول إلى عواء غاضب .

— ليس عندى إلا القليل يا بوبولى ، ولن أذهب إلى السوق إلا فى الصباح ولما كنت سأرحل عصر اليوم إلى باتوسى Patusi ، فلابد من أن أحتفظ ببعض الطعام معى للرحلة .

ويبدأ الأب فى جمع الأوراق بحزم وتصميم ، ويدسها فى الكيس . وفى هذه اللحظة تنزلق السكين من الكيس وتسقط من خلال أحد شقوق الشرفة وتستقر فى قاع البحيرة .

— بوبولى : ألا تنزل إلى الماء فتحضر لى السكين ؟

ولكن الطفل لا يتحرك من مكانه بل ينظر إلى أبيه فى حنق وغيظ ويجيبه :

— كلا لن أفعل . أنت أيها الرجل الحقير . إنك تخفى عنى أوراق الفلفل .

ويثب الغلام إلى الماء ويسبح بعيداً تاركا أباه ينزل إلى قاع البحيرة ليستعيد سكينه بنفسه .

— ٥ —

فى شرفة مظللة يلعب بعض الأطفال لعبة تعرف باسم « مهد القط » . وفجأة تقول طفلة صغيرة وهى تنظر إلى أعلى ، ناحية أحد البيوت .

— إن مولنج Molung ستموت.

فيسألها صبى وهو ينحنى ليشعل سيجارته من قطعة خشب مشتعلة .

— من الذى أخبرك بذلك ؟

— أمى تقول إنها تحتضر وأن هناك ثعباناً فى بطنها .

ويستمر بقية الأطفال فى لعبهم ، ولا يلقون بالا إلى هذا الخبر ، غير أن طفلة فى الرابعة من عمرها تستأنف الحديث بعد فترة من السكون .

— لقد كان فى بطنها طفلا .

— نعم ولكنه خرج الآن وهو يعيش فى القسم الخلفى من بيتنا وجدتى تتولى العناية به .

— إذن لو ماتت مولنج فستحتفظون بالطفل . . . صه !!

ومن البيت عبر النهر تنطلق صرخات عالية ، وعدة أصوات تندب كلها فى صوت واحد .

يا أمى ! يا أمى ! ماذا دهاك يا أمى ! ؟

ويسأل الصبى الباقين :

— هل ماتت ؟

ويندفع إلى حافة الشرفة ، ولكن أحداً لا يردعليه . «أنظروا !» أنظروا !

ومن مؤخرة البيت الذى ترقد فيه المرأة التى ماتت ينطلق قارب طويل محملا بأوانى وقدور ، وترى فى القارب عجوزاً شاحبة الوجه ، عارية الرأس تسرع به فى اتجاه مجرى الماء .

وتقول الطفلة الأولى حين ترى القارب منطلقاً :

— هذه هى ندرانتش Ndrantche وهى أم مولنج .

فيصيح سائر الأطفال :

— انظروا . إن ندرانتش تمضى وقد حمّلت قاربها بالأوانى والقدور .

وتقبل امرأتان وتطلان من باب البيت وتقول إحداهما للأخرى وهما تراقبان القارب .

— هل رأيت ؟ لقد حملت الأوانى بعيداً حتى لا ينكسر أحدها عند حضور المعزين .

— وتسأل إيتونج Itong الصغيرة قائلة :

— متى تموت مولنج ؟

ولكنها لا تنتظر جواباً وتقفز من الشرفة إلى الماء وتنادى أصحابها « تعالوا لنسبح » .

الفصل الثالث

التربية الأولى

يتعود الطفل على الماء منذ نعومة أظفاره ، فهو يراقب أشعة الشمس وهى تنعكس عليها من خلال ثقوب الألواح التى ينام عليها وهو رضيع ، كما يلاحظ التيارات الجارية تأتى وتروح أسفل البيت .

وعندما يبلغ الشهر التاسع أو العاشر من عمره ، تجلس به الأم أو الأب فى نسيم العصر فى الشرفة الصغيرة فتعتاد عيناه مرور القوارب ومشهد القرية القائمة فوق صفحة البحيرة .

وعندما يكمل السنة الأولى من عمره ، يكون قد تعلم كيف يتعلق برقبة أمه وأن يركب بأمان فوق ظهرها وهى تجوس به خلال البيت أو تزحف به تحت الرفوف الواطئة ، أو تتسلق سلالم الشرفة صعوداً وهبوطاً .

وإذا أفلتت قبضة الطفل من حول رقبة أمه أو تراخت يداه ، رمقته أمه بنظرة تحمل معانى الغضب ثم تعيد وضعه فوق رقبتها . وبهذا يتعلم الطفل كيف يكون يقظاً دائماً وكيف يتشبث بأمه فى قوة وثقة . وأخيراً ترى أمه ألا بأس من حمله فى القارب حيث تجذف والطفل متعلق فى رقبتها . وإذا هبت ريح مفاجئة أو انحشر الجداف فى إحدى الصخور ، فقد يختل توازن القارب ويقذف بالأم وطفلها فى الماء .

والماء بارد مظلم ، ومذاقه ملحى مر ، ويكون هبوطهما إلى القاع مفاجئ للطفل . غير أن التدريب الذى تم فى البيت يؤتى ثماره فى هذه اللحظة فإن الطفل يتشبث بأمه حتى تصلح من وضع القارب وتصعد إليه من الماء .

وقد يعتاد الطفل مرأى الماء فى سن مبكرة عن هذه فإن أرض البيت مصنوعة من الألواح المصفوفة ، وقد ينكسر بعض هذه الألواح ، أو يتحرك من مكانه الأصلى وتظهر فجوات واسعة بينها . وأحياناً قد يزحف الطفل فوق إحدى هذه الفجوات و يسقط منها إلى الماء البارد المتربص أسفل البيت . ولكن الأم تكون دائماً بالقرب من طفلها ، ولا يمكن أن يلهيها أمر من الأمور عن ملاحظته . ففى لمح البصر ترى الأم خارج المنزل ثم فى أسفل السلم ثم فى البحر حيث تلتقط طفلها وتأخذه بين ذراعيها وتعيد إليه الطمأنينة وتدفئه بجوار النار . ورغماً عن سقوط عدد كبير من الأطفال من خلال تلك الشقوق ، إلا أننى لم أسمع مطلقاً عن غرق أى طفل فى إحدى هذه الحوادث . وقد أدت رؤية الأطفال المتكررة للبحر إلى زوال أى أثر للفزع منه . ورغماً عن تغطيس أهل مانوس لأطفالهم فى سن مبكرة إلا أن إغراء البحر هناك له نفس السحر والقوة التى تتكون إزاء المروج الخضراء لدى أطفالنا فهو يغريهم دائماً على المغامرة والاستكشاف .

وخلال الأشهر الأولى من مصاحبة الطفل لأمه فى جولاتها بالقرية ، يظل الطفل راكباً فى هدوء فوق رقبتها أو جالساً فى تجويف القارب بينما تمسك الأم بالمجداف وتقف على بعد قد يبلغ عشرة أقدام من موضع الطفل . وقد تعلم الطفل مما مر به من أخطار أن يجلس فى سكون فلا تجد الأم حاجة إلى ربطه بالأحزمة الواقية لتشده إلى مكانه . ثم إنه إذا حدث وانكفأ الطفل فى الماء فلن تحدث كارثة فالسقوط فى الماء لا يؤذى ، والأب أو الأم دائماً على بعد خطوات لإنقاذه .

ولا يؤتمن الأطفال الكبار أو حتى الشبان على العناية بطفل لم يبلغ الثانية أو الثالثة من عمره . فالآباء يتوقعون من أطفالهم سرعة التكيف البدنى ولكنهم فى الوقت ذاته لا يعرضونهم لأخطار لا مبرر لها . فلا يسمح لأى طفل بأن يتعدى حدود رقابة الكبار ودائرة رؤيتهم .

وهكذا يتعود الطفل أن يقع فى الماء و يغطس فيه ، وأن تتشابك أعشاب

البحر حول جسمه وأطرافه ولكن ما يصادفه فى أثناء ذلك من حوادث ليس من الخطورة بحيث يخيب ظنه فى سلامته فى العالم الذى يعيش فيه .

ورغماً عن أن الطفل لا يزال قاصراً عن السيطرة على المهارات الجسمية المختلفة التى تيسر له الراحة والأمن فى الماء ، إلا أن والديه لديهما هذه السيطرة ، فإن الإقامة فى قرية بحرية طول حياتهما ، جعلتهما بمأمن فيها . فهما يدركان تماماً مواضع أقدامهما ، وتقديرهما لا يخيب ، وأيديهما تتحرك وتعمل بسرعة وثقة . ولا يمكن أن يقع طفل من أمه فهى لا تدعه ينزلق من بين ذراعيها ، ولا تصدم رأسه أبداً بأحد الأعمدة أو الأرفف . لقد قضت حياتها تعبر حواف القوارب التى قد لا يزيد عرض حافة الواحد منها على بوصة كما أنها تقدر المسافة بين قوائم البيت تقديراً صحيحاً بحيث تقود قاربها بينها بدون أن يصطدم هيكله بإحدى تلك القوائم . كما أنها تعودت أن تحمل الأوانى الخزفية الرقيقة وهى مليئة بالماء من رصيف القوارب ثم تتسلق بها السلم المتأرجح ولا تطرف لها عين .

كذلك فى عناية الأم بطفلها لا تسمح لنفسها بارتكاب أية حماقة . فكل حركة من حركاتها فيها تأكيد لسلامته ، وفيها محو لأى مخاوف قد تساوره فى بداية تدريبه . ولذلك كانت ثقة الأطفال فى أبويهم لا حدود لها ، فالطفل يلقى بنفسه من أى ارتفاع وهو واثق كل الثقة أن أباه أو أمه سوف يتلقاه فى أحضانه بسلام .

وإلى جانب رعاية الأبوين ورقابتهما المستمرة نجدهما يصران على قيام الطفل بكل ما فى طاقته من قدرة حتى يكتسب أحسن لياقة بدنية ممكنة . ويلاحظ الوالدان كل ما يحرزه الطفل من تقدم و يقارنانه بتقدمه السابق .

ولا يحدث أن يمشى الطفل بضعة خطوات ثم يرفض المشى بعد ذلك عدة شهور لأنه وقع أثناء مشيه وأصيب فى أنفه بكدمة ، وما ذلك إلا لأن أسلوب

الحياة الخشنة يحتم على الطفل أن يعتمد على نفسه فى وقت مبكر . وإلى أن يجيد الطفل التحكم فى حركاته والتصرف بجسده فلن يكون فى مأمن سواء فى البيت أو فى القارب أو فوق الجزر الصغيرة . وفى تلك الفترة تظل أمه أو إحدى قريباته ، عبدة له فهى دائماً بالقرب منه ، ولا تتركه يغيب عنها لحظة . وعلى هذا فإن الكبار يشجعون كل تحسن يبديه الطفل فى حركاته ويحثونه على الاستزادة منه .

وكثيراً ما يلتف جمع من الرجال والنساء حول أحد الأطفال وهو يخطو أولى خطواته ، يرقبونه ويشجعونه ولكنهم لا يستاءون إذا أخطأ الطفل أو وقع على الأرض . بل على العكس يسرع واحد من الحاضرين فيساعده على النهوض ، ويشجعه لكى يحاول مرة ثانية .

والوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها الطفل أن يستحوذ على انتباه الحاضرين وإعجابهم ، هى أن يحاول مرة أخرى ، وعلى ذلك لا نجد طفلا يرثى لنفسه بل يجاهد ويعاود المحاولة المرة بعد المرة .

وبمجرد أن يصبح فى استطاعة الطفل أن يخطو بضع خطوات متعثرة . فإنه يحمل إلى الماء والمد منخفضاً حيث لا يزيد عمق البحيرة عن بضع بوصات ، وهناك يجلس الطفل ويلعب فى الماء ، أو يخطو بضع خطوات فى الطين الرخو . وتكون أمه دائماً معه كما أنها لا تدعه يتمادى فى هذه المحاولات لئلا يصيبه التعب . وكلما تقدم الطفل فى النمو ، سمح له بأن يخوض الماء أثناء انخفاضه ، على ألا يقترب من المناطق العميقة إلا بعد بلوغه السن التى تمكنه من تعلم السباحة . غير أن الإشراف والرقابة المشددة لا يشوبهما أى تراخ . فالأم دائماً على مقربة من طفلها حتى إذا وقع فى أى مأزق سارعت لتخليصه منه . وهى لا تؤنبه أو تزجره أو تنهاه ، بقائمة من الممنوعات ، فإن عالم اللعب قد نظم بصورة تسمح بالأخطاء الصغيرة التى تعلم الطفل كيف يكون أكثر دقة وحرصاً فى المرات القادمة . أما الأخطار الجسيمة فمحظورة عليه إذ قد يترتب عليها فزع دائم له أو كبت لنشاطه . فهو كالبهلوان الذى يمشى على الحبال ويؤدى حركات بهلوانية

نراها نحن غاية فى الصعوبة بالنسبة لصغار الأطفال ، ولكن الحبل الذى يمشى عليه قد نصبت تحته شبكة من حرص الوالدين ويقظتهما .

وإذا كنا ننزعج لمرأى طفل صغير يجلس فوق حافة القارب بمفرده ولا شىء يحميه من الانكفاء فى الماء ، فإن نفس الشعور لابد وأن ينتاب أحد أهل مانوس لدى رؤية الأم الأمريكية وهى تحذر ابنها البالغ العاشرة من عمره من أن يدس يده تحت الكرسى المتأرجح أو من أن يطل برأسه من نافذة العربة .

ومن الأشياء غير المقبولة الممقوتة أيضاً هناك ، محاولتنا أن نعوّد الأطفال على النزول فى البحر عن طريق غمر رأسهم فيه فإن صورة الشخص البالغ وهو يدفع بالصغير إلى الماء رغماً عنه ، مستغلا فى ذلك تفوقه الجسمانى عليه تملؤهم بالامتعاض ، وهم محقين فى شعورهم هذا . وقد نظن أن تعلم الطفل للسباحة وهو لم يزل فى الثالثة من عمره ، أو القفز من شجرة إلى أخرى بخفة القرود قبل تلك السن ، إنما هى أعمال أرغم الطفل على أدائها ولا دخل لإرادته فيها . والواقع غير ذلك تماماً . وما هو إلا مجرد مثابرة هادئة من الأبوين على أن يستغل طفلهما كل طاقات جسمه الكامنة .

كما أن الطفل لا يتعلم السباحة دفعة واحدة وإنما يبدأ الصغير فيخوض الماء مقلداً إخوته الأكبر منه سناً ، وبعد أن يغمره الماء حتى وسطه ، يبدأ فى ضرب الماء بيديه . ويلاحظ أن قدرة الطفل على المشى وقدرته على تعلم السباحة تسيران جنباً إلى جنب حتى أن هناك تعويذة تقرأ حول المرأة عندما تضع مولوداً جديداً تقول « عسى ألا تلدى طفلا آخر حتى يستطيع هذا الوليد أن يمشى ويعوم »

وحالما يستطيع الطفل السباحة بسرعة ولو بضربات عشوائية غير منتظمة ، فإنه يتسلم زورقاً صغيراً خاصاً به ويبلغ طول هذه الزوارق الصغيرة خمسة أقدام أو ستة والزورق أشبه بآنية مجوفة من الصعب تحريكها ومن السهل انقلابها فى الماء.

ويبدأ الطفل فى اللعب بزورقه طول النهار ، ويكون عادة فى صحبة أطفال أكبر سناً بعام أو أكثر . فهو يجذف أو يتسابق ، أو يصنع من زورقه وزوارق أصحابه قافلة ، وأحياناً تنقلب بهم الزوارق فيعيدون وضعها ثانية بين صيحات المرح والسرور . وهم لا يأبهون لحرارة الشمس ولا يحاولون أن يتقوها بدخول البيوت . كما أن المطر مهما كان قوياً لا يؤثر فيهم وإن كان يغير من طابع ألعابهم إلى نوع جديد غريب .

وهكذا نجد أكثر من نصف وقت يقظة الأطفال يقضونه فى الماء فهذه هى دنياهم ، التى يألفونها ويأنسون إليها .

وبعد أن يتعلم الأطفال السباحة ، يصبح فى مقدورهم أن يتسلقوا حوائط القوارب الكبيرة فيقفون على مقدمتها ويثبون منها إلى الماء فيغيبون فيه ثم يظهرون مرة أخرى من الجهة الأخرى للقارب أو يسبحون وهم ممسكين بحافة القارب بإحدى اليدين . ولا يرى الآباء أى داع للاسراع بقواربهم وحرمان الأطفال من هذا اللعب المفيد .

والخطوة التالية فى إتقان المهارات البحرية ، تأتى حين يحاول الصغير تعويم القارب الكبير . ففى الصباح الباكر نجد ممرات القرية وقد غصت بالقوارب يجلس فيها الكبار صامتين ، بينما يحاول ثلاثة من الأطفال مثلا أن يحركوا القارب الذى يبلغ طوله ثلاثة أو أربعة أضعاف طول كل منهم . ويبدو هذا المنظر لأول وهلة وكأن الراكب الكبير يستعرض نفوذه على هؤلاء الصغار بطريقة سخيفة ، ويستغل مجهودهم بطريقة مبالغاً فيها . فإن الأب يجلس فى وسط القارب غير مهتم بما يجرى حوله ، وهو عادة رجل قد يبلغ طوله خمسة أو ستة أقدام ويزن حوالى مائة وخمسون رطلا . أما القارب فطويل ثقيل ، وقد نحت من الخشب الغليظ ، ويزيد من صعوبة تحريكه عدم تناسق هيكله . وفى طرفه نجد طفلا صغيراً قد وقف على حافته وقد تقوست قدماه لتقبضا على الخشب حفظاً لتوازنه ، وقبض فى رجولة على مجداف القارب الذى يبلغ طوله ستة أقدام .

ويبدو الطفل لضآلة حجمه بالنسبة إلى حجم القارب وكأنه تمثال صغير أقيم على الدفة لتزيينها ، لا ليكون الملاح الذى يوجه القارب ويحركه . ويتحرك القارب فى بطء شديد ، رغم المجهود الكبير الذى يبذله الغلام ، ويجول فى أنحاء القرية مع غيره من القوارب ، وكلها قامت على مجهودات الصغار الذين لا يزالون يتعثرون فى خطاهم الأولى .

والعملية ليست عملية استعراض لنفوذ الكبار على الصغار ، كما لا يقصد بها إرهاق الأطفال وإنما هى جزء من برنامج تدريبى كبير لتشجيع الأطفال على أن يبذلوا كل مافى طاقتهم من إمكانيات عضلية .

والأب يكون عادة فى عجلة من أمره فلديه الكثير من الأعمال التى لا بد من إنجازها أثناء النهار ، وقد يكون على أهبة السفر إلى ما وراء البحر ، أو قد يكون مشغولا بإعداد احتفال كبير ؛ وتسيير القارب فى الممر المائى جزء من طبيعته وهى عملية أسهل عنده من السير على قدميه . ومع كل هذه الاعتبارات فإنه يترك هذه المهمة لطفله الصغير لأنه يريده أن يشعر بأهميته وبقدرته على القيام بهذا العمل . ومن أجل هذا السبب يتقهقر الأب إلى وسط القارب فيجلس فيه تاركا مهمة تحريك القارب لطفله الصغير ، ويجب أن نشير هنا إلى أن الطفل لا يعاقب أو يؤنب إذا أخطأ فى توجيه دفة القارب ، بل إن الأب يبدو وكأن ما يجرى حوله لا يعنيه فى قليل أو كثير . أما أول ضربة صائبة تقود القارب إلى الاتجاه الصحيح فإنها تقابل بالإعجاب والثناء .

والعبرة فى تدريب الطفل بالنتيجة ، فالأطفال فى مانوس معتادين على الماء فهم لا يرهبونه ولا يخشون خطره وقد تعلموا حسن التقدير ، وسرعة التصرف والقدرة البدنية مما واجهوه من صعوبات . وليس هناك طفل أتم الخامسة من عمره ولم يتعلم السباحة بعد ، وإذا وجد مثل هذا الطفل عده الناس متخلفاً ، بالضبط كما يعتبر الطفل تحت المستوى الطبيعى إذا بلغ الخامسة ولم يتقن المشى بعد .

وقبل ذهابى إلى مانوس كانت تساورنى مشكلة كيف أستطيع أن أجمع الأطفال فى مكان واحد ؟ وقدرت أن لا بد من استخدام قارب يجمعهم كل صباح ويحضرهم إلى . ولكن لم يكن هناك موجباً لهذا القلق فالطفل يعرف طريقه إلى أى مكان سواء بالانتقال من بيت إلى بيت أو فى قارب كبير أو فى زورق أو عن طريق السباحة وهو قابض على سكينة بين أسنانه .

ويتبع الكبار نفس الأسلوب التشجيعى فى تدريب الأطفال على التكيف لنواحى الحياة الأخرى ، فهم يهللون لكل تقدم يحرزه الطفل ، ويصفقون لكل محاولة جديدة ينجح فيها . أما المحاولات التى يبالغ فيها الطفل فإنهم يصرفون نظره عنها فى رفق ، كما أنهم يغفرون أخطاءه الصغيرة أما الأخطاء الجسيمة فيعاقبونه عليها . فمثلا إذا تعلم الطفل المشى ثم حدث أن انزلقت قدمه واصطدمت رأسه بالأرض ، فإن أمه لا تسرع اليه لتحمله فى لهفة وتجفف عبراته بقبلاتها ، فإن هذا السلوك سوف يربط فى ذهنه ربطاً أبدياً بين الفشل الجسمانى وحنان الكبار وحدبهم عليه ، وإنما يحدث العكس فهى تلومه على تعثره وإن دل سلوكه على عناد أضافت إلى تأنيبها له صفعة على وجهه . وإذا كان وقوعه أثناء مشيه فى القارب أو فوق حاجز الشرفة ، فإنها تعبر عن تقززها من غبائه بأن تقذف به إلى الماء لكى يتعظ من سوء تقديره .

ولهذا السبب فإن الطفل إذا زلت قدمه مرة أخرى ، لا ينتظر ممن حوله أن يسرعوا اليه كما يفعل أطفالنا بل إنه يسرع بالنهوض وهو يرجو ألا يكون أحد من الكبار قد لاحظ ما حدث له .

وسلوك الكبار إزاء تعثر الطفل على ما يبدو فى ظاهره من قسوة وخلوه من الشفقة ، إنما يساعده على سرعة التحكم فى حركاته ، وتنظيمها . والطفل الذى لم يبلغ المستوى العادى فى الكفاية لا يظهر مستواه هذا إلا فى بعض المهارات التى يقوم بها الصبية المماثلين له فى العمر كرمى الرمح مثلا حيث لا يتقنه إلا الأقلية .

أما النشاط اليومى العادى كالسباحة والتجديف وتسلق الأعمدة وما شاكلها ، فيبلغ جميع الأطفال مستوى عالياً من المهارة فيها . ولا يوجد بالغ تنقصه المهارة الحركية أو اللياقة البدنية . ويميز أهل مانوس بسرعة هذه الفروق الفردية من المهارة أو المعرفة ، وهم لا يترددون عن تحقير الشخص الغبى أو البطىء الفهم أو ضعيف الذاكرة . أما الثقل فى الحركة والرعونة فيها clumsiness فليس لديهم وصف يصفونها به لأنها ليست معروفة أصلا بينهم ، فهم يعبرون عن قلة دراية الطفل بأنه لم يفهم بعد ، أما كونه لا يستطيع التحكم فى جسمه أو زورقه فهذا ما لا وجود له .

نحن نلاحظ أن تعلم المشى يسبب جملة متاعب فى مجتمعات كثيرة . فمنذ اللحظة التى يقف الطفل فيها على قدميه ، لا يكف عن العبث بكل ما يصادفه فهو يكسر الأطباق ، ويسكب الحساء ، ويمزق الكتب ويعقد الخيوط ، ويتلف كل ما تقع عليه عيناه . أما فى مانوس حيث يقدسون الممتلكات الشخصية ، فالشخص يندب ممتلكاته إذا فقدها كما يندب ميتاً عزيزاً ، فإن الطفل يتعلم احترام ممتلكات الآخرين من السنة الأولى من عمره . وقبل أن يتمكن من الوقوف على قدميه ، يعنف بشدة إذا لمس أى شىء لا يخصه . وكثيراً ما ملات الإنصات إلى إحدى الأمهات وهى تؤنب طفلها الصغير لأنه عبث فى حاجياتنا .

— « ليس هذا ملكك — ضع هذا الشىء من يدك — إنه لا يخصك — هذا ملكا لبياب Piyap ، وهذا ملك لبياب ، وهذا أيضاً ملك لبياب . ضعه على الأرض .... الخ » .

ولكننا جنينا ثمار هذا التحذير المتواصل فقد بقيت حاجياتنا سليمة لم تمس وكان من بينها علب الطعام الملونة باللونين الأحمر والأصفر الجذاب . كذلك ظلت أدوات التصوير ، والكتب بمأمن من عبث الأيدى الصغيرة بين سن

الثانية والثالثة . ولو كنا فى مجتمع آخر لوجد صغاره فى أدواتنا صيداً ثميناً ولكانت كتبنا ميداناً لعبثهم .

واهتمامهم بالتفوق الجسمى لا يدانيه إلا اهتمامهم بتدريب الأطفال على احترام ممتلكات الغير ، فهم لا يتهاونون فى هذين الأمرين بل يصرون على أن يتصرف الطفل بما يتوقعونه منه . ولذلك لا يحاولون مطلقاً أن يضعوا أشياءهم بعيدة عن متناول يديه ، فالأم مثلا تنثر حبات الخرز الملونة على حصيرة أو وعاء على مقربة من طفلها الذى بدأ يحبو والذى حذر من أن يمسها . حتى الكلاب فى مانوس تتدرب على ألا تقترب من الأسماك الملقاة على الأرض لمدة تزيد على الساعة ، فإذا كان هذا هو سلوك الكلاب فلا داعى إطلاقاً لاستثناء الأطفال من القاعدة .

والطفل المهذب هو ذلك الذى لا تمتد يداه إلى ما لا يخصه . هذه هى القواعد الأساسية للسلوك السوى ، وكما أن المهارة البدنية التى تتوفر للأطفال تسمح للكبار بأن يتركوهم بدون رقيب ، كذلك التربية الحازمة بالنسبة لاحترام ممتلكات الآخرين تجعلهم يأتمنون الأطفال مهما كان عددهم على أن يلعبوا فى أى بيت غاصاً بالأشياء الثمينة بدون أن تمتد يد أحدهم إلى الأوانى أو الأسماك المقددة ، المعلقة فوق الرفوف ، ولن يفكر أحدهم فى أن يخطف عقداً من قروش المحار ويقذف به إلى البحر فى حمى معركة بينه وبين أقرانه . وأقل تلف يحدثه الطفل ، ينال عليه أشد أنواع العقاب . وقد حدث ذات يوم أن رسا قارب قادم من قرية أخرى بالقرب من إحدى الجزر الصغرى ، فما كان من ثلاث بنات فى الثامنة إلا أن تسلقن ظهره ونزلن إلى قاعه فعبثن بما فيه وألقين بوعاء كان بالقارب إلى الماء فاصطدم بحجر وانكسر ، فما كان من القرية إلا أن باتت ساهرة طول الليل يجلجل فيها قرع الطبول ويتناوب الرجال إلقاء الخطب الملتهبة يلعنون فيها الجناة الصغيرات ، وينعتوهن بأقسى النعوت . ويعلنون تبرؤهم منهن . كما تحدث آباء البنات المذنبات فأعربوا عن عارهم مما حدث ووصفوا عقابهم لبناتهم . أما أصدقاء الجناة الثلاث فبدلاً من إبداء إعجابهم بما قمن به من مغامرة ،

فإنهم تحاشوا أن يخالطوهن فى أنفة وازدراء ، وصاروا يسخرون منهن ويرددون سخريتهم فى أناشيد جماعية .

فكل إهمال يعاقب من تسبب فيه ، ولا يفرق الوالدان إذا كسر الطفل إناء قديماً مليئاً بالكسور والشروخ وبين كسره لإناء ثمين ، فالعقاب واحد فى كل من الحالين وهو عقاب صارم شديد . أما عندنا فنحن نتغاضى عن عبث الطفل إذا مزق دليل التليفون أو نتيجة الحائط ، ونصفعه إذا مزق الكتاب المقدس ، مما يجعل الطفل فى حيرة من أمره إزاء هذا السلوك المتناقض من جانبنا . أما فى مانوس فإن إتلافه لذيل سمكة أو لقطعة من نبات التارو أو لبندقة نصف فاسدة ، يستوجب عليه نفس العقاب الذى ينزل به إذا كسر وعاء الطعام الذى يستخدم فى الولائم الرسمية .

ويوجد نفس الحزم والشدة بالنسبة إلى السرقة فقد كانت هناك بنت تبلغ الثانية عشرة من عمرها تدعى منتون Mentun ، وقد قيل إنها لصة ، وكان الأطفال الآخرون يعيرونها بهذه الوصمة . ولماذا ؟ لأنها شوهدت تلتقط بعض أشياء كانت طافية فوق سطح الماء كفضلات الطعام ، أو ثمرة من ثمار الموز تكون قد سقطت من أحد البيوت القريبة . فجريمتها أنها أخذت هذه الأشياء بدون أن تمر على البيوت القريبة لتسأل أصحابها إن كانت تخصهم ، فكونها أخذت هذه الأشياء يعنى فى عرفهم أنها سرقتها ، وعلى الفتاة أن تكون فى غاية الحذر طيلة الشهور القادمة كى لا تتهم بسرقة كل شىء يفتقده أصحابه فى السنوات المقبلة . وقد كان يثير دهشتى سلوك الأطفال حين يلتقطون بعض ما أرميه من أوراق فى الشرفة أو الجزيرة الصغيرة فيجمعونها رغم شدة رغبتهم فيها ويعودون بها إلى متسائلين .

— بياب هل تريدين هذه الأوراق أم لا ؟ . قبل أن يحملوها ويلعبوا بها .

إن أبواب المعرفة التى يجب على الأطفال أن يتقنوها هى « فهم البيت » ، « فهم النار » ، « فهم القارب » ، « فهم البحر » .

أما « فهم البيت » فهو يشمل الحذر عند المشى فوق أرض الغرفة ، فقد تكون ألواحها غير سليمة ، والقدرة على تسلق السلم أو العمود المدرج من الشرفة إلى أرض البيت ، وإزاحة لوح من ألواح أرض الغرفة إذا أراد الطفل البصق أو التبول أو القاء بعض المهملات فى البحر ، كذلك يتضمن « فهم البيت » احترام أى شىء يجده الطفل ملقى على الأرض ، وعدم العبث بما فوق الرفوف ، أو فى أى مكان بالبيت لئلا تسقط فوقه تحت ثقله ، والحذر من تلويث البيت بالطين والأقذار .

وتوضع النار فى مدفأة أو أربعة مدافىء صفت كل اثنتان منهما على امتداد الحائط الجانبى على مقربة من وسط البيت وتبطن المدفأة بطبقة سميكة من رماد الخشب فرشت على قاعدة من الحصير الثقيل وأحيطت بكتل من الخشب الجامد . وتبلغ مساحتها ثلاثة أقدام مربعة ومن وسط المدفأة رصت أحجار من الحجم الكبير لكى توضع فوقها قدور الطعام . ويطهى الطعام فوق قطع صغيرة من الخشب ، ولكن يضاف إلى النار بعد ذلك كتلا أكبر لتبقى مشتعلة للتدفئة . وقد رصت أخشاب الحريق فى عناية فوق رفوف واطئة تحيط بالمدفأة . أما على النار فإن ثمة بعض الأسماك تتأرجح ليجرى تجفيفها .

ويشمل « فهم النار » إدراك أن النار تحرق الجلد والبوص والأخشاب الرفيعة ، والقش ، وأن الرماد يزداد اشتعالا كلما نفخ فيه . كما يشمل إدراك أن ذرات الرماد إذا أريد نقلها من مكان إلى مكان فيجب أن يتم ذلك بعناية حرصاً على عدم سقوطها منا أو لمسها لأى شىء . وكذلك يتضمن « فهم النار » أن الماء يطفئها . ولا يشمل « فهم النار » إيقادها بواسطة المنفاخ فهذه من المهارات التى تأتى متأخرة فى حياة الأطفال حين يبلغون الثانية عشر أو الثالثة عشر .

ومهمة إشعال النار ليست من واجبات النساء فالرجال يقومون باشعالها ، أما النساء فقد يساعدن بأن يحمين الشرار من أن يتطاير بأن يظللنه بأكفهن

ويأتى « فهم القارب » و « فهم البحر » متأخراً بعض الشىء بعد فهم البيت والنار ، اللذان يشكلان جزءاً من بيئة الطفل منذ ساعة مولدة . ويقدر نجاح الطفل فى فهم القارب إذا أمكنه أن يحفظ توازنه ، ويثبت قدميه على حافتى القارب الدقيقتين وسار بالقارب وأحسن التجديف وسط عاصفة متوسطة العنف أو إذا مرق بقاربه أسفل جدار أحد البيوت بدون أن يصطدم به . أو إذا أمكنه أن يلتقط القارب من وسط قافلة من القوارب تقف محتشدة حول رصيف أحد البيوت أو شاطىء إحدى الجزر كذلك لابد وأن يستطيع أن يؤرجح القارب بحركات متتابعة إلى الأمام والخلف بحيث تميل كل من المقدمة والدفة على التوالى .

ولا يستلزم فهم القارب أية معلومات عن الملاحة . أما « فهم البحر » فهو يشمل السباحة والغطس ، والسباحة تحت الماء ، ومعرفة طريقة إفراغ الماء من الأنف والفم وذلك بإمالة الرأس إلى الأمام والضرب على مؤخرة العنق . ويتقن الأطفال بين سن الخامسة والسادسة هذه المهارات الأربع .

أما النطق فإن الأطفال يتعلمونه عن طريق لعبهم مع الكبار ، وهم لا يؤمنون بفكرة تلقين الأطفال دروساً شكلية ، وإنما هم يتبعون وسائل اللعب الذى يأتى عفواً ويساعد فى ذلك ولع البالغين بترديد نفس الكلمة على مسمع من الصغار . فمن الملاحظ أن لغات هذه المناطق تلجأ إلى تكرار نفس اللفظ لتأكيد بعد المساحة أو العمق أو أية صفة من الصفات . ومثال لذلك إذا كان المتحدث يريد أن يقول أن شخصاً ما ذهب إلى مكان بعيد ، فإنه يعبر عن البعد بتكرار كلمة ذهب فيقول « ذهب ! ذهب ! ذهب ! » أو يعبر عن الضخامة بقوله « كبير ! كبير ! كبير ! » ففى إحدى القصص العادية تسمع هذه العبارة من راوية القصة — « ... وهكذا ذهب الرجل . ذهب . ذهب . و بعد مضى فترة من الوقت صارت الدنيا مظلمة . مظلمة . مظلمة . فوقف الرجل . وقف . وقف . وقف . وعند ما انبلج الصباح وصحا الرجل من نومه أحس فى حلقه بجفاف . بجفاف . بجفاف ، فذهب

يبحث عن الماء . يبحث . يبحث ، ولكنه لم يجد شيئاً يشرب به . وأحس بالغضب الغضب . الغضب ... » !!

وبالرغم من أن هذا التكرار مقصود به تأكيد صفة الشخص أو الشيء ، إلا أنه كثيراً ما يخرج عن وظيفته الحقيقية ويصبح عادة فى كلام الراوى ، ولذلك فكثيراً ما نسمعه يقول « ... ثم قابل امرأة كانت تدعى سين Sain . سين . سين » ، وأحياناً يكرر حرفاً أو مقطعاً معيناً وأحياناً تحتشد جماعة وتلتقط إحدى العبارات وتكررها أو ترددها فى صورة أغنية يعيدونها المرة بعد المرة . ويظهر هذا بوضوح إذا حدث ونطق شخص إحدى العبارات بطريقة غنائية أو بصورة تختلف عن باقى عبارات الحديث . وحتى العبارات العادية مثل « لم أفهم » . أو « أين قاربى » قد تتحول بهذه الطريقة إلى أنشودة يرددها الجميع عدة دقائق .

وحب التكرار هذا يهيىء جواً نادراً يتعلم فيه الطفل الكلام بسهولة . ولا يبدى الكبار مللاً من سماع بضعة كلمات ينطقها الطفل خطأ ، وإنما هم يجدون فى هذه الأخطاء فرصاً لإشباع ولعهم بالتكرار . فإذا قال الطفل « أنا » رددها البالغ بعده مرات ومرات بنفس النغمة .

ولقد أحصيت ذات يوم عدد مرات تكرار نفس الكلمة فأربت على الستين ، لا فرق فى ذلك بين الكلمات ذات المعنى والكلمات التى لا معنى لها . وبعد المرة الستين لم يظهر على الطفل ولا على البالغ أى أثر للضجر أو المضايقة . وعن طريق تكرار ما يقرب من عشرة كلمات ، يربط الطفل واحدة منها ككلمة « أنا » مثلا أو « بيت » بالشخص الذى اشترك معه فى اللعبة ، عمه مثلا أو عمته . وكلما لمح هذا العم أو العمة ماراً بقاربه صاح فيه قائلا « أنا » أو « بيت » راجياً فى نفسه أن يأتى العم ويستأنف لعبة التكرار مرة ثانية . ولا يخيب العم ظنه بل إنه يشعر بنفس السرور الذى يشعر به الطفل ويظل يردد كلمة « أنا » أو « بيت » وهو ماض بقاربه حتى يغيب عن أنظار الطفل .

وتنادى البنات الصغيرات بكلمة « إينا » Ina ويطلق على الأولاد الصغار إحدى الكلمتين « إينا » أو « بابو » "Papu" ويجيب الطفل نداء الكبار بكلمة « إينا » أو « بابو » . [وبهذا استعمل مترادفان لا يوجدان فى نظام القربى الرسمى] .

وما يقال عن تعلم الكلام ينطبق أيضاً على التعبير . فالكبار يلعبون مع الأطفال ألعاباً تعتمد على تقليد الحركات حتى تتكون لدى الطفل عادة التقليد التى تبدو لأول وهلة وكأنها مفروضة عليه . ويصدق هذا القول على تقليد تعبيرات الوجه ، كالتثاؤب ، وإغماض العينين ، وتقطيب الحاجبين ، وزم الشفتين . وقد قام بعض الأطفال بهذه الحركات التقليدية عندما شاهدوا أحد أفلامى ، وقد انتهى طرفه بما يشبه رأس آدمى قد دفع بصدره إلى الأمام وزم شفتيه . فما كان من كل طفل رآه إلا أن وقف منتفخ الصدر مزموم الشفتين .

كذلك حينما عرضت على الأطفال إحدى العرائس المتحركة المصنوعة من الورق والتى تتذبذب فى خفة عجيبة عند تحريكها بواسطة خيط تدلت منه . وقبل أن يبدى الأطفال عجبهم لهذه اللعبة ، رأيت سيقانهم وأذرعتهم تتحرك فى الهواء وهم يقلدونها .

إذاً فعادة التقليد ليست إجبارية ، ولذلك فإن الطفل يكف عنها إذا نبهه إنسان إليها ، فإذا قال شخص مثلا لطفل كان مستغرقاً فى تقليده « افعل هذه الحركة كما أقوم بها أنا » كف الطفل عن عملية التقليد ، وفكر قليلا ، ورفض فى الغالب أن يستأنفها . ويبدو أن عادة التقليد هذه إنما هى صفة إنسانية طبيعية تبدأ فى صورة اللعب فى الطفولة المبكرة ، ويحتفظ بها الكبار فى الكلام والأناشيد بعد ذلك . وتبدو ظاهرة التقليد بوضوح فيما بين السنتين الأولى والرابعة من عمر الطفل إلا أنها تفقد بعد ذلك ، ولعل سبب فقدها يرجع إلى عدم النضوج فى جوانب أخرى .

و يبدى الأطفـال والبالغين على السـواء اهتماماً عظيما بتعلم الطفل للكلام . وهم يعلقون على درجاته المختلفة كما يتناولون فى أحاديثهم مدى حب بعض الأطفال للثرثرة . « فهذا الطفل يتكلم طول الوقت » أو « إن هذا الغلام لا ينطق أبداً حتى ولو حدثناه ، ولو أن عينيه تراقبان كل ما يدور حوله » . ورغماً عن تشجيع الـكبار للأطفال على النطق إلا أن هناك أطفالا كثيرين يلزمون الصمت ولـكن يبدو أنها حالة ترجع إلى المزاج ولا دخـل للقدرة العقلية فيها . فإن الأطفال الهادئين عند ما يتحدثون يظهرون قدرة لغوية لا تقل عن الأطفـال الثرثارين بل كثيراً ما يظهرون دراية أوسع بما يجرى من حولهم .

والأطفال الذين يشجعون على الثرثرة كثيراً ما تستمر هذه الصفة لديهم عند ما يصبحوا كباراً . ومن الأشياء المثيرة للانتباه أن نقارن بين الطفل الذى يولع باستعراض قدرته اللغوية الجديدة و بين البالغ الذى جمع محصولا من اللغة الإنجليزية الركيكة . فإن الطفل يعلق بلا انقطاع :

— « هذا هو قاربى . تعالى . لنذهب إلى مركبى . إن مركبى فى الماء . فى الماء . الآن . احضر المجداف . نعم سأحضر المجداف . سأحضره كلا . لن أجدف . سأدفع القارب . هذا هو مجدافى .. وهكذا » .

فبنفس الطريقة يتكلم البالغ اللغة الإنجليزية الركيكة فيقول :

— « هات مطرقة . حسناً . اضربه مسمار . اضربه مسمار . اضربه اضربه مسمار . اضربه . رجل طيب مسمار . أنا حسناً . هو بشدة الآن . هو مسمار جامد . هو ينتهى بسرعة . أنا أمسك مسمار . أين شاكوش هو . هو موجود . هنا أرض . حسناً . امسك هو مسمار . امسك هو شاكوش ... » .

والتكرار من أهم وسائل تعلم اللغة الإنجليزية المحليـة لدى صغار الأطفال . والذى يحدث أن بعض الشبان يعودون إلى القرية من عملهم لدى أصحاب الإقطاعيات من البيض ، فيعلمون الصبية بعض الجمل الإنجليزية ،

و يتولى هؤلاء الصبية بدورهم تعليم الأطفال الصغار . وهناك شعور طبقى بالنسبة لهذه اللغة وهو يمنع النسـوة اللاتى لا يعملن خارج القرية من التخاطب بها . ولـكن من المناظر المألوفة أن يجتمع غلامان أو ثلاثة فى الثانية عشرة من أعمارهم حول طفل فى الثالثة أو الرابعة يلقنونه هذه اللغة . فيفتتح أحدهم الدرس قائلا : «أظنه يستطيع. أظنه يستطيع لا. أنا فتى طيب ، طعام ، طعام . طعام . أنا أحب سمك ، طعام . طعام . . . » . و يكرر الطفل هذه الجمل الركيكة بصوته الرفيع بدون أن يفهم معناها . ولـكن اندماجه فى تلك اللعبة لمجرد حب التكرار لا يجعل التعب يصيبه أو يصيب معلميه ، و يترتب على ذلك أن يستطيع غلمان الثالثة عشر والرابعة عشر أن يتكلموا الإنجليـزية الركيكة بطلاقة رغماً عن أنهم لم يفارقوا قريتهم المنعزلة . وتعلم هذا النوع من اللغة الانجليزية يتطلب نفس المهارة التى يتطلبها تعلم أطفالنا للغة الفرنسية مثلا ، فكلا من اللغتين تتطلب تعلم عدد كبير من الكلمات والمصطلحات ونطق بعض الكلمات الجديدة الغريبـة . و إنما يتم تعلم أطفال أهل مانوس للانجليزية الركيكة فى جو كله سرور ولذة بالتكرار والتقليد والمحاكاة . و يتم هذا التعلم للأطفـال بعضهم من بعض بمحض اختيارهم ورغبتهم . و يتضح هذا فى إقبال كبار الصبية على تعليم صغارهم ، وفى مثابرة الصـغار على التمرين على الحديث باللغة الجديدة .

وكما يحدث عند ما يبدأ الطفل الصـغير فى النطق بكلماته الأولى فى لغته الأصلية ، بسرور عظيم ، فيردد المقطع الواحد مائة مرة أو يزيد ، كذلك لا ينقطع طفل السادسة عن ترديد فقرات من الانجليزية الخليط بنطق سليم وترنيم صحيـح و إن كان لا يفهم أكثر من عُشر ما ينطقه .

وكثيراً ما تحضر البنات هذه الدروس أو يسمعن الرجال يخاطبون الأولاد بهذه اللغة الانجليزية الركيـكة ، وأيضاً حين يغضب الرجال لأمر ما فإنهم قد يخاطبون البنات والنساء بها. أما النساء فلا يستخدمن تلك اللغة إلا فى حالتين اثنتين فقط : أما الحالة الأولى فهى حالة الجنون ففيها تنطق المرأة اللغة الانجليـزية

الركيكة ، ويفسر الأهالى هذه الظاهرة بأن روح أحد الشبان من العمال قد تسلطت على فم المرأة . والحالة الثانية — وهى ذات مغزى واضح — حين يحاول صغار الفتيات أن يقلدن إخوتهن فيقمن بتعليم الأطفال مع أنهن فى العادة يرفضن التخاطب بها أو استخدامها . فإن رغبتهن فى التقليد تكون هنا أقوى من مجرد التعلق بأهداب التقاليد التى تعارض تفوه النساء بكلمات تلك اللغة الغريبة . هذان المثالان لهما أهمية كبيرة من حيث أنهما يمثلان حالات تم فيها التعلم بدون وجود تدريب أو تمرين شفوى سابق . وهى حالات تشبه حالات الأطفال الذين كان يظن أن مهارات الكلام متخلفة لديهم ثم بدأوا فجأة ينطقون جملا بأكملها .

ومن أوجه النشاط الأخرى التى يتعلمها الأطفال عن طريق المحاكاة ؛ الرقص ودق الطبول . وتتعلم البنات الصغيرات الرقص بأن تقف البنت إلى جوار أمها أو أختها الكبرى فى رقصة اليمامة التى تقوم بها النساء إعلاناً بانتهاء فترة الحداد فى بيت من البيوت . ويصادف أن تحث الأم طفلتها على الرقص ، فتنقر بأصابعها على الأرض الخشبية أو فوق الجدار . وبذلك يتقن الأطفال فى سن السادسة الخطوات البسيطة الأولى فيضمون أقدامهم ويقفزون قفزات سريعة جانبية ثم يعودون إلى وضعهم الأول على قرع الطبول . ورقص الرجال أكثر تعقيداً فهم يلقون بعباءتهم جانباً ويثبتون محارة بيضاء فوق عوراتهم ويبدأون الرقص فيقف الرجل على قدم واحدة ويحرك جسمه وساقه الأخرى حركات دائرية سريعة تنتهى بحركات رياضية مجهدة ، وهذا الرقص يمثل نوعاً من التحدى الشعائرى ويصاحبه تفاخر الراقص وزهوه وهو يقام غالباً فى المناسبات التى يرغب الرجال فى استعراض ثرائهم حين تعقد آصرة بين جماعتين عن طريق زواج بينهما .

أما من يدفع كثيراً ، وهذا عادة ما يكون من نبات أسنان الكلاب وقروش المحار فإنهم يرقصون ويتحدون الجماعة الأخرى بأن تجمع من الزيت والخنازير

ما يكفى لتغطية الدين . وأما من يتسلم الصفقة فإنهم أيضاً يرقصون معبرين عن قبولهم للتحدى وأنهم أهل لتحمل المسئولية التى ألقيت عليهم .

ويحضر الأطفال هذا الاستعراض ويشاهدون الحركات الرياضية البارعة التى يؤديها الرجال وسرعان ما يبدأ الأطفال من سن الرابعة والخامسة فى تقليد تلك الحركات وحين ينجح أحدهم فى إتقان حركة القبض على عضوه الجنسى بين فخذيه ودفعه بقوة إلى الأمام والخلف ثم يميناً ويساراً يكون يوماً مشهوداً بالنسبة له ويظل يكرر هذه الحركة لعدة أسابيع مقبلة مما يبعث سرور الكبار وتندرهم .

أما الأولاد الأكبر سناً أى أولئك الذين بلغوا العاشرة أو الثانية عشرة فإنهم يصنعون محارة صناعية من ورق البندق تقوم مقام المحارة الطبيعية التى يضعها الرجال ويتمرنون على رقص الرجال فى جماعات .

ويؤدى الرقص على نغمات طبول وابواق طويلة من كل الأحجام ، ويضرب عليها أمهر العازفين فى القرية . ويحاكيهم صغار الأطفال فيصنعون مزامير من البوص وينفخون فيها بدون كلل . وهذه الفترة من المحاكاة المقصودة والتى لا يبدو على الأطفال فيها أى شعور بالخجل تعقبها فترة يشعر الطفل فيها بالحرج ويصعب إقناعه حين يبلغ الثانية عشرة على أن يلمس طبلة فى حضور جمع من الغرباء . ولكن إذا كان الصبى فى داره وبصحبة غلمان من سنه فإنه لا يتوانى عن دق الطبول مستغلا فى ذلك مرونة رسغيه وحاسة الإيقاع التى تعلمها من قبل . ودرجة تمرين الفتيات على دق الطبول أقل من البنين وهن يتمرن على دق نوع واحد من الطبول التى تقرع إيذاناً بموت أحد أفراد القرية ، وهى مهمة يتولاها النساء دائماً .

ويفهم الأطفال لغة الطبول ولكنهم لا يهتمون بتنفيذ تعليماتها . وتتألف هذه اللغة من سلسلة من الضربات المتتابعة تترجم إلى بعض العبارات المألوفة فمثلا بعض الضربات تقول « عد إلى البيت » أو « سأعلن الآن عن ميعاد قيامى

بعمل كذا أو كذا . . » أما العبارة الأولى فتتبعها عدة ضربات فردية سريعة تهيب بالشخص المقصود أن يعود سريعاً إلى بيته ، والعبارة الثانية يتبعها دقات بطيئة تتخللها دقة معينة تفصل بين كل مجموعة من الضربات . وعندما يسمع أهل القرية صوت الطبول ، يترك كل فرد فيها عمله ويسرع فى عد الدقات وإن كانت شخصية ضارب الطبول وما ينتويه فى المستقبل القريب هو الذى يساعد الناس على تفسير ما تعنيه دقاته على الطبل وعندما يسمع الأطفال دقات الطبل ، يقطعون ألعابهم ويصيخوا السمع ليخمنوا اسم قارع الطبل ، ولا يتعدى اهتمامهم هذه الناحية فكل المناسبات متشابهة .

إلا أن هناك ثلاثة أنواع من دقات الطبول تسترعى اهتمام الأطفال . الأولى وهى التى تعلن عن قرب موت أحد أفراد القرية ، والثانية أن شخصاً ما قد مات بالفعل ، والثالثة أن شيئاً خطيراً قد حدث كحادث سرقة مثلا أو تلبس شخصاً بجريمة الزنا .

هذه الدقات الثلاث تجعل الأطفال يقطعون ألعابهم وقد يبعثون بأحدهم لاستطلاع الخبر .

ودقة الموت سهلة بسيطة ويستطيع الأطفال تأديتها وهم أحياناً يقومون بذلك وخاصة إذا مات أحد البارزين من أهل القرية .

ويتعلم صغار الأطفال الغناء عن طريق تقليد الأطفال الأكبر سناً . والغناء هناك عبارة عن لحن واحد تردد على نغمة جمل بسيطة مترابطة فى المعنى . وكثيراً ما نجد جمعاً من الصبية وقد تكوروا فوق الأرض ورددوا سوياً لحناً واحداً ساعة بعد ساعة بدون أن يعتريهم أى ملل أو إرهاق . كما قد يغنى الأطفال إذا شعروا بالبرد أو الحزن أو الخوف من ظلام الليل الدامس .

ويتعلم الأطفال الفنون الحربية عن طريق المحاكاة فى اللعب . فالرجال يستخدمون حراباً ذات أسنة من الخيزران ويقلدهم الأطفال فيصنعون حراباً صغيرة ثم يقف كل ولدين فوق إحدى الجزر الصغيرة وفى يد كل منهما حفنة من أسنة

الحراب ويصوب كل منهما فى اتجاه الآخر . وتدريب الأطفال على الكر والفر له نفس أهمية رمى الرمح . وذلك لأن قبيلة مانوس لا تستخدم الدروع ولا يمكن تفادى قذائف الحراب إلا بالمحاورة . ولذلك يتدرب عليها الأطفال منذ الصغر فما يبلغوا سن العاشرة أو الثانية عشرة إلا ويكونوا قد برعوا بأسلحتهم الخفيفة وسرعتهم فى المحاورة .

وكثيراً ما يحدث أن يتوقف الرجال والشبان عن عملهم فى بناء القوارب أو التجديف بالقرب من أولئك الصبية ليهللوا لرمية رمح صائبة رماها واحد منهم الصبيه . وهنا أيضاً يقابل الكبار محاولات الصغار بالتشجيع ولا يسخرون منهم أبداً .

كذلك يتعلم الأولاد فنون الصيد فى فترة مبكرة فيصنع الرجال لأطفالهم أقواساً وسهاماً ورماحاً لصيد الأسماك الصغيرة . وبهذه الأسلحة ينطلق الأطفال فى جماعات يجوبون ما حول البحيرة حين يكون الماء منخفضاً ، فيقطعون صخور الجزر جيئة وذهاباً ويشقون طريقهم وسط الأعشاب البحرية ويرمون الأسماك الصغيرة بأسلحتهم . وهم يقومون بهذه الأعمال لمجرد اللهو أو التسلية وإن كان ما يصيدونه من أسماك لا يصلح للأكل لصغر حجمه . ويستمر هذا اللعب من سن الثالثة إلى الخامسة عشر وعندئذ يقوم الأولاد برحلات للصيد بمفردهم وأحياناً ينضمون إلى جماعة من الشبان فى رحلاتهم إلى الشواطىء الشمالية حيث يقومون بصيد الترسة ، وبعض الأسماك الأخرى التى تعيش هناك .

وقد يصحب الآباء أبناءهم فى رحلات الصيد وهناك يراقب الأطفال ما يقوم به أباءهم ، وما ينتظر أن يقوموا هم أنفسهم به عندما يشتد عودهم . وكثيراً ما تردد صرخة غاضبة فى أرجاء القرية ، أطلقها أحد الأطفال لأنه صحا من نومه ليجد أباه قد ذهب إلى الصيد ولم يأخذه معه . ويحدث هذا عادة حين يكون الطفل صغيراً فى سن السادسة أو السابعة .

أما الصبية والأكبر سناً فهم يهتمون بمصاحبة الكبار ويفضلون عليها صحبة أقرانهم . ولا يصحب الصبى البالغ الرابعة عشر أو الخامسة عشر أباه إلا إذا تشاجر مع أصحابه . فحينئذ يظل بضعة أيام ملتصقاً بأبيه ، يساعده فى أعماله . ولكن سرعان ما يتركه مرة ثانية بمجرد أن تعود المياه إلى مجاريها بينه و بين أقرانه .

أما صغار البنات فلا يحاولن الصيد إلا فيما ندر وقد يذهبن فى رحلات الصيد مع آبائهن ولكنه نوع من الصيد لن يقمن به عندما يكبرن . فصيد النساء يكون بالقوارب أو بالشباك اليدوية أو بالسلال ذات المصفاة أو بالسلال الشبيهة بالأجراس وهى ذات فتحة من أعلى لدخول اليد فيها ولا تقوم البنات بهذه النوع قبل بلوغهن .

ولا يقوم الأولاد بالأعمال اليدوية إلا فيما ندر ويقتصر ما يعرفونه منها على دهان جوانب قواربهم بطلاء أبيض يستخرجونه من عصارات الأعشاب البحرية ، أو جدل شريط متين من خوص النخيل . كما يلمون بمعلومات بسيطة عن تقطيع الأخشاب ولكنهم لا يعرفون أساليب نحتها وخراطتها . ويمكنهم تركيب أحد ألواح المركب إذا انكسر وأن يحرقوا جوانبه بالمصابيح المصنوعة من البوص . ويمكن الأطفال أن يصنعوا مصابيح بدائية من الخيزران تضاء فى الليالى المظلمة ولكنهم يجهلون حرفة النجارة إلا ما يتذكروه مما كان يقوم به آباؤهم وهم بعد أطفال صغار .

أما عن المهارات الجسمية فإن الأطفال يتقنون كافة فنونها لأنها الأساس الأول لتكيفهم للبيئة . ففى إمكانهم تحديد المسافات ورمى الأشياء والتقاط ما يرمى لهم . كما يمكنهم تقدير الأبعاد قبل القفز أو الغطس فى الماء . وهم يجيدون تسلق أى شىء مع موازنة أجسامهم فوق أضيق وأخطر المواضع .

ويتقن الأطفال هذا التوازن فى البحر والبر ، كما تدربت أقدامهم على

رقصات الكبار ، وتدربت أيديهم على التصويب والإصابة ، وتدربت أصواتهم على إنشاد الأناشيد وأخيراً تدربت معاصمهم على تحريك عصى الطبول والتجديف فى سرعة خارقة .

فقد وضع للأولاد نظام تدريبى دقيق لا يشوبه التردد بل يتصف بالحزم والإصرار ، يكفل للطفل الأساس الجسمى اللازم لنموه خلال سنوات عمره القادمة ، وذلك عن طريق محاكاته للكبار والبالغين ، وأشق مرحلة فى التربية الجسمية تنتهى عند بلوغ الطفل الثالثة من عمره ، أما بعد ذلك فكل شىء بالنسبة له لعب ولهو . وقد أعد كل شىء لتيسير استمتاع الطفل بألعابه ، فقد هيىء له ملعب جميل مأمون ، وصحبة مرحة من الجنسين من كافة الأعمار . وحين يكبر ويعدو رجلا يكون مثار الإعجاب من ناحية اللياقة البدنية ، فهو دائماً حاذق متيقظ ، غير هياب ، ويمكن الاعتماد عليه عند الضرورة .

أما عن مفهوم التدريب الاجتماعى عند أهل مانوس فهو مفهوم فضفاض إذا ما قورن بصرامة أساليبهم ومبادئهم فى التربية الجسمية . فكل ما يهمهم هو تحقيق اللياقة البدنية واحترام الملكية وتجنيب أى عمل يمس الشرف . وهم يعلمون الطفل أن عملية التبول والتبرز يجب أن تتم بعيداً عن الأنظار متى استطاع أن يمشى . كما يجب عليه أن يتحاشى أى سلوك يثير الحرج أو الخجل ، وهو يدرك هذا السلوك عن طريق تعبيرات الاستنكار التى تصدر عن الوالدين ، وليس عن طريق اللوم والتقريع فإن ما يبدو على تقاطيع الأبوين من استنكار وتقزز ينتقل أثره إلى الطفل المذنب . وهذا السلوك من جانب الكبار فى غاية الأهمية حيث يسهل تطعيم الطفل به بنفس السهولة التى يمكن أن ننقل الرعب اليه . فحين يتحقق الطفل بنفسه أن الرجال يحرصون على ألا يكشفوا عن أجسامهم فى حضرة بعضهم بعضاً ، وأن الفتاة الكبيرة لا تخلع إزارها على مرأى من امرأة أخرى وإلا عاقبتها الأرواح ، فإن الطفل يتكون لديه شعور عميق بالنسبة لهذه المحظورات .

وفى هذا الجو الرزين ينشأ الأطفال منذ ميلادهم ، فيتدثرون فى لفائف خشنة حتى يرى الكبار أنهم قد صاروا فى مأمن من الأذى .

وفيما عدا هذه الممنوعات السابقة لا يوجد أى تدريب إجتماعى آخر . فلا يتعلم الأطفال مثلا الطاعة أو الانصياع لرغبات الوالدين . ولذلك رأينا طفلة فى الثالثة من عمرها تسخر من توسلات أمها ، ورجاءها لها بأن تعود معها إلى البيت ، والمفروض أن يرجع الأطفال إلى بيوتهم قبيل الظلام ومع ذلك فإنهم قلما يفعلون ذلك رغماً عن صيحات آبائهم حين يدعونهم للعودة ، ولولا شعورهم بالجوع لما عادوا إلى بيوتهم مما يضطر الآباء إلى الخروج والبحث عنهم وجمعهم بالقوة .

وإذا حدث وحذر أحد الآباء أحد أبنائه ومنعه من الذهاب إلى أطراف القرية للعب هناك ، فإن هذا الأمر لا ينفذ إلا ريثما يدير الأب ظهره ، وهنا نجد الطفل يسبح إلى عين المكان الممنوع حتى يغيب عن البصر .

والطعام فى مانوس حريف المذاق ، ويتألف غالباً من نشاء الساجو ويطهى فى وعاء مجوف عن طريق التحريك المستمر فوق النار ، وهذا النوع من الطعام يفسد سريعاً إذا ترك بدون أن يؤكل بعد حوالى عشرين دقيقة من طهيه ، ومع ذلك فإن الكبار لا ينتظرون قط عودة أطفالهم وقت الغذاء ، فهم يخرجون صباحا قبل الإفطار ثم يعودون بعد حوالى ساعة من الزمن فيصرخون فى أمهاتهم طلباً للطعام . ومن المناظر المألوفة منظر الصبى فى العاشرة وقد وقف فى وسط الدار يصرخ ويصرخ حتى تسرع أمه فى طهى طعامه ، وقد يحدث أن تذهب إحدى النساء إلى جارة لها لتساعدها فى بعض الشئون كأن ترتب لإحدى الولائم مثلا ، ثم يحضر ابنها فلا يجدها فيذهب إلى بيت الجارة ويقابل أمه بالسباب ، ويصرخ فى وجهها ويشدها من ذراعها وينشب أظافره فى لحمها ، ويظل يركل بقدميه ، وينشب بأظافره فى ذراعيها حتى تقوم معه وتعد إفطاره

والآباء الذين كانوا غاية فى الحزم والشدة حين كانوا يعلمون أطفالهم خطواتهم

الأولى ، نجدهم قد تحولوا إلى عجائن لينة فى أيدى الثائرين الصغار فى كل ما يتعلق بالتربية الاجتماعية .

فليس هناك تحديد لمواعيد الطعام ، ولهم أن يأكلوا متى شاءوا ، ويلعبوا متى شاءوا ، ويناموا حين يروق لهم أن يناموا ، ولا يستخدم الأطفال أية عبارات مهذبة فى أحاديثهم مع والديهم بل هم فى الحقيقة يتفوهون بالألفاظ البذيئة النابية أكثر من آبائهم ، وأقل متشرد صغير يمكن أن يتحدى بل ويصيح فى وجه ، أكبر أهل القرية سناً ومقاماً .

ولا ينتظر من الأطفال أن يتنازلوا عن بعض امتيازاتهم لآبائهم ، فأشهى أنواع الطعام تعتبر حقاً مقدساً لهم ويمكنهم أن يتلاعبوا بعواطف الوالدين بدموعهم وليس عناك عملا يؤديه الطفل ، وقد تقوم البنات فيما بين الحادية عشرة والثانية عشرة بمساعدة أمهاتها فى بعض الأعمال المنزلية أما الأولاد فلا يؤدون أى عمل قبل أن يتزوجوا ، ولا يطلب منهم أى تعاون فيما عدا احترام الممتلكات الخاصة وتجنب كل ما يخل بالشرف .

ولا شك أن الحرية الاجتماعية الكبيرة التى يتمتع بها الأطفال تدعم لياقتهم البدنية وتقوى ثقتهم بأنفسهم فالطفل فى مانوس هو سيد بيئته ، لا يؤدب ولا يوقف عند حده ، ولا يفرض عليه احترام من يكبرونه سناً ، فهو حر فيما عدا ذلك الخيط الرفيع الذى يربط بينه وبين كل ما يسبب الخزى والعار مما يمر به فى حياته اليومية ، فلم يتلق الطفل أى تدريب لضبط النفس أو التضحية بل هو مثال سيكولوجى للطفل المدلل الذى يأخذ ولا يعطى ، والطفلة الوحيدة فى القرية التى كان يطلب منها القيام ببعض الخدمات كانت طفلة عطوفا كريمة تخدم أباها الأعمى .

أما سائر الأطفال الآخرين فهم لا يعملون شيئاً من تلقاء أنفسهم ولا يطلب منهم أحد القيام بأى خدمات . بل إن الأطفال يشعرون بإحساس التملك لآبائهم الذين هم بمثابة خدام مطيعين لأوامرهم ورغباتهم ، ولا شك أن أنانية الأطفال هناك إنما هى تطور طبيعى ونتيجة حتمية للحب المدمر الهدام الذى تسمح به الثقافة المحدودة لهذا المجتمع .

الفصل الرابع

حياة الأسرة

(الحياة العائلية)

يختلف مفهوم العائلة أو الأسرة فى مانوس عن مفهوم الأسرة الأمريكية كل الاختلاف . فهى حقيقة تتألف من نفس الأشخاص أى من الأب والأم وأخ أو أخوين أو أختين وأحياناً من الجدة وفى حالات نادرة من الجد . وعندما يأتى المساء يحكم باغلاق الأبواب جيداً ويصر الوالدان على عودة جميع أولادهم عند غروب الشمس فيما عدا الليالى القمرية . وبعد تناول وجبة العشاء ، يستلقى الأطفال على حصير للنوم أو ينامون بين ذراعى أحد الوالدين وبعد أن يستغرق الطفل فى النوم ، يحمل بلطف إلى فراشه . وتضاء أركان البيت المظلمة بإيقاد حزم من أوراق جوز الهند . ويذكرنا جو الانسجام السائد هنا بصورة الأسرة السعيدة المترابطة التى لا مجال فيها لتدخل الغرباء ، والتى يجتمع أفرادها متحابين متآلفين حول مدفأة البيت كل مساء .

ولكن إذا نظرنا نظرة أكثر عمقاً إلى البيوت فى مانوس فإنا نكتشف عدة اختلافات جوهرية عن هذه الصورة الجميلة . فالشبان حين يتزوجون لايعيشون فى بيوت مستقلة خاصة بهم ، بل يسكنون فى الجزء الخلفى من بيوت إخوانهم الأكبر سناً أو أعمامهم . وحين تجتمع هاتان العائلتان ، وجب أن تتجنب زوجة الرجل الأصغر سناً طريق قريبه الكبير . فمحظور عليها دخول الجزء المخصص لسكناه — والذى يُفصل عن مسكن زوجها بستائر من الحصير — ما دام الرجل موجوداً بالبيت . أما الأطفال فلهم حرية الذهاب إلى أى جزء فى البيت . ويؤدى تحاشى الزوجة الصغيرة لقريب زوجها ، وشعورها بأنها وزوجها يعتمدان عليه فى معيشتها إلى توتر العلاقات بين الأسرتين .

وشعور القرابة للأب فى مانوس شعور قوى جداً ، والابن يرث أباه أو أخاه كما أن الزوجة تعيش بعد الزواج فى بيت أهل زوجها دائماً .

ورغما عن صغر دائرة الأسرة ، ورغما عن قوة العلاقة بين الأطفال وآبائهم إلا أن العلاقة بين الزوج وزوجته تكون فى الغالب باردة متوترة . ولذلك نجد الأطفال يرون فى الوالدين شخصين متباعدين يتصارعان من أجلهم ، كما نجد أن صلة القربى بين كل من الزوجين وأهله أقوى وأمتن من صلة الزوجين ببعضهما . ولا شك أن العوامل التى تساعد على تباعد الزوجين تفوق فى عددها العوامل التى تقرب بينهما . ونظرة واحدة إلى بعض العائلات فى پيرى Peri تدلنا على نوع العلاقات الكائنة بين الأزواج وزوجاتهم .

لنأخذ مثلا عائلة ندروسال Ndrosal . إن ندروسال رجل وسيم مدلل سريع التفاخر والتحدى وقليل ما ينفذ ما يقول . وكانت له زوجة ولدت له غلامين ثم ماتت ، فتبنى زوج أخته أحد الطفلين وبقى الآخر مع أبيه فى رعاية زوجته الجديدة — وهى فتاة طويلة القامة جاء بها من قرية بعيدة — وسريعاً ما أنجبت له هذه الزوجة طفلة كانت بطيئة النمو . ومرت الشهور والطفلة مريضة تصرخ وتتلوى فى فراشها الذى صنعه أبوها . وقد جرى العرف هناك على أنه ما دامت الطفلة مريضة ، فليس لها أن تغادر البيت لأى عذر كان . وليس لأمها أن تفارق فراش الطفلة إلا لبضع دقائق فقط . وهكذا ظلت الأم إلى جوار فراش طفلتها الشهر بعد الآخر حتى اصفر لونها ونحل عودها ولاسيما أنها لم تكن تجد الغذاء الكافى .

وكان لندروسال أخت كبرى وكان شديد التعلق بها . وهى امرأة ذات شخصية قوية وفى منتصف العمر وكان لها من الأعمال والمصالح الخاصة ما يدعوها للاستعانة بأخيها دائماً . فلما اشتد المرض على الطفلة أخذت هذه

الأخت الابن الثانى لأخيها و بذلك أصبح الولدان فى رعايتها ، وكان من عادة الأب أن يذهب يومياً إلى بيت أخته فيلاعب طفليه ويحملهما فوق ظهره أو يستلقى على الأرض ويتركهما يلعبان فوق جسده أو يأخذهما معه فى رحلات الصيد ، وهكذا أصبح ندروسال بعد ذهاب الابن الثانى إلى بيت أخته يقضى معظم وقته هناك ، وإذا أصاب صيداً طيباً ذهب بمعظمه إلى بيت أخته .

وفى أحد الأيام جاءت أخت صغرى لندروسال بهدية من سمك الـكابوريا وسلمتها إلى زوجة أخيها ، ولما كان صيد هذا النوع الحيوانات البحرية من أعمال النساء فإن هذا السمك لم يدخل بيت ندروسال منذ أن مرضت طفلته ، لأن زوجته لم تكن لتستطيع مغادرة الدار ، وعلى ذلك فقد رحبت الزوجة بالهدية وسارعت إلى طهوها غير متنبهة إلى أن بعض أنواع الـكابوريا محرم أكله على زوجها وأهله .

وعاد الزوج إلى بيته بأيد خاوية وطلب عشاءه ، فقدمت زوجته الـكابوريا ولما سألها عن نوعها أكدت له أنها ليست من الأنواع المحرمة عليه وعلى أسرته (وهى مطمئنة إلى أنه لا يمكن التفريق بين مختلف أنواعها إذا ما تم طهوها) .

وبدأ الزوج يأكل طعامه وهو يتأفف من زوجته لأنها تجيب عن أسئلته باقتضاب واتهمها بأنها لا تحترم محرمات أسرته . وفى تلك اللحظة بدأت الطفلة فى البكاء وجاءت أخته الصغرى المقيمة فى نفس البيت على صراخ الطفلة وسارعت إلى فراشها . وظلت الطفلة مسترسلة فى البكاء فالتفت ندروسال إلى زوجته وأمرها بخشونة أن تقوم وترضع الطفلة . وأجابته الزوجة بأن الطفلة قد رضعت ما فيه الـكفاية وهى إنما تصرخ من المرض لا من الجوع ، وصرخ الزوج فى زوجته بغضب :

— قلت لك أرضعيها ألا تسمعين ، أيتها المرأة الـكسول ، يامن لا تستأهل قلامة ظفر ، أيتها المرأة الـكذوب ، يا من لا عقل لها . يا من لا تهتم بما حرم على زوجها ولا بطفلتها .

وهب الزوج واقفاً وهو يلقى فى وجه زوجته بسيل من السباب ، ورغماً عن ذلك ، بقيت الزوجة فى مكانها تتلكأ وهى تتناول عشاءها وقد امتلأت عيناها بالدموع وهى لا زالت تؤكد أن الطفلة ليست جوعى ولكنها مريضة . مما زاد ثورة الزوج اشتعالا فتناول وعاء الليمون وقذف بحفنة منه فى وجهها . وقد أذابت الدموع المنهمرة المسحوق فدخل فى عينى الزوجة مما أدى إلى التهابهما . فقامت تتخبط فى طريقها وهى تصرخ من الألم . وتجمعت بعض النسوة أمام البيت على ضجيج الزوجين وأخذت إحداهن الزوجة والطفلة إلى بيتها .

وبات ندروسال ليلته فى بيت أخته ولما نام الطفل الأصغر فى أحضان أبيه وسأله عن بكاء زوجة أبيه ، أجاب الأب فى خشونة بأنها امرأة سيئة الخلق وأنها تأبى إرضاع أخته الصغيرة .

ولنذهب إلى بيت آخر هو بيت نجاميل Ngamel وكان هذا الرجل يعيش مع زوجته نجاتشومو Ngatchumu فى وئام ، ثم حدث أن عاد الزوج ذات يوم وفى صحبته زوجة جديدة . وثارت ثائرة الزوجة الأولى واستمر غضبها إلى درجة اضطر معها الزوج أن يعيد العروس إلى أهلها التماساً لراحة البال . ومنذ سنوات كان الزوج يحتفظ بكرباج من أغصان شجرة العنب لتأديب زوجته وكان ذلك فى الوقت الذى فقد فيه خمسة من أبنائه ، بفعل سحر شرير كان قابعاً فى قاع آنية طعام قديمة استعارها ذات يوم ثم نسى أن يردها إلى أصحابها ، فظلت ملقاة بين المهملات أما الآن فقد أنجبت له زوجته أربعة أطفال ، أعار واحداً منهم لأخيه وبقى الثلاثة الآخرون معه . وقد بدأت الشيخوخة تدب فى أوصاله وتحول إلى رجل هادىء يأوى إلى بيته عند الغروب فيجلس فى الشرفة ويلعب مع أطفاله .

وحدث فى عصر أحد الأيام أن ذهبت الزوجة إلى مأتم أختها وصحبت معها أصغر أبنائها بونكوب Ponkob وهو غلام فى الثالثة من عمره . وقد ماتت

أخت الزوجة على أثر لعنة نزلت عليها من أرواح أجداد نجاميل لأنها كانت السبب فى الزواج الثانى لأرملة أحد أخوانه .

وكان بيت المرأة المتوفاة قريباً من بيت نجاميل وتنبعث رائحة الموت من كافة أرجائه ، ونواح النساء وعويلهن يملأ المكان . وفى زحمة الموجودين انحشر الطفل الصغير بين أمه وإحدى الحاضرات فسقط على الأرض ثم أغمى عليه . وحملت الأم المذعورة طفلها المريض وعادت به إلى البيت وهى تتوجس شراً من غضب زوجها ، فقد سخرت من نقمة أجداده وحضرت جنازة المرأة المتوفاة بل وأخذت معها أحد أبنائها ، وعقاباً للزوجة ظل الزوج وابنه الأكبر البالغ الثامنة من عمره لا يخاطبان الزوجة لمدة يومين كاملين نتيجة لاستهانتها بأرواح أهل زوجها وعدم احترامها لنقمة هذه الأرواح فى سبيل حبها لأختها الميتة .

ثم لنذهب إلى بيت ثالث يقام فيه حفل ثقب الآذان وهو بيت بويسيو Pwisio . لقد غص البيت بالمدعوين وجلهم من أقارب الزوجة الأم وقد جاءوا بقواربهم محملة بالهدايا يهنئون بثقب آذان ابن بويسيو وهو شاب فى السادسة عشرة من عمره ويدعى مانواى Manwai . وقد أقيم الحفل الرسمى فى الجزء الأمامى من البيت حيث جلس مانواى وقد حلى عنقه بياقة من أسنان الكلاب وصبغ جسمه ودهنه بالزيت وجلس منتصباً فى مكانه لا يطرف وإلى جواره وقفت عمتاه تنتظرانه لتقودانه إلى أسفل السلم أما أمه فلا نرى لها أثراً .

ومن خلال الستائر التى تغطى القسم الآخر من البيت يسمع صوت نشيج وبعض النسوة يبدين اعتراضات بأصوات خافتة ، أما فى المقدمة فنجد الأب بويسيو وقد جلس بين ضيوفه ، ومن آن لآخر يطلق اللعنة إثر اللعنة على زوجته فقد وجدها تنام عارية (وكان بالبيت بعض الغرباء ، ومن بينهم شاب أعزب من أصدقاء الإبن صحا بالليل وحرك نار المدفأة فأضاءت المكان وكشفت عن الزوجة وهى تنام بهذه الصورة) . ولذلك فإن بويسيو يتهم زوجته فى شرفها ولكن يخشى أن يضربها وسط هذا الجمع الحاشد من أقاربها . وتجمع الزوجة حاجياتها

وهى تدافع عن براءتها وسط العبرات ، وتعدد فى غضبها الأشياء الثمينة التى تصمم على أخذها معها فتقول « هـذا الشىء ملكى وقد صنعته بيدى . كما أن هذا الخرز الصدفى هدية من أختى وقد اشتريت خاماته بنفسى . وهذا حزامى وقد اشتريته فى مقابل كمية من الساجو فى عيد الميلاد فى الأسبوع الماضى » .

وتقف طفلتها المتبناة نجالوين Ngalowen وهى طفلة فى الرابعة من عمرها وقد ظهر الاشمئزاز على وجهها من أمها التى يدمغها الوالد علانية بارتكاب هذه الجريمة ، وحين تنتهى الأم من جمع صناديقها وتتجه ناحية الباب لا يظهر على الإبنة ما يشير إلى أنها تريد أن تذهب معها . بل على العكس نراها تتسلل إلى الغرفة الأمامية وتنكمش إلى جوار أبيها الشريف الذى كان لا يزال يزمجر غضباً .

وبعد انقضاء فترة الاضطراب هذه ، يستأنف الحفل ، ولم يعد أحد يهتم بالتعليق على غياب الأم التى لم يكن لها أى دور فى الاحتفال .

ولكى ندرك المغزى الحقيقى لهذه الاختلافات من الضرورى أن نراجع فترة الخطوبة فنتتبع فتاة من فتيات مانوس منذ إتمام خطوبتها حتى تصبح أماً .

فمثلا نجالين Ngalen وهى فتاة فى الثامنة عشرة تمت خطوبتها منذ سبع سنوات إلى فتى يدعى مونوى Monoi من أقارب أمها ، ومنذ قرر أهله أن يزوجوها له أصبح نطق اسمه محرماً عليها ، لقد رأته مرة واحدة وهى بعد طفلة صغيرة حين أخذتها أمها وباقى أخواتها فى زيارة إلى قريبتها فى بيرى ولا تذكر الفتاة شيئاً عن شكل خطيبها إلا أن أنفه عجيب وأن إحدى عينيه حولاء ، وأنه كان يرتدى إزاراً مبللا بالياً ، ولكنها كانت تحاول أن تنسى تلك الأشياء كلها لأن أمها قد أفهمتها أنه من العار أن تفكر الفتاة فى شخص خطيبها ، وعليها بدلا من ذلك أن تجمع الأصداف وتصنع منها زينة لظهرها أو تقضى النهار مكبة على صنع عقود الخرز لأخوات زوجها ، أو أن تفكر فى الآلاف من أسنان الكلاب وقروش المحار التى دفعت مهراً لها عند خطبتها ،

أو تطعم الخنازير التى ستقدم إلى أهل زوجها فى مقابل ما دفعوه لأهلها ، أما عن زوجها نفسه فعليها ألا تفكر فيه مطلقاً ، ومنذ أن تمت خطبتها حرم عليها الذهاب إلى بيرى إلا فى المناسبات الهامة جداً كموت أحد أقاربها ، وفى هذه الحالة يجب أن تكون شديدة الحذر فتتشح بثوب من القماش يغطيها حتى لا يراها أشقاء زوجها ، أو حماها . و إذا حدث ومر قارب قادم من قرية زوجها فإن عليها أن تختبىء فى قاع القارب . وعند ما كانت طفلة صغيرة كانت أحياناً تنسى فتنطق بعض الكلمات التى تحتوى مقاطع من اسم زوجها أو أسماء أقاربه و إذ ذاك كانت تتوارى من العار أمام تقريع أقاربها وزجرهم لها .

وقد ذكرت الأرواح فى يوم من الأيام فى إحدى الجلسات أن نجالين لم تهتم بالإختباء من أحد أقارب خطيبها وكان هذا القريب صديقاً لها من زمن الطفولة ، ولكن هذا كان منذ سنوات خلت ، أما الآن فهى فى غاية الاحتراس وخاصة فى السنوات الثلاث الأخيرة ، لاسيما وأن قريتها تضم عدداً كبيراً من الشباب الذين يعملون فى أرض الرجال البيض وقد يحملون معهم عند عودتهم إلى القرية أنواعاً من السحر الضار مما لا تدركه هى . وقد حدث بالفعل أن عاد أحدهم يحمل فى كيس البندق زجاجة غريبة الشكل وكان يقول إنها لاتحوى سوى دواء للديدان ولكن من يدرى ؟ إن الجميع يقولون إنه سحر للحب . إن أقاربها لا يصنعون تلك الرُقى التى تجعل الفتاة تهجر خطيبها وتنغمس فى الإثم ، أما سكان وسط الجزيرة الكبرى ففى مقدورهم عمل الرقى التى يمكن دسها خفية فى ورق التبغ ، أو الهمس بها على ثمار البندق ، أو الدمدمة بها فى غليون مسروق . ويشترى بعض أهل قريتها تلك الرقى والتعاويذ وخاصة أولئك الشبان الذين يمضون الليل كله بنادى القرية يمرحون ويدقون الطبول ويتآمرون على الشر .

وفى الماضى البعيد كان أمثال هؤلاء الشبان يذهبون إلى الحرب و يأسرون إحدى الفتيات البيض ويعودون بها ويسخرونها لنزواتهم ، ولكن

لم يعد أمثال هذه النساء يطأن أرض القرية منذ كانت نجالين طفلة صغيرة .

وحين كانت تسافر خارج قريتها ، كانت تتحرى عدم الجلوس فى مهب الريح من ناحية هؤلاء الشبان خشية أن تكون محملة بنوع من السحر يحمل على ذرات الرياح .

وكان بالقرية بعض الفتيان يبادلونها علاقات الود ومنهم إخوتها وأبناء عمومتها ، والصغار من أبناء عمومة زوجها ، وهؤلاء كانت لهم بمثابة الأم ويحرم عليها أن تأكل فى حضورهم .

وهى تقضى يومها فى صنع أدوات من الخرز لحماتها وأخوات زوجها ، وعند ما يتم زواجها فإنهم يعطونها بدورهم هدايا من الخرز لتهديها لأخوتها ، وعليها أن تعمل بجد ونشاط فى بيت زوجها وأن تشعر بالأمن والطمأنينة ، كما أن عليها أن تتعلم وتفهم أساليب المفاوضات والمبادلات المادية ، كذلك يجب أن تجيد صنع الكعكة الكبيرة التى تقدم فى الولائم وقطع لب جوز الهند على هيئة ورود صغيرة تزين بها أطباق الطعام فى الولائم ، وعليها أيضاً أن تكون زوجاً ولوداً ، ومنذ اللحظة التى تصبح فيها أماً فإنها تفقد جمالها ورونقها كامرأة . إذ أن أهل مانوس يعتبرون مرحلة الحمل لا العذرية هى الحد الفاصل بين الشباب والخبرة . و بعد مرور النجم القطبى عشر مرات بالسماء تصبح المرأة عجوزاً .

إنها تعلم مقدماً شكل ثوب الزفاف لأنها لبست فى مناسبتين تلك المرايل المثقلة بقروش المحار ، المغطاة أطرافها بأسنان الكلاب ، وفى الغد ستزف فعلا إلى الرجل الذى حرم عليها أن تنطق اسمه أو أن تفكر فى الحول الذى بعينه وستذهب إلى قرية من الغرباء ، إنها قرية أقارب أمها ، ولكن بعض هؤلاء الأقارب محرمون عليها لصلتهم بزوجها ومحظور عليها أن تجرى أسماؤهم على لسانها مدى الحياة ، وستعيش فى بيت عم زوجها ، وعليها أن تتجنب لقاءه دائماً و إذا

حدث ما يستوجب ذكره فى أحد أحاديثها فعليها أن تشير اليه بكلمة « هم » لا « هو » ، وأثناء وجوده بالبيت عليها أن تختفى وراء الستائر ولا ترفع صوتها مطلقاً لئلا يسمعها وهى تتكلم ، وممنوع عليها أن تنظر إلى وجهه إلا بعد أن يشيخ ويصبح عجوزاً أصلع الرأس مرتعش الأطراف فعندئذ يقرر هو أن يرفع الحظر عنها ويقيم وليمة احتفالا بذلك .

وهى تعلم أن جميع رجال القرية سيعلقون عليها ، وأن ثدييها المتهدلين سيسببان لها حرجا وقد تدليا فوق صدرها مما جعله أشبه بصدر عجوز شمطاء . ومن حسن الحظ أن المشد المصنوع من أسنان الكلاب قد أحكم وضعه فوق ثدييها مما يساعد على إظهارهما فى نفس وضع ثديى الفتاة الشابة ، هل ياترى يكرهها زوجها من أجل ثدييها المتدليين ؟ لقد سمعت شباب قريتها وهم يتحدثون ، وهى تعرف تماماً أن قيمة المرأة فى شبابها ، وهل ستنجح بسرعة فى التجاوب مع أخوات زوجها فتنسج الخوص بأيد واثقة ، وتصنع من الخرز أشكالا جميلة وتكون ماهرة فى طهى الطعام ؟ أو أن أخوات زوجها سوف يكرهنها كما تكره هى زوجة أخيها ، إنها لا تتوقع مطلقاً أن يحببنها وكل ما ترجوه أن يتحملن وجودها ولا يتغالين فى إثارتها .

إنها تفكر فى هذا كله وهى جالسة وقد تكورت على نفسها فى وشاح التحريم فى قاع القارب . إن أقاربها يحملونها اليوم إلى يبرى — وكل ما تسمعه الآن عبارة عن ثرثرة حول أسنان الكلاب وقروش المحار والخنازير والزيت والديون الواجب دفعها وتخمين أسماء من يتوقعون مساهمتهم فى ردها وعن الفرص التى سوف تتاح للتجارة والتبادل .

إن أباها سعيد ولا شك بهذه الزيجة فسيدفع له أهل الزوج عشرة آلاف من أسنان الكلاب . عشرة آلاف كاملة سيتاح له استثمارها فى دفع مهر ابن أخيه الذى بلغ الخامسة عشرة ولم يخطب عروساً بعد . وينتقل الحديث إلى المركز المالى لعروس ابن أخيه المنتظرة .

وتنظر العروس إلى ناحية أمها فتراها جالسة تحمل طفلتها الصغيرة على حجرها . ثم إلى أختها الكبرى التى كانت سارحة ببصرها إلى البحر فى وجوم . لقد مضى شهر منذ أن غادرت بيت زوجها ومع ذلك فإنه لم يكلف خاطره مشقة السؤال عنها أو إرسال رسول يعود بها إلى بيتها . إن أختها لم تفصح أبداً عن حقيقة ما حدث بينها و بين زوجها وكل ما ذكرته هو أن زوجها ضربها — وتنطلق صيحة تأمر العروس بأن تزحف بسرعة إلى الداخل وتلتف بثوبها إذ أن أحد القوارب على وشك المرور بهم .

وأخيراً وصل القارب إلى القرية نفسها ، وتتسلق العروس السلم إلى بيت جدتها لأمها وقد تدثرت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . وترى الجدة وقد اشتد بها الكبر فبرزت عظام عنقها وتقلصت عضلاته كاللحم المقدد . لقد وارت ثلاثة أزواج التراب ، وقد أثرت الشيخوخة على أوتار صوتها فكانت تتكلم فى نبرات متكسرة متهالكة وهى تأمر الموجودات بأن يسرعن فى الباس حفيدتها لاستقبال الحاشية التى سترافقها فى « رحلة الثدى » . ويتم حمل صناديق الخشب المعطر من القارب وتنتشر أدوات الزينة على الأرض . ويغادر أبو العروس وأخوتها المكان وتترك وحيدة وسط نساء من قريبات العريس اللاتى يصبغن شعرها باللون الأحمر ويخضبن وجهها وذراعيها وظهرها بخضاب برتقالى اللون ثم يحطن ذراعيها وساقيها بحبال طويلة من الأصداف . ثم تثبت عليها مريلتان ثقيلتان تحت حزام موشى بأسنان الكلاب كما تلصق أهلة من الصدف فى مشدات الصدر . وتخبأ غلايين ، وسكاكين وشوك وملاعق وأمشاط ومرايا صغيرة فى أطواق ذراعيها وكل هذه الأشياء أجنبية جىء بها من خارج القرية ولا تستعمل إلا لتزيين العرائس . ثم يوضع فوق جبينها تاج براق من أسنان الكلاب وقد رصت بداخله أمشاط صغيرة من الريش .

وبعد ذلك تلصق بأحزمة الذراعين أمتار من شرائط القماش وريش

عصفور الجنة . وأما حلمات أذنيها المنتفخة فقد أثقلتا بأكداس إضافية من أسنان الـكلاب ، وكانت اللمسة الأخيرة فى عملية تزيين العروس ، أن أدخلت عظمة طويلة دقيقة من خلال ثقب فى حاجز أنفها كما تدلى قرط يبلغ طوله ثمانية عشر بوصة من أنفها صنع من الصدف والعظم وأسنان الـكلاب .

وتستسلم العروس لعملية التجميل هذه كما لو كانت عروساً من القطن ، فهى تستدير أو تنثنى إذعاناً لتعليمات النسوة ، وفى تلك الأثناء يصل إلى سمعها عدة أصوات من الخارج فقد حضرت قريبات زوجها لأخذها ، وتحنى العروس رأسها المثقل بما يحمله ، ولـكن لا يدخل مباشرة بل تنشب معركة عنيفة تدور حول حجم القارب وهل هو مناسب أم لا . ويتتابع توافد نساء أخريات فى زوارقهن الصغيرة ولـكن يبدو أنهن جميعاً سوف يعدن فى قارب العروس و بعد مناقشة حامية تنطلق امرأتان لإحضار قارب أكبر بينما تنتظر الأخريات رجوعهما فى الشرفة ، وتنصت العروس فتستطيع أن تتبين من بين الأصوات صوت عمة زوجها وهى وسيطة أرواح مشهورة ، وهى تسخر روح أحد الـكلاب فى تنفيذ ما تريده . أما باقى الأصوات فـكلها غريبة عليها . ولم يكن بالبيت أية بنات صغيرات بل كل الحاضرات نساء متزوجات ، وهى تعلم ذلك مما شاهدته من قبل فى القوارب التى كانت تسير بالعرائس إلى « رحلة الثدى » .

وأخيراً تصل المرأتان بالقارب الـكبير و يقف إلى باب البيت وتساعدها أمها وخالتها على الوقوف وتسير منحنية بعض الشىء تحت ثقل الثروة التى تغطى جسمها ، وتسرع بها النساء نحو القارب فيدفعنها إلى السلم ومنه إلى الرصيف وهى فى كل هذه الأثناء لا تنظر إلى أى شخص وحتى إذا همست فلن يجيبها أحد .

وينذر البحر بهبوب عاصفة و ينطلق القارب متمايلا فى مياه غير عميقة . وتنظر العروس إلى المجاديف التى تبرق بسرعة تحركها أيد قوية كما تلحظ إحدى هذه الأيدى وقد حلى معصمها بسوار جديد من الخرز ولـكنها لا تنظر إلى وجه صاحبه المعصم ولا إلى وجوه الآخرين .

والمسافة من البحيرة إلى بيت الزوجية قصيرة ، وهو البيت الذى لا يسمح للزوج بالإقتراب منه فى تلك الليلة .

ثم يصدر الأمر عن أم الزوج ، فتصعد العروس درجات السلم وتجلس منعزلة كئيبة فى أحد أركان القاعة وفى الحال تهجم عليها كل خالات وعمات زوجها ، فينتزعن أمشاط الريش من شعرها ، و يمزقن الأطواق من حول ذراعيها يفتشن فيها عن الأمشاط والمرايا وغيرها وقد تسبب عن تكالبهن ولهفتهن فى البحث أن كسر غليونا خزراً فجرح ذراع الفتاة . ولـكن أحداً من النساء لا يهتم بالأمر بل يعلقن على عدم صلاحية الغليون المـكسور وقلة ذوق أهل العروس الذين بعثوا ضمن هداياهم غليوناً مكسوراً . وتعقب إحدى العجائز بطريقة لاذعة عن عائلة العروس وأنه لا ينتظر منها الكثير فى اليوم التالى يسلم أهلها ما حملوه معهم من جهاز العروس . وتضيف إلى أن معظم القدور التى جاءت معها صغيرة و بعضها به شروخ وأنها لم تحضر معها إلا عشر قطع من الثياب . وتتمتم شمطاء أخرى ، ساخرة من أقارب العروس من الرجال ، وأن أخاها الأكبر لم يبدأ بعد فى دفع مهر عروسه أما أخاها الأصغر فإنه لم يقرر حتى الآن قراراً بشأن زواجه .

وتجلس العروس فى ركن الحجرة وقد ملأها الخزى والغضب لما تسمع ، وقد مال التاج البراق من أسنان الـكلب فحجب إحدى عينيها . وأخيراً تخلى النساء سبيلها كما تخلى الطيور الجارحة سبيل الفريسة بعد أن تحولها إلى عظام نخرتها بمناقيرها و يلتفتن إلى الجزء الثانى من عمل ذلك اليوم وهو تقسيم حزم الساجو الأخضر التى جاءت مع العروس هدية من أقاربها ، وهنا تنشب معركة كلامية جديدة عمن تقوم بعملية التوزيع لأن من تقوم بهذه العملية لا بد وأن تراعى أن يكون نصيب كل من الحاضرات لائقاً بمكانتها حتى ولو كان هذا على حساب نصيبها الخاص . وتجتمع النسوة حول حزم الساجو و ينسين العروس

التى تجلس فى مكانها وقد تجردت من زينتها وانفردت بنفسها فى هذا الحشد من النساء الغريبات المتوحشات الجشعات .

وفيما بعد يذهب بعض النسوة إلى بيوتهن بينما يبقى البعض الآخر لقضاء الليل مع العروس . ويعرض النسوة الطعام على العروس ولكنها ترفض ، وتهدأ النار فى المدفأة ويستعد الجميع للنوم . وإلى تلك الساعة لم يتحدث إليها أحد ولم تتحدث هى إلى أى شخص . وإذا حدث وصحا شخص أثناء الليل وحرك النار لحظة فلا بد أن يلاحظ أن العروس لا زالت مستيقظة وأنها لم تنم بعد لأنها بطبيعة الحال تشعر بالخزى والحياء .

وفى الصباح الباكر يقبل أقاربها سراً لاصطحابها إلى بيتها . وتتزين العروس مرة أخرى وتطلى بالدهون ثم تتلو إحدى قريباتها رقية (تعويذة) حول العروس لتكون قوية ثرية ذات نشاط فى استثمار الثروة وتبادلها ، وفى هذه المرة نجد فى القارب الذى تركبه العروس سريراً مرتفعاً ، مالت إحدى أرجله وتدلت إلى جانبه . ويشير أقارب الزوج إلى هـذا العيب فى السرير فيما بعد . ويسير القارب متمهلا عبر ممرات القرية وقد ازدحمت الشرفات بالمتفرجين حتى تصل العروس إلى بيت زوجها . وتنزل إحدى عمات العريس لاستقبال العروس فتجرها جراً وهى تصعد بها درجات السلم . وعلى رأس السلم تنكمش العروس وقد أدارت ظهرها إلى أصحاب البيت فقد رمقت بطرف عينها شاباً يرتدى ثياباً موشاة ، يجلس خلفها وقد مد ساقيه أمامه فى توتر . وتمضى لحظة سكون ثم تتلاحق أصوات وقع أقدام فوق السلم ، فلقد بارح العريس البيت ولن تقع عليه عين قبل هبوط الظلام ، وهنا يتنفس الجميع الصعداء ، ويسمح للأطفال بالجرى هنا وهناك ويعود قارب والدى العروس إلى الرصيف وتساق العروس بسرعة إلى الرصيف وتستأنف الجماعة رحلتها إلى إحدى الجزر الصغيرة حيث يقضون النهار بين إلقاء الخطب وتوزيع الهدايا . وتدق الطبول ويرقص الرجال . كل هذا والعروس قابعة فى قاربها وقد أخفت وجهها بخمارها .

ويقفل الزوج راجعاً إلى القرية فى وقت متأخر من الليل ليأخذ عروسه ، ولا يحس فى قرارة نفسه بأى عاطفة يشوبها الرقة أو الحب نحو الفتاة التى لم يسبق له أن رآها من قبل . أما العروس فإنها تتوجس خيفة من أول تجربة جنسية ستقوم بها ، شأنها فى ذلك شأن سائر بنات قريتها فكلهن يكرهن تلك التجربة الأولى ويخشينها . ولهذا لا تبدأ الحياة الزوجية على أى أساس يمت بصلة إلى السعادة بل أساسها الأول هو الشعور بالخزى من جانب الزوجة والخشونة من جانب الزوج . وفى اليوم التالى تتجول العروس فى صحبة أم زوجها لتجمع الأحطاب والماء وإلى هذه اللحظة لم توجه العروس كلمة واحدة إلى زوجها . وعند ظهورها فى القرية تتجه إليها الأنظار وتسمع هذه العبارة تتردد فى كل مكان تذهب إليه « صدرها ثدييها . . إنهما كثديى عجوز شمطاء ، لقد كان مشد الصدر هو الذى يثبتهما بالأمس » . وينفذ صبر العروس فتنفجر فى عصر ذلك اليوم وتصرخ فى وجه غلام ظل يمشى وراءها حتى دخلت إلى البيت . وعرفت القرية هذه القصة أيضاً ورددتها ، وهى القرية التى سوف تعيش فيها والتى لا تمت إليها بأية صلة .

ويستمر شعور كل من الزوج والزوجة بأنهما ينتميان إلى جماعتين مختلفتين طيلة عهد الزواج ، وهو وإن كان يفتر نوعاً ما بعد انقضاء عدة سنوات على الزواج إلا أنه لا يموت تماماً . فلا يكوّن الأب والأم والأولاد وحدة مترابطة متعاطفة تواجه الحياة . ففى معظم الحالات يعيش الرجل فى قرية بين عمـاته وأخواته ، يسكن معهم أو بجوارهم ويرتبط بهم بأوثق الصلات . لقد تلقى على أيديهم كل مكافآته منذ الطفولة وهم الذين أطعموه وهو جائع ، ومرّضوه وهو عليل ، ودفعوا عنه غراماته وهو مذنب ، وتحملوا ديونه حين استدان . إن أرواحهم من أرواحه ، ومحرماتهم هى نفس محرماته ، والرباط بينه وبينهم وثيق متين .

أما زوجته فشخص غريب عنه ، فهو لم يخترها ولم يفكر فيها مرة واحدة بدون أن يشعر بالخزى والعار . وبسببها كان يضطر إلى الاختباء فى قاع قاربه

أن يضغط على أمه وخالاته لمساعدته ، وبذلك تضطره ظروفه الجديدة وهو الأمر القاهر دائماً إلى أن يتودد ويرجو ويتوسل ، ويشتد به القلق لئلا يستطيع أن يرد ديونه أو أن يردها بما لا يليق بمركزه ، وخلال هذا كله تنهمك الزوجة فى صنع أشغال الخرز لإخوتها ، يحدث هذا فى الوقت الذى يدور الزوج على بيوت أخواته يرجو ويتوسل ، ويزيد هذا فى اتساع الهوة بين الزوجين .

وقبيل مولد الطفل بأيام قلائل يستلهم أخو الزوجة أو عمها أو ابن عمها المكان المختار للولادة ، فإذا لم تكن لديه القدرة على أخذ عظام الاستخارة بنفسه قام بذلك أحد الأقارب . وتذكر تلك الاستخارة ما إذا كان الطفل يولد فى بيت أبيه أو فى بيت خاله . فإذا قالت الاستخارة بأن يجب أن يولد فى منزل أبيه كان على الأب أن يخلى البيت ويذهب إلى بيت أخته ، ويحدث هذا إذا كان الزوجان يسكنان فى بيت مستقل وهى حالة نادرة عند ولادة الطفل الأول . وينتقل صهره وزوجته وأولاده إلى بيته . أما إذا أشارت الاستخارة بولادة الطفل فى بيت شقيق الزوجة مثلا ، فإن الزوجة فى هذه الحالة تنتقل من بيتها إلى بيت أخيها الذى قد يكون فى قرية أخرى . ومنذ اللحظة التى تشعر فيها الزوجة بآلام الوضع يجب على الزوج ألا يرى زوجته وأقصى ما يسمح له به أن يحضر سمكا يضعه على رصيف البيت وينطلق إلى سبيله . ويظل الزوج هائماً على وجهه ما يزيد عن الشهر يبيت فى مختلف بيوت أخواته ولا يمكن بحال من الأحوال أن يحضر لرؤية طفله والعودة بزوجته إلا بعد أن ينتهى أخو الزوجة من جمع كمية من الساجو قد تبلغ طناً أو طنين لإقامة حفل رجوع الزوجة إلى زوجها .

وتكون الزوجة خلال تلك الفترة مشغولة بطفلها الجديد ، ولا بد لها أن تظل مختبئة شهراً بأكمله تخفيها عن الأنظار ستائر من الحصير ، ويجب أن يطهى طعامها على نار خاصة فى أطباق خاصة ، ولا يمكنها الخروج من البيت إلا تحت جنح الظلام فتنسلل خفية لتستحم بسرعة فى البحر ورغماً عن هذا كله فإن الحياة تبدو لها أكثر بهجة مما كانت عليه منذ زواجها . ولا يمر يوم بدون زيارة تقوم

بها إحدى قريباتها لها فتجلس وتتحدث معها فترة من الوقت وإذا كانت هذه القريبة مُرْضعاً فإنها ترضع الطفل الجديد من ثديها خلال الزيارة . وتطبخ زوجات أخواتها لها ، ويحضرن لها البندق وأوراق الفلفل ويعاملنها كما لو كانت فى دور النقاهة . أما زوجها الذى لم تتعلم كيف تحبه فإنها لا تفتقده ، وهى سعيدة بطفلها تضمه إلى صدرها ، وتمرر شفتيها المزمومتين على ذراعيه الصغيرتين .

فى اليوم السابق للوليمة الكبرى للساجو وما يقدم فيه من قدور يقام حفل صغير لأهل البيت فيجتمع إخوتها وزوجاتهم وأخواتها ويجهزون أطعمة خاصة تضم أصناف سمك المحار ونبات التارو ، والساجو ، وفاكهة بيضاء تسمى أونج ung ونوعين من المهلبية . ومن بين هذه الأنواع نوع يسمى tchutchu تشوتشو ويبلغ عرضه تسعة أو عشرة بوصات وسمكه بوصة واحدة . وبعد أن يطهى الطعام يغرف فى صحون من الخشب المزركش ويوضع فوق الأرفف إلى ما بعد الانتهاء من تجميل الأم وتزيينها . وتبدأ عملية التزيين بأن يصبغ شعرها الذى يكون قد نما خلال فترة الحمل باللون الأحمر ، وتطوق ساقا بخلاخيل من الخرز وعقود من أسنان الكلاب ، وكل هذا من قبيل التفاخر ولا يعتبر دينا على أهل الزوجة . وترص صحون الطعام على رصيف القوارب وتنطلق جماعة من نسوة الأسرة والفتيات الصغيرات إلى إحدى الجزر الصغيرة ، وهى عادة جزيرة يملكها أحد أجداد الأم ، وهنا تتقدم عمتها أو جدتها لأبيها وتصفعها على ظهرها بإحدى فطائر التشوتشو وتهيب بأرواح العائلة أن يهبوها الصحة والعافية ، وألا تنجب أطفالا آخرين حتى يستطيع هذا المولود أن يمشى وأن يعوم . ثم يشترك جميع الحاضرين فى الوليمة وتعود الأم إلى طفلها بينما ينطلق الآخرون يوزعون صحون الطعام على بيوت المعارف والأقارب من أهل القرية . وتنام الأم لآخر مرة بمفردها مع وليدها .

وفى اليوم التالى — وهو يوم مرهق لما يتخلله من طقوس واحتفالات — يبدأ الصباح بطهو الطعام وإعداده للحفل الكبير . وترى حزم الساجو محملة فى

القوارب فى كل مكان والخنازير مجهزة للنقل والمبادلة و يعـاد تزيين الأم مرة ثانية ، وهى ترتدى فى هذه المرة ثو باً موشى بالحلى أشبه بالثوب الذى كانت ترتديه فى حفل عرسها . و يصبغ شعرها لآخر مرة إذ أن عليها أن تحلقه فى اليوم التالى كما يتناسب ومركزها كزوجة فاضلة .

و يصطف موكب القوارب التى يبلغ عددها خمسة عشر أو عشرون قارباً أمام رصيف البيت ، وفى أثقل القوارب حمولة توضع أجراس يضرب عليها ركاب القارب بقوة ، وتخطو أم الطفل وقد ناء جسمها بما يحمله من أثواب ثقيلة فتركب القارب الأخير ثم تتحرك القوارب فى بطء وتدور حول القرية بينما تنتقل الأم من قارب إلى آخر إذ يجب أن تخطو على كل حزم الساجو من أولها إلى آخرها ، إذ أن هذه الحمولة قد جمعت تكريماً لها . وتمشى الأم وقد بدا عليها الإعياء والتعب وخلا وجهها من أى تعبير بالسرور لعودتها إلى زوجها . بل كثيراً ما تدعى الزوجة المرض أو أن طفلها يبكى من أجلها فتترك الاحتفال وتقفل عائدة إلى البيت . و يمضى المحتفلون فى مرحهم ولهوهم ولا يفتقدون المحتفل بهـــا ، ولا يؤثر فيهم غيابها . ولا عجب فهى مجرد رهينة تهيىء لهم فرص المبادلات التجارية واستثمار المال .

وأخيراً و بعد هبوط الظلام يأتى موعد القيام « برحلة الثدى » والعودة إلى بيت الزوج . وهى رحلة مريحة بالنسبة لمن يصاحب الأم من النساء ولذلك تحدث مشادات عنيفة بين النسوة الحاضرات عمن تقوم منهن بتسيير القارب . وقد تستمر المشادة أكثر من ساعة تجلس الأم الصغيرة خلالها وقد بدت عليها الكآبة والضجر . ونرى البيت الذى أقيم فيه الحفل وقد أظلم إلا من بعض ألسنة اللهب المتراقص ، وامتلأت الأرض بصحاف الطعام وجموع الأطفال . وتتعالى أصوات النسوة الجشعات فى جو البيت المشحون بالدخان و يصلن فى النهاية إلى حل وسط فيقود جمع من النسوة الأم الصغيرة إلى أسفل السلم ثم يدفعن بها دفعاً إلى القـارب . وتهب عاصفة وتتمايل القوارب وتتصادم بالقرب من

الرصيف ، و يحجب هبو بها مرآى البيوت عن الأنظار . وتبدأ النساء المدربات فى تسيير القارب إلى بيت أخت الزوج حيث يعيش الزوج منذ افترق عن زوجته . وتصعد الزوجة الرصيف وتدخل البيت وتجلس فى مكانها لا تتحرك ، وقد يكون الزوج موجوداً بالبيت فى تلك الساعة ولكنه لا يُشعر أحداً بوجوده و بعد فترة قليلة تترك الزوجة البيت مرة ثانية إلى القارب وتعود إلى طفلها ، إلى البيت المزدحم والمعارك الناشبة حول مشكلة توزيع الساجو ورد تعويضاتها المتعلقة بالرحلة . ولا ينصرف الضيوف قبل تصفية الحساب وتكون زوجة أخيها هى آخر من يغادر المكان فتجمع حاجياتها تدمدم متذمرة لأن أطفالها أصيبوا بالمرض من تأثير أرواح الغرباء . وفى النهاية تذهب الزوجة الصغيرة لتنام وقد أضناها التعب وفى وقت متأخر من الليل يقفل الزوج عائداً إلى بيته .

وتبدأ حياة من نوع جديد فالأب يهتم اهتماماً شديداً بالطفل الجديد فهو طفله وتربطه بأقاربه صلة الدم وهو تحت حماية أرواح أجداده . ولذلك فهو يراقب زوجته بغيرة واهتمام ، و يلومها إذا غادرت البيت و يعنفها إذا سمع الطفل يبكى ، و يشعر الزوج أن فى استطاعته من الآن أن يكون أكثر خشونة مع زوجته فإن المولود الجديد يربطها ببيتها و يجعل هربها أقل احتمالا . و يظل الطفل وأمه محبوسين فى البيت ما يقرب من العام الكامل ، وخلال هذه المدة يكون الطفل ملكا لأمه ، ولا يحمله الأب إلا لماماً كما أنه يخشى أن يأخذه معه إلى الخارج .

ولكن حالما تقوى ساقا الطفل على حمله ، وتصبح ذراعاه الصغيرتان قادرتين على التشبث والقبض ، يبدأ الأب فى انتزاع الطفل من أمه و إبعاده عنها . فقد أصبح الطفل فى غير حاجة إلى الرضاعة المستمرة ، كما أن الزوج يتوقع خروج زوجته إلى العمل حيث تعمل فى الأحراش وفى جمع الساجو ، وفى صيد سمك المحار الذى يخرج النساء من أجله فى رحلات بعيدة . لقد ظلت الزوجة فى نظر زوجها عاطلا كسولا مدة طويلة ، وكما يقول الناس هناك « لا نفع للزوجة متى وضعت طفلا جديداً »

ولن يجدى تعللها بأن الطفل لا يزال محتاجاً اليها ، ويسر الزوج باللعب مع طفله فيقذف به إلى الهواء ويدغدغ له تحت إبطيه ، وينفخ بلطف فى جلده الناعم العارى . لقد قام الزوج فى الثالثة صباحاً فذهب للصيد وظل منهمكا فيه طيلة ساعات الفجر الباردة ثم جذف إلى السوق وباع بعض صيده بربح طيب من التارو والبندق وأوراق التارو . والآن وقد عاد إلى بيته فهو حر فى وقته خلال معظم ساعات اليوم وهو يشعر بالرغبة فى النعاس ولكن له ميل إلى ملاعبة طفله .

إن على كل امرأة واجبات نحو أخيها فقد كد فى سبيلها خلال فترة حملها ، والآن يجب أن توفى بدينها عن طريق مساعدته فى واجباته نحو أهل زوجته وبهذه الطريقة نرى أن كل الظروف تفرض على الزوجة أن تكل أمر طفلها إلى أبيه وتنطلق إلى حال سبيلها فيدرك الطفل وهو بعد فى سن مبكرة هذا الموقف ويحسن استغلاله ، فهو يرى بوضوح أن الأب هو أهم شخصيات البيت على الإطلاق ، فهو الذى يلقى بالأوامر إلى زوجته ، ويضربها إذا لم تسمع كلامه . والأب أكثر تقديراً للطفل وحدباً عليه ، ومن المألوف أن نرى طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها تترك أحضان أبيها وتسرع إلى أمها فتروى ظمأها من ثديى الأم ثم تنثنى راجعة مرة أخرى إلى أبيها تنكمش فى أحضانه وهى تنظر وتبتسم إلى أمها فى استعلاء . وتشعر الأم بطفلتها تتباعد عنها شيئاً فشيئاً فهى تنام ليلا مع أبيها وهى تمتطى ظهره أثناء النهار ، وهو يأخذها معه إلى الجزيرة الظليلة التى يتخذها الرجال منتدى لهم ، وحيث يقوم الرجال ببناء القوارب وصناعة فخاخ الصيد . وترى الطفلة أن أمها لا تستطيع الحضور إلى تلك الجزيرة إلا خلسة حين تأتى لإطعام الخنازير حين لا يكون بها أحد من الرجال . فبينما تخجل الأم من الذهاب إلى هناك ترى الطفلة أن بإمكانها أن تذهب مع أبيها متى شاءت حيث تنتقل بحرية من مكان إلى آخر أو تثب بين القوارب التى لم يتم صنعها بعد .

وإذا أقامت الأسرة وليمة ، كان على الأم أن تختبىء فى مؤخرة البيت وراء حصير يفصل بينها وبين ما يجرى فى الاحتفال . أما هى — الطفلة — فتستطيع

أن تجرى فى كل أنحاء البيت ، وإلى أبيها حيث يجلس ويشرب الحساء ويقدم ثمار البندق . فالطفلة تدرك إدراكا تاماً أن أباها هو محور الاهتمام وأنه لا يقف حائل دون مشاركته طفلته فى لهوها .

أما أمها فهى دائماً مشغولة ، ومكانها دائماً داخل البيت حيث يتصاعد الدخان ، وليس لها أن تذهب إلى جزيرة القوارب ، ولذلك فلا غرابة إذا كان الأب هو الرابح دائماً حين توازن الطفلة بينه وبين أمها فكفته ترجح كفتها منذ البداية .

ويحدث أن تحمل الأم للمرة الثانية ، ويكون معنى هذا أن طفلا جديداً سيصبح ملكا لها قرابة عام أو أكثر ، ويعجل هذا بانسحاب الأم من المعركة وتبدأ فى فطام الطفل الأول . ولكن عملية الفطام تتم ببطء ، ويتغالى الطفل فى تدلله لا سيما وقد اعتاد أن يأكل أنواعاً أخرى من الطعام رغماً عن إعطاء الأم ثديها له كلما طلبه . وتبدأ الأم فطام إبنها بأن تربط الأم خصلة من الشعر حول حلمة الثدى كى تصده عنها . ويستمر الفطام خلال فترة كبيرة من الحمل ويتأثر الطفل بإعراض أمه عنه مما يزيده تعلقاً بأبيه .

وفى ليلة ميلاد الطفل الجديد يتم انتقال الطفل الأول نهائياً إلى أبيه ، ويدعم مركز الأب ، واعتماد الطفل عليه ، الإطار الاجتماعى الذى يحدث فيه مولد الطفل الجديد ، فإن الأم تكون منشغلة بالطفل الجديد ولذلك يبقى الطفل الأول طول الوقت مع الأب ، فهو الذى يغذيه ، ويواليه بالرعاية ويلاعبه طول النهار ، وليس عليه من الواجبات أو المسئوليات فى تلك الفترة إلا القليل ، ولذلك يتيسر له الوقت الكافى لتدعيم أهميته فى حياة الطفل ، ويعيد هذا الحال نفسه كلما ولد للأسرة طفل جديد وترحب الأم دائماً بالقادم الجديد لأنه يعطيها حق الاحتفاظ به عاماً بأكمله ، ولو أن الأب كما هى العادة يأخذه فى تمام هذه المدة . ويحدث فى بعض الأحيان أن يبدى الأب اهتماماً خاصاً بأكبر أولاده ولا سيما إذا كان هذا الطفل ولداً وكان أصغرهم بنتاً ولكنه عادة يخصص مكاناً فى قاربه لكل فرد من أبنائه .

وهو لا يطرد أولاده الكبار من قاربه ولكنه يصنع لكل واحد منهم زورقاً صغيراً خاصاً به . ويلعب الأطفال فى زوارقهم هذه ولكن عند أول صدمة أو انقلاب للزورق ، يمكنهم أن يعودوا سباحة إلى دائرة حنان أبيهم وعطفه .

ولما كان هناك من العوامل ما يساعد باستمرار على تقوية العلاقة بين الأب وطفله ، فإن الأم تتذكر دائماً واجباتها الأقل أهمية ، فإذا مرض أبوها فى قرية أخرى وأبدت رغبة فى الذهاب لزيارته فليس لزوجها أن يمنعها ، ولكن له أن يمنع طفله البالغ الثانية من عمره من مصاحبتها ، وفى غياب الزوجة تتولى إحدى النسوة من قريبات الزوج مهمة إرضاع الطفل ، ويتولى الأب العناية به ورعايته ، وتذهب الأم فى رحلتها وهى مشتتة بين عاطفتها نحو أبيها وبين أمومتها ، وهذا مثال لما يحدث فى حالة وجود علاقات طبيعية بين الزوجين ، أما إذا نشب خلاف بينهما فإن الزوجة تأخذ أطفالها معها إذا فرت من بيت زوجها ، ولكن للأطفال حتى الذين لم يتجاوزوا الخامسة أو السادسة أن يختاروا بين الأب والأم وهم فى الغالب يفضلون البقاء مع أبيهم .

وقد تذهب الزوجة بصحبة زوجها وأطفالها لزيارة بلدتها فى أحد الأعياد وترى الزوج يحرم عليها أن تزور بيت أبيها لأن أحد أطفاله مرض هناك فى إحدى الزيارات ، ويعتقد الزوج أن الأرواح تعادى أطفاله ولذلك فهو يصر على ألا يدخل طفل من أطفاله ذلك البيت مرة أخرى ، وعلى ذلك تبقى الأسرة فى ضيافة بعض أقارب الزوج فى الطرف الآخر من القرية ، ويمكن لوالدى الزوجة أن يزوراها هناك كلما شاءا ، كما تستطيع الزوجة أن تذهب إلى بيت أبيها ، أما الأطفال فلا يذهبون ويسرى هذا التصرف من الأب . على الابن بالتبنى ، والابن الأصيل . والملاحظ أن حوالى ربع أطفال بيرى أطفال بالتبنى ، وفى نصف هذه الحالات يكون والدا الطفل الحقيقيين قد توفيا ، وعلى أية حال فإن والدى الطفل الحقيقيين يتنازلان عن حقوقهما فى الطفل إذا حدث التبنى والطفل لا يزال رضيعاً ، وقد يتبنى أخ أصغر طفل أخيه الأكبر وينادى الطفل عمه

بقوله « أبى » كما ينادى أباه الحقيقى بقوله « جدى » وإذا تبنت أخت أختاً صغرى ، فإن الأخت الصغرى تنادى أختها الكبرى بقولها « أمى » وتنادى أمها الحقيقية بقولها « جدتى » وهناك حالة جديرة بالذكر مات فيها الأب بالتبنى ، واستعاد الأبوان الحقيقيان ابنهما فصارا يخاطبانه باسم « الطفل اليتيم » أما الأطفال الذين يتبناهم فرد من كبار العائلة فإنهم ينادون أبويهم الحقيقيين بأسمائهم العادية . وينتمى الطفل المتبنى إلى عشيرة أبيه بالتبنى فتصبح أرواحهم أرواحه ومحرماتهم محرماته . أما أمه بالتبنى فلا يرتبط معها بأى رباط قوى فيما عدا أنها المسئولة عن إطعامه . ويرتبط بإهمال نصيب الأم فى طفلها المتبنى اتجاه آخر ملفت للنظر .

وقد وردت كتابات كثيرة تثبت أن حق الأم فى طفلها طبيعى لأنه لا مجال لإنكار أمومتها له . أما الأب فكثيراً ما يثار الشك حول أبوته لطفل من أطفاله وعلى هذا فإن الأبوة أقل أهمية فى إثبات نسب الطفل . وهناك الكثير مما يستشهد به تأييداً لهذا الرأى .

أما قبيلة مانوس فهى تمثل نظرية أخرى تعارض هذا الرأى كل المعارضة على الرغم من وجاهته فى نظر كثير من الكتاب المعاصرين . فالأبوة الجسمية معروف أمرها . ويعتقد الأهالى هناك أن الطفل هو اختلاط السائل المنوى بعجائن من دم العادة الشهرية ولكن هذه الأبوة لا تهمهم بتاتاً فإن الطفل المتبنى تكون رابطته بأبيه بالتبنى أقوى من رابطته بأبيه الحقيقى ، كما أنه ملك لأرواح الأب الذى تبناه ، ولذلك كثيراً ما يتزوج الرجال بنساء فى أشهر الحمل ممن فقدن أزواجهن أو طلقن ، وحين تلد المرأة فإن زوجها يرحب بالطفل كما لو كان طفله الخاص ومن صلبه هو . وإذا كان الأب الحقيقى لا يزال على قيد الحياة ، فإنه لا يطالب زوجته التى هجرته بطفله منها . وقد تعلم القرية بأسرها من هو الأب الحقيقى لطفل من الأطفال ومع ذلك لا يذكرون ذلك إلا إذا ألح السائل فى سؤاله . ولا يذكرون الحقيقة للطفل ما لم يتذكر بنفسه أنه بالتبنى .

أما الأمومة فمسألة أخرى تختلف تمام الاختلاف ، فالطفل سواء كان حقيقياً أو بالتبنى فإن ذلك لا يؤثر فى علاقة أبيه به أو فى حقوقه عليه . أما الأم فلا يربطها بطفلها إلا صلة الدم ولذلك لا يثار الجدل حول أحقية الأب بابنه أما الأم فيثار دائماً النزاع حول أحقيتها فى أمومتها للطفل ، ونجد إحدى النساء تقول وهى تضم طفلها إلى صدرها بقوة — «هذا طفلى أنا . لقد حملته ونما جسمه بداخل جسمى . ورضع من ثديى هذين . إنه ملكى أنا . أنا . ملكى أنا » ومع ذلك يقول عنها الجميع أنها تكذب ويشيرون إلى أمه الأصيلة قبل أن تتبناه هذه المدعاة فى طفولته الأولى .

إن الاعتداء على أمومة إحدى النساء ليثير نفس الغضب والاستنكار الذى يثيره عندنا الشك من نسبة أحد الأطفال إلى أبيه .

ويعود هذا الاتجاه العنيف إلى الصلة بين الأمومة والوساطة الزوجية . فإن المرأة التى تقوم بدور الوسيط لا بد وأن تكون أماً فقدت إبناً من أبنائها الذكور ، والقيام بهذا العمل هو الوسيلة الوحيدة التى تمكن المرأة من السيطرة على أهل بيت زوجها . فإن عليها يتوقف ما تقرره الأرواح ، هذا بالإضافة إلى أنها هى التى تترجم إرادة الأرواح ، عن طريق الصفير الذى يخرج إلى فمها ، من نصائح ، ودوافع تناسب دائماً أغراضها الخاصة . ولا يمكن لروح الطفل أن تتقمص أمه بالتبنى .

ولذلك من المحتمل جداً أن الإصرار على أن تكون الوسيطة أماً حقيقية يكون نابعاً من الاتجاه السائد بالنسبة للأمومة بالدم . وحتى هذا الرباط بين الأم وطفلها من الممكن جداً فصمه ، وخير مثال لذلك فتاتان هما ساليكون Salikon ، نجاسو Nogasu . لقد كانت هاتان الفتاتان من أملح فتيات القرية وأبهجهن منظراً ، وكان عمر ساليكون يقترب من الرابعة عشرة

أى من مرحلة البلوغ ولذلك كان يجهز أبوها بالتبنى ثمار جوز الهند للاحتفال بهذه المناسبة . أما نجاسو فكانت فى الثانية عشرة ذات شعر مجعد وعينين براقتين ، وخطوات سريعة . وكانت نجاسو تجيد السباحة كالفتيان تماماً كما كانت تشترك فى معاركهم وكانت أم الفتاتين أرملة سمينة ربعة القوام ولا يزال بها مسحة من الوسامة كما كانت ماهرة فى مختلف الصناعات المحلية . وكان زوجها بانو Panau رجلا موسراً ذا مركز وأهمية كبيرة فى المنطقة ، وقد كان على وشك دفع مال العيد الفضى لزواجه عند ما مات فجأة . ولما كان موته هكذا فى شرخ الشباب ، وبصورة مفاجئة ، فقد توقع الجميع أن تشعر روحه بالغضب وساد القرية فزع عظيم من مغبة غضبه هذا . وانتقل البيت الذى كان يقيم فيه إلى أخيه الأصغر Paleao الذى ناب عن المتوفى فى العناية بأرملة أخيه وبنتيها . وصار يدعو الأرملة « أمى » كما أصبحت البنتان فى وصايته .

وقد تمت خطوبة الإبنة الكبرى ولذلك كان عمها باليو يجمع الخنازير والزيت ليوفى بنفقات الخطوبة والزواج . أما الأم وهى محل احترام أهل القرية فقد كانت شديدة التعلق بالبنتين ولذلك عنيت بتربيتهما أكثر من أى أم أخرى بالقرية كما كانت تعنى بمنظرهما وثيابهما حتى تبدوان فى أجمل هيئة . ولذلك كنا نرى الفتاتين دائماً فى جونلا من القش دقيقة الصنع وتحليان أيديهما بأساور من الخرز من صنع أمهما .

ولمهارة الأم ونشاطها ، كانت مرغوبة حيثما حلت ، ولذلك كانت تحل بكل مكان فى القرية فأحياناً تعيش فى بيت باليو وأحياناً فى بيت أحد أخواتها ، وحيثما تذهب كانت تصطحب ابنتيها معها اللتان تكونان هما وأمهما أروع صور التآلف بين الأم وأطفالها .

ثم جاء اليوم الذى طمست فيه معالم هذه الصورة الساحرة فإن الأم كانت لا تزال شابة يسعى الكثيرون فى طلب يدها سراً لأن أقاربها لم يجرأوا على الموافقة على زواجها مرة ثانية خوفاً من انتقام شبح زوجها الأول . كما أنهم فى نفس الوقت لم يكونوا يريدون إغضابها فيفقدوا ما تقوم بصنعه من روائع المصنوعات .

وأخيراً اختارت الأم زوجها بنفسها ، وفرت معه خفية إلى إحدى القرى البعيدة . وفى الحال تلاشت كل المشاعر الطيبة التى كان يحملها أقاربها وأقارب زوجها لها .

وهاج الجميع لفرارها وملأهم الرعب من روح زوجها المتوفى ، وانطلقت لعناتهم تلاحقها وكان أشدهم غضباً وأقواهم ثورة عليها بنتاها اللتان رفضتا أن تقابلاها ، وظلتا دائماً تذكرانها باشمئزاز واحتقار .

وقد حدث قبل فرار الأم أن مرضت نجاسو ، وشارفت على الموت من أثر الحمى ، وقد ترجم الجميع مرضها بأنه انتقام من أمها وأن البنت لا بد سوف تموت نتيجة لجريمة أمها الشريرة التى قدمت سعادتها الخاصة على سعادة بنتيها . وعاشت الفتاتان بعد ذلك مع عمهما وقد محيت صورة الأم تماماً من قلبيهما .

الفصل الخامس

الطفل وعالم الكبار

يعيش الأطفال فى مانوس فى دنيا صنعوها بأنفسهم ولا دخل للكبار فيها . ويقوم عالم الصغار هذا على أسس تختلف كل الاختلاف عما نجده فى دنيا البالغين .

فأهم ما يشغل بال الفرد البالغ فى مانوس هو تجارته سواء كانت مع الجزر البعيدة ، أو مع أهل القرى ، والمناطق المجاورة . وهو يتاجر مع أصهاره أو مع أقاربه ، ولذلك تجد سطح البيت وقد رصت فوقه القدور ، كما غصت الأرفف بمختلف منسوجات القش وامتلأت الصناديق بنبات أسنان الكلاب المجففة وتقوم أرواح الأجداد بالإشراف على أموال أحفادهم وتعاقبهم إذا تهاونوا فى استغلالها أو أساءوا التصرف فيها . وإذا تحدث الرجل منهم عن زوجته فلا بد أن يشير إلى ما دفعه من صداق ، وإذا كان طرفاً فى مشادة تشدق متفاخراً بعدد ما عقده من صفقات مالية بمناسبة زواجه . وإذا كان الحديث عن إحدى أخواته ردد قائلا — إننى أهديها الساجو وهى تهدينى مصنوعات الخرز — وإذا جاء ذكر أبيه المتوفى ، فلن يفوته أن يعدد النفقات الباهظة التى دفعها فى جنازته . وإذا أغضب إحدى أرواح جيرانه ، فإنه يكفر عن عمله بتقديم القرابين من الخنازير والزيت والصناديق والفئوس . فكل نشاطه يدور حول المقايضات والصفقات المالية ، وأوثق علاقاته ما كان متعلقاً بتلك المعاملات . كما أن معرفته بالبلاد الأخرى وتقديره للأرواح الحافظة له ، يتركز كله حول ما يعقده من الصفقات Kawos . ونفس هذه الكلمة تستعمل للتعبير عن الصداقة . وبهذه المناسبة نذكر أن الصداقة هى الأخرى تقع تحت سيطرة المادة فأصدقاء الشخص

هم من يتاجرون معه ، أو يساعدونه فى عقـد الصفقات التجارية . فإذا شوهدت قدر جميـلة من الخزف أو جونلة أبدع فى نسجها ، فإن ما تناله من الإعجاب والتقريظ يكون على حسب قيمتها النقدية . كذلك بالنسبة لميلاد أحد الأطفال ، أو بلوغ ولد أو بنت أو عقد خطوبة أو زواج أو موت أحد أفراد القرية كل هذا يدخل فى حسابه وتقديره ما سوف يتكلفه من نفقات من نبات أسنان الـكلاب أو قروش المحار أو الخنازير أو الزيت . وتشكل هذه الصفقات وما يصاحبها من تفاخر ومباهاة ومن أحاديث ونوادر أهم الأحداث فى حياة القرية .

وتتسع دائرة التجارة أو تضيق بتتابع الأجيال فالرجـل وأخته يساعدان بعضهما بالتبادل ولـكن هذا النوع من التعاون لا يعنى تقاسم الثروة . فان أبناء الأخ وأبناء الأخت قد يكونون بعد ذلك ما هو أقرب إلى الشركات التجارية التى تتولى تمويل الزيجات التى تعقد بين أبنائهم و بناتهم . فأبناء العمومة يتجرون مع بعضهم ولا بأس عليهم إذا تمازحوا ، فأشاروا إلى الحياة الخاصـة لبعضهم . أو إذا رفعوا التكليف فى الحديث ، ورفعوا كل الحواجز . وبذلك يخف بعض التوتر الناشىء عن التنافس الاقتصادى . وعند ما يكون أحـد الأشخاص على وشك أن يدفع مقدماً مبلغاً من المال إلى أحد أبناء عمومته قد تبلغ قيمة عشرة آلاف من أسنان الـكلاب مثلا وعليه أن يستردها فى خـلال عشر سنوات ، فانه يرقص متحدياً مدينه بطريقة بذيئة . وعند ما يتم زواج أبناء هذين الرجلين فان الهوة بينهما تصبح كاملة . فالزوجة تقف فى ناحية والزوج فى الناحية الأخرى ويحرص كل من الزوجين باعتبارهما غريمان فى العمـل على ألا يفصح عن نواياه إلى الآخر .

فاهتمام الـكبار إذن مركز على تجارتهم : على موعد وصول القارب المشحون بثمار جوز الهند من قرية موك Mok أو على موعد وصول شحنة الساجو التى تسلم التاجر ثمنها مقدماً : أو عما إذا كان الاستعداد قد تم للاحتفال « بسبوع أحد الأطفال » . ويظل من يعنيهم الأمر يهرولون طول اليوم فى أنحـاء القرية ،

يستشيرون الأقارب ، ويلحون على المـدينين فى دفع جزء مما عليهم ، أو يصدرون بعض الأوامر ، أو يعقـدون بعض القروض لقاء رهن بعض ما يملـكون . وفى كل من هـذه الصفقات قد يشترك ما يزيد على الخمسة عشر أو العشرين شخصاً وهم دائماً أقارب يمثلون الطرفين . وقد تكون الصفقة صغيرة لا تتعدى مبادلة ثلثمائة رطل من الساجو ولـكنها تعتبر مغامرة من جانب فرد واحد وليست لصالح الجميع وذلك فان أهميتها تقتصر على من يعنيه الأمر[1] .

وفى الأيام السابقة لعقد إحدى الصفقات الـكبرى يكون جميع من فى القرية فى حالة توتر وتوقع شديدتين فمثلا كان بوماسا Pomasa على وشك دفع المتشا Metcha وهو مال يدفعه الرجل الثرى الناجح لزوجته بعد مرور خمسة عشر أو عشرين سنة على زواجه بها ، وقد بدأ الزوج استعداده للاحتفال بهذه المناسبة منذ ثلاث سنوات وهو من مهرة صيادى الترسة ، وكان يبيع كل ما يصيبه إلى سكان الأراضى البعيدة عن البحر و يقبض ثمنها من أسنان كلاب وقروش المحار . ولهذا الرجل أصدقاء من التجار فى الشاطىء الشمالى فـكان يذهب إليهم و يشترك فى رحلات لصيد سمك الأطوم[2] dugong . وكان أخواته وعماته و إخوته

(١) وكما نشترى نحن الأسهم فى الشركات والمؤسسات التجارية أو شركات التصـدير فـكذلك يستثمر أهلى مانوس أموالهم فى الزواج أو بمعنى أدق فى المبادلات الاقتصادية التى تدور حول الزواج . فعند دفع المهر لأحد الشبان ، يساهم عدد كبير من أهل العريس فى دفع قيمة المهر بكميات من أسنان الكلاب وقروش المحار على أن يرد أهل العروس هذه المبالغ فيما بعد فى صورة كميات من الزيت وعدد من الخنازير وفى كل صفقة جديدة تنشأ عن زواج أو خطوبة يمكن لأى عدد من الناس استثمار أموالهم فيها طالما أن فى استطاعتهم الاتفاق مع عدد مماثل من أفراد الطرف الآخر — ناحية العروس مثلا وفى بعض الأحيان يشاهد بعض صغار المولين وهم يحومون حول مكان الاحتفال باحثين عن شركاء . وكما يحدث عندنا حين يتردد المولون فى تمويل شخص أعلن إفلاسه أو مؤسسة تجارية تزعزع مركزها المالى . كذلك يحرص أهل مانوس على ألا يساهموا فى مهر رجل مزواج . بل هم يركزون استثمارهم لأموالهم حول الزيجات الطويلة الأمد والزيجات التى من هـذا النوع لها قيمة كبيرة وتعلو أسهمها المالية دائماً .

(٢) نوع من الثدييات البحرية .

يساهمون جميعاً فى جمع المال اللازم ولكى يتمكنوا من ذلك كان عليهم أن يراجعوا مالهم من ديون ، ويستحثون المدينين على أن يدفعوا ما عليهم . والآن لم يبق إلا شهر واحد على اليوم المشهود . وفى ذلك اليوم يقوم بوماسا بقتل إحدى حيوانات الترسة ويجوب بها أنحاء القرية فى قاربه وهو يضرب الطبول إعلاناً عن نصره . وبعد أن يتم طهى الترسة يبعث بها إلى كل أقاربه ممن يساهمون معه فى إتمام الصفقات ، وفى المساء يجتمع أولئك الأقارب ويحصى بوماسا ما جمع من أسنان الكلاب ويعاير مكاييل قروش المحار .

ويظل إلى نهاية ذلك الشهر لا يؤدى أى عمل وكذلك أهل منزله بل هم يقضون سحابة يومهم يمخرون مياه القرية وهم فى أبهى زينتهم باحثين عن مساهمين آخرين للانضمام إليهم . وتوضع فى مقدمة القارب صفحة طعام خشبية كبيرة ويقف القارب إلى جوار رصيف أحد البيوت فتخرج قريبة لبوتاسا تسكن فى ذلك البيت فتلقى بنصيبها من الصفقة داخل ذلك الوعاء الخشبى . وبقدر ما يضعه كل شخص بقدر ما يكون نصيبه فيما بعد من الزيت والخنازير والساجو . وفى يوم آخر يخرج بوماسا من داره وقد علق فوق ظهره عظام فك أبيه وحمل على كتفه كيساً كبيراً مزركشاً ، ويتوغل فى الأراضى المجاورة حيث يعيش بعض أقاربه بعيداً عن القرية أو قد يخرج جميع أهل بيته فى قارب ويذهبون به إلى قرية أخرى ويعودون ومعهم قاربان جديدان هدية من أبناء عمومتهم .

وفى خلال هذه الإجراءات يكون أهل الزوجة الذين سيقبضون المال منشغلين فى طهو الطعام فيبعثون إلى بيت بوماسا يومياً بصحاف الطعام حتى لا يشغله وزوجته أى شاغل عن مهمتهما الكبرى ، ولا يرى بوماسا إلا مرتدياً أفخر ثيابه ، وفى أحسن حالاته ، ويكون دائماً محور اهتمام الجميع . وعندما يقترب موعد المنشا ، يقوم الزوج بدعوة أهل زوجته ليعاينوا الهدايا التى سيتسلمونها فيما بعد . فنجد النساء والرجال متجمعين فى بيت بوماسا الذى أضىء بالمصابيح الوهاجة والنيران المتراقصة وقد بان تشوقهم إلى رؤية الهدايات «نعم سنهدى نالى Nali ،

وهى زوجة أخ زوجة بوماسا ، هذا العقد من أسنان الكلاب » . وتفحصه نالى بدقة وجشع فتلاحظ كل أوصافه فهناك خمسة أسنان ثم سن مكسوة ثم خرز أزرق يفصل بين الأسنان إلى منتصف العقد حيث توجد خمسة حبات من الخرز الأحمر ثم تتلاحق فى الترتيب حبات من الخرز الأحمر والأزرق على التوالى إلى نهاية العقد . فإذا حدث خطأ ولم تتلق نالى خلال الأسبوعين التاليين هذا العقد ، أقامت الدنيا وأقعدتها وملأت الحى صياحاً وضجيجاً وهى تطالب بحقها فيه .
وبعد عملية عرض الهدايا هذه يعود أهل الزوجة إلى بيوتهم ليستأنفوا طهو ولائم أكبر وأفخم لأهل بيت بوماسا .

وفى اليوم المشهود يرتدى بوماسا كداساً مكدسة من الحلى ، وتلبس زوجته البائسة زينة عرسها . وهى حزينة لأن طفلها العاشر على وشك أن يولد بعد أن مات لها خمسة أطفال قبل ذلك كان آخرهم بوبيتش Popitch الذى مات منذ ستة أسابيع فقط . ونرى الزوجة واقفة وقد تدلى ثدياها بالرغم من الحلى التى تشدها إلى أعلى . وقد ظهر الإرهاق على وجهها وملأته التجاعيد وهى تنحنى تحت ثقل ثوب الزفاف . إنه يوم عظيم بالنسبة لبوماسا ، وبالنسبة لشقيق الزوجة الذى سيقبض المبلغ الكبير الذى يقدمه الزوج فى العيد الفضى لزواج أخته .

وتشاهد القرية وقد غصت بالجموع الحاشدة ، الوافدة من كل مكان . وتمتلىء البيوت بالضيوف ، وتحتشد القوارب بجوار الجزر الصغيرة ، وتعلق آلاف أسنان الكلاب فى حبال طويلة ويرقص الجميع . ويلقون الخطب فإن حادثاً له شأنه ومغزاه موضع الاحتفال . وسوف يتردد ذكر هذا الحفل لعدة سنوات قادمة ممن أسهم فيه ومن لم يسهم ، وكيف رفض بوماسا بدون اكتراث أن يدفع المصاريف الإضافية التى تدفع عادة فى الهزيع الأخير من الليل . وكلما تشاجر بوماسا مع جيرانه ممن لم يحتفلوا بعد بالمنشا فإنه يعايرهم بذلك ويزهو بما صنعه هو .

ويبدأ بوماسا فى دفع ديونه عن طريق الزيت والخنازير التى يتسلمها سداداً لدينه على أصهاره .

وفى هذا الإطار الاقتصادى المعقد ، المبنى على الحصول على نبات أسنان الـكلاب ، يصبح كل فرد على قسط ما من الثروة مشغولا بعمليات التبادل التجارى فى كل أسبوع وأحياناً كل يوم ، وخير مثال لذلك ، أنه كى تتم عملية مبادلة خنزير واحد ، فقد يقتضى ذلك اشتراك عدة أشخاص فى عمليات المبادلة قد يتجاوز عددها ست مرات فى الصباح الواحد .

وكل عيد فضى (منشا) ، وكل خطوبة أو زواج تحدث هزات فى القرية بل فى معظم القرى المجاورة وتؤثر فى مشروعات عشرات البيوت فيها .

فى مثل هذا العالم نجد الأطفال فى عزلة تامة لسبب واضح وهو أنهم لا يملـكون أية ثروة . فليس لهم ديون ولا عليهم ديون ، وهم لا يملـكون الخنازير ولا أسنان الـكلاب . ولن تؤثر تلك الصفقات فى لفافة تبغ يتبادلونها فيما بينهم . صحيح أنه قد تم إحدى الصفقات باسم واحد منهم فقد يدفع أبو الصبى كيليباك Kilipack إثنا عشر ألفاً من أسنان الـكلاب لابن عمه لأنه أبو زوجة كيليباك المستقبلة مما يثير مسألة زواج كيليباك فى أذهان أصدقائه من الأطفال . وقد يغيظونه به أحياناً أو يكفون عن مناداته باسمه الأصلى وينادونه « حفيد نيت Nate » وهو اسم جد العروس . وقد يشتعل الغلام غضباً لهذه التسمية ، ولتلك المداعبات . ولـكن المسألة تقف عند هذا الحد . ولا يبدى الصبى أى اهتمام بعد ذلك بكل ما يتعلق بزواجه رغما عن أنه سيكون فى يوم من الأيام موضع اعتبار الـكبار لأنه السبب فى إتمام صفقة الزواج . أما الآن فـكل ما يعنيه أن يخرج للصيد مع الصبية الآخرين .

وبعد ذلك يبدأ كيليباك فى إدراك العملية التى لم يكن له يد فيها من قبل ، غير أن عليه من اليوم أن يتجنب ذكر اسم العروس أو أسماء أقاربها ، وعليه

أن يستلقى على الأرض ووجهه إلى أسفل كلما مر زورقه بقريتها . وينظر الأطفال إلى أعمال الـكبار على أنها تتعلق بأمور اقتصادية لا يعلمون عنها إلا أنها تستغرق وقت الـكبار ، وتثير غضب الأم وشرود الأب . كما أنها تقلل من احترام رغبات الطفل بالنسبة لـكميات وأنواع الطعام التى تقدم فى العادة وتضطر العائلة بأ كلها إلى مغادرة البيت والتفريق بين الطفل و بين الخنزير الـكبير الذى كان مشغوفاً بركوبه فى الماء . ويعقب ذلك سماع الأطفال لدق طبول كثيرة وإلقاء الخطب وتأدية الرقصات . والاحتفالات كلها متشابهة فى نظر الطفل . قد يهتم الـكبار اهتماماً بالغاً بأن يعقدوا حزم الساجو فى حزم ثلاثية أفقية إذا كان الحفل خاصاً بإعلان حمل امرأة kinekin ، أما إذا كان الحفل خاصاً بميلاد الطفل pinpuaro فإن الحزم تعقد وتوضع مستقيمة ، وهكذا تعتبر طريقة تنظيم الساجو أمراً هاماً فى نظر الـكبار لأنها تدل على المناسبة المحتفل بها ، أما بالنسبة للأطفال فـكل هذه أحاجى لا معنى لها عنده .

فـكرة الطفل عن المشهد كله موجزة مقتضبة فهناك نوعان من الصفقات : صفقة تعقد بصورة واسعة وصفقات صغيرة يدفعها الفرد تدريجياً . أما الصفقات الـكبيرة فقد تتكون من قوارب حملت بالساجو والخنازير والزيت أو تتـكون من مئـات من أسنان الـكلاب علقت فى الجزيرة وانطلق من يخصهم الأمر فى تأدية الرقصتان احتفالا بها . وأحياناً لا يكون هناك رقص لسبب لا يعلمه الأطفال وفى بعض الأحيان ينقل الخنزير من يدالى أخرى وتقرع الطبول بصورة مثيرة ؛ مما قد يحمل الطفل على أن يقطع لهوه متوقعاً وقوع حادث مثير . ثم لا يتعدى الأمر مجرد قيام شخص بدفع ما عليه من دين و يعقب ذلك دائماً شجار وسبب وشتائم . و إذا كانت الزوجة أحد أطراف الصفقة ، وكانت مصالحها فيها من الأهمية بحيث يتعذر عليها أن تتركها وتقفل عائدة إلى البيت — أو فى لغة الأطفال إذا كانت الأم « صاحبة عمل » — فإن الزوج يبالغ فى الإساءة إليها وهو مؤمن من أنها لن تجرؤ على هجرة من أجل أطفالها ، أما إذا كانت الصفقة

من شئون الزوج وحده فمن المحتمل أن تبدى الزوجة تذمرها وسخطها ، ثم تضيق بها فى النهاية ، وتعود إلى أقاربها . وادعاء الكبار بأن غالبية هذه الأعمال إنما تجرى لصالح الطفل إنما يزيد من بغضه لها ، فهى بالنسبة إليه مضايقات لا يفهمها ولا يهتم بها . وإذا ما سئل أى طفل سؤالا خاصاً بالتجارة أجاب بخشونة « كيف لى أن أعلم — من هو الكبير فينا ؟ أنا أو أنت ؟ وما هو غرضك من إزعاجنا بهذه الأشياء ؟ إنها تهمك أنت ولكنها ليست مما يهمنا معرفته » .

وهكذا يترك الآباء أولادهم فى هذا الجو السعيد بعيدين عن تحمل أى مسؤولية . فلا يحاولون أن يعودوهم على امتلاك شىء أو يشركوهم معهم فى هذه العمليات الاقتصادية . ولا ينتظرون من الأطفال إلا مجرد احترام محرمات آبائهم ، وتجنب كل شىء يتصل بهذه الترتيبات الاقتصادية إلا أن التهاون فى هذين الأمرين يثير غضب الأرواح ، ويؤدى إلى نتائج غير محمودة .

ونظرة الأطفال إلى الملكية نظرة فريدة ، فهم لا ينظرون إلى ممتلكات الفرد منهم على أنها أشياء للحفظ والتخزين ، بل هى أشياء يشترك الجميع فى امتلاكها واستعمالها . وتتألف ممتلكات الأطفال من الزوارق الصغيرة والمجاديف ، والأسهم والأقواس ، والحراب ، وشباك الصيد ، وعقود الخرز وأحياناً من قطع من التبغ أو من ثمار البندق . وهذه الأخيرة يتقاسمها الأطفال دائماً . فنجد السيجارة الصغيرة الملفوفة فى ورق الجرائد المصنوعة من تبغ لويزيانا تتبادلها خمس عشرة أيد قبل أن تعود مرة أخرى إلى صاحبها الحقيقى الذى يودعها بنفحة أخيرة .

وإذا كان هناك جمع من الأطفال يرددون اسم طفل منهم بالذات ، فلا شك فى أن لدى هذا الصبى سيجارة وأن الآخرين يتوسلون لكى يقرضها لهم . وبالمثل قد يدور عقد من الخرز من طفل إلى طفل ولا يتوقع صاحبه عودة العقد إليه . وبينما نجد المعارك تنشب بين الكبار فيما يتعلق بالممتلكات الخاصة

إلا أنها نادراً ما تنشب بين الأطفال لهذا السبب وقد يقلد كبار الأطفال آباءهم فيعنفون الأطفال الأصغر سناً إذا عبثوا بأشياء تخص الكبار ، ولكن سلوكهم هذا ناشىء عن رغبتهم فى إثارة الشغب وبحكم العادة ، لا عن اهتمام جدى بالمحافظة على تلك الأشياء .

وقد تنشب المعارك لأسباب غير ما تقدم ولكن يلاحظ أن الأطفال يبررون أسبابها بوسائل تجذب انتباه الكبار إذا عنّ لأحدهم أن يتقصّى أمرها . فالطفل يعلم جيداً إذا قال لأبيه « لقد أخذ هذا الولد زورقى » فسيكسب الأب إلى صفه . أكثر مما لو أنه قال له « أردت أن ألعب معه لعبة مهد القط ولكن يرفض » فالطفل ذو قدرة على أن يترجم ما يجرى فى عالمه بأساليب يتقبلها الكبار ويرضون عنها .

إن معاملات التبادل المستمر من بيع وشراء ودفع مقدم ، وتقسيط للدين تؤدى كلها إلى إعاقة أية محاولات للتعاون بين الكبار . فكون الشخص ينفرد بامتلاك ثروته ، إنما يدفعه دائماً إلى أن يوجه نشاطه توجيها فردياً لمصلحة الشخصية ، أما بين الأطفال حيث لا نجد هذه المصالح الفردية فإن التعاون موجود بصورة ملحوظة . ولذلك نجد الصبيه الذين بلغوا الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة يقفون فى مقدمة الفريق يوجهون الأصغر منهم سناً ، وينظمون المباريات سواء على الأقدام أو فى الزوارق ، كما يكونون فرقاً من لاعبى كرة القدم — الكرة ، هنا عبارة عن ليمونة كبيرة — أو يرأسون رحلات إلى النهر للسباحة فيه . والمعارك وتبادل الكلمات من الأشياء المألوفة بينهم ، ولكن قلما تترك هذه المشاحنات أية آثار عدوانية فى سلوكهم .

وقيادة الجماعة حرة ؛ وليس لها قواعد تسير عليها كما أنها لا تطبق أى أساليب يكون من شأنها ترويض الثائرين ، وقد تنتهى المشاجرة بين طفلين ، بأن يعود أحدهما ، وهو المسالم إلى بيته ، دون أى تردد ودون أن يوجه إليه اللوم على سلوكه ، ويبقى الطفل المشاكس إذا شاء . وقد يصفعه كبار الأولاد

أو يشتمونه ، ولـكنهم لا يجرأون على استعمال الشدة لنهره على تعسفه ، فإن أى معركة حقيقية تنشب بين الأطفال مهما كانوا صغاراً قد تعنى معركة كبيرة بين الـكبار ، فالطفل يجد دائماً عطفاً من أبويه وتشجيعاً له على سلوكه . والمشاحنات التى تثار حول فشل خطة أو حول لعبة أسىء تنظيمها تخرج من حدود الصغار إلى دائرة الآباء . فقد حدث أن بيسا طلب من بوباو Bopau أن يعطيه زورقه فرفض بوباو فما كان من بيسا إلا أن صفعه . فبادر غلام ثالث هو تشوكال فضرب بيسا لأنه ضرب بوباو ثم ضرب كيليباك تشوكال لأنه ضرب بيسا . ولما كان كيليباك أكبر غلام فى الجماعة فقد انتهت الصفعات عنده وارتفع عويل الصغار وبكائهم ، وبعد خمس دقائق ، وقد لا يطول هذا الصراع أكثر من ذلك ، يعود بعدها الهدوء مرة ثانية ، اللهم إلا إذا شعر غلام منهم أنه أهين إهانة بالغة فيسرع إلى بيته ويشكو إلى والده . ومثل هذه العواصف كثيرة الحدوث ولا أهمية لها بالمرة فهى مجرد معارك بين جمع من الصبية يلعبون بلا أى تنظيم أو توجيه وهم فى هذا أقل شغباً من الـكبار ، وأكثر سلاسة فى القيادة ، وأقرب تفاهماً ، وأقل حقداً وأسرع إلى العفو .

فلا توجد بينهم منازعات خطيرة مثل ما يحدث بين الـكبار حيث يوجد لـكل فرد تقريباً خصم له دائم التحرش به ويتحين الفرص للدخول معه فى معركة سافرة . أما عند الأطفال فإن عدد الجماعة واختلاف أعمارهم فى الجماعة الواحدة يجعل تجمعاتهم بلا إطار منظم يحددها فلا تقوى فيها العلاقات الوثيقة كما لا تتطور فيها الخصومات .

وبالرغم من تحمس الآباء لأطفالهم فإن الأطفال لا يبادلونهم نفس الشعور . ولذلك نجد الأطفال الذين تسببوا فى إثارة الآباء ، يتابعون ألعابهم فى ضوء القمر . بينما يعلو سباب الآباء وتجلجل صيحاتهم فى أنحاء القرية وإذا تطورت المعارك بين الآباء فإنها تنذر بنتائج وخيمة . ويتوقع الناس أن تتدخل الأرواح ؛ ومن ثم فإن الآباء يحذرون أطفالهم من الذهاب إلى بيت أعدائهم ، وهو تحذير قد ينفذه الأطفال وقد يعصونه .

فاجتماعات الأطفال كلها اجتماعات هدفها اللهو واللعب . والمساهمة فيها إرادية وبدون تفكير سابق . أما بين الـكبار فإن الصداقات العابرة أو التزاور بين الجيران لا يعتبران من الأمور المستحبة . والشبان الفقراء قد يذهبون إلى بعض أقاربهم الأغنياء للقيام ببعض الخدمات أو طلباً للمساعدة . وقد يذهب الرجال إلى بيوت أخواتهم . أما التزاور بين الرجال من نفس المركز الاجتماعى أو بين النساء المتزوجات اللاتى لا تربطهن صلة قرابة أو نسب ، فهو عمل يعتبر مضيعة للوقت وسلوك لا يليق بصاحبه . ويجب أن يكون للرجل منزلة عالية بين أهل قرية يخول له أن ينتقل من بيت إلى بيت بدون أن يخشى تعليقات الناس على سلوكه هذا . وقد أطلق على الرجل الوحيد الذى كان دائم التردد على البيوت لقب « Pwisio » بويسيو وتعنى هذه الكلمة فى لغة أهل مانوس قطة الرجل الأبيض التى لا تفتأ تتجول من مكان إلى آخر . ولا تقام الاجتماعات إلا لغرض خاص كالمبادلات الاقتصادية أو للاتفاق على خطط هذه المبادلات أو لتنفيذها . وقد يجتمع الناس عند غرق أحد القوارب أو مرض أحد الأفراد . أو احتضار شخص أو موته . وإذا ترك الشخص بيته وذهب للنوم فى البيت المنكوب عد عمله هذا أكبر تعبير عن المشاركة فى المصاب . ولذلك ترى الرجال والنساء والأطفال وقد تراصوا فوق أرض البيت . وينام الرجال عادة فى الجزء الأمامى من البيت بينما ينام النسوة فى الجزء الخلفى منه ، وفى هذه الحالة ينام الزوج بعيداً عن زوجته ، وقد يطول افتراقهما شهراً بأكمله . فالمبيت فى بيت آخر مسألة خطيرة ولا يمكن أخذها ببساطة .

ولما كان رجال مانوس لا يهتمون بصلات الصداقة فانهم لا يسمحون كذلك لزوجاتهم بها . وكما عبرت عن ذلك إحدى النساء فقالت « إذا رأى الرجل زوجته تحادث امرأة أخرى وتطيل الحديث أو تدخل معها بيتها ، نظر إلى المرأة الثانية

إذا كانت أخته أو نسيبته فلا بأس على زوجته . أما إذا كانت امرأة غريبة لا تمت إلى الزوجين بصلة فإنه يؤنب زوجته وقد يضربها » .

وإذا تكلمت المرأة مع قريباتها فيجب أن تكون حريصة فيما تقوله . فزوجها محرم عليهن وأزواجهن محرمون عليها ، ولا يمكنها أن تشير إلى أى مسألة شخصية خاصة بأحد الأفراد المحرمين عليها ، فابنة المرأة مثلا لا يسمح لها بذكر دخائل حياتها الزوجية لأمها التى لا يسمح لها برؤية زوج ابنتها ولو مرة واحدة ، وتحريم الأصهار على بعضهم لا يشمل فقط الاجتماع بهم ولكن يشمل الحديث عنهم كذلك .

وتكون المرأة أشد حيطة وحرصاً فى حديثها مع أخت زوجها فمن البديهى أن أخت الزوج تكون شديدة التعلق بأخيها ، فهى لا تحتمل أن تسمع أى نقد لسلوكه أو شكوى منه . كما أن الزوجة وأخت الزوج لا تناديان بعضهما بأسمائهما الحقيقية بل إذا نادت الزوجة أخت زوجها قالت « يا أخت زوجى » وإذا نادت أخت الزوج امرأة أخيها قالت « يا إمرأة أخى » والعلاقة بين الزوجة وأخيها بنفس قوة العلاقة بين الزوج وأخته ، وبنفس الخطورة إلى درجة قد تهدد كيان الحياة الزوجية . وتقضى التقاليد هناك بأن تظهر الزوجة وأخت الزوج المودة لبعضهما ، كذلك لا بد وأن يتبادل الزوج علاقات الود مع شقيق زوجته وعلاقات هؤلاء ببعضهم لها أهميتها وخطورتها .

وتتميز حياة الكبار فى مانوس بالصراع الدائم بين زوجة الرجل وبين أخته وخاصة فيما يتعلق بولائه لكل منهما ، وما يقدمه من هدايا لكل منهما ، ويفوق هذا الصراع فى حدته ما قد يقوم بين الزوج وصهره (أخ الزوجة) . فليس ثمة مثيلا بين الرجال الأصهار ، لما يحدث بين النساء ، كأن تتهم الزوجة الغيور ، بشاعة ، زوجها بين أنه يتخذ من أخته زوجة ثانية له ، بيد أن موقف الزوجة عادة ما يكون ضعيفاً لأنها تعتبر الشخص الأجنبى ، الذى يحول بين الأخت

وتمتعها بحقوقها الشرعيـــة من أخيها ، ولذلك يفرض المجتمع فى مانوس نوعاً من المهادنة الدائمة بين هاتين الغريمتين لصالح الجميع .

ورغماً عن أنه فى حالة الزيجات الطويلة المستقرة يتعود الأصهار من الرجال أن يكونوا شركاء متعاونين ، وتتعلم الزوجات وأخوات الزوج أن يعملن معاً فى سلام ، إلا أن إصرار المجتمع على قيام مثل هذه الصداقات العسيرة التحقق يمثل نوعاً من التدخل فى حرية الاختيار لأفراده ، ولكنه يمثل فى نفس الوقت نوعاً من السيطرة على العلاقات الإنسانية فيه .

وعلى قدر ما يشوب علاقات الرجل بأصهاره من مظاهر رسمية ، على قدر ما تخلو علاقاته بأبناء خئولته وأبناء عماته من هذه المظاهر . وحيث ذهب الرجل فانه سوف يقابل حتما أحد أبناء عمومته ، وما يكاد يقرئه السلام حتى يتبادلان النوادر والدعابات . وقد تكون هذه النوادر مبالغاً فيها وقد تثير أحدهما ولكنها بمثابة صمام أمن يخفف بعض الشىء من التوتر الناتج عن الانهماك التام فى المشاغل والأعمال التجارية ولا تجيز هذه المداعبات أية صلات أخرى .

ويستطيع الرجـــل أن يسر بأسراره ومشروعاته أو عزمه على الزواج إلى إحدى بنات عماته أو بنات خاله ، ولكن غير مسموح للرجل أن يتندر مع إحداهن كما أنها لا تبادله أسرارها الخاصة بل يجب أن تكون أكثر حذراً وحرصاً ولذلك فهى تكتفى بالإصغاء اليه فى صمت .

وموقف الأطفال من علاقات البالغين يشبه إلى حد كبير موقفهم من الأمور المالية . فهم يقسمون أقاربهم الكبار إلى : الآباء والأمهات والأجداد . وألقاب الخال والعم والعمة لا تعنى شيئاً فى نظرهم ، وقد يجهل صبى فى الخامسة عشرة اللقب الحقيقى لعمة أبيه ، رغماً عن أنها هى وقريباتها من النساء هن اللاتى سوف يندبنه عند موته حين يموت . وينقسم عالم الكبار بالنسبة إلى الطفـــل إلى قسمين ، أقارب الأب وأقارب الأم أو الناس الذين ينتمون إلى الأب والناس الذين ينتمون

إلى الأم بطريقة ما تجعلهم محور اهتمام الأب والأم ويلاحظ الطفل أن أمه تتحاشى بعض أقارب أبيه كما أن الأب يتحاشى بعض أقارب زوجتـــه وأن هناك بعض الأقارب ممن يوصى الطفل بتجنبهم . وقد يكون أهم ما يميز جدة الطفل لأمه ، الطريقة التى تجرى بها وتختفى عند قدوم زوج ابنتها وكيف يشتعل غضب الأب إذا ورد ذكر حماته أمامه . وليس هناك لفظ شائع يعبر عن مفهوم القرابة ، وإنما يقول الشخص « إننى من كالات » أو « هو من كالات » أو « نحن من كالات » كما نقول نحن من عائلة فلان ، وكالات هذه اسم عشيرة أبوية ، يسكن أفرادها فى مساكن متجاورة فى القرية ، أما الأطفال دون السابعة أو الثامنة فيعتبرون بيوت أهل الأم أنها مجرد بيوت أسر صديقة ، ولـكن كبار الغلمان يدركون علاقة أمهاتهم بتلك البيوت والصلة التى تربطهم بها . ويميز الأطفال تمييزاً واضحاً بين سائر الأقارب وبين الوالدين الحقيقيين والآباء المستربيين وهم أولئك الذين قاموا بتبنى أحد الأطفال أو شرعوا فى تبنيه .

فهؤلاء الكبار هم أكثر الناس انصياعاً لرغبات الطفل . ولذلك نجد الطفل لانجيسن Langison الذى تبناه زوج خالة أبيه بصورة غير رسمية ، كما تبناه عمه يقال إن له ثلاثة آباء أو كما يقول الغلمان عنه « إن له ثلاثة بيوت يستطيع أن يذهب إلى كل منها ويصيح طالباً طعامه » .

ويستطيع الطفل أن يذهب أيضاً إلى بيوت أجداده ويصيح من أجل طعامه بدون أن يكون فى ذلك أى حرج له أو لأبويه . وذلك لأن تدريب الأبوين لأطفالهم بعدم طلب الطعام من الغرباء إنما هو جزء من التدريب الخاص باحترام الملكية .

وإن تهاون الكبار فيما يتعلق بتربية أطفالهم يكفل للأطفال أن يجنوا ثمار مجهودات آبائهم بدون أن تكون عليهم أية مسؤوليات . فإذا كانت عائلة ماتشوبال Matchupal منهمكة فى إقامة حفل فإن أطفالها يستطيعون أن يركبوا القوارب ويتزينوا بأسنان الكلاب ، ويأكلوا بنهم من كل ما يقدم من أنواع

الطعام ، ولـكن حضورهم للحفل نفسه ليس شيئاً واجباً أو محتما . وحتى فى حالة المآتم نجد الأطفال تحت سن الخامسة عشرة ليسوا مكلفين بأية واجبات . والإطار العام لسلوك الكبار إزاء أطفالهم يبنى على حقوق الأطفال لا على واجباتهم . وواجب الطفل الوحيد هو تجنب العبث بممتلكات الآخرين .

وحتى الصداقات المحدودة التى يمارسها الكبار لا نجدها فى عالم الأطفال ، فرفاق اللهو يأتون من كافة أحياء القرية ، أما إذا كانت إحدى العشائر منعزلة بعض الشىء عن العشائر الأخرى كما هو الحال فى عائلة كالات Kalat مثلا فإننا نجد أطفال هذه العائلة يلعبون مع بعضهم أكثر مما يلعبون مع أطفال الطرف الآخر من القرية . ولا يستخدم الأطفال ألقاب القرابة فى مناداتهم لبعضهم البعض كما أنهم لا يدركون نوع قرابتهم لبعضهم إدراكا دقيقاً . وكثيراً ما يضحك الكبار وهم يتحدثون عن عم أحد الأطفال لا يتجاوز العاشرة أو يعلقون على أن تبنى طفلة صغيرة يجعلها ابنة عم أختها . أما الأطفال فهم لا يفكرون مطلقاً فى هذه الأشياء . أما إدراكهم للعلاقات الموجودة بين الأفراد خارج دائرة العائلة فيأتى عندما ينبه عليهم بتجنب أفراد معينين . ولقد رأيت حادثة من هذا النوع فى صلة القرابة بين أربعة من الأطفال هم بومات Pomat كيليباك Kilipak وكوتان Kutan ويسا Yesa . لقد كان هؤلاء الغلمان الأربعة يلعبون سوياً منذ طفولتهم . وكان بومات Pomat يعلم أن أمه تنادى أم كيليباك فتقول لها « أختى » ومع ذلك لم يحدث أن نادى هو كيليباك بلفظ « ابن خالتى » . كذلك كان يعلم أن والد كوتان واسمه بوماسا كان ينادى أبا بومات بكلمة « جدى » ومع ذلك لم يفكر بومات مرة من المرات فى أن ينادى كوتان بكلمة « ابنى » كذلك كان بومات يعلم أن يسا إنما هو ابن بالتبنى لخاله ومع ذلك لم يكن يناديه « يابن خالى » .

فكل من الفتيان الأربعة كان يفكر فى الثلاثة الآخرين على أنهم مجرد

أفراد ، فهم لم يتعودوا بعد على عادات الكبار من حيث التفكير فى غيرهم بالنسبة لنوع القرابة أو الصلات . وقد حدث أن زوج أخت بومات واسمها بوندريت Powndret جاء للاقامة فى القرية . وكان هذا الشباب واسمه سيسى Sisi من الرجال المحرمين على الأولاد الأربعة ، لأنه تزوج من بوندريت أخت بومات وهى فى الوقت ذاته إبنة عم وخالة كليليپاك و بيسا ، وأخت كوتان وكان زواج سيسى لپوندريت فجائياً و بلا مقدمات ، ولذلك فقد ظل الأولاد الأربعة لعدة سنوات بعد ذلك يعتبرون سيسى مجرد زائر عابر للقرية وكانوا ينادونه باسمه وأصبحوا يطلقون عليه « زوج بوندريت » وقد أدى هذا إلى إدراك الأطفال الأربعة لصلة القربى بينهم ، و بعد جهد استطاعوا أن يتتبعوا تلك الصلة وما يستتبعها من ألقاب ينادى بها بعضهم بعضاً .

وهكذا فإن القوانين البسيطة التى تحكم عالم الأطفال تصبح أكثر تعقيداً حين يتدخل فيها البالغون ولكن لا يعنى هذا أن الهوة بين العالمين تضيق ، بل على العكس فإن الشعور بفروق السن قد زاد ، بعد إدراك الأولاد الأربعة لهذه التعقيدات التى تثيرها تقاليد الكبار ، وليست هناك أية محاولات جدية لاطلاع الأطفال على العالم الغريب الذى يعيش فيه الكبار ، وليس لهم مكان فيه وليست عليهم أية واجبات حياله . ولا يحاول الأطفال جدياً أن يستغلوا هـذا العالم لأغراضهم الشخصية ، كما أنهم لا يفهمون قيود هذا المجتمع إلا فيما يتعلق بمراعاة المحرمات التى ينظرون إليها على أنها أمور واجبة لسلامة المجتمع .

الفصل السادس

الطفل وعالم الأرواح

تجمع ديانة أهل مانوس بين الإيمان بالأرواح وتقديس الأجداد . فأرواح الذكور من العائلة يصبحون بعد موتهم حراساً ، وحماة ، ورقباء مستبدين وتتدلى جماجمهم وعظام أصابعهم من أسقف الحجرات فى قدور منقوشة ، ويؤخذ رأى الروح وتستطلع رغباتها فى كل المناسبات الهامة . وإذا حل بالبيت خطب جسيم فإن هذا الخطب يدين الروح الكبرى (الرئيسية) وهى إذ ذاك تعاقب إما بإنزال درجتها إلى درجة روح حارسة لشاب أو لطفل وإما أن تطرد من البيت نهائياً ، وإذا طردت إحدى الأرواح من بيتها كان حالها هو حال الإنسان الشريد تماماً ، وتظل الروح هائمة على وجهها بلا هدف معين فتجوب خلال الثغرات المفتوحة بين البيوت ، وأخيراً تنحدر إلى نوع من الكائنات البحرية غير الراقية وفى تلك الأثناء تحتل البيت روح جديدة . وتكون الروح الحاكمة فى البيت هى الحارس الخاص لرب العائلة . وهى تصاحبه فى رحلاته إلى البحار البعيدة وفى جولاته فى الأراضى النائية ، ما لم يرجوها ويلح فى رجائه أن تبقى فى البيت حتى يعود . أما روح الزوجة أو أرواح الزوجات وهى أرواح ليست بذات أهمية كبرى فلا تعلق جماجمها فى الأسقف وهى تبقى فى البيت ولا تغادره ، وليس للنساء ولا للفتيات أرواح حارسة ، وعلى ذلك فليس هناك ما يحميهن روحياً من أخطار المناطق الموحشة . أما صغار الأولاد فيعين لكل واحد منهم روحاً تحرسه وتصحبه فى روحاته وغدواته متى بلغ الرابعة أو الخامسة من عمره . وقد تكون هذه الأرواح الحارسة أرواح أفراد توفوا وهم أطفال أو أطفال ولدتهم الأرواح فى عالمها الخاص ، وأحياناً يخصص لحراسة الغلمان أرواح الكبار الذين عوقبوا على إهمال واجبهم بالنسبة لرب الأسرة فأنزلوا إلى درجة حراس للأطفال .

وليس فى مانوس جنة أو نار بل هناك مجرد مستويين من الوجود : المستوى الأول وهو مستوى حياة البشر ، وتطلع الأرواح على كل خفاياه إذا كانت موجودة ومنتبهة إلى ما يجرى هناك ولا تعتبر الأرواح عليمة بكل شىء ، بل مثلها فى ذلك مثل الإنسان الحى ، يمكنها أن ترى وتسمع فى حدود دائرة حواسها وقد تنفى إحدى الأرواح علمها بما كان يجرى داخل أحد البيوت فى غيابها عنه .

والأرواح هناك غير مرئية ، ولا ترى الأرواح إلا نادراً ولكنها أحياناً تنذر الناس بوجودها عن طريق الصفير أثناء الليل . وهى أقوى من الإنسان لأنها لا تعتمد على الوقت ولا على المكان ، كما أن لها القدرة على تحويل الأشياء المحسوسة إلى أشياء غير مرئية . وتؤثر الروح على الإنسان عن طريق انتزاع بعضاً من نسيج روح هذا الإنسان ، وإذا استهلكت إحدى الأرواح هذا النسيج لشخص ما فلا بد من أن يموت ، وقد تخفى الأرواح بعض الأشياء ، أو تسرقها وقد تقذف الناس بالحجارة أو تتصرف فى الأشياء المادية بطرق عجيبة لا حصر لها ولكن هذا السلوك لا يصدر عنها إلا فيما ندر .

ورغماً عن نفوذها الكبير إلا أن الأرواح مشهورة بإنسانيتها ، وكم من رجل توسل إلى روحه لكى تغرى فصيلة معينة من السمك على الانطلاق إلى إحدى البحيرات وهو لا يسألها أن تكثر عدد السمك إنما يطلب منها فقط أن تقودها إلى البحيرة .

وأهم واجبات الروح أن تبارك فى صيد من تقوم بالوصاية عليه ، وتحفظه وتقيه شر الأرواح الشريرة . ومن حق الروح أن تطالب فى مقابل ذلك أن يتحلى الرجل ببعض الفضائل ، وأن يربأ بنفسه عن بعض المحرمات . وأول ما تنهى الروح عن عمله هو ارتكاب أية جريمة جنسية تتعارض مع النظام الاجتماعى المصطلح عليه فى مانوس (الروح لا ترى مانعاً فى أن تتم الجريمة الجنسية مع امرأة من قبيلة أخرى) . وهو تحريم حاسم لا مفر منه . ومن المحرمات الأخرى التى قد تستوجب غضب الروح فتنزل عقابها على المذنب أو على بعض أقربائه

الاستخفاف بالكلام ، والاتصال البدنى العابر ، وتدبير المؤامرات ، والفكاهات البذيئة ، والاستهانة بالمحرمات ، والسلوك سلوكاً معيناً نحو الأصهار . ومن بين أنواع العقاب التى تنزل بمرتكب كل هذه الحماقات أو إحداها أن تلقى الروح بشيخ يحتضر إلى الموت ، أو أن تبتلى طفلا حديث الميلاد بمرض فى بطنه .

وبالإضافة إلى هذا فإن الأرواح تمقت أى تهاون أو استهتار بالمال مهما كان نوعه ، كالتقاعس عن رد الدين ، أو الإهمال فى إدارة ثروة العائلة ، أو المماطلة فيما يتعلق بالمال ، أو عدم تحرى العدالة فى توزيع الإعانات على أفراد العائلة تبعاً لحاجات مختلف الأقارب : كما فى حالة الرجل إذا أنفق كل ما تمتلكه العائلة فى سبيل التفاخر بما يدفعه لأهل زوجته ، ولم يدخر جزءاً منه لزواج أخوته الصغار .

ومما يثير غضب الأرواح أيضاً إنقسام العائلة وعدم الإذعان لكبيرها ، وما يقوم من مشاحنات بين الأصهار ، كذلك تتضايق الأرواح إذا كانت إدارة البيت سيئة فهى تكره الاشراف على بيت تكسرت ألواح أرضه وتداعت ركائزه ونز الماء من خلال القش الذى يكسو سقوفه .

وإلى جانب مسئولية الأرواح نحو من تتولى الوصاية عليهم ودورها الصارم فى صيانة القوانين الخلقية السائدة هناك فإنها تشترك أيضاً فى عدة أنواع من النشاط يقال إنها من آثار طبيعتها الانسانية والتى حملتها معها إلى مستوى العالم الروحى : فالأرواح تتزوج أو تحاول أن تتزوج ، والأرواح تتوالد ، وتتشاجر فيما بينها ، وقد تتنحى عن واجباتها أو تصب ما تحمله فى صدرها من ضغائن قديمة على الأحياء فى قسوة شريرة . وقد تنتقل العداوة التى تنشأ فى عالم الروح إلى الأحياء الذين لهم صلة قربى بالروح المعادية لها . وهكذا قد تنتقم إحدى الأرواح ممن تقوم بحراستهم من الأحياء إذا أساءوا معاملة أصهارهم ممن يمتون بصلة القربى لزوجة الروح فى العالم الآخر . أو قد تبتلى الروح بالمرض واحداً من إخوة روح أخرى لأن تلك الروح قد خانت زوجتها الروحية . كذلك قد تقوم إحدى الأرواح التى انتقلت إلى العالم الثانى حديثاً بأعمال التخريب والتدمير إنتقاماً من موتها . فإذا كانت الروح لأحد الشبان فإنها

قد تحاول أن تقتل الشبان الذين لا زالوا على قيد الحياة بعد وفاته . وإذا مات الشاب نتيجة لارتكابه جريمة الزنا نصّب نفسه منفذاً رسمياً لجميع أحكام الزنا فى عالم الأرواح . وإذا مات شخص قبل أن يقيم إحتفالا معيناً كان بسبيل إعداده ، فإنه يبتلى بالمصائب كل من تحدثه نفسه بإقامة احتفال مماثل ، أو يمارس بعض أنواع الأذى تجاه كل من يحاول أن يساعد أرملته فى الزواج مرة أخرى .

ويتلقى الأحياء تعليمات الأرواح عن طريق الجلسات الروحية ، وتقوم النساء اللاتى فقدن أبناء من الذكور بدور الوساطة فى تلك الجلسات . فيقوم إبن الوسيطة المتوفى بدور الرسول فى عالم الأرواح فهو يتكلم على لسان أمه فتطلق الأم صفيراً تترجمة إلى كل من يحضر الجلسة من المتسائلين . وبناء على رغبة الأم الوسيطة تقوم روح الإبن باستجواب سائر الأرواح التى يخصها الأمر والتى قد تكون مسئولة عن المرض أو سوء الحظ أو الموت . كما قد تقوم روح الإبن بتجميع فتات نسيج روح شخص مريض وإعادتها له ليبرأ ويشفى .

وأحياناً يقوم الرجال بالاتصال بالأرواح التى تحرسهم عن طريق الاستخارة ولكن هذا النوع من الاتصال لا يرقى إلى مستوى الجلسات الروحية . وفى هذا الاتصال يلقى الشخص بسؤال ما وتعلق قطعة من العظام فوق كتف الوسيط . فإذا أحس الرجل بوخز فى جانب من جسمه كان الجواب « بنعم » وإذا كان الوخز فى الجانب الآخر كان الجواب « لا » . وهكذا فإن الرجل هو الذى يقرر أى ناحية فيها الإجابة وهو فى هذا يحل محل الوسيطة فى جلسات استحضار الأرواح .

ولذلك فإن أى قرية من قرى جزيرة مانوس تأوى الأحياء وأرواح الموتى على السواء . ففى بيت باليو Paleao نجد أن روح أخيه بانو Panau الذى انتقل من مدة قريبة إلى عالم الموتى ، لا تزال تئن من حادث موت صاحبها المفاجىء ، وهو فى أوج انشغاله بالاستعداد لحفل معين ولهذه الروح عادة سيئة وهى ضرب الناس بالفأس ، وفى الحال ينبثق الدم من فم الشخص المصاب ولا يشفى من ضربات هذه الروح إلا القليل النادر . وتسكن حماة باليو فى دار

مجاورة لبيته ، ويقوم بحماية هذا البيت روح إبن باليو الصغير وإسمه Popoli بوبولى ، فبعد أن مات بانو ، طردت روحه روح هذا الطفل الصغير وحلت محلها . ولكن روح الغلام الميت لم تتزحزح عن مكانها بل تشبثت به فى عناد ، وصارت تهاجم من فى البيت بصورة منظمة فمرض خنزير باليو ، ومرضت زوجته ومرض باليو نفسه ولم تستقر الروح إلا بعد أن شيد باليو بيتاً منفصلا لحماته لكى تستقر روح إبنه فيه وتكون هى المالك الوحيد للسكان الجديد . وعلى بعد خطوات من هذا البيت يوجد بيت آخر يملكه رجل تقوم بحراسته إحدى الأرواح التى تزوجت بزوجتين من عالم الأرواح . ولا ينقطع شجار هاتين الزوجتين اللتين تحولان عداءهما ، إلى نقمة تصبانها على إبن صاحب البيت .

وهكذا يعلم الناس عن شخصيات الأرواح ، وما يتعصبون لأجله ، وعن مشروعات زواجهم كما تعلم الأرواح عن أحوال الأحياء ومشروعاتهم ، ولكن العالم الروحى ، عالم لا يعترف إلا بقيم الكبار وحدهم ، فأهم ما يشغل البال هناك هو العمل والمال والجنس — وهى أشياء لاتهم الأطفال فى قليل أو كثير . وبالإضافة إلى ذلك فإن الأطفال لا يدركون أن أرواح أقاربهم لا زالت تمارس وهى فى عالم الأرواح نفس المشاعر الإنسانية التى تعودها الأطفال من آبائهم وأعمامهم لما كانوا على قيد الحياة .

إن الأطفال ليسوا فى حاجة إلى حماية الأرواح ، إذ من غير المسموح لهم أن يتجولوا خارج القرية ، وهم لا يخرجون للصيد مما يستدعى حراسة الأرواح ، كما أنهم لا يملكون موارد اقتصادية يريدون لها الإنتعاش . ولذلك تعتبر الأرواح فى نظر الأطفال مصدراً للمتاعب ، قاسية عديمة الرحمة فقد كان بانو مثلا أباً عطوفاً ، ولكنه ما أن توفى حتى ابتليت طفلته بالمرض لأن أمها عزمت على الزواج مرة أخرى . كما كان بوبيتش Popitch فى حياته صبياً مرحاً محبوباً كثير التجوال ، مشتت الذهن ، لا تهمه أية سلطة ولا يعبأ بسلطان ، ولا يتردد عن عمل أى فعل طائش ، فلما مات إرتقى فى عالم الأرواح حتى أصبحت روحه هى الروح الآمرة فى بيت أبيه ، وتسببت فى مرض أخيه كوتان Kutan

البالغ الرابعة عشرة من العمر نتيجة لمعركة دارت فى عالم الأرواح حول انتخاب الروح التى تحرس كوتان هذا ، إذ حالما مات بو بيتش نسى أصحابه حزنهم لفراقه ، ولم يذكروا إلا روحه المحبة للعنف والمشاكسة .

فوفاة الشخص سواء أكان والد الطفل أو رفيقه فى لهوه يجعله يفقد صفاته الآدمية الأولى ومن ثم يفقد صداقة الأطفال وحبهم له .

وعلاوة على ذلك فعلى الرغم من استعداد الكبار لتلبية رغبات الأطفال إستجلاباً لرضاهم إلا أنهم لا يجرءون على إغضاب الأرواح ، أو يعرضون أطفالهم لنقمتها . فقد يصحب الأب طفله معه عند خروجه للصيد رغماً عما يتحمله من مشقة وتأخير قد يفوت عليه صيداً طيباً ، ولكنه لا يجرؤ بتاتاً على أن يذهب بطفله خارج حدود حماية القرية إذا كان المرض أو الموت قد اجتاح المكان ولوث هواءه . ففى مثل هذه الحالات لا تنفع ضراعات الأطفال ولا توسلاتهم . ولا يجدى صراخهم وغضبهم فى تحويل الأب عن رأيه . فباسم الفزع من سطوة الأرواح يجبر الأب طفله على الإذعان لأوامره . إن البالغ يشعر بسرور عظيم كلما استطاع تحقيق رغبات أطفاله ، ولكن يتصادف أحياناً أن يكون الأب غير راغب فى اصطحاب طفله ولكنه لا يجرؤ على مصارحته بشعوره هذا فيحتمى وراء الأرواح مدعياً أنها السبب فى عدم اصطحابه إياه .

ولما كان الأبناء لا يؤمنون بالأرواح فإنهم ، يتخذون من أعذار آبائهم حججاً ينتحلونها هم أنفسهم ، لا عن إيمان بها ولكن لأنها وسيلة للخداع .

وهكذا نرى الأولاد ينصحون أختهم الصغيرة بوجوب البقاء فى البيت لأن الأرواح تملأ المكان فى الخارج . ويلعب الأولاد الذين فى سن العاشرة نفس اللعبة على إخوتهم الصغار ممن هم فى سن الخامسة مثلا ، وبذلك يسود الجو شعور من هدم الثقة والرياء بدلا من الشعور الصادق بالقلق ، والخوف من غضب الأرواح الذى يشعر به الكبار فالأرواح فى نظر الصغار تعتبر مصدراً لمتاعب الكبار كما أنها فى نظرهم قاسية لا تعرف الشفقة .

ويؤمن الصغار بوجود الأرواح إيمان الكبار بها . ولكن معلوماتهم عنها قاصرة مبتورة ومعظم الأسماء التى تذكر الكبار بشخصيات الأرواح فى الحياة لا تعنى بالنسبة للصغار إلا مجرد كلمات جوفاء . وأرواح أولئك الأشخاص الذين لا يزال الأطفال يتذكرون أشكالهم تبدو وكأن طبيعتها قد تغيرت كلية بعد الموت . ورواية واقعة زنا حين تقصها الأرواح فى إحدى الجلسات لمن الأمور المملة التى لا تنتهى ، وينام الأطفال خلال القصة ولا يترقبون نهايتها ، ولا تكتمل هذه القصص التى تروى على المستوى الروحى عناصر الإثارة والتشويق ، ولذلك فهى لا تستحوذ على انتباه الأطفال واهتمامهم ، فضلا عن أن الجلسات تتحول بعد ذلك إلى مشاورات خاصة بالمشروعات الاقتصادية التى تشغل بال الكبار ، وهذه أيضاً مما لا يفهمه الأطفال ومما لا يهتمون بتتبعه . وإذا حدث فى إحدى الجلسات أن جاء ذكر جريمة من جرائم الزنا ، أو أن روحاً من الأرواح هاجمت أحد الأشخاص من الأحياء وضربته ببلطة ، فإن الأطفال يشيرون مجرد إشارة عابرة فيما بينهم إلى هذه الأحداث . فهم يعرفون مثلا أن كوتان مريض على أثر معركة قامت بين روح أخيه بو بيتش وبين روح أخ آخر لهما ، كذلك يعلمون أن الفتاة بيكاواس Pikawas لم تعد تلبس رداء الخطوبة لأن روح عمتها تعارض فى إتمام الزواج . وتعلم فتاة الرابعة عشر كيساپوى Kisapwi أن أباها الميت ابتلى عمها بمرض عضال لأنه يريد من ابنته أن تذهب وتعيش مع عمها بدلا من أمها وهى تعلم أيضاً أن أمها رفضت الامتثال لأوامر الروح وتمسكت ببقاء ابنتها معها خوفاً على شعور ابنتها . هذا بعض ما يعلمه الأطفال ولكنهم لا يعلمون فى أغلب الأحيان ما تتضمنه الجلسات التى تفسر أسباب ما يصيبهم من أمراض .

ولما كان لا بد من إقامة روح لحراسة كل طفل ذكر فيما بين الخامسة والرابعة عشر من العمر ، فلا بد لنا أن نتوقع أن يلجأ الأطفال إلى هذا الرفيق الخيالى السلطان فيجدون لديه العزاء . ولكن الواقع أن الأطفال لا يحاولون

الاستفادة من هذه الأرواح الحارسة . فهم لا يرونها ولا يحادثونها رغماً عن أنهم كثيراً ما يشـــاهدون آباءهم منهمكين فى أحاديث طويلة مع هذه الأرواح كما لا يلجأ الأطفال إلى هذه الأرواح الحارسة طلباً لأى نوع من المساعدة أو العون وكما فسر هذا السلوك أحد الغلمان إذ قال — إن الروح لا تسمع إلا إذا كانت موجودة بجوارك ، وهى غالباً لا تكون حاضرة ساعة مخاطبتى لها فما الداعى إذن لإضاعة الوقت فى محادثتها ؟

ويحدث فى بعض الأحيان ألا يعى الأطفال حتى مجرد أسماء الأرواح التى تحرسهم .. ولا يحاول الأولاد التدليل على امتيازهم الاجتماعى على البنات بوجود أرواح حارسة لهم وحرمان البنات من هذا الامتياز ، بينما يؤكد الرجال هذا الامتياز مراراً وتكراراً . بل إننا نجد الأولاد على عكس الكبار يتهربون من الأرواح ، ويهملون أمرها ، وهم بذلك يتجاهلون ويحطون من شأن أهم عامل يسيطر على عالم الكبار .

وإلى جانب النظام الدينى الرسمى القائم ، يؤمن الناس ببعض أعمال السحر ويتناقلون الأساطير عن الشياطين الأرضية والشياطين المائية . أما الأطفال فهم لا يعلمون عن ذلك إلا القليل . وأعمال السحر هذه توجه فى العادة نحو الاستزادة من الثروة والنجاح فى الحب وتحطيم منافس اقتصادى ، أو مواصلة معركة بين أبناء العم . وتأثير اللعنات أو الدعوات التى ترسلها أخوات الأب أو نسلهن من الإناث غير معروف للأطفال دون الخامسة عشرة .

ولا يحفظ الأطفال أية تعاويذ أو رقى من أى نوع وإذا تليت رقية حول فراش طفل مريض ، أو وليد جديد أو عروس يوم عرسها قام الكبار بطرد الأطفال من المكان أو حذروا عليهم أقل حركة تحقيقاً للسكون الشامل ساعة تلاوة الرقية ، ويراقب الأطفال هذه المشاهد من ممارسة السحر ، مبدين ضجرهم وعدم اكتراثهم بها .

وتلعب الأساطير عن شياطين الأرض وجنيات البحر دوراً فيه شيء من الاختلاف .

فالأساطير التى يرددها أهل مانوس بسيطة ، مبتورة وهى خلو من عوامل الإثارة . ولا تخرج عن رواية أخبار بعض المعارك بين الآدميين وبين التشينالة Tchinals أى عفاريت الأرض الذين يوصفون فى مانوس بأنهم شياطين تنزع إلى الشر والأذى . وهناك أيضاً بعض الروايات عن كنه الظواهر الطبيعية ، ولكن ليس فى هذه الروايات ما يجعلها مرتبطة بحياة الناس كما أنها لا تفسر أياً من الطقوس الدينية ، ولا تدلل على أهمية المركز الاجتماعى لشخص ما وهى ليست وسائل لشغل أوقات الفراغ ، ولذلك لا يهتم الكبار بها ، ولا يقيمون لها وزناً . ولا يدور بخلد أى شخص منهم إن يعيد روايتها على أطفاله . ومهما كان الأمر فإن الكبار حين يصورون الشياطين إنما يقصدون إرهاب الأطفال حتى لا يذهبوا إلى البرارى المتطرفة . وهم يقولون عنها أن لها مخالب فى طول الأصابع وأن شعرها كثيف مسترسل يغطى عينيها . وهنا أيضاً نجد الأطفال لا يصدقون هذه الخرافات كل التصديق ، وخصوصاً أن الكبار يخرجون ، ويذهبون بعيداً بدون أى خوف من هذه العفاريت ، ولذلك فهم يستغلون الشياطين والعفاريت كما تستغل مربيات الأطفال عندنا (أبو رجل مسلوخة مثلا) ليحملن الأطفال المعاندين على أن يذهبوا للنوم . ولذلك نلاحظ أن الأطفال حين يسمعوا هذه هذه الخرافات ، يبدو عليهم الاستخفاف وعدم المبالاة . وقد يلعب بعض الأطفال ألعاباً تدور حول الشياطين فينادون صبياً يرتدى زياً غريباً أو يأتى بحركات غريبة «ياشيطان» ، أو يعلقون على محاولة أحدهم أن يرسم شخصاً ثم يأتى الرسم رديئاً فيقولون أنه رسم «عفريتاً» ، وفى تصويرهم للشيطان لا يحاولون أن يعقدوا من صورته أو أن يخلعوا عليه صفات معينة أو يطلقوا عليه تشبيهات خاصة . ولا يردد الأطفال أية أقاصيص عن أعمال العفاريت . كما أنهم لا يدعون أن أحد الأماكن مسكون بالأشباح أو أن بعض المناطق المائية خطرة . ولا يستغل

الأطفال فى تلك البلاد موهبة التخيل التى ينطلق فيها أطفالنا ، وسبب ذلك أن المجتمع هناك يمد أطفاله بعالم فى حاجة إليه من أرواح وأشباح وشياطين وعفاريت ثم يستخدم هذه المخلوقات الخيالية كوسائل للضغط على الأطفال ، والإعتذار بها عن سلوك يراه الأطفال عائقاً لرغباتهم . وحيث نجد أطفالنا يعيشون فى عالم ملىء بالواقعية ومع ذلك يشغفون كل الشغف بقصص الجن ، والغيلان ، التى يلمسون أخبارها من سماع القصص الخرافية ، نجد أطفال جزيرة مانوس يعيشون فى عالم من الخيال ثم يرفضون هذا الخيال فى القصص ويفضلون عليه عالم الحقيقة والواقع لهذه الشياطين ذات المخالب الطويلة لا تتناسب وعقلية الطفل هناك . فهى من اختراع الكبار والأطفال عادة لا يهمهم ما يدور فى عالم الكبار ولذلك فإن تلك الأساطير لا تجد لها مكاناً فى حياة الطفل ، وينصرف الطفل إلى من يقص هذه الخرافات باستخفاف وعدم اهتمام .

ومما هو جدير بالإشارة أيضاً أن نلاحظ العلاقة بين تكيف سلوك الأطفال فى باكورة حياتهم ، وموقف الأسرة ، والنظام الديني ، فإن سلوك أهل مانوس بالنسبة للأرواح إنما هو مزيج من شعور الطفل نحو أبيه وشعور الأب نحو أطفاله . فالطفل الصغير يرى فى أبيه الملاك الحارس الذى وجد أولا وقبل كل شىء ليحقق له رغباته . وكلما كبر ضعفت حدة هذا الشعور حتى يحتل رفاق الطفل مكانة الأب ، فيستعين الطفل بأصحابه لإشباع بعض حاجاته الإجتماعية . ولكن الأب يظل ، مع ذلك ، وراء طفله يحميه ، يلجأ إليه الإبن حين يتخاصم أو يتشاجر مع أصحابه فهو دائماً أبداً على استعداد ليستأنف دوره الأول فيصنع لطفله اللعب ، ويتخذه رفيقاً وصديقاً ، ويتشاجر مع أمه من أجله . والأب هو الذى يدفع مهر إبنه حين يعتزم الزواج ، وهو الذى يفكر بعمق فى مستقبل الإبن فى وقت لا يكون هذا المستقبل موضع خطورة أو مسئولية بالنسبة للإبن . ومن النادر أن يعيش الأب ليحقق ما يرجوه لإبنه ، أو ليسدد كافة نفقات زواج الإبن ، أو ليرى زوجة إبنه وقد استقرت فى مسكن زوجها فى الجزء الخلفى من دار الأب . ولا شك أن الشرف الذى يحرم على الأب رؤية زوجة إبنه لمن الأمور المؤلمة بالنسبة للأب .

وموقف الأب هنا من المواقف النادرة التى تتجلى فيها عاطفة أهل مانوس . فالأب يتلهف على رؤية وجه زوجة إبنه المحبوب . ولهذا نجد الشيخ العجوز يقول : « هل أموت قبل أن أرى الزوجة التى اشتريتها لإبنى ؟ » . وهكذا فإن الأب العجوز حين يخطو حثيثاً نحو القبر ، وحين يبلغ من العمر ما لا يدع مجالا للشك فى مقاصده ونواياه يسمح له بإقامة احتفال لزوجة إبنه . فبعد أن يعلن لها رسمياً عن تقديره واحترامه ، يرفع التحريم عنه نهائياً ويعيش الأب وإبنه وزوجة الإبن فى مسكن واحد .

ولكن هذا الموقف نادر الحدوث ، ولم يكن فى بيرى كلها سوى رجلين إثنين عاشا ليرى زوجتى ولديهما ، بعد أن رفعا التحريم ، فالشىء المألوف هناك أن يموت الأب والإبن ما يزال فى العقد الثانى من عمره ، وغالباً ما يموت الأب والإبن غائب عن البيت فى أحد الأعمال . وأسلوب الحياة فى مانوس شاق مرهق ولذلك يموت الرجال دائماً ، وهم فى ريعان الشباب .

وبموت الأب ينتقل واجب دفع مهر زوجة الإبن إلى الأخ الأصغر أو إبن العم أو أى شخص يكون الأب المتوفى قد تكفل بدفع مهره عند زواجه . وعلى ذلك فإن عبء المهر ينتقل إلى رجل يكبر العريس عادة بعشر سنين أو خمس عشرة سنة ، أى أنه رجل لم يتحرر بعد من عبء رد دينه الخاص .

وهذا الكفيل الجديد كان يعمل أجيراً عند والد الشاب سداداً لدينه عليه . والآن عليه أن يتكفل بنفقات زواج الشاب الابن رداً لجميل أبيه عليه ، وعلى الإبن أن يعمل بدوره لدى هذا الكفيل لقاء ما سوف يدفعه لزوجته من مال ويتضح ما فى هذا التقليد من تعقيد إذا عرضنا لعائلة بوتيك Potik .

فقد تبنى بوتيك باناو Panau الذى أصبح بمثابة إبنه ، وبعد ذلك بفترة تزوج بوتيك من كوماتال Komatal التي تبنت هى الأخرى إبن إبن عمها باليو Paleao : ونشأ باليو وهو ينادى بوتيك « يا أبى » . وبعد فترة

ولدت كمانل زوجها ولدين هما توتو Tutu ، ولويل Lawil . وقد عاش بوتيك وحضر زواج بالو ثم توفى . فتكفل بالو بمهر زوجة باليو ، وبدأ يدفع مهر توتو ولويل . ثم تبنى ابناً صغيراً هو كوتان Kotan . وكان على باليو أن يسلل سلمى الحياة لدى بالو وأن يدين له بالولاء ، وكذلك توتو ولويل . ويحدث أن بدأ كوتان يسلل ، توفى أبوه بالو فجأة . وهنا حل باليو محل بالو واستمر في تمويل توتو ولويل كما تكفل بتمويل كوتان . وقد أصبح باليو الآن يقوم بسداد ديون زواجه بمفرده وليس هناك من يساعده ، وبذلك فقد أصبح سواهماً مستقلاً . وبعد ذلك شرع يجمع مهر ابنه الصغير بوبولي Popoli ومن المتوقع جداً ألا يعيش ليتم جمعه . وفي هذه الحالة يحل توتو أو لويل ، وهو الأكبر ذكره ، محل باليو في تمويل زواج بوبولي . ففي هذه السلسلة الطويلة نجد ابناً واحداً فقط وهو بانيالو يتزوج قبل أن يموت أبوه ، وهو كما علمنا ابن بوتيك بالتبني . وفي حالة وفاة الأب نجد دائماً أخاً أصغر أو عماً يأخذ مكانه ويتكفل بنفقات الإبن ، رغماً عن عدم وجود شعور متبادل بين الاثنين ، ورغماً عن أن الإبن لا ينتظر مطلقاً أي اهتمام أبوي من جانب الكفيل الجديد .

ونلاحظ في إطار الأسرة العام وفي علاقات صغار الأطفال فيها ، أن علاقة الأخ بأخوته ليست بذات قيمة . فالشبان لا يطلب منهم رعاية أخوتهم الصغار . ويجد مسموح لهم بصحابة الكبار وتعبر إحدى الأمهات عن هذه الحالة بقولها : «لأن الصغير إذا بكى وأراد العودة إلى البيت فإن هذا يقطع على أخيه الكبير لذة اللعب ، فالواجب في نظرهم ألا يتدخل عامل من العوامل مهما كان في تسلية الطفل وفرحته فيقطعها أو يعوقها .

فدار البيت إذن ليس بضعة أطفال يعتمد كل واحد منهم على الآخر ، ويرعى الكبير منهم الطفل الأصغر منه سناً كما هو الحال في ساموا مثلاً .

ولكنه عبارة عن جماعة يركز كل فرد فيها اهتمامه على الأب أولاً ، ثم تأتي الأم في المرتبة الثانية بعد الأب ، وهكذا يتم تشكيل التكوين النفسي العام للطفل ، الذي يسيطر على استجاباته فيما بعد ، في السنوات السبع أو الثمان الأولى من الحياة ، التي يعتمد فيها الطفل اعتماداً تاماً على أبيه ، وهو اعتماد محبب إلى الأب . وقد تؤثر صداقة الصبي لرفاقه في قوة هذه العلاقة بين الإبن وأبيه ، غير أن تلك لا تؤثر تأثيراً جوهرياً في شخصية الطفل ، بحيث أنه إذا مات الأب فإن الطفل يصبح عاجزاً محروماً أحياناً إلى الأبد . وإذا كان الطفل في الرابعة أو الخامسة فإنه يجد رجلاً آخر يتبناه ، وبذلك يشعر أن الأب البديل هو والده الحقيقي . ويتم تبني البنات بسهولة أكثر من الأولاد وذلك لأن مساهمتهن في الحياة المنزلية أكثر إستقلالاً . أما أكثر الأطفال شعوراً بالوحدة فهم أولئك الذين فقدوا آباءهم وهم لا زالوا أبناء السابعة .

ولقد كان بانيالو واحداً من هؤلاء . فقد توفى أبوه حين كان في السابعة من عمره ثم كفلته إحدى عماته وهي أرملة عجوز كانت تعيش بمفردها ولم يحل رجل آخر مكان أبيه . أما أمه فقد ذهبت لتعيش مع أخ لها و بعد ذلك تزوجت . وحين قدم ضابط المنطقة إلى القرية يطلب أطفالا للمدرسة سلموه بانيالو . ولما كان قد فقد أباه فإن أحداً لم يهتم بالاعتراض على ذهابه إليها ، وقد عاد بانيالو إلى قريته بعد مضى ست سنوات قضاها في رابول Rabaul ولكنه وجد نفسه غريباً وسط أهله فإنه لم يكن يتعرف على أمه ، وأما خاله فقد رحب به ترحيباً متكلفاً وقد عرض عليه أن يبيت في بيته ولكنه لم يشعره بأنه واحد من أهل البيت . ولذلك صار ينتقل من مكان إلى آخر ثم استقر في آخر الأمر في بيت زوج خالته باليو الذي آل على نفسه أن يقوم بسداد نفقات زوجة بانيالو . و بذلك أضيف إلى شعوره بالحرج من زوج خالته ، عبئاً آخر هو اعتماده عليه في تمويل زواجه . وأخيراً انتهى الأمر بأن عقد بانيالو أواصر الصداقة مع شاب أصغر منه سناً و بذلك أمكنه أن يقلل من ألم الوحدة بعض الشيء .

أما بوبولو فقد كان أكثر وحدة ، وكان أبوه يدعى سوري Sori .

وكان سورى هذا رجلا لطيف المعشر وعلى خلق كريم فهو محط احترام الجميع لطباعه الحسنة ولين حاشيته . وكان يقال عنه إنه لا يطلب أمراً إلا بعد إلحاح شديد وأنه كان دائماً صموتاً حيياً مع الرجال حتى الذين دونه سناً ومالا .

وقد ماتت أم بوباو عند ولادته ، وتولى أبوه رعايته بلا كلل أو ملل . وقد نشأ الولد على شاكلة أبيه من حيث هدوئه ، ورزانته وحسن طباعه وقد تزوج سورى للمرة الثانية ، ولكن الطفل لم يستطع أن يتجاوب مع زوجة أبيه التى أحضرت معها طفلا شاذاً مصاباً بالصمم كرهه بوباو . ثم مات سورى فى ريعان شبابه ولما يتخط بعد الخامسة والثلاثين من عمره . وقد حدث أن تشاجرت معه زوجته الجديدة قبل وفاته وتركته وأقامت فى بيت أهلها ، و بعد وفاته لم تهتم أدنى اهتمام بابن زوجها .

وعلى ذلك فقد قدر على بوكيناو Pokenau وهو الأخ الأصغر لسورى أن يقوم بتربية الصبى اليتيم . وقد اتخذ بوكيناو من روح سورى روحاً حارسة له وأصبح يفخر بمعجزاته . فكان يعزو فضل ما أصابته القرية من صيد طيب خلال ذلك الشهر إلى روح سورى . ولكن هذا لم يكن سبباً كافياً لكى يحب ابن سورى ، أما الصبى القريب إلى قلبه فهو ابنه ماتاواى Matawei وهو صبى يصغر بوباو بثلاث سنوات . كذلك لم يكن لدى الزوجة الوقت الكافى للعناية ببوباو نظراً لانشغالها بطفليها الصغيرين وهكذا عاش الطفل اليتيم فى البيت منعزلا ، لا يشكو ولا يطلب أمراً . أما أبوه البديل فقد كان رجلا حاد الخلق شرس الطباع حتى أطلق عليه رجال الحكومة لقب « الفم الكبير » ، وكان ولده ماتاواى يقلد أباه فى كل حركة من حركاته أما بوباو فقد ظل أميناً لشخصية أبيه . لم يحدث قط أن تسبب فى نشوب معركة أو اشترك فى واحدة . فإذا لاحت أمامه بعض المتاعب فإنه يؤثر دائماً أن ينسحب ويجلس وحيداً بمفرده وإذا جاء المساء تكور على نفسه فوق الأرض فلم يكن هناك من يعنى بأمره أو من يقلق عليه .

ولقد ذاق هذا الغلام خلال شهر قصير حلاوة العطف وهو صغير أى قبل أن يموت أبوه . فقد تبناه باتاليان Pataliyan ، وكان هو نفسه غريباً وحيداً جاء من قرية أخرى وقد أسره فى الحرب — وهو بعد طفل صغير — جد بوباو لأبيه . وكان هذا الرجل أرملا ليس له أقارب . ورغم ما كان يحس به من وحدة إلا أنه لم يشأ العودة إلى أهله فى جزيرة ناونا Nauna لا سيما وقد نسى لغته الأصلية تماماً . وقد نشأت صداقة قوية بينه و بين الغلام اليتيم وأخيراً ذهب اليه بوباو وعاش معه فى بيته . وأصبح بوباو أكثر شعوراً بكرامته وأكثر ثقة فى نفسه ، وأصبح مرفوع الرأس . ولكن سعادته كانت قصيرة الأمد فقد فر باتاليان مع إحدى الأرامل ، وأحدث هذا العمل هزة فى القرية بأكملها فقد كانت تلك الأرملة زوجة لأحد أقارب سورى . وفى إحدى جلسات استحضار الأرواح ، والأحلام التى أعقبتها ، كانت روح سورى تدافع بشدة عن قريبها الميت. وقد فر باتاليان تصحبه عروسه إلى قرية أخرى ، ولم يأتمن بوباو على سره . وصار بوكيناو وسائر أقاربه يشيرون إلى بوباو و يعيرونه بغضب أبيه من تصرف باتاليان ، وأن سورى هددهم جميعاً بالهلاك إذا تكلموا مع باتاليان ونظراً لما لحق بوباو من إهانة بسبب هجر باتاليان له ، وولائه لإرادة والده فإنه أعلن تبرءه من باتاليان بنفس الطريقة التى عامله بها الآخرون . وكلما صادف قارب باتاليان أثناء مروره فى القرية ، أدار رأسه إلى الناحية الأخرى .

وكان كابيلى Kapeli هو الغلام الثالث الذى توفى أبوه ، ولم يحل أب بديل محل الأب المتوفى . وكان غلاماً فى الخامسة عشرة ممتلىء الجسم ، قوى العضلات ولا شىء يمنعه من الشجار أو المخاطرة وكان الصبى يعيش مع أمه ندرانتش Ndrantche وهى عجوز مسترجلة وقد تشاحن رب أسرته توابن Tuain — وهو أخ ليس شقيق له — مع أم الغلام ومع باقى اخوته بسبب مشروع زواج . فإن رجلا كان على علاقة غير شريفة مع ندرانتش منذ خمسة عشر عاماً وفر من القرية تفادياً للزواج بها ، جاء يريد الزواج بإحدى بناتها ، وقد حاربت الأم تلك الفكرة بجنون ووقف صغار أفراد الأسرة إلى جانبها ، كما

أخذ كابيلى جانب أمه كما هى عادته ، فهو لم يكن يشعر بأى تجاوب مع رب الأسرة ولا مع أخيه الثانى نجاماسو Ngamasue وقد تبين فى سلاطة لسان أمه بعضاً من روح أبيه العنيدة ، فقد كان أبوه ناجحاً فى التوفيق بين زوجتين فى بيت واحد .

ولم يكن كابيلى صغير السن بحيث يستطيع توجيه مشاعره إلى أحد إخوته ، كذلك كان إخوته يبادلونه نفس الشعور بعدم التجاوب وعدم المسئولية تجاهه ، ولذلك لم يتقدم واحد من إخوته لدفع نفقات زوجة لـكابلى بل تولى تواين ، ونجاماسو دفع ديونهما الخاصة ولم يفكرا فى مستقبل أخيهما الأصغر وكان كابيلى هو الشاب الوحيد من بين الكثيرين ممن كانوا يعملون عندنا الذى لم يهرب مطلقا من العمل ، إذا كان الملاحظ أنه كلما تضايق أحدهم من العمل بمؤسستنا ، فر هاربا لمدة أيام ، أما كابيلى فلم يهرب مطلقاً ، وكان يفسر سلوكه هذا بقوله « ما دام لا يوجد لى أب ألجأ اليه فلا جدوى من الهرب » .

كان هؤلاء الثلاثة هم أشد الأولاد وحدة ، وقد جاءت وفاة آبائهم فى مرحلة متأخرة من أعمارهم بحيث تعذر اندماجهم فى عائلات جديدة ، وفى هذا دليل هام على الدرجة التى يتقرر بها إتمام تكوين شخصية الطفل بين سن الخامسة أو السادسة .

ولم يتعلم أحد هؤلاء الثلاثة بعد أن يعتمد على الأرواح ولو أن بو باو يصر على القول إزاء احتقار بوكيناو له ، أن سورى كان يجب أن يحرسه هو ، ولا تقوم الأرواح بدور فى حياة هؤلاء الشبان إلا بعد الزواج حين تصبح عليهم مسئوليات اقتصادية عليهم أن يوفوا بها ، وحين يصبح للصيد أهمية عندهم . ولا يشعر الشاب بفداحة مصابه فى أبيه إلا بعد الزواج ، فالأب يموت عادة والإبن لا يزال منغمساً فى لهو الشباب أو وهو مشغول بعمله بعيداً عن أبيه . وأقسى حقيقة تواجهه ، إنما تأتيه عند الزواج حين يفتقد رعاية الأب ، وهنا يتجه الشاب إلى الأرواح ، فهو تارة يلجأ إلى روح أبيـه ، وأحياناً أخرى يتجـه إلى أرواح أفراد

آخرين من العائلة ممن يستطيعون أن يهيئوا له نفس رعاية أبيه له فى طفولته ، ويعيش الشاب فى حماية هذه الأرواح الموجودة دائماً والتى تهتم بأمره ما أمكنها والتى تغضب منه إذ تهادن فى واجباته الخلقية وتغفر له إذا كفر عن أخطائه ، ويظل الشاب يمثل مع الأرواح نفس الدور الذى كان يمثله مع أبيه ، فهو أحياناً يهددها بالاستغناء عنها وتعيين روح حارسة جديدة عليه ويعايرها بماسوف تقاسيه من شعور بالوحدة نتيجة لتخليه عنها .

وكما يحدث بين الأطفال حين يتعلق الواحد منهم بأبيه ويستغل حبه له وحدبه عليه فى علاقة من طرف واحد تؤكد دائماً حق الطفل فى أن يتلقى حب أبيه وتغفل حق الأب فى ولاء ابنه له ، كذلك الحال مع الأرواح فإن سكان جزيرة مانوس لا يحبون الأرواح الحارسة التى تقوم بواجبها الروحى من ناحية العناية بهم وحمايتهم . أما الأفراد الأكثر استنارة والذين يفكرون فى اعتناق المسيحية مستقبلا فإنهم يعلمون أن ذلك معناه إلقاء جماجم الأجداد فى البحر وطرد الأرواح نهائياً . وهم ينظرون إلى هذا العمل بنفس السرور الذى يشعر به الأطفال المشاكسين الذين يفكرون فى هجر آبائهم بدون أن يساورهم أى ندم بل على العكس فإنهم يشعرون بالارتياح .

وكما كان أهل مانوس أطفالا مدللين فى طفولتهم فإنهم عند ما يكبرون يصبحون أطفالا مدللين بالنسبة للأرواح فهم يقبلون ما تقوم به الأرواح الحارسة من خدمات كما لو كانت حقاً مشروعاً لهم . وهم لا يذعنون لأى نظام ، ولا يترددون عن هجر إحدى الأرواح إذا حدث وعجزت عن حمايتهم .

الفصل السابع

عالم الطفـــــل

رأينا فيما سبق أن أهم ما يشغل بال الكبار فى مانوس ليس له اعتبار فى نظر أطفالهم الذين لا يمتلكون شيئاً يحرصون عليه ، ولا يكتسبون مالا . ولا يوجد عندهم تلك المجموعات من الصدف والأحجار المتعددة الأشكال أو سلاسل الأسماك أو البذور . . . الخ . وغير ذلك مما يحرص الطفل الأمريكى على جمعه واخفائه مما أدى بنا إلى وضع نظريات عن « مرحلة الاقتناء » فى الطفولة . ولم أر طفلا تحت سن الثالثة عشرة يملك شيئاً فيما عدا زورقه أو قوسه وسهمه مما يصنعه له الكبار ، أو لعب النحل المصنوعة من الثمار الفجة لبعض الفواكه . وهذه يرميها الطفل بعد أن يلعب بها ساعة أو ما يقرب من هذا الوقت . كذلك لا يهتم الطفل بالاحتفاظ بمجاذيفه أو العصى مما يستخدمه فى تسيير زورقه أو الحراب الخشبية ، أو السهام إلا لساعات قليلة ثم يلقى بها بعد ذلك .

أما أطواق الخرز التى تطوق معاصم الأطفال وسيقانهم فهى من صنع الوالدين يلبسونها للطفل أو ينتزعونها عنه كما يحلو لهم ، بدون أن يضيق الطفل بذلك أو يتبرم . وحتى الأشياء الغريبة الجديدة التى أحضرناها معنا إلى القرية لم يحتفظوا بها . بل كان الأطفال ينبشون ، وكلهم تشوق وحب استطلاع ، فى قصاصات الشرائط الملونة أو المفضضة وفى أغلفة الأفلام الصفيح أو فى لفائف الأفلام المستعملة . ولكنهم لم يحاولوا أبداً أن يقتنوها . وخير مثال على عدم ميل الأطفال للاقتناء ، أنه قد حدث أن رميت ما يقرب من مائة بكرة خشبية مما تلف حولها الأفلام ، ثم لاحظت أن إحدى آلات التصوير تنقصها بكرة خشبية فطلبت من الأطفال إحضار واحدة من تلك البكرات التى رميتها والتقطوها خلال الأسابيع الماضية . وقد ظل الأطفال يبحثون زهاء ساعة كاملة

وأخيراً لم يمكنهم العثور إلا على بكرة واحدة فقط وجدها صبى فى الرابعة عشر ملقاة فى صندوق أشغال أمه ، أما سائر البكرات فلم يعثر لها الأطفال على أثر .

غير أن إهمال الطفل فى الإحتفاظ بلعبه التى يلتقطها فى لهفة ويهملها بسرعة ليس مرجعه إلى نزعة فى الأطفال للتدمير . فإن أكثر الأشياء تضيع من الطفل قبل أن تتلف ، بل إن الأطفال يظهرون اهتماماً ملحوظاً بلعبهم طالما كانت تستحوذ على انتباههم . وهو اهتمام بمقتنيات الطفل يفوق ما نلمسه من أطفالنا . ولن أنسى مطلقاً منظر طفل فى الثامنة من عمره يدعى ناونا Nauna وهو يحاول إصلاح بالون أهديته أياه ، وكان ثمنه قرشاً واحداً . ففى صبر وأناة كان الغلام يحاول سد ثقب فى البالون بتجميع أطرافه مع بعضها وربطها بقطعة من الخوص . وكان ينجح مؤقتاً فى إصلاح الثقب ولذلك كان البالون ينتفخ لحظة ولكن سرعان ماينكمش ثانية . ويعيد الغلام الكرة محاولا إصلاحه مرة أخرى، وكان أن أمضى الغلام زهاء ثلاث ساعات فى محاولات متواصلة بدون أن ينفذ صبره بل كان يحاول فى هدوء وصبر أن يلم أطراف الثقب بدوبارة القش . فلهذه المثابرة دلالة واضحة على مدى عناية الأطفال بالأشياء المادية وهو اتجاه غرس فيهم منذ الصغر . غير أن الكبار لم يكلفوا أنفسهم أية مشقة فى سبيل تدريبهم على طريقة معينة لجمع الأشياء أو للاحتفاظ بمقتنياتهم الصغيرة .

وتلاحظ الظاهرة نفسها فى المنظمات الاجتماعية فإن الأطفال لا يجدون نمطاً معيناً لنشاط الكبار يغريهم على اقتفاء أثره . فهم مثلا لم يتلقوا من الكبار أية معلومات عن صلات القربى وما يكتنفها من وظائف متشابكة ومسئوليات وواجبات على أفراد العائلة ، والنظام نفسه ليس من السهولة أو البساطة بحيث يستطيع الأطفال إدراك علاقاته بأنفسهم . كما أن استهتارهم الطبيعى بنشاط الكبار منعهم من تقليدهم فى بعض ألعابهم ، ومن آن لآخر كل شهر تقريباً نجد جماعة من الأطفال تقوم بتمثيل مشهد مما يجرى فى إحدى حفلات الزواج حين يقوم أهل العريس بتقديم المهر . وقد يمثلون جنازة واحد منهم ويوزعون

التبغ على المعزبن . ولقد رأيت فى إحدى المرات بعض الفتيات الصغيرات يتظاهرن بتأدية أعمال المنزل .

ورأيت فى مناسبتين أخريين غلماناً فى الرابعة عشر من أعمارهم يرتدون ثياب البنات وعليها عباءة الخطوبة ثم يقلدون الفتيات حين يتخفين فى العباءة تجنباً لرؤية أقارب العريس ممن حرم عليهن لقاؤهم . وأحصيت أربع مرات قام فيها أطفال فى السادسة من العمر ببناء بيوت صغيرة مصنوعة من العصى الرفيعة . وإذا حاول المرء أن يعقد مقارنة بين هذا اللعب الواقعى و بين ما يقوم به أطفالنا من ألعاب إيهامية متعددة الأنواع مثل الألعاب التى تدور حول القرصنة ، والهنود الحمر ، ومهربى الخمور ، والألعاب التى تدور حول الجمعيات السرية ، وكلمات السر والألغاز وغيرها فإننا نجد اختلافات بينة .

نحن نجد فى مانوس جماعة من الأطفال قد يبلغ مجموع أفرادها أربعين طفلا وليس لهم ما يشغلهم إلا أن يلعبوا و يمرحوا طول النهار . والبيئة المحيطة مكان مثالى لذلك ، فالبحيرة ليست عميقة ولاخطره ، ومن آن لآخر يقطع صمتها الطويل تغير المد أو هطول الأمطار أو هبوب بعض الأعاصير . وفيما خلا تلك الأحداث فإن الأطفال أحرار فى أن يلعبوا فى أى بيت من بيوت القرية ، ولابد من وجود أرجوحة للاطفال فى غرفة الضيافة فى كل بيت . وهناك الكثير من الخامات التى يستطيع الأطفال استغلالها فى تقليد أى نشاط يقوم به الكبار ، فلديهم خوص النخيل ، وأليافها ، ولحاء الأشجار ، ومختلف البذور (و يصنع الكبار منها أحجبة صغيرة) والزهور الحمراء ، وأغلفة جوز الهند وأوراق الباندانس ، والأعشاب العطرية والبوص ونباتات الماء المختلفة ،ومن هذه المواد يستطيع الصغار إذا شاءوا أن يقلدوا الكبار فيتجاروا أو يقايضوا ، أو يمثلوا مخازن الرجل الأبيض وقد رأوا بعضاً منها وسمعوا الكثير عن البعض الآخر ، وإلى جانب زوارقهم الخاصة بهم والتى لا يركبها سواهم ، فإن لهم الحرية المطلقة فى أن يلعبوا فى قوارب آبائهم ، ولكن هل حاول الأطفال مرة أن ينظموا من أنفسهم بحارة سفينة مثلا ، فيختارون

ربان السفينة ، وملاحيها ومهندسيها ؟ أو هل حاولوا تقليد البحارة البيض وقد سمعوا أخبارهم وأخبار البواخر التى يركبونها من الشبان العائدين من العمل فى مزارع البيض ؟ لم يحدث أى شىء من هذا خلال الأشهر الستة التى قضيتها هناك والتى كنت أراقب فيها عن كثب كل نشاط يقومون به . وهل حاولوا ذات مرة أن يقطعوا إحدى الشجيرات الصغيرة فيصنعون منها الحراب و يدهنون أجسامهم بالليمون ثم يتقدمون فيما يشبه أسطول حربى نحو القرية كما يفعل الكبار فى الاحتفالات الهامة ؟ أو هل حاولوا أيضاً أن يقوموا ببناء منصة للرقص كما يفعل الكبار ؟ وهل حاولوا صيد الترسة وضرب الطبول الصغيرة مباهين بصيدهم هذا ؟ لم يحدث أى شىء من هذا كله أثناء إقامتى هناك ، بل إن نشاطهم لم يكن يتعد وضع البذور مكان المحار والتدريب بالحراب التى صنعها لهم الكبار أو علموهم طريقة صنعها . وهم يدقون طبولا صغيرة حين يدق الشبان الطبول لتأدية إحدى الرقصات ولكنهم لا يحاولون إقامة حلقات رقص خاصة بهم .

فليس لدى الأطفال إذن أى نوع من المؤسسات الاجتماعية فلا توجد لهم أندية ، أو حفلات ، أو اصطلاحات خاصة أو جمعيات سرية و إذا شرع الصغار فى إقامة مباراة ، فإن الصبية الكبار يقسمون الجماعة إلى فريقين متماثلين فى المهارة البدنية . ولكن هذه الفرق لا تدوم ، ولا تطول المنافسة بينهما بل سرعان ما ينفرط الفريقان ، ورغماً عن وجود نوع من القيادة بين الأطفال إلا أنها قيادة من نوع منطلق حر يعود إلى الذكاء والسرعة فى الأداء ، وقد تشرع جماعات ، من أعمار مختلفة ، مرنة فى تنظيمها وليست دائمة أو ثابتة ، فى القيام ببعض أنواع النشاط كالقيام برحلة صيد خارج حدود القرية . لفترة من ساعات العصر : كذلك يحدث أن تشكل جماعات للوثب فوق الأحجار و يستمر نشاطها دقائق معدودة وقد تتألف من أحد الصبية المراهقين ، وصبى آخر فى الثانية عشرة وثالث فى السابعة وقد يرافقهم أيضاً أخ صغير . و يتوقف تكوين هذه الجماعات المسلسلة

على الجيرة أو القرابة ، ولكن حتى هذه الجماعات ليست متماسكة ، كما أن صغار الأطفال لا يبقون على ولائهم لمن هم أكبر منهم سناً .

وألعاب الأطفال غاية فى الواقعية فهى خشنة ، وخالية من الخيال أو اللعب الإيهامى ولا تخرج عن كرة القدم ، والمصارعة ، وبعض الألعاب البسيطة كالسباق ومنها سباق القوارب ، وأشباح الماء حيث يقفون وظلالهم تبدو على صفحة الماء فى ضوء القمر ، بينما يحاول صبى آخر أن يتعرف على شخصياتهم ، وحين يتعب الأطفال من هذه الألعاب فإنهم يتجمعون فى مجموعات ويغنون أغانى بدائية رتيبة يرددونها مرات ومرات .

أنا رجل ..

وليس لى زوجة ..

أنا رجل ، وليس لى زوجة ..

سأحضر زوجة من بونى « Bunie » .

من عند أبناء عم أبى .

من عند أبناء عم أبى .

أنا رجل .

أنا رجل .

وليس لى زوجة .

وقد يصنعون أشكالا من الدوبار أو يرسمون وشماً على أذرع بعضهم بعضاً بواسطة غصن شجرة ملتهب .

وقد يدور الحديث عن من هو أكبرهم سناً ، أو من هو الأطول قامة

أو من عنده أكبر عدد من الوشم ، وعما إذا كان الصبى نين Nane قد استطاع أن يصيد الترسة أمس أو اليوم ، وعن موعد عودة القوارب من موك Mok ، وعن المعركة الحامية التى دارت بين سـاناو Sanau وكيماى Kemai بسبب ذلك الخنزير ، والساعات الرهيبة التى مرت ببوماسا Pomassa وهو يكافح فى قاربه الموشك على الغرق . وحين يبدأ الصغار فى مناقشة شئون الكبار فإنهم يستخدمون مصطلحات عملية واقعية . فمثلا يقول كاواى Kawi البالغ من العمر أربعة أعوام لكيليبياك :

— أريد ورقاً .

— لماذا ؟

— لأصنع سيجارة .

— ولكن من أين لك بالتبغ ؟

— من المأتم .

— مأتم من ؟

— مأتم آلوبو .

— ولكنها لم تمت بعد .

— نعم ولكنها سوف تموت قريباً .

والمناقشات التى تنتهى بتناول اللكمات كثيرة الحدوث وهم يتوخون الدقة فيما يقومون بعمله ويتحمسون له حماساً أخذوه عن الكبار ، الذين يوقظون القرية ليلة بأكملها وهم يناقشون حول عمر طفل مات منذ عشر سنوات وهل هو أصغر أم أكبر من شخص آخر لا يزال على قيد الحياة .

وفى حالة مناقشة المسائل المتعلقة بالحجم أو العدد فإنهم لا يهدأون حتى

يثبتوا صحة آرائهم، وقد رأيت بعينى ما يشبه تجربة من هذا النوع ، ففى الأيام التى تجرى فيهـا أحداث هامة فى القرية ، كان وقتى يضيق عن الانتظام فى تناول وجباتى المألوفة من الطعام ، لذلك كنت أكتفى فى الوجبتين بتناول كمية من الفاكهة المحفوظة كانت تكفى عادة لوجبة واحدة فقط ، وقد لاحظ خادم المائدة واسمه بومات ذلك وعلق عليه ، ولـكن الطاهى كيليباك ، وهو صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، عارضه . فلم يحدث قبل ذلك أن قسمت علبة من الخوخ المحفوظ على وجبتين . وقد اشترك فى المناقشة كل الأطفال الذين كانوا يترددون على البيت ، كما اشترك فيها زوج وزوجته كانا يقيمان فى البيت ، وفتاتان مراهقتان، وقدظلت المناقشة دائرة لمدة خمس وأربعين دقيقة وأخيراً حسم كيليباك الموقف وقال منتصراً « سأقترح عليكم أمراً . ماذا لو أعطيناها علبة من نفس النوع غداً فإذا أكلتها كلها فأنا على حق ، أما إذا اقتسمتها فأنتم على صواب وأنا المخطىء » .

ويتجلى اهتمام هؤلاء الناس بالصدق فى عدة مظاهر من حياة الـكبار . فقد حدث أن سقطت من كيس البندق الخاص بپوكيناد عظام فك نوع خاص من الأسماك ، ولما سئل عن سبب احتفاظه بها أجاب بأنه كان يحتفظ بها ليريها لرجل فى بونى Bunie كان يقول إن هذا النوع من الأسماك ليس له أسنان . كذلك حدث مرة أن وفد على القرية أحد الأفراد الذين يعملون لدى أحد العلماء الألمان ، وذكر لرفاقه المشدوهين إن هذا الألمانى يقول إن غينيا الجديدة كانت جزءاً من استراليا فى وقت الأوقات ، ونتيجة لهذا الخبر انقسمت القرية إلى حزبين ، حزب يؤيد هذا الرأى وحزب يعارضه ، وأدى الجدل إلى أن يتقاتل رجلان حول مدى صدق هذا القول . ويبلغ هذا القلق الزائد للوصول إلى الحقيقة أقصى مداه حين يتعرض أهل مانوس لمناقشة مسائل ما بعد الطبيعة . فإنهم إذا شكوا فى نتيجة جلسة من جلسات الأرواح عمدوا إلى امتحانها معرضين أنفسهم ، فى حالة ثبوت خطئهم ، إلى أخطار مميتة .

وقد ذكرنا أن أحاديث الأطفال شبيهة فى أساليبها ، لا فى موضوعها ،

إلى حد كبير بأحاديث الـكبار، فهم يأخذون عن الـكبار هواية التلقين والألعاب التى تعتمد على التكرار ، والميل إلى التفاخر والمباهاة وتبادل الاتهامات والمناقشات العنيفة حول بعض الحقائق . ولـكن بينما تدور أحاديث الـكبار حول الأعياد والاحتفالات والشئون الاقتصادية ، والأرواح وأعمال السحر والجريمة والاعترافات نجد أن أحاديث الأطفال لا تطرق هذه الموضوعات فكلها أحاديث جوفاء تافهة، لا تحتفظ إلا بالشكل فقط ولا تعالج أية موضوعات مفيدة .

ويتميز أهل مانوس بطريقة مفككة غير مترابطة فى الحديث أشبه ما تكون بأحاديثنا عن الطقس . وليس هناك آداب خاصة بالحديث او أساليب للمجاملات الشكلية التى يقصد بها معالجة المواقف الحرجة . ويستعيضون عن ذلك بنوع من الثرثرة المتـكلفة التى لا معنى لها ، وقد اشتركت فى حديث من هذا النوع فى بيت تشانان Tchanan حيث لجأت زوجة كانت هاربة من بيت زوجها ، وكان يدعى ماتشين . فقد كسر الزوج ذراع زوجته فتركته الزوجة وذهبت إلى بيت خالتها . وقد بعث الزوج مرتين ببعض قريباته إلى الزوجة لتعود إلى بيتها ولـكنها رفضت . ففى هذه المناسبة ذهبت اليها فى صحبة أخت زوجها ، وقابلنا أفراد عائلة خالتها . أما الزوجة الغاضبة فقـد بقيت مختبئة فى الجزء الخلفى من الدار تقوم بطهى الطعام . أما أقارب الزوج وأقارب الزوجة ، فقد ظلوا يتحدثون ما يقرب من الساعة عن أحوال السوق والصيد ، ومواعيد بعض الأعياد القـادمة وعن اقتراب موعد زيارة بعض الأقارب القادمين من موك ، وخلال كل هذه الأحاديث لم يرد ذكر السبب الأصلى للزيارة مرة واحدة ، وأخيراً حول أحد الرجال الحديث ببراعة إلى القوة الجثمانية . فذكر أحد الحاضرين كيف يتفوق الرجال فى القوة العضلية على النساء ، ومن هذه المقارنة تشعب الحديث إلى عظام الرجل وعظام المرأة وكيف أن عظام المرأة هشة ومن السهل أن تنكسر أثر ضربة قد تكون غير مقصودة من رجل لا يبغى بها شراً ، ثم نهضت أخت الزوج واقفة كدليل على انتهاء الزيارة ولم تكن الزوجة حتى تلك اللحظة قد نطقت بكلمة واحدة،

وبعد أن نزلنا إلى القارب وأخذنا أماكننا فيه إذا بالزوجة تتسلق السلم ببطء وتجلس فى مؤخرة القارب .

ويتبع بعض الأطفال هذا الأسلوب الملتوى فى حديثهم مع الكبار . فهم ينطقون عبارات قصيرة جادة يمكن أن تنطبق على أى موضوع يكون محور المناقشة .

فمثلا نجد الطفلة ماسا Massa تقول وقد سمعت أمها تتحدث عن امرأة حامل فى باتوسى Patusi — « لقد عادت المرأة الحامل التى كانت فى دارنا إلى بيتها » ثم تسكت حتى يتاح لها أن تعلق على موضوع آخر . ولا يحاول الكبار تعليم أطفالهم أى أسلوب خاص لرواية القصة أو طرق الاشتراك فى الألعاب الجماعية ، أو طرق حل الألغاز والفوازير، والإدعاء بأن الأطفال مشغولون بسماع الأساطير والقصص الخرافية يبدو أمراً سخيفاً فى نظر أهل مانوس — الأساطير ؟ كلا — إنها للكبار فقط . أما الأطفال فلا يعرفون تلك الخرافات ولا يصغون اليها — بل هم يكرهونها . ولسهولة اقتناع الأطفال فإنهم يتقبلون هذه النظرية التى تناقض واحداً من أقوى مسلماتنا فى تربية الأطفال وهو شغف الأطفال بالقصص .

وهم قد يقصون حادثاً شاهدوه أو تجربة مروا بها ولكنهم يروون القصة فى أسلوب واقعى ، لا يسمحون فيه بأى شطحات للخيال وإليكم هذا المثال .

— ثم هبت ريح عاتية ، كادت أن تغرق القارب .

— ولكن هل غرق القارب بالفعل ؟ (هكذا يسأل الطفل) .

— حسناً إنها كانت عاصفة قوية .

— ولكنك لم تغرق . أليس كذلك ؟

— كلا ... لا ...

فاصرارهم على ذكر الحقائق ، وعلى تحديد الظروف وما حدث فيها بالفعل كل ذلك يحد من نشاط الخيال .

من هذا ندرك أن عادة رواية القصص والاستمتاع بسماعها ليست موجودة هناك . كما أن الاستفسار التخيلى عما يجرى فى الجهة الأخرى من الجبل ، أو ما تسر به الأسماك لبعضها معدوم تماماً . فكلمة « لماذا » فى أحاديث الأطفال مع الكبار تستبدل دائماً بكلمتى « ماذا » ، « أين » ؟

ولا يعنى هذا قصوراً فى ذكاء الأطفال فإنهم يظهرون اهتماماً وسروراً لدى رؤية المصورات ، والإعلانات وصور الكتب . وقد أكب بعض الأطفال ساعات طويلة على نسخة قديمة من كتاب فى التاريخ الطبيعى يستفسرون عما يشاهدونه ، ويتعجبون له ويعجبون به . وكنت كلما قمت بشرح أو تعليق على بعض مايصادفهم فى ذلك الكتاب تذكروه فى تشوق وأضافوه إلى التفسيرات الأخرى فعقولهم المتيقظة لم يعترها أى تراخ أو كسل . كما أنهم كانوا يتلهفون على ممارسة أية لعبة غريبة ومشاهدة الصور الجديدة ، والإسهام فى الأعمال المختلفة بشوق واهتمام يفوقان ما لاحظته على أطفال ساموا Samoa الذين قيدوا وحوصروا بثقافتهم الخاصة .

فبعد أن علمتهم الرسم أصبح هذا الفن هواية محببة لديهم ، فكانوا يملأون صفحات كاملة من الورق برسوم تمثل أشخاصاً من الرجال والنساء والتماسيح والقوارب . ولكن موضوعات هذه الرسوم الواقعية كانت غاية فى البساطة ومرجع هذا ولا شك إلى عدم تعودهم على سماع القصص والحكايات وعدم تشجيعهم على تربية مواهبهم الخيالية . فمثلا لا تخرج رسومهم عن ولدين يتلاكمان ، أو ولدين يلعبان بالكرة ، أو رجل وزوجة ، أو بعض البحارة يقذفون الترسة بالحراب ، أو مركب صيد والملاح الذى يدير محركها . فهم لم يرسموا أى شىء له فكرة أو قصة . كذلك حين عرضت عليهم بعض نماذج من اختبار بقع الحبر وطلبت منهم أن يوضحوا معناها لم أتلق إلا عبارات صريحة

— « أنها سحابة » — أو « هذا طائر » ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى صبيان اثنان فقط بلغا طور المراهقة وتشبعا بفكرة ما سوف يريانه فى البلاد الأخرى ، حين يخرجان من قريتهما للعمل ، فقد فسرا بقع الحبر على أنها إحدى أنواع النعام (رغماً عن عدم رؤيتهم لنعامة حقيقية من قبل ، ولكن رأوا صورتها) أو سيارة أو تليفون . أما فيما عدا هذين المراهقين فقد عجز سائر الأطفال عجزاً تاماً عن تكوين فكرة شاملة عن كنه المثير الذى قدمته لهم وهو بقع الحبر .

والقدرة على التذكر عجيبة لدى أولئك الأطفال فبعد أن تم تدريبهم على تذكر النقط والحروف الصغيرة ، والتمييز الدقيق ، تعلموا كيف يميزون بين مختلف الدواء عن طريق ما بينها من اختلافات طفيفة فى حجم البطاقة أو عدد الكلمات المكتوبة عليها ، كما استطاعوا أن يتعرفوا على رسوم بعضهم البعض بعد انقضاء أربعة شهور على الانتهاء منها .

وقصارى القول إن الأطفال لا يمكن أن يوصفوا بالغباء ، فهم متيقظون ، لا يكفون عن الاستفسارات ولهم قدرة ممتازة على التذكر ، كما أن لهم عقولا تستقبل المعلومات بسهولة . فلعبهم البسيط الخالى من عناصر التخيل والإيهام لم يؤثر بتاتاً على قدراتهم العقلية ولكنه جاء نتيجة لأسلوب التربية الذى نشأوا عليه . فعُزلتهم عن عالم الكبار ، حالت دون الأطفال والاشتراك فى نشاط الكبار ، فليس لهم أى دور فى الأعياد والاحتفالات ، ولم يتعودوا على أى نوع من الولاء للمجموعة أو للزعامة مما يمكن أن يفيدهم فى تنظيم جماعات اللهو واللعب . والعلاقات بين أولاد العم وما يتخللها من مداعبات ، وشتائم ، ودعوات ثم طقوس الحرب ، وتكتيك جلسات الأرواح . كل واحد من هذه التقاليد كان يستطيع أن يهيىء للأطفال فرصاً عديدة للتقليد ، إذا كلف الكبار أنفسهم مشقة إعطائهم بعض الإرشادات التى تنشط ميولهم وتثير حماستهم . وإذا قورن أسلوب حياة أهل مانوس ، بأسلوب حياة سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر الذين كانوا يعيشون فى السهول الفسيحة ، ويعملون فى صيد البقر والجاموس البرى ،

ويهتمون بإقامة المعسكرات وفضها ، ويتدربون على فنون القتال ، لوجدنا أن حياة الهنود الحمر لا تهيىء لأطفالهم وسائل اللعب الإيهامى أكثر مما تهيئه حياة أهل مانوس ، بيد أن الأم فى قبائل تشاين Cheyenne تصنع لطفلها ركناً يقلد فيه أعمال المنزل ويشجع أعضاء الأسرة التشاينية الصغير على هذه الممارسات ، فيمتدحون ما يذبحه الصياد الصغير من طير ويتظاهرون بأن ما صاده له أهمية كبرى فى طعام اليوم ، ونشأ عن هذا الاتجاه أن أصبحت خيام الأطفال فى السهول ، حيث يمثلون نشاط الكبار فى لعب إيهامى ، مراكز هامة لنشاطهم الترويحى .

ومن ناحية أخرى فإنه لو اتبع أهل مانوس أسلوباً آخر مع أطفالهم فأغلقوا الأبواب دونهم ، ودأبوا على أن يصرخوا فيهم لابعادهم عن مكان احتفالاتهم ، فمن المحتمل أن يلجأ الأطفال فى تلك الأحوال إلى اتخاذ إجراءات دفاعية مضادة كما حدث من أطفال قبائل الكافير Kaffir فى أفريقيا الجنوبية حيث ينظر الكبار إلى الأطفال على أنهم مبعث ضيق وشغب . ولذلك فهم يكذبون عليهم ويجمعونهم ويسوقونهم إلى الحقول لمشاهدة المزارع ويحرمونهم من أن يأكلوا حتى الطيور الصغيرة التى صادوها بأنفسهم . وقد أدت هذه القيود التى يفرضها الكبار ، إلى أن ينطلق الأطفال على سجيتهم ، وهم بعيدون عن الكبار ، الأمر الذى أتاح لأطفال قبائل الكافير فى جنوب أفريقيا ، بتشكيل ما يشبه دويلة خاصة بهم ، لها جواسيسها ، وحراسها ، ولغتها السرية وقوانينها التى لا تخضع لمعايير الكبار وتقاليدهم مما يذكرنا بعصابات الأطفال فى المدن فى بلادنا . فسواء اشترك الأطفال اشتراكاً فعلياً مع الكبار كما يحدث فى بيئة الهنود الحمر الفسيحة ، أو كبت نشاطهم كبتاً تاماً كما هو الحال فى أسلوب حياة قبائل الكافير فى أفريقيا ، فإن الطفل يكتسب فى الحالتين خبرات أكثر ويعيش حياة أخصب من طفل مانوس . وحتى فى ساموا التى لا يتبع مجتمعها واحداً من الطريقين

السابقين ولكنه ييسر لكل طفل أن يمارس من الأعمال ما يتناسب مع مهارته ، فإن حياة الأطفال هناك تتسم بالأهمية والإشباع نتيجة لما يوكل إليهم من مسئوليات لأنهم يشكلون جزءاً من إطار له قيمته فى الحياة العامة هناك .

ولكن أطفال مانوس لا يقومون بأى نشاط يشابه هذه الأمثلة المختلفة فهم مدربون تدريباً تاماً على المحافظة على سلامتهم ويتحاشون أى شعور بعدم الكفاية العضلية . ولكل طفل زورقه ومجدافه ، وأرجوحته وقوسه وسهمه . وهم لا ينتظمون فى جماعات يدعم من تماسكها تقارب العمر الزمنى بينها ، كما أنهم لا يخضعون لأى قواعد أو مقاييس لسلوك تناسب السن أو الجنس . والبيوت جميعها مفتوحة لهم ، ولهم مطلق الحرية فى أن يمرحوا حول أقدام الكبار وسط أى احتفال مهما كانت أهمية وهم يعاملون كما كانوا سادة العالم ، ويبدو آباؤهم أمامهم كما لو كانوا لهم عبيداً مطيعين مخلصين ولا يفكر واحد من هؤلاء السادة الصغار قط أو يهتم بما يقوم به عبيده من أعمال مرهقة .

وأسلوب نظام الحياة الدينية للأطفال ، يخضع للقاعدة العامة التى تسود نظرة المجتمع لأطفال مانوس ، أى ليس للأطفال أى دور فى هذه الأمور الدينية ، فلكل طفل رفيق غير منظور معروف النسب ولا دخل لتصور الطفل فى صفاته ، ولا يلجأ الكبار إلى استغلال هذا التصور ، عند الأطفال .

وهكذا يلقن الطفل النظم الدينية ، ويحفظها عن ظهر قلب حفظاً أصماً دون مناقشة أو فهم ، أما لعب الأطفال فى مانوس فإنه يتميز بالتلقائية الشديدة التى تجعل من العسير وضع تنظيم له ، ونحن نستطيع أن ندرك أوجه التباين الشديدة بين تفكير أطفالنا ولعبهم من ناحية ، وبين تفكير أطفال مانوس ولعبهم من ناحية أخرى ، مما يقوم به أطفالنا من معاملة الجماد على أنه يشعر ويحس ، فيركلون الباب ويؤنبون السكين ، ويصيحون فى الكرسى ، ويتهمون القمر بأنه يسترق السمع ، وكل هذا غير معروف فى مانوس وفى حين أننا نملأ عقول أطفالنا بالأغانى الشعبية الجميلة التى تخاطب الشمس والقمر والنجوم ، وبالألغاز ،

والأساطير الخرافية فإننا لا نجد لدى أهل مانوس شيئاً من هذا . فلا يسمع الطفل هناك شيئاً عن « ساكن القمر » أو أنشودة كأنشودة جين انجلوز والتى تقول :

« أيها القمر ماذا دهاك ؟ هل أخطأت فى حق السماء فأخفى الله وجهك عقاباً لك ؟ أرجو إن كان الأمر كذلك أن يعود فيسامحك حتى تشرق مرة أخرى من مكانك » .

كما لم يسمع الطفل هناك أخته ترقص وتقول :

— أيها الرجل القمر أطفىء أنوارك ، واذهب نخبىء وجهك وراء السحاب . ألا ترى أن كل زوجين يتناجيان . وأن الاثنين صحبة جميلة ، ولكن الثلاثة جلبة وضوضاء . وإذا صادفت صبياً وصبية يجلسان فى بقعة ظليلة فعليك أن تحييهما تحية المساء ، وتغادر المكان ، إذا أردت أن تناجى حبيبك فقل للقمر « أرجوك أيها السيد القمر كن شهماً رقيقاً وأطفىء أنوارك » .

فالطفل فى مانوس لم يتلق من أبويه أو أجداده أى أعداد يهيئه للتفكير فى القمر ونسج القصص عنه . فهو يرى أن القمر ما هو إلا ضوء فى السماء يظهر ويختفى بلا سبب معروف . وهو لا يتصور القمر رجلا أو أنه يستطيع الرؤية فليس له عينان . ففكرته عن القمر فكرة واقعية ، طبيعية ، لم يصححها العلم ، فهو مثل أبيه الأمى يعتقد أن الشمس والقمر متماثلان حيث أنهما يجوبان معاً أنحاء السماء . وليس فى أغانيه الشعبية أى ذكر لهما . ولغته هى الأخرى باردة قاحلة خالية من الاستعارات أو التشبيهات الفنية . فهى لا تثير خيال الأطفال ولا تمد الكبار بمادة لقرض الشعر . وإنما تتميز بواقعيتها بينما نجد أن لغتنا حافلة بالتشبيهات والاستعارات .

ولذلك فإننا نخلع على القمر جنساً ونتحدث عنه كأنه رجل[١] أما أهل مانوس فهم لا يفرقون فى اللغة بين المرأة والرجل ، أو بين العاقل وغير العاقل ، وضمير الغائب يعبر عنها جميعا ولا يقتصر على العاقل . . كذلك لا تستعمل التعبيرات التى تستخدم فى الحديث عن الأشخاص عند الحديث عن القمر ، فالقمر « يضىء » ولكنه لايبتسم ، ولا يختفى ، ولايمشى ، ولا يغازل ، ولا يتلصص ، ولا يستحسن ، ولا يمكن أن يبدو حزيناً أو يدير وجهه غضبا ، فكل المؤثرات التى تجعلنا نتحدث عنه فى صيغة العاقل والتى تشجعها لغتنا غير معروفة هناك .

ولم أنجح فى حمل الأطفال على إلقاء اللوم على الأشياء غير العاقلة فقد أجابوا على تعليقاتى وأنا أقول « هذا زورق شقى لأنه ذهب بعيداً » بقولهم « لقد نسى بو بونى أن يربطه » أو « إن بو با لم يربطه بأحكام » مما يدل على أن ما نسميه نزعة طبيعية أو ميول فطرية عند الأطفال ، إنما هى أمور نعلمها لأبنائنا ، وليست موجودة بالوراثة .

وخير مثال يوضح اتجاهات الأطفال إزاء أى نشاط إيهامى أو ادعائى يقومون به ، ماأجابت به فتاة صغيرة ، حين سألت الجماعة الوحيدة من الأطفال التى رأيتها تقلد أعمال المنزل فى لعبها ، فقد كانت تلك الجماعة تدعى أنها تقوم بصحن جوز الهند ، فقد علقت الفتاة الصغيرة على ما يقمن به بقولها « هذه هى كذبتنا » وتعنى بذلك أن ما يفعلوه إنما هو مجرد تمثيل وليس حقيقة . ولذلك فإن إجابة الطفلة تعنى أنها لا تقر هذا اللعب الإيهامى ولا تصدقه .

ومن اليسير أن نستخلص مما تقدم أن اتجاه الأطفال إزاء معاملة موضوعات العالم الجامدة على أنها انسان عاقل ، لا توجد فى أذهان الطفل بالفطرة ،

---

(١) القمر فى العربية والانجليزية اسم مذكر ، ولكن يكنى به فى العربية عن الجنس الجميل .

وإنما يكتسبها من المجتمع الذى يعيش فيه . كذلك نلاحظ أن عجز الطفل الصغير عن التمييز أو على الأقل عجزه عن أن يستجيب استجابة مختلفة عند ما يتعامل مع الأشخاص والجماد ليست فى حد ذاتها نزعة خلاقة تجعل كبار الأطفال يعتقدون أن القمر ، أو الشمس ، أو القوارب وغيرها من الكائنات ذات إرادة ولها القدرة على الانفعال . فهذه الاتجاهات الأكثر تعقيداً ليست اتجاهات تلقائية ولكنها نشأت عن طريق اللغة ، والأغانى الشعبية ، وموقف الكبار من الصغار . وكل هذا من إنتاج عقول الشعراء وليس من تفكير الأطفال الصغار .

إن مدى قابلية الطفل لممارسة أسلوب تفكير دينى أو علمى ، ليس وظيفة لعقل الطفل الخاص ، إنما هو نتيجة لنوع التربية التى نشأ عليها ، فإذا اتبع الوالدان أسلوبا يعتمد على القهر والضغط والإلزام ، وطواب الطفل بما لا يتحمله جسمه وسنه وإمكانياته المختلفة ، فإن استجابات الطفل تكون ناشئة عادة فى هذه الحالات ، عن مجموعة من المخاوف مثل صاحب الأقدام السبع ، أو الجن المصور فى صور مختلفة ، وهذه أفكار وصور لم يكونها الطفل شخصياً ، ولكنه استقاها من الأساطير الشعبية التى تعلمها . أما إذا اتبع فى تربية الطفل طريقة غير علمية غير أنها تلوح للآباء أنها غير ذلك ، كما فى حالة الطفل الذى يمزق كتابه فيعلق الوالد على ذلك قائلا لا تمزق الكتاب هكذا . مسكين أنت أيها الكتاب . كيف يكون حالك أنت إذا مزق شخص جلدك كما مزقت الكتاب ؟ فإن نفس الطفل قد يجيب فى لهجة متعالية . . « . . لا يا شيخ ؟ ألا تعلم أن الكتاب لا يشعر ؟ وتستطيع أن تمزق فيه وتمزق وتمزق وهو لا يشعر بما تفعله » .

ومن ثم نحن لا نستطيع أن نسلم بوجود اتجاه عقلى فطرى أو أولادى عند الطفل ، لا الاتجاه نحو تفسير الظواهر تفسيراً طبيعياً ، ولا الاتجاه نحو تفسير الظواهر

تفسيراً غيبياً عن طريق القوى الغيبية فوق الطبيعية ، وتقبل الطفل لاتجاه أو لآخر يتوقف على الطريقة التى يقدم فيها هذا الأسلوب أو ذاك ، والمواقف التى استعمل فيها كل منهما .

إن الأطفال ليسوا أتقياء بالفطرة . وإنما يفرض عليهم الإيمان بالتعاويذ والأوثان وأعمال السحر وما يتعلق بها من طقوس ، كما أنهم ليسوا قصاصين للقصص بطبيعتهم ، ولا يبنون قصوراً خيالية من تلقاء أنفسهم ولا يعتبرون الشمس رجل ولا يرسمون لها وجهاً . فنموهم العقلى فى هذه النواحى يتقرر على أساس نوع الثقافة التى نشأوا فيها وليس نتيجة تكوين داخلى ضرورى .

إن حياة اللهو واللعب التى يستمتع أطفال بها مانوس تمنحهم الحرية ، والفرص النادرة لتدريب أجسامهم ، وسرعة تصرفهم بها . ولكنها لا تهىء لهم أية مجالات للتفكير ، ولاتقدم لهم أى نمط من تفكير الكبار يكون محبباً إلى نفوسهم فينسجون على منواله ، أو أى نمط يبدو بغيضاً إلى قلوبهم فيقاومونه بعنف . واللغة التى يتفاهمون بها فقيرة فى تشبيهاتها ، فهى خلو من أية أساطير أو قصص شعبية ، أو أشعار .

فالأطفال عندما يخلون إلى أنفسهم يتصارعون ، ويتدحرجون — وحتى هذه الألعاب لا يثيرها إلا مرور شخص من البالغين يبدى اهتمامه بما يفعلون . فهم يقعون ويتلاكمون ، بدون أن ينمى ذلك أى ميل فيهم فيما عدا الشعور الودى العام ، وسرعة الخاطر .

ولما لم يكن لديهم ما يغذى عقولهم ، أو ما يدفع بهم إلى اعتزال الناس ، أو الشعور بالنقص الجسمى ومحاولة التعويض عنه ؛ فإنهم يستهلكون طاقتهم الجسمية الهائلة ، وبعد ذلك تراهم ، وقد أدركهم التعب ، جالسين فى الظل ، يحاولون صنع أشخاص من الخيوط وقد ظهر عليهم الملل .

الفصل الثامن

نمو الشخصية

رغماً عما يتيحه مجتمع مانوس لأطفاله من تمتع بحرية طبيعية وانطلاق غير موجه ، إلا أن معاملته للأطفال الصغار تسهم فى تنمية شخصيات متميزة .

ومن ثم ، فيمكن ملاحظة الفروق بين الشخصيات فى سن مبكرة . ولا ينطبق ذلك على المظاهر الحركية فى السلوك فحسب مثل طريقة الحديث أو الحركات الجسمية الأخرى مما يلعب دوراً هاماً فى تمييز فردية الطفل ، ولكنه ينطبق كذلك على السمات الأساسية فى الشخصية مثل الميل إلى المشاغبة ، أو الميل للانطواء ... الخ.

ورغماً عن أن جماعة اللعب تعتبر من العوامل الهامة فى حياة الأطفال فى الفترة من الرابعة إلى الرابعة عشرة بالنسبة للبنات ، ومن الخامسة إلى العشرين أو ما يقرب من ذلك بالنسبة إلى البنين إلا أنها لا تقرب بين شخصيات أفرادها بعكس ما لاحظناه فى ساموا. فهناك كان الأطفال أقرب شبهاً إلى رفاقهم منهم إلى أفراد عائلاتهم ، أما فى مانوس فقد لوحظ العكس تماماً . فقد وجدنا ارتباطاً ملحوظاً بين شخصية الأطفال وشخصية آبائهم الحقيقيين أو آبائهم بالتبنى . وإذا كان الأمر يقتصر على تشابه الأب وأولاده الحقيقيين فقط لقلنا إن هذا يرجع إلى الوراثة ، ولكن كثرة عدد الأطفال ممن تشابهت شخصياتهم وشخصيات آبائهم بالتبنى يدفعنا إلى القول بأن الوراثة لا دخل لها فى هذه الظاهرة .

فقد لوحظ أن الأبناء الحقيقيين أو بالتبنى للرجال الأكابر ذوى الإرادة القوية والشخصية المسيطرة يكونوا على شاكلة آبائهم مشاكسين كثيرى الضجيج وكلهم ثقة فى أنفسهم ، لا يسهل إرضاؤهم ، يتميزون بالجرأة وعلو الصوت . فهم فى طفولتهم الأولى يدقون الأرض بأقدامهم ، ويصرخون بما يجول فى خواطرهم ، ويصفعون أى شخص يبدى عدم اكتراثه بهم . وحين يبلغون السادسة أو السابعة

فإنهم يتعاركون و يتصارعون مع رفاقهم ، ويقطعون أنحاء البحيرة جيئة وذهاباً تماماً كما فعل آباؤهم وهم ثائرين، أما حين يبلغون الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، فإنهم يتولون قيادة الجماعة ، أما الأطفال الذين يؤثرون الصمت وتتسم شخصياتهم بالإنطوائية فهم أبناء الرجال الأصاغر ، المعروفين بوداعتهم لأنهم لا زالوا نكرات لا شأن لها فى حياة القرية الاقتصادية ، ومن ثم يشعرون بالحرج والارتباك فى حضرة الرجال الأكابر ، أو قد يكون هؤلاء الأطفال أبناء رجال متقدمين فى السن ممن لم يحققوا نجاحاً فى أعمالهم ، و بين هذين الطرفين يقع أطفال الرجال الذين ، رغماً عن صغر سنهم ووقوعهم وقتياً فى حالة كسوف اجتماعى ، كانوا هم أنفسهم مشاغبين فى طفولتهم ، وسيعودون إلى طباعهم الأولى حالما يحققون نوعاً الاستقلال الاقتصادى .

وتبدو هذه الفروق من الوضوح بحيث نستطيع إذا راقبنا جمعاً من الأطفال خلال نصف ساعة أن نستنتج الكثير من الأمور ، عن حالة الوالدين ، وخاصة الآباء ، كالعمر الزمنى والمركز الاجتماعى والطباع العامة . أما فى الحالات التى تكون فيها الأم هى الشخصية المسيطرة فى الأسرة ، وهى حالات صادفنا منها الكثير ، فإن سلوك الأم ينعكس على سلوك أطفالها .

ومثال ذلك بواكاتون Pwakaton فقد كان رجلا هادئاً ، مرحاً ليس على حظ من الذكاء . وكان من أحسن ضاربى الطبول فى القرية ، ولا بأس به كصياد ولكن لم تكن لديه القدرة على وضع الخطط ، كما أنه أساء القيام بالتزاماته المالية بصورة جعلته نكرة بين قومه .

وكان لهذا الرجل بنتاً واحدة وهى طفلة هادئة قلدت أباها فى طباعه المنحرفة وتصرفاته الخاطئة ، أما ابنه الصغير فقد تبناه زعيم من كبار رجال القرية هو تاليكاى Talikai وكان رجلا تعود أن يدق الأرض بقدميه و يصرخ بنواياه فى صوت مرتفع . فكان ذلك الطفل المتبنى وهو بعد فى الثانية من عمره صورة مصغرة لأبيه بالتبنى ، وكان تاليكاى قد تبنى أيضاً غلاماً ثانياً لم يكن

أبوه الحقيقى من أعلام أهل القرية ولكن الإبن وهو كليپاك Kilipak أصبح يتزعم جماعة الأطفال فى سن الرابعة عشرة .

ولنستعرض مجموعة من الناشئة فى الطفولة المتأخرة ، ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والحادية عشرة ، نجد فريقاً من صغار الغلمان لم يكن لآبائهم مكانة مرموقة فى القرية . فتشوكال Tchokal . يتيم صغير ماهر ، لا ينقصه الذكاء ولا مقوماته بيد أن أباه كان رجلا مفلساً متلافاً بلا مكانة ولا احترام . أماپولم Polum فهو ابن رجل فشل فى الدوائر المالية . وكان أبو كابامالى Kopamalae رجلا طيباً لين العريكة جباناً ضعيف الشخصية ، واقعاً تحت سيطرة أخيه الأصغر .

أما بوباو Bopau فقد توفى أبوه منذ فترة قصيرة، وكان رجلا هادئاً خفيض الصوت مات وهو غارق فى ديونه ، وكانت هذه المجموعة قد سلمت قيادها إلى ناونا Nauna ابن نجاميل Nagamel وهو من كبار رجال القرية ومن ذوى المكان فيها ، ولم يكن نجاميل مشاغباً أو سليط اللسان مثل تاليكاى ، ولكنه كان رجلا حازماً ، واثقاً من نفسه غنياً ، قوياً ، و يمكن الاعتماد عليه . وقد حاكى ناونا أباه فى فضائله وفى خصاله ، وكان يعتبر قائداً لجماعة من الصبيان يكبرونه سناً .

وفى بعض الأحيان كان فى الإمكان ملاحظة ما يطرأ على شخصية الطفل من تغيّر بعد التبنى . فقد كان ييسا وهو الأخ الأكبر لكابامالى صبياً فى الثانية عشرة هادئاً ، خجولا فى أول عهدى بالقرية وقد ورث هذه الخصال عن أبيه مثله فى ذلك مثل أخيه الأصغر . و بعد قليل تبناه عمه الأصغر باليو Paleao وهو من أكثر أهل القرية إقداماً . وكان لباليو إبناً آخر اسمه بوبولى تبناه منذ طفولته من قبيلة أخرى ، وكان هذا الغلام يشبه أباه بالتبنى فى كل بادرة ، وسرعان ما تحول الصبى الهادىء ، و بدأ يحاكى أباه بالتبنى فى

صلابة الرأى ولكن الشبه لم يكن شديداً نظراً لأن التبنى لم يتم فى عهد الطفولة المبكرة ، بل حدث فى فترة متأخرة .

أما كيباى فقد كان أكبر الرجال مقاماً وقدراً ، وكان حصيفاً ، موثوقاً به ، بطيئاً فى الحديث ، منظماً فى تفكيره . وقد تبنى ابن أخت زوجته وكان يدعى بومات Pomat فى طفولته ، وقد أخذ هذا الطفل عن أبيه بالتبنى ، كل العلامات المميزة فى أخلاقه كما أخذ أغلب صفاته وطباعه .

وكان هناك أيضاً أخوان هما نجانديليو ، سيلان Nagandliu & Selan أما الأول وهو الأخ الأكبر فكان يفتقر إلى القدرة على البت والثقة فى النفس اللتان تكفلان النجاح ، ولما لم يرزق أولاداً فقد تبنى ابناً لسيلان يدعى توبال Tapal بعد موت زوجة سيلان . وشب توبال وهو أشبه بأبيه بالتبنى فهو هادىء ، مثابر لا يتقدم الصفوف مطلقاً ولا يدلى بآرائه الخاصة .

أما سيلان فكان لا يزال شاباً صغيراً ، بل إنه كان صغيراً جداً بحيث لا يمكن السماح له بمركز هام فى النظام الاجتماعى . وقد دفع له أخوه مهر عروسه ولم يكن سيلان قد وطد مركزه المالى بعد ، إلا أنه كان قلقاً طموحاً . وقد اشتغل سيلان كوسيط لاستحضار الأرواح ، وهو عمل ليس من اختصاص الرجال ، وكان عادة يدخل فى مناقشات عنيفة مع كبار رجال القرية ، ورغماً عن أنه كان يحتفظ عادة بمظهر هادىء يتناسب وصغر سنه إلا أنه كان يخفى وراءه نفساً ثائرة فهو يصر على موقفه ، ويعتد برأيه ، و بالمثل كانت طفلته كاوا Kawa التى كانت تبلغ الخامسة من عمرها والتى كانت لا تتكلم إلا حين تتقدم بمطالب عملت حسابها بدقة ، ورغماً عن أنها كانت أصغر من توبال بثلاثة أعوام ، إلا أنها كانت أكثر منه حيوية واتزاناً .

ولا شك أن مجموع هذه الحالات له دلالته الكبيرة أكثر من أى حالة فردية فإن الاختلافات بين مجموعة من الإخوة نشأ كل منهم تحت ظروف

تختلف عن الآخرين ، يمكن تفسيرها على ضوء مجموعة أخرى من العوامل مثل الفروق الوراثية ، أو الصدفة وما إلى ذلك ، ولكن حينما يمثل الأطفال من أبناء الشبان أو أبناء الرجال ممن فشلوا اقتصادياً ، نموذجاً واحداً من الشخصية ، وحين يمثل أطفال الأفراد الأكابر والذين حققوا حياة عملية ناجحة نوعاً آخر من الشخصية فإن الأمر يبدو غريباً وذا مغزى عميق .

وهناك الكثير من امتزاج الأنساب فى مانوس سواء منه التوالد الناتج من زيجات متفق عليها بين أبناء العم ، أو التوالد المحتوم فى المجتمعات الصغيرة حيث ينتسب الكثيرون إلى جد واحد . ولذلك فمن المحتمل أن يقال إن تشابه قدرات الأطفال مرجعه إلى هذا الاتفاق فى الأصل وأن عمل البيئة قاصر على إبراز الاختلافات الكبيرة .

ومع ذلك فإن ما يجدر الإشارة اليه هو أن ، الخطوط الرئيسية للمجتمع لا تمثلها عوامل إرث ، كوراثة الدم أو وراثة المال ، التى تكاد تتلاشى عند وفاة الأصل المباشر ، إنما تتمثل هذه الخطوط الأساسية فيما يكتسبه الأبناء ، فى طفولتهم المبكرة من عادات السيطرة والزعامة ، وخير شاهد على ذلك ما نسوقه فيما يلى من تتبعنا لشجرة عائلة لمجموعة من القادة فى تاريخ القرية .

لدينا أولا ماليجان Malegan وهو رجل له مركزه الاجتماعى وقد تبنى بوتيك Patik إبن أخيه . وعند ما توفى أصبح بوتيك هذا هو الزعيم الأول فى القرية . ثم حدث أن قام بوتيك بتبنى بانوا Panua ثم باليو Paleao . وقد مات بوتيك والأخير ما يزال صغيراً ، كما ترك أيضاً طفلان آخران من صلبه . وهما تانو Tanu ، لويل Luwil . وهكذا نجد أن بوتيك قام بتبنى بانوا ، و باليو فى فترة كان فيها قوياً ذا سطوة وجبروت ، فكبرا الغلامان تحت سيطرته ونفوذه . أما لويل فقد رباه خال له لم يكن له أى نفوذ فى القرية ، وتولى بانوا تربية تانو وكان بانوا لا يزال صغير السن وليس له شأن يذكر . ثم اكتسب بانوا شهرة وأهمية فى القرية ومات فى أوج مجده . وورث باليو مركزه الحالى عنه

وكان باليو أخاه بالتبنى ، وقد تبناه بوتيك عن أخت زوجته الثانية . أما الشقيق فقد تبناه خال ذا شخصية ضعيفة ، ولذلك فقد ظل الصبى ضعيف الشخصية ولو أنه لم يكن غبياً ضعيفاً من قبل .

وقد يساء تفسير هـذا المثال على أنه يقلل من أهمية الذكاء ، ولـكننا لا نقصد ذلك بتاتاً ، ولـكن ما يعنينا هو أن الشخصية تعتبر قوة موجهة أهم من الذكاء عند أهل مانوس . فالرجل القوى صاحب الذكاء المتوسط يكون موضع التقدير أكثر من الرجل المسالم من أصحـاب الذكاء العالى . وقوة الشخصية أو الثقة بالنفس هى الصفات التى يقدمها للطفل البالغ الذى يقوم بتبنيه وتربيته خلال السنوات السبع أو الثمانية الأولى من الحياة .

ومعنى هذا أن كفة الميزان الراجحة ليست فى صف أطفال الرجل فى شبابه ولا فى صف أطفال الرجل الذى لم يحقق نجاحاً فى عمله . ومعنى هذا أيضاً أن الرجل الذى يتصف بالسيطرة وقوة الشخصية يمكنه أن يطمئن إلى أن وريثه سيكون مثله، أكثر مما لو اعتمد على المصادفة أو الموهبة الطبيعية التى يستمر أثرها حتى مع عملية التشابه التى يقوم بها نوع آخر من التربية .

والحالة الأخيرة تنطبق على أهل ساموا فإن تربية صـغار الأطفال توكل عادة إلى الأطفال الأكبر منهم سناً ، ولا يكون هؤلاء قد شكلوا بعد شخصياتهم ، ولم يحققوا إلا مستوى ضئيلا من نمو الفردية الاجتماعية . والرجل الموهوب فى ساموا قد يرتفع إلى القمة ولـكنه لا يحاول الاتصال أو التقرب إلى أطفاله . ولا تتهيأ الفرصة لـكى ينقل إليهم خلاصة تجاربه خلال سنوات تدريبه وتمرينه .

ونفس النتيجة يمكن الحصول عليها عندما نعهد بأطفالنا إلى المربيات ، أو الخدم أو القريبات المتقدمات فى السن . فهذه الجماعات البديلة سواء كانت من الأطفال الكبار أو الخدم أو عجائز النساء ، قد تتحول إلى معوقات لها آثارها فى صد و إعاقة

تأثير الأب أو الأم على الأبناء . ويمكن أن يرجع إلى هذه الحواجز مما نلاحظه من فروق واضحة بين الآباء والأبناء فى مجتمعاتنا ، والتى نفسرها عادة على أنها مركبات نقص .

ومما يشجع الطفل على أن يتشبه بأبيه فى مانوس، تلك المعاملة العطوف التى يجدها الطفل من أبيه ، وعدم لجوء الأب إلى التسلط على إرادة إبنه والسيطرة عليه . وقد حدث أن رجلا يدعى تاليكاى Talikai وهو رجل اشتهر بحدة طباعه وعنفه فى معاملاته مع الرجال لم يتوان عن مغادرة أحد الاحتفالات الهامة وجاء يستجدى منى بالوناً لطفله الصغير البالغ الثانية من عمره . فصرخة طفل أحالت أكثر الرجال غطرسة فى غرفة تغص بالناس إلى عبد يتلهف على إرضاء سيده . فليس بمستغرب أن نجد الأطفال هناك لا يعانون من مركبات النقص . غير أن ارتبـاط الطفل المستمر بأبيه تاليكاى جعله يحاكيه فى طباعه ، فاقتبسها واكتسب لنفسه نفس اعتداد تاليكاى وثقته بنفسه . كذلك لا نجد أطفال شبان القرية المسالمين الخجولين يعانون من أية مركبات نقص ، بل إن الأمر إنما هو مجرد اكتساب عادة ليست ذات بال ، واكتساب سلوك ليس له تأثير اجتماعى .

ولا يظهر تأثير الأب بنفس هذه القوة على بناته ، وتنعكس شخصية الأب على بناته حتى يبلغن الثامنة أو التاسعة من العمر بنفس القوة التى تنعكس بها على شخصيات أولاده من البنين . غير أن التشابه بين الأب وابنته ينقطع بعد ذلك وبزواله يحـدث تشتت فى نمو البنت ، وتكبت نفسية البنت بالمحرمات المختلفة ، ولا تستطيع بعد ذلك أن تتشبه بأى امرأة أخرى بالـكيفية التى كانت تتشبه بأبيها . ولا تنطلق فرديتها بكل حريتها إلا إلى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، وليس فى سن العشرين أو الرابعة والعشرين كما هو الحال عند البنين ؛ وعلى ذلك فرغمـاً عن ارتباط إحدى البنات فى طفولتها بأب قوى موهوب الجانب ممـا قد يؤدى إلى تحويل الفتاة الصغيرة إلى مخلوق ذى سطو

واعتداد بالنفس إلا أنه توجد عوامل أخرى فى المجتمع تؤدى إلى قتل اعتدادها وعنفها وتروض فرديتها وتضعفها، ولذلك شوهد أن أكثر الفتيات عنفاً واستفزازاً للغير كن بنات لأرامل عرفن بقوة الشخصية ، وتفسير ذلك أن أولئك الفتيات بدأن أولا يتشبهن بآبائهن الأقوياء وبعد وفاة الأب كانت الفتاة تواصل تشبهها بشخص من نفس جنسها وهو أمها ذات الشخصية القوية المستقلة .

وتتأثر جماعات الأطفال التى تجتمع للعب بالنمو الفردى المبكر، وكانت كل مجموعة من الأطفال تنقسم داخلياً إلى مجموعتين : تضم إحداها الأطفال المسالمين السلبيين من أبناء الشبان أو الرجال غير الناجحين ، وتضم الثانية الأطفال المشاغبين المحبين للمشاكسة ، وبين هاتين المجموعتين نجد الأطفال من أبناء الشبان ذوى الشخصيات القوية .

ويبدأ الطفل لعبه مع اثنين أو ثلاثة فقط من الأطفال المماثلين له فى السن ، ولكن بمجرد أن يتمكن الطفل من أن يخوض ماء البحيرة فى سلام ، فإن الحياة البحرية تجذبه إلى مجموعات أخرى من الأطفال ؛ وقد يتردد أطفال الثالثة أو يجدون صعوبة فى تسلق الأعمدة المنزلقة ليصلوا إلى رفاقهم فى البيوت القريبة ، ولكن من السهل على اثنين أو ثلاثة من الأطفال أن يتجمعوا سوياً أسفل أحد البيوت –حين يكون المد منخفضاً– ويلعب الأطفال فى جماعات مكونة من فردين يكون أحدهما عنيفاً جريئاً والآخر وديعاً مسالماً ، والاختلافات فى الشخصية الاجتماعية تكون دائماً أكثر تمايزاً من الاختلافات الأخرى – مثل المهارة أو الذكاء – ومن الممكن أن يشبع الأطفال العدوانيون نزعتهم إلى الزعامة باختيار رفيق اللعب من الأطفال المسالمين . وحالات اجتماع طفلين من ذوى الشخصيات القوية فى مجموعة زوجية واحدة أمر نادر الحدوث ؛ وقد بولغ فى تدليل الأطفال وإفسادهم بحيث أصبحوا لا يطيقون وجود شخص آخر يماثلهم فى قوة الإرادة ، وأحياناً يندمج طفلان ضعيفان فى صداقة اللعب وهنا لا يوجد من يأمر ومن يطيع ، ولكن مثل هذه العلاقات لا تستمر طويلا فسرعان ما تنفصم روابطها بكلمة من أحدا الأطفال الأقوياء .

وخير مثال لذلك زميلا اللعب بونكوب Ponkob سونجاو Songau . أما بونكوب، وهو الأخ الأصغر لناونا Nauna ، فكان طفلا قويا شرساً تلاحظ فى حركاته النزعة إلى التحكم ، يطيل فى حديثه وفى تعليقاته فهو يعتبر نفسه سيد وعلى الخصوص سيد سونجاو الذى كان ابن الرجل فاشل ضعيف الشخصية قليل الثقة بنفسه هو بومات Pomat . وينحدر بومات هذا من أسرة لعبت ذات يوم دوراً هاماً فى حياة القرية . وكان سلوك بومات غير المتزن مثاراً لتعليقات أقرانه وتندرهم . أما هو نفسه فكان رجلا خبيثاً ، يخدع أحياناً بمعسول الكلام وحين يحتد فى حديثه ، يخطرف ويتكلم بلا انقطاع عن التزاماته واعتزامه الوفاء بها كلها . وقد تزوج من امرأة سبق لها الزواج ، وفقدت طفلها الأول لأنها زينت وجهها بالوشم ، وبذلك أثارت غضب أرواح زوجها . وقد خطا بها زواجها من بومات خطوة أسفل السلم الاجتماعى لذلك ضاقت ذرعاً بحياتها ، وعجزت عن مسايرتها . أما سونجاو الصغير فكان طفلا ذكياً وكثيراً ما فاقت معلوماته عن البيئة المحيطة به معلومات بونكوب الذى كان دائماً مشغولا بصخبه وشغبه ومعاركة عن ملاحظة مايدور حوله . وكان سونجاو يميل إلى الصمت وإلى أنواع من النشاط الهادئ ، يفحص ، ويتأمل ويعجب لما يشاهده فى البحر ، أو يراقب ما فى السماء من ظواهر .

وكان بونكوب فى حاجة إلى من يستمع إليه وعلى ذلك كان هذان الطفلان يقضيان ساعة بأكملها فى رفقة لا يمكن أن نسميها لعباً تعاونياً . فمثلا كان بونكوب يصر على أن يدفع بزورقه فى الماء فينادى سونجاو ليعاونه فكان سونجاو يستجيب له ويذهب لمساعدته فى رفع القارب ولكن لفترة قصيرة يتركه بعدها ، ويلتقط عصى فيرمى بها إلى الماء ثم يسبح وراءها غير آبه لصيحات بونكوب المتوالية « تعال ساعدنى ساعدنى فى رفع القارب . فى رفع القارب إلى الماء . سونجاو . سونجاو . تعال هنا . ما هذا ؟ سأضمه وحدى هذا القارب . أنا وحدى أنا وحدى . إنه قاربى . سونجاو لقد انغرس الزوق ؟ » .

و بعد النداء العاشر ، يذهب إليه سونجاو فيساعده لحظة ثم يفقد الاهتمام مرة أخرى و يستأنف اللعب بمفرده . وقد يستمر هـذا الحال ساعة بأكملها ، لا يكف فيها بونكوب عن الصياح و إصدار الأوامر ، وتعمد القيام بأشياء معينة

أما سونجاو فلا يتكلم إلا نادراً ، وفى معظم الأحيان يوجه الكلام إلى نفسه. ولا يعاون بونكوب معاونة كاملة فهو يضيق دائماً بما يعمله أثناء هذه المساعدة. وإلى جانب هذين الغلامين كانت هناك بنت صغيرة اسمها إلان Ilan وكانت هذه الطفلة تحضر أحياناً بعض ألعابهما فتجلس بالقرب منهما واضعة أصبعها فى فمها ، ولا تكاد تتحرك فى جلستها بل تقوم من وقت إلى آخر تلبية لأمر صارم يصدره بونكوب ولا تستمر فى أى نشاط لمدة طويلة .

أما فى غياب بونكوب فإنها كانت تلعب عادة مع سونجاو وتخرج قليلا من جمودها فيتوغل الإثنان فى منحنيات المستنقع يجمعان الحشائش المائية . ومن حين لآخر يعلق سونجاو مخاطباً نفسه « حشائش ملكى . أنها ملكى » أما « إلان » فهى لا تقول شيئاً ، ولا تفعل إلا القليل .

ومثال لنوع آخر من العلاقات وإن كان نوعاً غريباً غير عادى ، وهو عن علاقة بونكوب مع نجالوين Ngalowen . فقد كانت نجالوين أختاً لبونكوب وهى أكبر منه بعام واحد وقد تبناها أحد أعمامها فى طفولتها وأصبحت تناديه بأبى ، أما أبوها الحقيقى فكانت تناديه باسمه فقط ، كما كانت تنادى أمها الحقيقية « بالتى فقدت طفلها عند ميلاده » . أما أبوها البديل فهو رجل متقدم فى السن ، معتد بنفسه ، متعلق بنجالوين . فقد كبر ابنه البكر ولذلك ركز كل عواطف شيخوخته نحو هذه التى تبناها ، والتى كانت عند بلوغها الرابعة من عمرها غانية محنكة ، فقد أصبحت مقربة إلى قلوب جميع رجال القرية . وكان أبوها البديل وهو Pwisio شديد الخيلاء ، ولكنه كان صموتاً وكان يصر على أن ينصت إليه الناس حين يتكلم .

وكان العالم بالنسبة إلى نجالوين طوع أمرها وكل من عصى أمرها ، وكل من ابتسم لأحد سواها حلت عليه لعنتها . وامتلأت الطفلة غروراً بحيث لم تكن تستسغ فكرة أن تصاحب جماعة من الأطفال المشاغبين أقوياء الإرادة كما أنها تعودت على تملق المنافقين بحيث لم ترض أن تقود جماعة من الأطفال المسالمين .

وعلى ذلك فلم تكن تلعب مع غيرها من الأطفال إلا نادراً، بل كانت تقضى معظم وقتها فى صحبة أبيها ، أو فى السباحة خلال طرقات القرية باحثة عن الكبار ممن يبدون أعجابهم بها . وحين تسأم هذه الأعمال التى تقوم بها قبل الأوان، وتريد أن تلعب فى الماء فإنها تلجأ إلى بونكوب ليشاركها فى ألعابها . وكان أصغر منها سناً وأقل مهارة وقد مكنته ثرثرته المستمرة ، ونداءاته المتوالية من أن ينجح فى استمالتها وحملها على الاستجابة له .

أما من ناحية بونكوب فقد كان راضياً غاية الرضى، لوجود رفيق يسمح له بالكلام و إصدار الأوامر، ولذلك فقد كان متعاوناً معها أكثر من صديقه الحميم سونجاو . وقد كانت نجالوين تتمادى فى جنونها بحب الشهرة أكثر من أى طفل آخر — وكانت هى الطفلة الوحيدة التى رفضت أن ترسم وحينما عرض عليها ذلك ، وحين قبلت الرسم كانت إذا ضربت بالفرشاة ضربة واحدة على الورق ، أتت معها بجملة حركات وتمايلات بجسمها لفتاً للأنظار ، ثم تفسد الورق وتجرى هنا وهناك وأخيراً تجلس فوق ركبة أحد الحاضرين وهى تقلب شفتيها ، وتغازله محاولة جذب انتباهه إليها. وقد كان أخوها بالتبنى غائباً عن البيت طيلة حياتها ولذلك فلم يكن ثمة من ينافسها من الأخوة أو الإخوات .

أما ماسا Masa فكانت من النوع الصموت المسالم ، وقد فقدت إحدى عينيها على أثر إصابتها بالرمد ، ولم يكن أبوها يهتم بها نصف اهتمامه بأخ غير شقيق لهـا يكبرها بثلاثة أعوام . وكانت ماسا تقيم مع أمها وهى سيدة هادئة ماهرة بدون إدعاء أو تظاهر بالأهمية . وكانت ماسا قليلة الكلام تقضى وقتها تلعب مع الأطفال الآخرين فى زورق صغير، وكانت تخوض الماء فى

سرور حول أطراف الجزيرة الصغيرة ويعرف الجميع عنها أنها طفلة أنيسة مستديرة الوجه ذات عين ضريرة .

وكثيراً ما كانت تطرح سؤال على أحد الكبار ، ولكن لم يحدث أبداً أن سألت أحد الأطفال ، ويبدو أنها لم تكن تحاول مطلقاً جذب انتباه الأطفال الآخرين وكان أخلص أصدقاؤها يدعى بوسندروان Bosondruan وهو صبى صغير له رجل خشبية . وقد جعلته عاهته هذه ، والتى كان يتحملها فى صبر يدعو للاعجاب ، إلى جانب تعلقه بأبيه الشاب الوديع ، هادئاً ومسالماً أكثر من اللازم ورغماً عن أنه كان أكبر من الطفلة ماسا إلا أنه كان عادة يتبعها إلى حيث تقوده بلا هدف أو غاية .

ولكن إذا حدث ووجدت ماسا نفسها فى جمع من الكبار فإنها تجاذبهم أطراف الحديث بطريقة ناضجة كل النضج . فإذا ما تحدثت إحدى النساء الغربيات مع أمها وسألتها — « هل سبق أن حملت هذه المرأة التى مرت بقاربها الآن ؟ » . فإن ماسا كانت تضيف عادة بعد أن ترد أمها بالنفى ، فتقول ، فى صوت هادىء ومتزن النبرات « إن المرأة الحامل التى كانت مقيمة معنا فى بيتنا قد وضعت غلاماً ، وقد حمل أبى الساجو إلى زوجها » . ولم يحدث أن احتكرت الحديث لنفسها ، ولكنها كانت تساهم فيه فقط بإضافة تعليقات قصيرة فى محلها حين تشعر بأنها لازمة . فسلوكها كان على النقيض تماماً من سلوك يونكوب وسونجاو ، وبوباو ، وبيوين ، ونجالوين ، وسالياو ، وكاوا . فقد كان هؤلاء جميعاً يعتبرون الكبار مجرد مستمعين لهم . فإذا حدث وحضر بعض الكبار أحد اجتماعاتهم فإن الأطفال سرعان

ما يتركون مشاحناتهم جانباً ويلتفون حول الكبار محاولين جذب انتباههم مستخدمين فى ذلك شتى الأساليب ، أما يونكوب وبوكس ومانوى فيحاولون اجتذاب انتباه الكبار بأحاديث سريعة نارية ، وأما بيوين Piwen فعن طريق العناد ، وصعوبة المراس ، وساليو بنوبات من حدة الطبع ، ونجالوين وسونجو بمغازلاتهما ، وأما كادا فبالإصرار على طلبات سخيفة .

وقد ثبتت هذه الأساليب السلوكية التى يلجأ إليها الأطفال فى جذبهم لانتباه الكبار ، منذ طفولتهم الأولى فكل طفل بلغ الثالثة كون لنفسه خطة معينة يتعامل على أساسها مع الكبار ، وهكذا أصبح من التقاليد الثابتة عند أهل مانوس أن الطفل يجب أن يكون محور الاهتمام ، كما أدرك الأطفال أن تلك الأساليب على اختلاف أنواعها تنجح مع الكبار حتى حين يطبقونها مع النساء المنشغلات واللاتى هن أقل سلاسة فى القياد من الرجال الطبيعيين .

وتحول الأطفال المستمر نحو الكبار يمنع إقامة علاقات تعاونية بين صغارهم ولكن فى الوقت ذاته يجعلهم يتقبلون زعامة كبار الأطفال عليهم فحين توجد مجموعة من الأطفال من سن الخامسة تلهو وتمرح على شواطىء إحدى الجزر الصغيرة فمن السهل على صبى فى التاسعة أو العاشرة أن ينظم مباراة أو لعبة كرة ، ولا يستمر هذا التنظيم طويلا بين الأطفال ممن هم دون السادسة أو السابعة ولكن الأطفال فى سن العاشرة لا يكاون عن محاولة تطبيق أساليبهم فى اللعب على الأصغر منهم سناً .

وهذا أيضاً أسلوب يقتبسه الأطفال عن الكبار الذين يبدون استعدادهم دائماً للقيام بدور المحكمين ، وقيادة حركة التصفيق والتهليل ، وتمثيل دواب الحمل فى إحدى ألعاب الأطفال .

وتتألف الجماعة العادية التى تشترك فى الألعاب كالمسابقات ، والجذب إلى الماء ... الخ من واحد أو اثنين من كبار الأطفار ومجموعة من صغارهم ، ولما

كان الصبيان الكبار تعوزهم خبرة البالغين بنفوس الأطفال فإنهم يقومون باستعباد الصغار ، فيختارون الفرقتين ، ويعينون الزملاء ، ويقررون الفرقتين ، ويعينون الزملاء ، ويقررون من يلعب ومن يخرج من اللعب . ويوافق الباقون على قراراتهم عن طيب خاطر ، وعلى ذلك فان عادة التعلم وتلقى الأوامر فى اللعب من كبار الصبية تثبت عند صغار الأطفال منذ نشأتهم الأولى .

وحين يدرك الأطفال الكبار ما يكتنف العالم من شر فإنهم يرون فى ذلك أول إنذار يضطرهم إلى تعديل سلوكهم القديم ، والإقلاع عن التهاون والاستهتار وعدم الإكتراث . وهنا يبدأ الشعور الجمعى فى التكوين . ولذلك نجد صبى العاشرة تائها لايعرف له هدفاً ، فهو تارة يقوم بتعليم أحد الأطفال طريقة العد ، وتارة أخرى يقوم بتنظيم إحدى ألعاب كرة القدم بين فريق من الأطفال الأصغر منه سناً ، ثم يترك هذا وذاك ويسرع إلى زورقه ليسابق به عدداً من أقرانه ، أو قد يشترك مع غلامين أكبر منه سناً فى مطاردة بعض الفتيات الصغيرات ، وأخيراً يعود إلى بيته فيضرب الأرض ساخطاً وهو يطلب طعامه ، ولا ينقطع صراخه حتى يطهى الطعام خصيصاً من أجله ، وبعد أن ينتهى من وجبته يعود مرة أخرى إلى البحيرة فيخوض فيها فى صمت وهدوء وهو يعوم نموذجاً لمركب صغير .

فهذا الأسلوب البسيط من الأخذ والعطاء ، واللعب الجماعى ، والمشاركة والفردية ، وممارسة بعض أساليب النشاط أحياناً كمدرس وأحياناً كزعيم ، وأحياناً كتابع ، كل هذا يعطى الطفل أقصى فرصة ممكنة لتأكيد معالم شخصيته التى شكلت وهو بعد طفل صغير ، أما إذا فضّل أحد الأطفال أن يكون تابعاً على أن يكون قائداً ، أو اللعب مع طفل أصغر منه سناً ، أو الجرى وراء الصبيان الأكبر سناً فإن هذا لا يعوقه عن متابعة أقرانه أو يفرق بينه وبينهم إذ لا يوجد معايير للسلوك للأعمار ولا توجد جماعات متحدة فى السن ، ولذلك فإن طاقات الأطفال تستغل إلى ذروتها .

وتلاحظ آثار هذا النوع من السلوك الاجتماعى بوضوح فى سلوك الغلمان فى سن الرابعة عشرة ، فهؤلاء الصبية لم تنتابهم الكآبة والخزى بعد ، ولم ترهقهم المسئوليات الاقتصادية ، ولم يبدأوا بعد فى الكفاح من أجل حريتهم . ولذلك نجدهم جذابين ، بشوشين لا يعذبهم أى شعور بالنقص ، لا يخشون شيئاً ولا يربكهم أى طارىء .

وقد ظهرت مهارة هذه الجماعة حين عهد إلى خمسة منهم بإدارة شئون المنزل الذى نسكنه وهم : كيليباك ، بومات ، توماپو ، كابيللى ، بيسا . فقد قام كيليباك بدور الطباخ ورئيس الخدم ، وقام بومات بمهمة السفرجى وتوماپو بالإشراف على غرف النوم ، وكابيللى بتنظيف السمك ، وقطع الأخشاب وإحضار الماء . أما بيسا فقد وكل اليه غسيل الأطباق وتنظيف المطبخ ، ولم أشأ أن أصدر إليهم أية تعليمات أو إرشادات فقد أردت التعرف على طريقة تصرفهم فى هذا الموقف الغريب ، ومع ذلك فقد نجحوا فى إدارة المنزل وقسموا العمل فيما بينهم ، ووزعوا المهام والمنح ببراعة وبدون أى عراك أو شجار ، فهؤلاء الأطفال البدائيون لم يتعودوا على أى نمط من التنظيم ، ولم يتمرنوا على المحافظة على المواعيد والدقة فيها ، أو على العمل المستمر المتصل ومع ذلك كان هؤلاء الغلمان يحضرون يومياً فى مواعيد مبكرة وتعلموا كيف يستعملون الساعة الواقفه « السكرنومتر » ، ويغسلون الأفلام السالبة ويعرضون الصور للشمس ، ويملأون المصابيح بالجاز ويضيئونها ، وبعد بضعة سنوات ستناديهم ثقافة مجتمعهم وتحول تفكيرهم إلى التجارة ، وتعقد مشاعرهم فى مزيج من الخجل والشراسة ، وقد بذرت البذور الأولى لهذه الحياة المستقبلة فى عدم شعورهم بالعطف أو الحب تجاه أى شخص وفى حذرهم وتقديرهم لمقتنيات الغير واحترامهم لها ، وفى المحرمات القليلة التى يشتركون فيها ، فهم من الناحية الانفعالية قد تشكلوا منذ طفولتهم المبكرة فى قالب من الأنانية وقفت أمامه دنيا الطفل عاجزة عاطلة . أما من ناحية التكيف تكيفاً ذكياً للعالم المادى فقد تلقوا فى سبيله تدريبا شاقا ممتازاً دام عدة سنوات .

الفصل التاسع

الاتجاهات إزاء الجنس

لا تختلف معاملة الأب لإبنه عن معاملته لإبنته إلا فى النذر اليسير ، فسواء كان الطفل ولداً أو بنتاً فإنه ينام فى أحضان أبيه ، ويركب فوق ظهره ، ويرجوه أن يعطيه سيجارته ، ويسرق البندق من الكيس المعلق فوق كتفه. وحين يكون للرجل ثلاثة أطفال أو أربعة فإنه يقوم بصنع زورق لكل واحد منهم بدون تمييز بين البنت والولد .

ولا يرتدى أى من الجنسين أية ملابس فيما عدا بعض الأساور الصغيرة والخلاخيل والعقود المصنوعة من أسنان الكلاب أو الأحزمة المصنوعة من الخرز . وتلبس هذه الحلى فى العادة فى المناسبات الرسمية فقط لأن دوام استعمالها يخدش الجلد ويحدث فيه قروحاً قبيحة ، ويؤكد الكبار الفروق الجنسية فى أحاديثهم منذ ميلاد الطفل ، فهم يتحدثون عن الولد بقولهم « Nat، نات » ويصفون البنت بأنها « ندرا كين Ndrakein » بعد الميلاد بساعة واحدة . أما قبل الميلاد فيستعملون كلمة واحدة للجنسين هى « نات » ويقصدون بها الجنين .

وتستعمل هذه الاصطلاحات بكثرة من جانب النساء اللاتى قد يتشاحن طويلا عن « إبنى » ، « بنتى » مما يدفع بطفل فى الثالثة إلى تصحيح الاصطلاح الذى يطلق على الطفل المولود .

أما قبل سن الثالثة فليست هناك أية فروق أخرى بين الجنسين . وحوالى سن الثالثة يبدأ زهو الأم بطفلتها فى الظهور فتصنع لها جونلة جميلة من القش تنسجها فى لذة وشغف ، وتكثر من التعليق عليها . وترتديها الإبنة فى وقار فى

أحد الأعياد . ومدلول هذا الرداء أنه يربط بين الإبنة وأمها بطريقة لم يسبق حدوثها من قبل . وتنادى الفتاة أمها بلفظ بن Pen أى « إمرأة » ، وتنادى أختها بلفظ ندرا كين أى بنت ، كذلك تنادى أباها بلفظ كامال Kamal أى رجل وأخاها بلفظ نات أى ولد . والفرق واضح بين تركيب جسمها وتركيب جسم أخيها وخصوصاً أنهما يسيران عاريين دائماً . ولكن لما كان الكبار يهتمون بتغطية أجسامهم دائماً ، ولما كان صدرها لم يبرز بعد فإن الجزء العلوى من جسم البنت يكون أقرب إلى أبيها منه إلى أمها . وهذا التشابه لا يعطيها أى مفتاح لوجود فروق جسمية كما أن الملابس التى يرتديها كل من الجنسين لا تفسر هذه الفروق .

وحين طلبت من الأطفال أن يرسموا صوراً لبعض الرجال والنساء والبنات والأولاد ، وجدت أن غالبية تلك الرسوم تتجاهل وجود أية فروق — وحين ظهرت فروق فى بعض الرسوم لاحظت أن تركيب جسم الرجل قد رسم رسماً صحيحاً أما تركيب الأنثى فقد أشير اليه برسم جونلة من القش .

ومنذ اللحظة التى ترتدى فيها الطفلة الصغيرة وأخواتها الأكبر بقليل ثياباً شبيهة بثياب أمهن حتى ولو لساعة واحدة فقط، فإن البنات يبدأن فى التحول ناحية أمهاتهن والتعلق بأخواتهن البنات .

ولا يفرض على البنات الصغيرات لبس جونلات القش حتى يبلغن السابعة أو الثامنة من العمر . فمنذئذ يرتدين الجونلات ويسبحن بها فى الماء ويبللنها ، ويخلعنها ويضعن بعض الاوراق الخضراء مكانها ، ثم تضيع تلك الأوراق منهن فيجرين عاريات فترة من الوقت ، وبعد ذلك يعدن إلى البيت ويرتدين جونلات أخرى جافة . أو قد يخلعن جونلات القش ويخضن الماء عند انخفاض المد وهن يحملن جونلاتهن فوق رءوسهن ذوات الشعور المجعدة لحمايتها من البلل . ولا يعترى البنات أى شعور بالخجل من تجوالهن عاريات إلا بعد بلوغهن سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة .

وحوالى سن الثالثة يبدأ صغار البنين فى توجيه قوارب آبائهن إلى بقعة نائية من الجزيرة يستخدمها كافة رجال القرية كمكان للتبول . ولا تقرب النسوة أو البنات ذلك المكان وبذلك يدرك الولد فى وقت مبكر ، أنه إذا أراد أن يتبول فعليه أن يتسلل من حضرة النساء ويقضى حاجته بعيداً عن الأنظار .

ويدرك الأولاد الصغار معنى الذكورة حين يتدرب الرجال على الحركات الرياضية بواسطة تحريك عضوهم الجنسى أثناء الرقص . والطفل الذى يتقن فجأة هذه الحركات يظل يكررها عدة أيام بين تصفيق الكبار وتشجيعهم له ، ويتعلم الطفل هذه الحركات فيما بين الثالثة أو الرابعة . وبعد هذه السن بفترة قصيرة يتسلم الأولاد الأقواس والنبال والرماح الصغيرة لصيد الأسماك ، أما الأطفال الصغار من البنات والبنين فيتجولون حول البحيرة عند انخفاض المد يلعبون بالعصى والأحجار مقلدين اللعب الهادف للأطفال الأكبر منهم سناً دون اعتبار للجنس .

ويلاحظ أن البنات الصغيرات لا يعطون مطلقاً أية أدوات للصيد ، وإنما تعطى الواحدة منهن زورقاً صغيراً وهن لسن أقل مهارة فى التجديف من الأولاد المماثلين لهن فى العمر ، ولا تقوم البنات بتعويم نماذج مصغرة من القوارب كما يفعل الأولاد ، ومنذ الوقت الذى يبدأ فيه ظهور الفروق بين الجنسين فى اللعب والثياب تبدأ الجماعات من أفراد الجنس الواحد فى الانضمام إلى بعضها والابتعاد عن جماعات الجنس الآخر ، وليس هناك تحذير من الأبوين بمنع الأولاد والبنات من اللعب معاً ، ولا يوجد تنافس قوى بين الفريقين وإنما يحدث الانفصال نتيجة لأنواع النشاط . فأفراد الجنسين يفضلون الألعاب العامة كألعاب الماء ، كذلك يساهم كل من الفريقين فى التلاكم بالأيدى ، وفى الليالى القمرية نجد البنات والأولاد على السواء يتسابقون وقد تعالت صيحاتهم فوق منبسط البحيرة الطينى الذى تعرى بفعل التيار .

بيد أن الفتيات المراهقات يشرعن فى الإندماج شيئاً فشيئاً فى النشاط

النسوى المنزلى ، ومن ثم يتبعهن البنات من سن الثانية عشرة والثامنة والخامسة بصورة غير منتظمة . فحين تصل البنت إلى طور البلوغ فإن كل البنات حتى سن الثامنة أو التاسعة يذهبن للمبيت معها فى نفس البيت مدة شهر بأكمله مما يقرب بين البنات . وتوجد إحدى الجزر مخصصة للنساء ، إليها تتردد النساء للقيام بمختلف المصنوعات ، وتجلس النسوة فيها على بقعة مغطاة بالحشائش على القمة المخروطية للجبل المنحدر . أما الفتيات الصغيرات فكن يقمن بالرقص عند الغروب وقد خلعن الجونلات القش ولوحن بها ، كما يلوح بمراوح الريش ، فوق رءوسهن . ويصحب هذا الرقص فى العادة صرخات وحركات دائرية وصخب مرح يصل صداه إلى أطراف القرية .

أما الصبيان فيكونون فى ذلك الوقت منهمكين فى مطاردة الأسماك بين الأعشاب النامية فى المستنقع ، وفى نفس الوقت يشرفون فى صرامة على طابور من الأطفال الأصغر سناً كان ماشياً وراءهم . ومن وقت لآخر كانت تنشب بعض المعارك بين جماعات الأولاد والبنات تتخللها مشادات حامية واشتباكات تستخدم فيها بنادق رشاشة من الحيوانات المائية ، وهروب سريع ومطاردات . وأحياناً يشترك الجنسان فى بعض الألعاب العاطفية فيختارون زملاءهم ويبنون البيوت ويتظاهرون بدفع مهور العرائس ، وقد ينامون متلاصقين كما يفعل آباؤهم ، وفى اعتقادى أن الخوف من غضب الأرواح هو الذى يمنع هؤلاء الصغار من أن يتمادوا فى تطوير هذا النوع من اللعب إلى اتصال جنسى حقيقى . ويعتقد الأطفال من الجنسين أن الشبان حينما كانوا أطفالا كانوا يقومون بألعاب أكثر تسلية من هذه الأنواع التى يمارسونها ، ولكن حين تتبعنا هذا الخيط الذهبى فى الأجيال السابقة وجدنا أن كل جيل يعتقد أن الجيل السابق كان أسعد منه حظاً فى هذه الناحية ، وأن الأرواح فى تلك الأيام لم تكن سريعة الغضب كما هى اليوم . ولعب الأطفال يأخذ صورة جمعية دائماً وليست هناك فرصة لطفلين يتسللان فيها بعيداً عن باقى أفراد الجماعة . فإن كل أعضاء الجماعة يصيحون وراء البعض الآخر .

وكلما زاد شعور الطفل بانتمائه إلى جنس معين وكلما استطاع أن يدرك ما بينه و بين الكبار من نفس الجنس من تشابه تيسرت له مراجعة تنظيم فكرته عن العائلة . وإلى أن تصل البنت إلى سن الخامسة أو السادسة فإنها تصاحب أخاها بنفس الحرية التى تصاحب بها أباها . وهى تنام مع أبيها أحياناً إلى أن تصل إلى سن السابعة أو الثامنة . وتكون فى ذلك الوقت قد بدأت تدخل فى دائرة المحرمات .

فإذا لم تكن قد خطبت هى شخصياً فالأمر لا يخلو من وجود أخوات بنات أو قريبات مخطوبات ، و بذلك ستكون ضمن من يحظر عليهن الاتصال بخطاب أولئك القريبات . أما إذا كانت هى نفسها مخطوبة فمن المتوقع أن يكون هناك الكثيرون من رجال القرية ممن يجب أن تخفى وجهها عنهم عند مرورها بهم . فهى لم تعد إذن نفس الطفلة العابثة التى كانت تمتطى ظهر أبيها ، أو تصحبه إلى أقدس مكان للذكور فى جزيرة المراكب . أما أبوها فقد أصبح يكثر من تركها بالمنزل مصطحباً إخوتها وأخواتها الأصغر سناً منها ، وتعود الذهاب بمفرده مراراً إلى عمله . ولما كانت البنت معتادة على اهتمام الكبار بها وتعتمد اعتماداً كبيراً على إحساسها بالقوة التى تملكها عليهم فإنها تبدأ تدريجياً ، وقد هجرها أبوها ، فى التقرب من أمها أو من أى قريبة أخرى تكون أكبر منها سناً . ومما يبعث على الدهشة أن مثل هذا التكيف الأخير ، أى مع القريبات غير الأم ، كثير الحدوث إلا فى حالة وجود أم أرملة . ولعل تفسير هذه الظاهرة أن البنت بعد أن تتخطى أمها وتفضل أباها عليها تجد من الصعب أن تعود إلى أمها مرة أخرى لتلتقط الخيط من حيث تركته .

وتعلق البنات بنساء أكبر منهن سناً ليس فيه خرق للعرف أو التقاليد بل هو من خصائص التركيب العائلى . وكثيراً ما تتجه البنت نحو جدتها . و يتوفر للنساء العجائز من الوقت ما يسمح لهن بتعليم الفتيات أشغال الخرز ، ومساعدتهن فى إعداد جهاز عرسهن . أما النساء الشابات فلديهن من المشاغل ما يعوقهن عن

تلك المساعدات كأن يكون للمرأة طفل رضيع يشغل وقتها . ولا تهتم الفتيات بالأطفال الرضع ولا تحاول مساعدة الأمهات فى العناية بهم . كما أن الفتيات لا يحاولن أن يلعبن بالعرائس أو يداعبن الأطفال الصغار . ولقد قمنا بشراء بعض التماثيل الخشبية من قبيلة مجاورة ومن الغريب أن الأولاد فقط هم الذين أقبلوا على اللعب بها كانوا يهزونها و يغنون لها الأغنيات لتنام .

وتقابل الفتيات هذا التغير فى حياتهن بالتذمر والاستياء والحزن . وهن يعبرن عن شعورهن هذا بأن يركلن الجونلات القش بعيداً و يثرن ضد الأعمال المنزلية التى توكل إليهن بحكم الوقت الطويل اللاتى أصبحن يقضينه فى البيت . فالمهام الجديدة كحمل الخشب لإشعال النار ، وجلب المياه إلى المنزل ونظم عقود من الخرز ، كل هذه الأعمال تبعث على الضجر والملل إذا قيست بما كانت تعمله البنت من قبل إذ كانت ترافق أباها أينما ذهب ، أو تلهو فى مرح صاخب فى البحيرة . وطالما كانت الفتاة تلهو مع صويحباتها فإنها تشعر بالسعادة أما بعد إتمام خطبتها فإن هذه السعادة تنقلب إلى شعور بالقلق وهى لا تطيق حمل خمارها القطنى معها أوحصيرة الوقاية من المطر ، أينما ذهبت ، ولكن الفتاة التى تبلغ الرابعة عشرة وتنسى خمارها وراءها قد تجد نفسها فى مأزق يلزمها بأن تتكور حول نفسها فى قاع القارب مدة قد تزيد على ربع ساعة ، وقد دست رأسها بين ركبتيها فى حين وقف أبو خطيبها فى مكان قريب يتحدث و يثرثر بدون اكتراث ، وليس هذا الموقف عجيباً فإن النساء وصغار الشبان هم الذين يجب أن يبادروا بالتخفى وتجنب مقابلة الرجال المحرمين عليهم ، أما كبار الرجال فليس عليهم حرج فهم يظلون واقفين فى أماكنهم بينما تفر النساء من أمامهم كالطيور الواجفة . و إذا ذهبت إحدى الفتيات إلى بيت إحدى صديقاتها فإنها تتوقع أن يصيح بها أحد الأفراد فجأة «إن أحد الأقارب المحرمين عليك قادم إلى هنا» وفى الحال تفر الفتاة جافلة من بيت صديقتها وقد قطعت حديثها ، وتركت حبات الخرز ملقاة ولم تفكر

فى جمعها . وهى لا تتلقى تحذيراً سابقاً حينما تكون فى بيتها . وإذا تصادف وذهبت فى رحلة من رحلات الصيد فقد يحدث الشيء نفسه .

وهكذا تنفصم الصداقات السعيدة التى تكونت بين الفتاة وصديقاتها حين كن فى العاشرة أو الثانية عشرة أما الارتباط بالفتيات الأكبر سناً فهو يسبب الكثير من المتاعب ، كما أن أى غياب عن البيت أو عن صحبة الأقارب الموثوق فيهم ينظر إليه بعين الريبة والشك .

وينعكس كل هذا على جماعة اللعب فقد تعقب بنات فى الثامنة من عمرهن على استهتار بعض زميلاتهن فيقلدن لهجة النسوة المتزوجات ويقلن « ولكننا نحن النساء المتزوجات يجب ألا نغادر بيوتنا بل نبقى فيها ننظم عقود الخرز لنهديها إلى أخوات أزواجنا » ولما كن يبقين مدة أطول الآن مع أمهاتهن فقد أصبحن على دراية أكبر بالأحاديث المحرمة ، ولذلك فهن يتعلمن ما يجب أن يتحاشينه من الألفاظ المحرمة على النساء الأكبر منهن سناً . ولذلك فإن أولئك البنات يجبن فى كبرياء حين يتساءل سائل عن سبب ذلك بقولهن « كلا ليس هذا اللفظ من الألفاظ المحرمة على ولكنه محرم على جدتى . وأنا أساعدها فى تجنب ماحرم عليها » . والبنات الصغيرات يبدأن فى إدراك النظم الاجتماعية قبل البنين كما يعلمن كل شيء عن الزيجات المتفق عليها بالقرية .

— « إن كوتان سوف تتزوج شاباً من باتوسى Patusi ... وبايكواس Pikewas كانت مخطوبة ، ولكن خطوبتها فسخت عقب إحدى جلسات استحضار الأرواح » . فهذا النوع من التعليقات عن الأخبار الاجتماعية المألوفة لا يقوله أحد من الأولاد وهم عادة تنقصهم المعلومات الضرورية لتقديم أبسط هذه التعليقات .

وحالما تبدأ دورة الحيض عند الفتاة يتم اندماجها فى جنسها إلى الأبد ، فهى

تتعلم كيف تتحمل أول مرة يحدث لها هذا الأمر ، وكذلك تتعلم كيف تخفى عن أى رجل فى مانوس أنها تحيض فى أول كل شهر قمرى ، وعليها أن تخفى أية علامات أو معلومات خاصة بهذه العملية عن كافة الناس ، وهكذا يطرأ عائق جديد يكبح جماح حياة طليقة بلا قيود ، فالفتاة تظل ، قبل هذا الحدث ، جاهلة أن حيض البنات غير المتزوجات يجب أن يبقى سراً خافياً عن أى إنسان . وفى الواقع إن القليل من النساء فى مانوس يدركن السبب فى وجوب اعتباره سراً . ولكن ما يحول بين هذا السر وإذاعته ، هو الشعور بالخزى أو الخجل الذى يبلغ درجة من القوة تجعل الجميع يتجنب طرق هذا الموضوع ولا يحاول أى شخص أن يفسره تفسيراً منطقياً . وما على الأم إلا أن تنقل خجلها من هذا الموضوع إلى ابنتها ، وهكذا يظل السر فى أمان فى حوزة الجيل الجديد ، ومما لا شك فيه ، أنه لو حدث وأسر فرد للأطفال بهذا السر فى يوم من الأيام ، لشاع خبره منذ وقت طويل ، ولكن السرية التى تكتنفه والمقرونة بالاحتياطات الشديدة تحقق بقاءه فى طى الكتمان ، وإذا قيل لرجال قرية مانوس إن نساء الشعوب الأخرى تحيض مرة كل شهر ، وأن الفتاة غير المتزوجة والمرأة المتزوجة تتساويان فى ذلك حتى تصلان إلى سن اليأس فتنقطع هذه الظاهرة ، لأجابوا ساخرين « إن نساء مانوس تختلف عن سائر النساء » .

وتقرب البنت من إحدى النساء لا يتم بكامل رضاها أو تقابله بحماس لأنها لا يمكن أن تشعر لنساء جماعتها بنفس الشعور الذى كانت تكنه لأبيها ، الذى كان ولا يزال شديد التعلق بها وإن فرقت بينه وبينها عدة اعتبارات هامة . وإذا اجتمعت النساء فى مكان ما فإن حالهن يشبه إلى حد كبير اجتماع السجناء حين يقضون فترة العقوبة . ولكن الصورة القديمة عن الرجال حين كانوا يقدمون لهن الهدايا ، ويظهرون لهن الحب والرعاية لا تزال تتملكاً فى عقول الفتيات . وعلى ذلك فهن يخلطن كثيراً بين هذه الصورة القديمة المفقودة وبين

الصورة التى ترسمها الفتاة لزوجها . ويقترن الزواج بالمحرمات والمحظورات وبالحياة الحاضرة التى تحياها الفتاة وليس بطفولتها السعيدة ، ومع ذلك فإن آراء الفتيات عن الزواج تبنى على ضوء توقعاتهن لحياة لا بأس بها كما لو كان الزواج سيعيد إليها لوناً من ألوان السلام التى عرفتها فى عهد الطفولة . ولذلك فإن خيبة الأمل تكون أشد وقعاً حين يتم الزواج ، فالزوجة تجد أن قريبات زوجها يناصبنها العداء والكراهية ، وينظر اليها زوجها على أنها مجرد أداة تقوم مرغمة بإشباعه جنسياً ، وتحمل أطفاله وتدبر له شؤون منزله . ولا تستطيع الزوجة أن تسترجع علاقتها السابقة بأبيها فى علاقتها بأطفالها فهم ينتمون إلى أسرة غريبة ، وهم أقرب إلى زوجها منهم اليها ، وهى لم تتعلم من قبل أن توزع عواطفها على أكثر من شخص واحد ، منذ أن كان أبواها يقتتلان حول مهدها .

وحين يسأم الطفل الصغير من ركوب ظهر والده فإنه يتحول إلى اللعب مع أقرانه ، ولكنه لا ينفر مطلقاً من أبيه أو يبعد عنه بفعل التقاليد ، فالعلاقة بين الآباء وأولادهم الذين هم فى سن السادسة أو السابعة علاقة وثيقة جميلة ، ففى تلك السن يكون الطفل قد تعلم الاتزان الحركى واحترام المقتنيات — وليس هناك دروساً أخرى يتعلمها — وكل هذه الدروس تعلمها أصلاً على يدى أمه خلال الشهور الأولى من عمره . أما الأب فإن الطفل يربط بينه وبين جميع خبراته السارة ، وهو يعامل ابنه البالغ ست سنوات معاملته لرفيق ديكتاتور يفضله على نفسه ، فهو يحقق له كل رغباته ويجد فى ذلك سروراً عظيماً .

وتمثل العلاقة بين بوكينو Pokenau (الوالد) وإبنه ماتاوى Matawei ، صورة مثيرة للعلاقة بين الأب والإبن ، فقد كانت أم الغلام مشغولة عنه بطفل ولدته حديثاً ولذلك كان ماتاوى لا يفارق أباه بتاتاً . وقد أعطاه أبوه روح جده جيزيكو Gizikau لتكون له روحاً حارسة، وكان ماتاوى يعلم أن جمجمة جده هذه معلقة فى وعاء خشبى بالقرب من باب البيت . أما جمجمة سورى Sori وهى روح الأخ الأكبر لبوكينو وحارسه فى الوقت نفسه فقد علقت فى إناء

خشبى آخر ، وكان من عادة الأب والابن أن يتبادلا الدعابات فيما يتعلق بروحيهما الحارستين ويهددان بعضهما بغضب روحيهما ، فمثلا كان بوكينو يداعب إبنه ماتاوى بقوله إن جمجمة جيزيكو عجوز جداً حتى أنها توشك أن تتفتت ، وكان ماتاوى يرد لأبيه الصاع صاعين .

وإذا حدث وصحا ماتاوى من نومه ووجد أن أباه قد خرج للصيد دون أن يوقظه ويصطحبه أخذ فى الصياح حتى تصل صرخاته إلى أطراف القرية . وكان هذا الغلام لا يطيق أمه أما أبوه فكان يتبعه كظله أينما سار .

وإذا خرج أبوه فى المساء ، فإنه يأخذ معه ماتاوى الذى قد يدركه النعاس فينام عند قدميه . فإذا ما انتهى الأب من الحديث ، حمل الغلام على كتفه وسار به إلى البيت ووضعه فى الفراش ونام إلى جانبه حتى الفجر .

ولقد استطاع ماتاوى أن يتعلم مقاطع بأكملها من الإنجليزية الركيكة ، وكان يرددها مقلداً لهجة أبيه الخشنة . وحدث فى أحد الأيام أن صفع بوكينو زوجته ، ففرت غضبى من البيت وأخذت معها طفليها الصغيرين . وقد ظل بوكينو طيلة ذلك اليوم وهو فى حال يرثى لها من القلق خشية أن يلحق ماتاوى بأمه . وخصوصاً لأنها هى التى تقوم بطهى الطعام ، ولم يكن لبوكينو أية أخوات بنات فيما عدا أرملة عمه العجوز التى ذهبت مع زوجته لأنه لا يليق بها أن تبقى معه بمفردها ، فلم يكن لديه من يقوم بطهى الطعام ولا شك أن ماتاوى سيشعر بالجوع والبرد فى البيت الخاوى الكئيب . ولكن حدث فى اليوم التالى أن أقبل بوكينو وقد طفح وجهه بالبشر فإن فإن ماتاوى قد اختار البقاء معه . وكان الأب يقص هذه الأنباء السارة وكله خيلاء كما لو كان عاشقاً يحكى أنباء امتلاكه لقلب حبيبته .

ولكن الأطفال الأكبر سناً يمضون وقتاً أقل فى صحبة آبائهم ، أما معظم وقتهم فيقضونه مع الصبية الآخرين . فالأولاد فى هذه السن يضيقون بالقيام بدور المتفرجين الذين لا يكفون عن طلباتهم ، فهم يريدون أن يلقوا بأنفسهم فى غمار

النشاط ولكن إذا صادفتهم أية عقبات ، سارعوا إلى آبائهم يبكون طالباً فى العطف والشفقة . وهكذا لا يشعر الأولاد مطلقاً بأنهم فقدوا أو أبعدوا عن دائرة عطف الأب وحنانه . فآباؤهم دائماً هناك وعلى أتم استعداد لإعطائهم ما يريدون فى خضوع واستسلام وهم لا يطلبون مقابلا من أبنائهم ، لا من حيث العمل أو من حيث أداء أى طلب آخر .

ولا يقوم الأولاد بأى عمل فيما خلا ما قد يقومون به أثناء وجودهم بالبحر وهى أعمال تهدف إلى تدريبهم على أعمال البحر وليست لصالح الآباء . ولما كان الأولاد يقضون مع الكبار وقتاً أقل مما تقضيه البنات ، فإن درايتهم بتقاليد المجتمع أقل من البنات بكثير .

وكلما كبر الأولاد والبنات كلما زادت العلاقات بين الجنسين تعقيداً . فالفتيات المخطوبات يتجنبن مقابلة بعض الشبان لأنهم يمتون بصلة القربى للعريس ، كما يتجنبن البعض الآخر خشية إفسادهم لهن .

أما مع باقى الشبان من أقاربهن فهن يخرجن معهم يتجولون فى أنحاء القرية ويتبادلن معهم المداعبات والهدايا ، والأسرار التى لا تبعث الحرج . وهنا نجد الأساس الأول للعلاقة القوية بين الأخ وأخته والتى تدوم طيلة حياتهما ، فصحبة النساء الوحيدة المسموح بها للشبان هى صحبة الشاب لأخته ، وينظر إليها الناس بعطف وإكبار . كذلك صحبة الشاب لبنات عمومته وفيها يسمح لهم بممارسة بعض المداعبات شبه الجنسية . وفى هذه الفترة يتم تكوين اتجاهات ثلاثة نحو النساء تسيطر على تفكير الرجل طيلة حياته : فهو يشعر بالنسبة لأخواته البنات بالمودة والحنان والشعور المتبادل بوجوب التعاون ومساعدة كل منهما للآخر مالياً . « نحن أخ وأخته ، فهو يهدينى الطعام وأنا أهديه مصنوعات الخرز ، فنحن نعمل لبعضنا . وحين يموت فسأندبه بمرثية جميلة » . هكذا تصف إحدى النساء علاقتها بأخيها . أما الأخ فيقول « جميل أن يكون لنا أخوات بنات يصنعن لنا الخرز ويندبن شبابنا حين نموت » « يا لبؤس الرجل الذى لم يرزق أختاً » وحين

اعتدى ابن تاليكاتين Talikatin على فتاة مخطوبة فى تاوى Taui ، كان أخوها هو الذى هاجمها بهراوة خشبية ، وأعلن أنه سوف يقتلها أولا ثم يقتل نفسه بعد ذلك .

وهذه هى العلاقة العاطفية الوحيدة المتبادلة فى مانوس إذ أن العلاقة بين الأب وابنه وإن كانت بنفس العنف والقوة إلا أنها علاقة من طرف واحد فقط .

وبالإضافة إلى هذا فإن هذه العلاقة الأخوية بين الأخ وأخته تهيىء الفرصة للتنفيس عن المشاعر المتزمتة فالاتصال الجنسى فيها ممنوع ، والمجتمع يقرها ويشجعها كما يسمح بشىء من العواطف المتبادلة فيها . وإذا كانت العلاقة بين الأخ وأخته هناك تبدو لنا وكأن المصالح المادية تحكمها ، فهناك مصنوعات الخرز ونشاء الساجو مما يتبادله الأخ وأخته ، إلا أنه يجب ألا ننسى أنه حينما يكون المال هو الشغل الشاغل للمجتمع برمته ، فإن المساعدة المخلصة فى المسائل المالية تكون من أقوى دعائمه . وهذا أشبه بشعور المواطن الأمريكى الذى سمعته ذات مرة يقول « إن الصديق هو الذى يقرضك أى مبلغ من المال بدون أى ضمان من جانبك » فالرجل من أهل مانوس يلجأ إلى بيت أخته حين يكون فى حاجة إلى المعونة المالية ، ولا يمكن أن يعود خائباً .

ولا تسمح العلاقة الأخوية هذه بأى ذكر لمسائل الجنس ، وكما يصف الموقف أحد الأفراد هناك « مسموح للأب أن ينتقد جونلة ابنته وأنها لا تليق ولكن لا يسمح للأخ بهذا النقد » ولكن إذا كانت ثيابها غير لائقة فعلا فقد يعلق على ذلك تعليقاً مبهماً عاماً فيقول إنها مهملة ، وبالمثل يستطيع الأخ أن يتناقش مع أخته فى التفاصيل المالية لمشروع زواجها ولكن إذا لجأت اليه تبغى حمايته عقب مشاجرة لها مع زوجها فليس له أن يسأل عن سبب الخلاف ، فالعلاقات النفسية البناءة بين الرجل والمرأة فى مانوس ، تلك العلاقات التى يجد فيها الفرد ، الراحة والعطف والفهم والتقدير ، هى علاقات انتزعت منها العلاقات الجنسية . ونرجح أن هذه العلاقات هى إحدى الدعائم التى كان يجب أن تكون موجودة فى

علاقة الرجل بزوجته ولكنها فى ذلك المجتمع انتزعت من الزوجة وأصبحت ملكا للأخت ولا علاقة لها بالنواحى الجنسية .

وأبناء عمومة الزوج من الإناث لهن أيضاً نصيب معين فى حياته كان يمكن أن يكون هو الآخر من حقوق الزوجة . هذا النصيب يتلخص فى مداعباته لهن ، ورفع الكلفة معهن . ويمكن للرجل أن يتهم ابنة عمه بأنها تزوجت من شخص لا تطاق معاشرته ، كما يمكنه أن يشير إلى أنها حامل أو على وشك الولادة — وهى موضوعات محظور عليه أن يذكرها لزوجته . ويستطيع الرجل أيضاً أن يداعب شعر ابنة عمه أو يحملها من تحت إبطيها ويؤرجحها بشدة، كما أنه يمكن أن يمسك ثدييها بيديه، وكل هذا من قبيل المداعبات التى يجب ألا تتعدى حدودها ، وإلا أثار عليه غضب أرواح الأسرة ، ولكنها على أية حال مسموح له بها ، فعادات اللعب الجنسى الخشنة كالتدحرج مع البنات وجدت فى صباه واستمرت خلال سنوات نضوجه . ومن المشاهد الغريبة أن نلاحظ مواطن سمين تجاوز الأربعين يقرص أرملة كهلة أو يعيرها متفكهاً بسوء سيرتها . ومن بين الجرائم الجنسية القليلة التى تثير غضب الأرواح وتخيف الأحياء تلك الاتصالات العابرة بين أبناء وبنات العمومة ، ولكنها حوادث نادرة الوقوع مما يجعلها غير ذات قيمة أو مغزى هنا . ولم أجد من القرائن ما يشير إلى هذه المداعبات الجنسية تتجه اتجاهات معينة تنحو بها أن تكون علاقات جنسية أكثر تعقيداً ، بل الأمر على العكس إذ نلاحظ وجود انفصال فى هذه الناحية ، فإن المداعبات ورفع الكلفة من الأشياء التى لا تتناسب والعلاقات الجنسية ، طالما أنها تتم بين أبناء العمومة حيث يحظر عليهم الاتصال الجنسى .

ولاشك أن لتوزيع الاتجاهات الجنسية بهذه الطريقة على الأقارب أثرها فى إضعاف العلاقات الزوجية ، فالرجل يهب حريته لأبيه أو للكفيل وأحياناً لأمه، ويتجه بعواطفه المتبادلة وتعاونه إلى أخته ، ويخص بنات عمه بمداعباته، أما أطفاله فهو يمنحهم رعايته وحدبه وحبه فماذا يتبقى بعد ذلك لزوجته ؟ — ليس هناك أية قصص غرامية تخفف من التوتر بين الزوج وزوجته ، وليس هناك أية مغازلات

ولا يشوب علاقتهما أى عطف أو مودة ولا يحميها أى تعاون أو حسن نية كما هو الحال عادة بين الشريكين . كذلك لا تتخلل الحياة الزوجية أية مداعبات أو ملاطفات ، أو تودد ولذلك فإن كلا منهما ينظر إلى العملية الجنسية ، على أنها عمل دنس ، يجلب العار ، ويجب أن يرتكب فى ظلام الليل .

ويحرص الزوجان حرصاً شديداً على ألا يشهدهما الأطفال خلال تلك العملية ، ولما كانت معظم البيوت تتألف من غرفة واحدة ، كان من المتعذر ضمان ذلك ، ولكن الأطفال سريعاً ما يدركون رغبة أبائهم فى أن يتظاهر أطفالهم بأنهم لا يعلمون شيئاً . بيد أن معلومات الأطفال السرية ، يغمرها الخزى ويطمسها الشعور بالإثم مثلهم فى ذلك مثل والديهم تماماً . ومن عادة الأطفال حين يبيتون فى بيت أحد أقاربهم أن يقولوا لمضيفهم أو لزوجته وهم على وشك الرحيل « لقد نمنا نوماً عميقاً بالأمس فلم نر شيئاً ولم نسمع شيئاً » . أما الأطفال الذين بلغوا السادسة فإنهم على درجة كبيرة من التصنع والتعقيد ، وقد علق أحد هؤلاء الصغار على نزاع قام بين زوج وزوجته فقال « لماذا لا ينام معها بدلا من ضربها طيلة الوقت » ؟

والشائع هناك أن العملية الجنسية تسبب للنساء ألما شديداً حتى يضعن الطفل الأول ، ومعنى هذه العبارة واضح صريح ، فإن الزوج وزوجته لا يثقان فى بعضهما ولا يتبادلان الإسرار . كما أن النساء تخفى مرارة تجربتها المشينة عن الأخريات ، كما كانت النساء المتزمتات يفعلن فى العصر الفيكتورى ، على أن جميع النساء ينجحن فى نقل اشمئزازهن وتقززهن من العملية البغيضة التى تسمى عملية الاتصال الجنسى إلى بناتهن الشابات . ومعظم النساء ترحب بوجود الأطفال لأنهم يعطون الأزواج إشباعا عاطفيا جديداً ، وينشغلون بهم عن الانتباه إلى نسائهم . ولذلك فإن الزوجة تسر بالتفات زوجها إلى طفلهما كوسيلة تلهيه وتشغله عنها ، خصوصاً وأن معنى اهتمامه بالطفل أنه سيأخذه بين ذراعيه طول الليل ، ويدعه ينام بين أحضانه ، وقد أوضحت إحدى النساء هذا الاتجاه العام فقالت

« إن البيت السعيد هو الذى يضم طفلين فينام أحدهما مع أبيه فى ناحية وينام الآخر إلى جوار أمه فى ناحية أخرى و بذلك لا ينام الزوجان معاً » .

والاختلافات فى وسائل الاتصال الجنسى اختلافات ضئيلة ، والأرواح لا شأن لها بأى نوع من الجنس فيما عدا الاتصال غير المشروع « الزنا » الذى تقع عاقبته على النساء خاصة . وكل أنواع السلوك الجنسى يغلفها جو من العار ولكنها لا تعتبر إثماً ، فالاستمناء مثلا يمارسه كثير من الأطفال ولكن خفية و بعيداً عن الأنظار ، وهذا أمر من الصعب توفره ، ولا يبدو أن لهذا أى أثر نفسى مصاحب ، طالما أنه لا يبعث أى شعور بالخزى والعار فى مجتمع يحرص أشد الحرص على أن يذهب الفرد لإخراج فضلاته خفية و بعيداً عن الأنظار . واستمناء الفتيات السطحى لا يبدو أنه يقلل من برود عواطفهن عند الزواج . وحالات الجنسية المثلية «اللواط أو المساحقة» معروفة ، ولكنها نادرة . والأهالى يعرفون أصحابها ، ولكنهم يضحكون منها ولا يعلقون أهمية عليها إذا كانت بين غلامين غير متزوجين وفى هذه الحالة قد تتم العملية أحيانا علنا فى بيت الشباب ، والاتصال الجنسى بين الرجال هو النوع الوحيد الذى لاحظته هناك أما العلاقات الجنسية بين النساء فهى نادرة ولا يقررها المجتمع بل ينظر إليها على أنها سلوك لا يليق . ولم يتسن لى أن أرى أو أسمع عن حالات مؤكدة لهذا النوع من الشذوذ ، ولكن فى حالات كثيرة كانت الاضطرابات النفسية تأخذ طابع الشذوذ الجنسى مع مظاهر من الاستعراضية والبذاءة المبالغ فيها .

ويلاحظ أنه ليس من المألوف ظاهرة الإبدال الجنسى ، سواء إبدال المناطق الجنسية بأخرى ، أو تغيير عادات وطرق الجماع[١] ، أما المداعبات الجنسية فممنوعة بين الرجل وزوجته لأنها وقف على بنات العم ، وقد سئلت إحدى النساء عما إذا

(١) توخيت أن أقرر جميع تعليقاتى عن العلاقات الجنسية فى عبارات غير يقينية مثل « يلوح ويبدو وغير مألوف » ، لأنه فى مثل هذه الجماعة المتزمتة ، من الصعب على المرء أن يثق يقينا بمعلومات عن الجنس .

كانت تسمح لزوجها بأن يداعب ثدييها ، فأجابت فى استنكار « كلا طبعا » ، فإن هذا حق لابن عمى وحده ، فمقاومة النساء ووحشية الرجال وخشونتهم لا تدع مجالا لمحاولة هذه المداعبات .

والشبان غير المتزوجين الذين جاوزوا العشرين من العمر ، يشكلون خطراً كبيراً على قانون العلاقات الجنسية الجامد . فالنتيجة الحتمية هى ارتكاب الفضائح مع الفتيات الصغيرات ومع النساء المتزوجات من هؤلاء الشبان العزاب .

ولقد كان فى بيرى إثنان من هؤلاء الشبان وكان أحدهم صبياً ضعيف العقل ، وحشى السلوك لا يوثق فيه ، ولا يعتمد عليه ، وكان أبوه رجلا متقلباً ينحدر من سلالة متلافة متقلبة . وقد تسببت علاقته بابنة عمه فى مرض پو بيينش الصغير ، وألحقت العار ، والخزى بابنة عمه هذه . وكان هذا الشاب يتشدق بمغامرتين أخريين قام بهما مع فتاتين كانتا فى زيارته . ولما لم يكن خاطباً ، نظراً لفقر أبيه وتبذيره ، فإنه كان مشكلة كبيرة لأهل قريته . أما الشاب الثانى فهو تشوكال ، وقد فر منذ عهد غير بعيد من القرية لأنه كان متهماً فى جريمة زنا ارتكبها مع زوجة رئيس القرية ، ولم يرض أحد من الأهالى أن يزوجه ابنته أو حتى مجرد أن يدخل معه فى أية مفاوضات وذلك لأنه أبى أن يعترف بجريمته .

ومن الغريب أن أهل مانوس يحللون نظرية الاعتراف إلى نهايتها المنطقية المعقولة فالاعتراف بالذنب رجوع عنه . وليس هناك لفظ يطلق على العذرية ، والعار الذى يلاحق اعتراف المذنب عار وقتى يزول بسرعة . وإذا ارتكبت العروس خطيئة لم يؤثر ذلك فى اتمام الزواج ما دامت اعترفت بذنبها ، بل على العكس يساعد هذا الاعتراف على سرعة عقد الزواج و إتمامه . والأرواح هى الأخرى لا تثور إلا إذا أخفى المجرم جريمته . فالمذنب إذا أقر بذنبه وكفر عنه بدفع غرامة إلى الأحياء ممن تحميهم الأرواح صاحبة الحق ، فلن تحل به نقمتهم

التى تتمثل فى المرض أو الموت ومن الأمور العادية أن يقص أحد الأفراد فى لهجة هادئة وفى صيغة من لا يعنيه الأمر قصة ارتكابه جماعة مع إحدى النساء مع ذكر اسم المرأة وتاريخ الجريمة ومكانها وقد يضيف شيئاً آخر كأن يقول مثلا « وبعدها مرض أخى فاعترفت بذنبى وكفرت عنه وسرعان ما شفى أخى من مرضه » .

أما الآثم الذى يصر على إنكار ما فعله فإن المجتمع يحتقره ولا يثق فيه . وبمجرد فكرة التعامل مع مثل هذا الشخص تحمل الموت فى طياتها . وعلى ذلك فقد ظل تشوكال أعزب بدون زواج ، ولكن الإهانة التى لحقت به كانت من الخطورة بحيث لم يكن ثمة ما يخشى منه . ويقول الناس عنه أنه قد يتزوج إحدى الأرامل فى يوم من الأيام . أما أن يتزوج إحدى فتيات القرية فهذا ما لا يمكن حدوثه أبداً .

وإلى جانب كون التقاليد توجب على الزانى أن يعترف بجريمته ، فإنها أيضاً تلزم من يشهد الجريمة ولو بطريق الصادفة أن يعلن رؤيته لها . ولهذا فإن باليوحين كان غلاماً صغيراً ذهب ذات يوم إلى بيت أحد أقاربه ، بدون أن يسمه أحد ، فوجد ذلك القريب وهو رجل فى الخامسة والثلاثين يرتكب تلك الجريمة مع امرأة عمه وهى سيدة فى الخمسين . فما كان من باليو إلا أن تزل بسرعة ، وتسلل خارجاً وهو يرتعد من الذعر والعار . وصار يسائل نفسه عمن سيكون ضحية انتقام الأرواح ؟ ولم يطل انتظاره فقبل أن ينقضى أسبوع وقع قريبه المذنب صريع ملاريا فى المخ . وساءت حالة المريض حتى شارف الموت ، ولم يكن فى حالة تسمح له بأن يعترف بذنبه . أما الزوجة المذنبة فلم تكن هى الأخرى موجودة إذ قد ذهبت فى زيارة إلى إحدى القرى . ولم يتردد الصبى باليو فى إعلان علمه بما حدث وأنه شاهد الجرم ساعة وقوعه . وصار يردد متفاخراً « بأنه أنقذ قريبه من الهلاك ، ولولاه لمات ذلك القريب ولحاولت روحه الانتقام منه أى من

باليو ، وقتله لأنه كان يعرف سر المرض وسببه ومع ذلك أخفاه ولم يصرح به » .

وأحياناً يترتب على ارتكاب الآثم نتائج وخيمة تفسد مراسيم الزواج العادى وهكذا كان شأن لويل Lawil مولنج Molung فقد كان هذان الإثنان يعيشان تحت سقف واحد فى بيت خال لويل وعمة مولنج وكان الإثنان مخطوبين لشخصين آخرين . وفى أحد الأيام ذهب رب العائلة ويدعى ماتشن Matchin فى سفر بعيد إلى موك وكان يركب قارباً محملا بنشاء الساجو . وخلال غيابه عن البيت كانت امرأة عجوز صماء تقوم بإدارة البيت والإشراف على شئونه . وهكذا هيأت الظروف للشاب والفتاة أن يناما سوياً واستمر هذا الحال ثلاث ليال بدون أن يكشف أمرهما إنسان ما ، وفجأة دوت أصوات عويل ونواح رددتها أرجاء القرية فقد جاء قارب من موك وذكر أصحابه أن ماتشن لم يصل إلى تلك القرية بعد . وفى الحال دوى قرع الطبول يعلن موته ، وملأ القرية صراخ النسوة وعويلهن ، وخرجت ثلاث فرق للبحث عنه أو عن جثته وعم الحزن والقلق القرية خلال يومين كاملين ، ثم جاءت الأخبار بأنه بعد أن انقلب القارب بمن فيه بفعل العواصف الشديدة ، ظلوا يومين طافين على سطح الماء بدون طعام أو شراب ، وقد ملأ اليأس قلوبهم وأخيراً تمكنوا من الإقلاع بالمركب والعودة سالمين . ولم يشك كل من مولنج ولويل فى أن ما ارتكباه معاً كان هو السبب فى كل ما حدث . وتفادياً لثورة ماتشن وغضبه حين يعلم بحقيقة الأمر فإنهما أقدما على عمل غاية فى الغرابة فقد فرا هاربين واحتميا بإحدى القرى البرية عند أحد أصدقاء لويل .

ورغماً عن غضب كبار أقاربهما وعدم رضاهم عما فعلاه إلا أنهم أرغموا على إتمام الزواج عن طريق تبادل بعض المقتنيات ، فإن ترك الشابين يوماً آخر وهما غارقين فى الإثم سيعرض الجميع لمصائب أخرى . وعن طريق تسوية سريعة لديون الأسرتين أمكن عقد زواج خطيبة لويل بخطيب مولنج حتى يمكن إنقاذ

بعض الالتزامات المالية التى دفعت فى مشروعى الزواج السابقين . ولكن مثل هذا الاستهتار الذى انتهى نهاية سعيدة من الأحداث النادرة الوقوع : فمن النادر أن يكون للانسان أصدقاء مخلصين من قبيلة أخرى ، وما من بيت فى مانوس يجرؤ على أن يضم تحت سقفه مذنبين هاربين . وإلا فإن الروح التى تحرس البيت تشعر بأنها أهينت ، ولا تتوان عن عقاب ساكنيه . وحالة لويل ومولنج من الحالات النادرة التى عاش فيها الزوجان فى مودة ووئام ولعل ذلك راجعاً إلى أن الزيجة من بدايتها كانت بمحض اختيار الشابين .

ويلاحظ أن مراعاة التقاليد الجنسية لا يسانده أى احترام للعلاقات الشخصية ، ولا أى مستوى للحب أو الوفاء ولكنها تقوم كلها على حقوق الملكية ، والخوف من الأرواح . وكل رجل من رجال القرية يعتبر الجيل السابق لجيله هو العصر الذهبى للرجال حين كانت الأرواح تتساهل فى مغامرات الأحياء ، وحين كان الرجل إذا وجد نفسه وحيداً مع إحدى النساء لم يتردد عن جذبها من شعرها ، والاعتداء عليها . فالمثل الأعلى للرجال هناك هو أن ينقض على فريسة من النساء ويغتصبها عنوة . وترى الرجال يقصون فى لذة وشغف كيف حصل بومالات Pomalat على زوجته الضخمة العنيدة ، وكان ماضيها ممتزجاً بعدة أحداث ، فقد اعتدى عليها ابن عم لها ثم حملها معه رجل من رامبوتشن Rambutchon . ثم عادت مرة ثانية إلى قريتها ، وهى تعلم عن الأمور الجنسية أكثر من أى امرأة أخرى بالقرية . وأراد عمها أن يزوجها من بومالات وكان رجلا ضئيل الحجم ، ضعيف الإرادة ، ولكنها رفضته . ولما كانت الآن أرملة عنيدة فإن ثمنها فى سوق الزواج أصبح أغلى من المرأة المسالمة ، وقد يكون سلوكها هذا محاولة منها لترضية أقاربها بعد ما سببته لهم من مشاكل . ولما أصرت نجالوين ، وهذا إسمها ، على رفض بومالات ، لم يشأ أن يعرض لها مهراً أكبر . وأخيراً قام ومعه ثلاثة شبان آخرين فاختطفوها وحملوها وذهبوا بها إلى البرارى ثلاثة أيام . وبعد مضى اليوم الثالث قال الناس فى حكمة « إنها لم تعد عنيدة » .

ولم يتكرر هذا الحادث على قدر ما تعيه الذاكرة ، ولكنه كان مثار إعجاب كافة الرجال كخير وسيلة لترويض النساء .

ولم يكن بالقرية كلها سوى اثنتين من النساء اشتهرتا بسوء السيرة — أما الأولى فهى نجاپان Nagapan وهى إحدى زوجتى پوييو Poiyo ، والأخرى هى الأرملة مين Main ، وقد كانت لنجاپان مغامرة سرية مع سيلان وانتهت بأن حملت منه . وقد اتهمتها النسوة الأخريات بأنها حامل ، ولكنها كانت تكابر وتنكر بشدة مدعية أن عملا سحرياً هو الذى نفخ بطنها . وحدث بعد ذلك أن مرضت أخت سيلان الصغرى ، وفى غمار يأسه اضطر إلى إعلان جريمته لأحد أقاربه على ألا يفشى سره للآخرين إلا بعد أن يغادر القرية نهائياً . وعند ما أصبح حمل نجاپان ظاهراً لا شك فيه ، ألبستها عائلتها ثياب العرس ، وذهبوا بها إلى دار أخ سيلان الأكبر . ولكن الأخ رفض أن يقابلهم وأحكم رتاج الباب وفر هارباً إلى الأحراش . واضطر أهل العروس المهجورة إلى العودة بها إلى دارهم حيث ولدت طفلة صغيرة ماتت بعد قليل . ولا عجب فى موت الطفلة فإن الأرواح لا يمكن أن تقبل حماية طفلة كانت ثمرة للخطيئة .

ومضى عامان قضتهما نجاپان حزينة فى بيتها وبعد ذلك تورطت فى علاقة غير شرعية مع بوييو الذى كان متزوجاً فى ذلك الوقت من امرأة مجتهدة ولكنها حامل . وحملت نجاپان مرة أخرى وهدد أقاربها بعرض القضية على محكمة البيض ، واضطر بوييو أن يتزوجها وأصبح له زوجتان . واعترف بطفله منها على أنه ابنه الشرعى وبذلك حسم نزاعاً كبيراً شب فى القرية . فقد اعتبر الطفل ابناً شرعياً لپوييو وعلى ذلك لم يعد هناك أى طفل غير شرعى فى القرية .

أما المرأة الأخرى وهى مين فقد ترملت خمس مرات وولدت طفلا واحداً مات عند مولده . وقد توفى زوجها الأول ، وهجرت زوجها الثانى ، وأخذها زوجها الثالث عنوة . وبعد ذلك عادت إلى زوجها الثانى الذى مات بعد عودتها بفترة قصيرة . وجاء بعد ذلك زوج رابع وخامس ، بدأت علاقتها

بهما على أثر مغامرة انتهت بأن أصبحت المسألة معروفة لدى الجميع . فكان طريقها منثوراً بالخيانات الزوجية .

ومن عائلة بونتشال Pontchal لم يبق على قيد الحياة سوى رجلين اثنين ، أما الباقين فقد ماتوا جميعاً فى وباء الأنفلونزا . وفى اعتقاد الأهالى أن الإثنين الذين عاشا لم يعيشا إلا لأنهما اعترفا بما أنكره الآخرون أى بمغامراتهم مع مين . فقد كانت امرأة مرحة ، وقحة ، معتدة بنفسها ، ذات نفس شهوانية ، واثقة من نفسها ، شديدة التعلق بعدد من أبناء إخوتها وأخواتها أولئك الذين بقوا بعد موت إخوتهم وأخواتهم تكفيراً عن آثامها . وقد كانت هذه المرأة على شىء من الثروة وكانت تخرج ليلاً ، وتظل هائمة على وجهها خوفاً من أرواح أزواجها الخمس .

وقد كان من المحتمل أن تصبح هذه المرأة ، امرأة شريفة ، سلسة القياد فى أى مجتمع آخر . أما فى هذا المجتمع فقد لاكت سيرتها الألسن فى فجر شبابها مما جذب الشباب إليها ، وجعل الرجال يفخرون بأنهم قاوموا محاولاتها الشريرة . ألم تقتل كل عائلة بونتشال ؟ ولا تتردد عن قتلهم وقتل أقاربهم أيضاً ؟ وكانوا ينظرون إلى أخطائها على أنها ليست آثاماً منشؤها الجسم ولكنها حملة منظمة تقوم بها ضد الجنس البشرى . لقد كانت رمزاً للأنثى الشريرة كما تصورها الآباء المسيحيون القدماء .

وفى ذلك المجتمع الذى تتميز العلاقات الجنسية فيه بالبرود والتقزز والإرهاق إلى ما بعد ميلاد الطفل الأول وحيث تنتهى ممارسة الاتصال الجنسى بالمرض أو الموت ، نجد الرجال يرون فى تلك المرأة شراً يطاردهم ويلتمسون العزيمة لتحاشيها .

ولكن نظراً لديموقراطية المجتمع فى قرية مانوس ونظراً لعدم تنظيمه فإنه لم يتخذ أية إجراءات جماعية ضد هذا الخطر الاجتماعى الدائم المتمثل فى مين

والصورة كلها تشابه صورة المجتمع المتزمت البيوريتيني حيث تخضع الحياة الجنسية لمطالب مملاة من العالم الآخر ولا تمت إلى هذا العالم بصلة ، وهذه المطالب ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفاهيم الملكية ومعاييرها . فمن الكفر والمروق أن يتدخل الفرد لإفساد أحد مشروعات الزواج التى دفعت فى سبيله آلاف من أسنان الكلاب ، وبجانب هذه الظاهرة الاجتماعية التى تتعلق باستبعاد الدوافع الجنسية من حياة الفرد ، نجد مظاهر اجتماعية أخرى تتعلق بالجنس من نواحى أخرى ، فمثلاً يعتبر من المحرمات الحديث عن الأمور الجنسية للموتى أو أجزاء منها ، ومع ذلك فإنه توجد بعض العبارات الجنسية الشائعة على كل لسان مثل « داخل رحم أمى » و « نامت مع أبى الميت » هذا يحدث فى مجتمع يذكر فيه النشاط الجنسى للأحياء فى مجال التندر والفكاهة بين الأقارب أو فى ثورة كبار الرجال وهم يوقعون العقاب بإنسان ما .

وأدوات الزينة من ثياب وحلى لا تستخدم لغرض إرضاء الجنس الآخر بل هى من صميم الأمور الاقتصادية ، فالناس يرتدون أفخر ثيابهم فى المناسبات الاقتصادية ، ولا تستعمل العطور إلا نادراً . وتصبغ الوجوه بالأصباغ فى حالتى الحداد ، ودفعاً لشر الأرواح المعادية . والزينات المعقدة تفسر إما للحداد أو بسبب عقد صفقة مالية . ورغماً عن أن الناس يتسمون بالنظافة نظراً لأنهم يعيشون حياة بحرية إلا أنهم نادراً ما رأيتهم متأنقين فى مظهرهم .

ومن وقت لآخر يتزين الشبان فى بيت الشباب فيقصون شعورهم الطبيعية فى تجميعات عالية فوق رءوسهم ويطوقون أعناقهم وأذرعتهم بأوراق الأشجار . وبهذا المنظر يجوبون أنحاء القرية وهم يقرعون طبولهم ، فى دوى عال كما لو كانوا يريدون أن يطغى دوى الطبول على مواكبهم التى لا هدف لها .

واللغة هناك ليس فيها مرادف لكلمة الحب وليس هناك أغانى عاطفية ، ولا أساطير عاطفية ، ولا توجد إلا رقصات اجتماعية إذ يتميز أهل مانوس بأنهم

لا يرقصون إلا حين يتنازلون عن قدر كبير من ممتلكاتهم ، أو بعد انقضاء فترة الحداد « لينفضوا التراب عن أرض البيت » ووجود زهرة بيضاء فى الشعر دليل على القيام ببعض أعمال السحر وليست دليلا على الوقوع فى الحب .

ومنظر القرية جميل فى ضوء القمر ، حيث تتراقص ظلال البيوت والأشجار فوق مياه البحيرة الساكنة ، ومع ذلك لا تسمع أية أغان ولا ترى أحداً يرقص . أما الشبان فهم فى داخل البيوت بينما يتشاحن آباؤهم وأمهاتهم فى الشرفات ، أو يعقدون جلسات لاستحضار الأرواح بحثاً عن الخطايا .

الفصل العاشر

الفتاة المراهقة

يعتبر بلوغ الفتاة فى مانوس بداية لحياتها كامرأة ذات مسئولية ، من ناحية ويعتبر ، من ناحية أخرى ، نهاية لحياة اللهو والمرح والصحبة العابثة والساعات السعيدة التى كانت تقضيها فى الإنطلاق بلا قيد فى أنحاء القرية ، وعند البلوغ تشرع الفتاة فى ممارسة المحارم التى بدأت منذ سنوات ، إذا كانت الفتاة قد تمت خطوبتها وهى بعد طفلة ، وهى محرمات تطبق على كل فتاة لأنه من النادر أن تبلغ إحدى الفتيات ، ولما تخطب بعد . ولكن البلوغ ليس معناه بداية حياة جديدة ، ولكنه استبعاد نهائى لعناصر اللهو واللعب من الحياة الحالية ، ولا يلقى على عبء الفتاة القيام بأعمال جديدة ، و إنما يجب أن يزيد إنتاجها من مصنوعات الخرز ، وتصنع مزيداً من نشا الساجو وتصيد مزيداً من الأسماك . ولا تكوّن الفتاة فى تلك الفترة صداقات جديدة بل على العكس تقلل كثيراً من علاقاتها بصديقاتها السابقات . وتتميز ساعة البلوغ نفسها باحتفال مشهود وعند ما تحيض الفتاة للمرة الأولى فإن أباها أو الوصى عليها (أى أكبر فرد ذكر فى العائلة الذى يتكفل بمسئولية المبادلات الحالية التى تنشأ عند زواجها) يرمى بعدد كبير من ثمار جوز الهند فى البحر . و يثب جميع أطفال الجيران وراءها وهم يتصايحون و يتدافعون من أجل تلك الثمار . وهكذا ينتشر النبأ بسرعة بأن كيتينى Kiteni قد بلغت . و يعتبر الكبار هذا الحدث أمراً عظيم الأهمية وليس فيه أى حرج ، و بمناسبته تقام عدة حفلات ، وهو حدث هام بالنسبة للأطفال أيضاً لأن ثمة حفلا عائلياً تقام فى بيت الفتاة التى بلغت .

وفى هذا الاحتفال الذى يقام بمناسبة بلوغ كيتينى ، تجلس الفتاة فى كوة من الخيش بالقرب من وسط البيت ، وقد أحيط عنقها بأسنان الكلاب ومشط

شعرها تمشيطاً شديداً ، وتظل جالسة فى تلك الغرفة الصغيرة طيلة أيام خمس بدون أن تخرج منها . وممنوع عليها أن تأكل أطعمة مصنوعة من أوراق التارو أو عجائن التشوتشو أو الفاكهة التى تسمى هناك أونج أو الأسماك الصدفية . وكل ما تأكله يطهى على نار أشعلت خصيصاً لها ، كما يعد طعامها فى أوانى خاصة بها وتقوم أمها بطهى طعامها . وعليها أن تتكلم بصوت خفيض ، وكذلك من يحادثها يجب ألا يعلو صوته أو ينطق باسمها فى عبارة مسموعة . وكل ليلة تأتى معظم بنات القرية وخاصة البنات الصغيرات ليبتن معها .

وهن يحضرن بعد غروب الشمس و يستلقين على ألواح الأرض الخشبية ، فترى الأجسام الصغيرة وقد تكورت بجوار بعضها . وعند بزوغ الفجر ، تتسلل البنات قبل الإفطار لأن العائلة ليست ملزمة بإطعامهن . أما إذا جاءت شابات متزوجات للمبيت فإن الطعام يقدم لهن قبل أن يغادرن المكان . وفى أثناء النهار تعود بعض البنات و يلعبن لعبة مهد القطة مع كيتينى ، وقد يستلقين راضيات فوق الأرض وهن يهمسن بمقاطع أغنية من الأغنيات .

وفى تلك الأثناء يكون جميع أهل البيت منهمكين أشد الانهماك . فهم يبعثون يومياً بأوعية بها حساء جوز الهند إلى أهل خطيبها المنتظر ، و بمجرد وصول القارب إلى بيت الخطيب تضاف إلى النار بعض المواد الملتهبة حتى تصل الهدية إلى المنزل وهو فى حالة قيظ شديد [ويلاحظ تكرار مشاهد الحرارة والنار أثناء احتفالات البلوغ] أما عائلة الخطيب فتحضر لها كل يوم هدية من السمك ، فتأتى أم الخطيب فى الصباح الباكر وتضع السمك على رصيف البيت ولكنها لا تدخل البيت كذلك يخرج إخوات كتينى وأعمامها ليصيدوا من أجلها ، وعلى جدتها لأبيها وعماتها أن يأكلن رءوس تلك الأسماك . و بعد أن تأكل هى أجسام السمك تعلق هياكله فوق رأسها لكى يعرف الزائرون مدى نجاح العائلة فى صيد السمك ، و يشرع رجال الأسرة وكل من يسهم فى مشروع زواج كيتينى ، فى العمل المنتج ، فيكثر إنتاج الساجو ونشائه ، ويتاجرون فيه ، و يسافرون إلى

ما وراء البحار ليجمعوا ما لهم من ديون الساجو على الآخرين وقد كان لكيتينى أخ يقيم فى جزيرة موك ، وكان على أقاربه أن يخبروه لكى يستمد بنصيبه من الساجو . وهو ليس بالقدر القليل إذا علمنا أن كيتنى سوف تتزوج من كالوى Kaloi الأخ الأصغر لبانو Panau المتوفى . وكان باليو وهو رجل له مركز اقتصادى هام هو المتكفل بنفقات الزواج . ولذلك كانت أسرة الفتاة تستحث أفرادها وشركاءها من أجل الساجو . وكان الرجال يصنعون نشاء الساجو أثناء النهار ، أما فى الليل فيخرجون للصيد ليجمعوا من الأسماك ما يدفعوه ثمناً لمزيد من الساجو .

وفى نهاية الأيام الخمس يقام أول عيد لتحرير الفتاة من محرماتها . وهو عيد تتلهف عليه كل الفتيات ، وينظر إليه الرجال على أنه جرأة وسلوك للتباهى من جانب النساء وقد أقيم الحفل بعد هبوط الظلام . وقد أعدت من أجله أعداداً كبيرة من مصابيح الخيزران ومشاعل كبيرة من نبات الساجو غير الناضج . وقد امتلأ البيت بالنساء والبنات وأضىء بالمصابيح التى وضعت فى أكوام إلى جوار المدافىء الأربعة . وفى هذا المناسبة يكون آخر من وصل إلى الحفل هو جدة كيتينى لأبيها . وعند قدومها تأمر كيتينى بأن تكف عن الضحك وأن تقوم وتجرى فى طول البيت فى حين تطاردها جدتها وهى تلوح بأحد المشاعل المضيئة فى يدها .

ولكن كيتينى تجرى بين عدم تصديقها لما تفعله و بين ضحك الحاضرات وهن يرون الجدة تتظاهر بمطاردة الفتاة . وتقف الجدة والشعلة بيدها فوق رأس الفتاة بينما تتمتم الجدة بهذه بتعويذتها حول الفتاة .

وفى نفس الوقت أمسكت الفتيات بآنية بها نشاء الساجو غير ناضج وحملن حزماً من المشاعل والمشتعلة ، وذهبن بها إلى القوارب فركبن خلال ممرات القرية . وكن وهن ماضيات يلوحن بالمشاعل و يلقين برذاذ اللهب المشتعل إلى الماء . وحين مرّ القارب بثلاث فتيات كن بالبحر ، طالبن منهن أن يركلن الماء بشدة .

وكانت القوارب كلما مرت ببيت أحد الأخوة أو الأجداد ، أو الأعمام تركت فى كل منها كعكة من الساجو وواحداً من المشاعل على مرساة البيت .

وكانت طرقات القرية خالية من القوارب ولكن صيحات التهليل ، وأضواء المشاعل المنعكسة من بين ألواح أرضيات المنازل تجذب الناس فيخرجون إلى الأبواب وينظرون من خلالها وهم يردون بتحيات مرحة . وعندما تم توزيع آخر كمية من الساجو ، ووضع آخر مشعل موجود على مرساة أحد المنازل عادت الجماعة أدراجها ، وقد هدأ ضجيجها بعض الشىء ، إلى حيث كانت الوليمة معدة فى بيت كيتينى .

والآن أصبحت كيتينى حرة فى أن تمشى فى البيت وأن تخرج إلى المرساه أو إلى البحر المجاور ، فى الظلام وتحت حبات المطر . ولكن لم يكن مسموحاً لها بعد أن تتجول فى أنحاء القرية أو أن تترك البيت طالما كانت الشمس ساطعة :

وبعد مضى سبعة أيام أخرى أقيمت وليمة ثانية وتسمى « عيد نهاية حساء جوز الهند » وفى هذا العيد يعد أهل الفتاة ثلاثة أنواع من الطعام . من التارو وعصيدة من زيت جوز الهند ، وفطائر من الساجو وجوز الهند . وتحمل نساء بيت كيتينى هذه المأكولات وتذهب بها إلى بيت حماة كيتينى المستقبلة التى تستقبلهم بتكلف وتوزيع الطعام على جميع أخوات زوجها اللاتى كن يساعدن فى رد الهدية فى صورة مصنوعات من الخرز . والمفروض أن لكل وعاء من الطعام يرد فى مقابلة حزام من الخرز وبهذا تنتهى مبادلة الحساء والسمك .

وبعد مرور خمسة أيام أخرى أقيمت وليمة ثالثة ، وهذه الوليمة الثالثة من ألطف الولائم النسوية التى أقيمت فى بيرى ، فلا تعقد فيها أيه صفقات أو ديون ، ولا ترد فيها ديون قديمة فهى عبارة عن حفل نسائى لكل القريبات وكل زوجات الأقارب . ففى صحن البيت وضعت مرتبة وأجلست فوقها كيتينى صاحبة الحفل وكانت أمرأة عمها تقوم بالإشراف على توزيع الطعام وهى زوجة العم الذى تكفل بتمويل زواجها . والتفت باقى قريبات الفتاة حول

المدافىء الأربع وفى أحد أطراف المكان جلست عماتها وفى الطرف الآخر جلست زوجات أخواتها . وفى جانب ثالث رصت أوانى الطعام للفتيات اللاتى كن مخطوبات لشبان من نفس العائلة ؛ وكانت كل ضيفة تأتى ومعها وعاء من الطعام فتضعه أمام كيتينى ، وتتقدم عمتها فتزخرف الطعام ببندق يبرق وبأوراق الفلفل وهى تنطق بأسماء صاحبات الآنية فتقول « هذا من زوجة ماليان » ، « وهذا من زوجة بوكس » وبعد ذلك ينتقل وعاء كل ضيفة ويمرر من جماعة إلى جماعة .

وأعقب ذلك مناقشة ودية بين عمة كيتينى وبين جدتها حول من يقوم بطقوس عملية أكل التارو ، وانتهت بفوز العمة ، وبذلك غسلت الجدة يديها بعناية وأخذ فى كفها حفنة من التارو وصارت تعجنها فى آنية وهى تقول :

أى بوماى !
أى تشيلانتون !
إنى آخذ التارو من پاليو — فهو قوى
إنى آخذ التارو من ساتان — فهو قوى
فكل من الجدين قوى !
من أجل سليلة بومى .
من أجل سليلة تشيلانتون .
إنها تأكل التارو .
لتسكن النار فى يديها .
فلتشعل نار أم زوجها !
فى البيت النبيل الذى يتلقى هذه الهدايا فلتشعل نار البيت .
ولتستطيع أن تساهم مساهمة طيبة :
فى نفقات الجنازة .
وفى نفقات الزواج .
وفى نفقات الميلاد .

سوف توقد النار بسرعة .

وسترى عيناها بوضوح فى ضوء النيران .

(وهنا تلقى الجدة بحفنة من التارو فى فم الفتاة) وتأخذ فى يدها حفنة أخرى وتستمر فى تعويذتها فتقول :

إنى أعطيها هذا فى فمها لكى تضىء نيران الجنازة به .

ونيران الصفقات به وكل ما يتصل بها .

(وهنا تطعمها التارو مرة أخرى) .

إنى أعطى التارو لإبنة باليو .

إلى حفيدة سانان .

إلى حفيدة پوسانو .

(فهى تأكل التارو من عندنا) .

وحين تركع يجب ألا تنادى فقط « أمى . . أمى » .

بل عليها أن تنادى أولا أسماء هؤلاء و بذلك يفهم الجميع .

(ومرة ثالثة تطعم الجدة حفيدتها من التارو . ثم تستأنف الأرملة پوليون وهى أخت والد كيتينى المتوفى الترتيل فتقول) :

إنى أعطيها هذا الطعام .

إنى أعطيها من طعام التارو .

سوف تأكل التارو من عندنا .

وسوف تغنى أغانى حزننا .

وعندما تأكله سيصبح فمها أكثر ليونة .

وستندب من أجلنا .

أما عن أقارب كاماتاشو .

فنحن جميعاً من الهالكين .

وسأبقى أنا وحدى .

إنى أطعم التارو لفم هذه الفتاة .

إنى أعطيها من نارى .

وستقبض على نارى بين يديها .

وستكون هى نار مبادلة الهدايا .

وكل هذا من أجل مبادلة الهدايا .

وستعطى هدايا لأمها وأبيها ولأخواتها ولإخوتها .

ثم جاء دور نجاتشومو Ngatchumu وهى عمة أخرى ولكنها لم تكن متدربة على هذه الطقوس ولذلك فقد تعثرت وترددت ، واستحثتها الجدة ، ولكن فى منتصف التعويذة سكتت ونظرت تقول « هل هذا يكفى ؟ » .

وجرت أغنيتها كما يأتى :

بونكياو ، بواسو ، نجاكو ، نجاتشيلا .

هذه حفيدتكم .

(وشرعت تطعمها من التارو) .

دعها تأخذ من نيرانى فتشعل نارها بها .

ولتعطيها قريبات أبيها .

ولتعطيها قريبات أمها .

نقوداً من المحار بسرعة .

فهى لا تملك شيئاً مطلقاً .

ولكن اللحظات المرحة التى سببها جهل نجاتشومو استمرت . وبدأت النسوة يطعمن بعضهن بالتارو ويطلقن تعاويذاً مضحكة . وساد جو الحفل شعور غير طبيعى بالسرور . وقد حدث أن رفعت إحدى النساء صوتها تحاول إسكات جمع من صغار الأطفال كانوا يلعبون أسفل البيت . وحين انتهى الاحتفال غادرت

النساء الدار ليجدن قافلة من القوارب فى انتظارهن . وكان الأزواج يقودون تلك القوارب ، وقد اعتراهم شـعور من الخجل والحرج الذى يشعر به الرجال وهم ينتظرون خارج إحدى الاجتماعات النسائية .

ثم تقيم أسرة الخطيب حفلا تزين فيه أصناف الطعام بعناية زائدة ، فتقطع حاوى جوز الهند إلى قطع على شكل النجوم وتثبتها فى أطراف عصى رفيعة حتى تبدو وكأنها زهور طويلة السيقان و بين الزهور تثبت بضعة من ثمار البندق فى أعلام وكأنها براعم صغيرة . ثم تصفف الزهور والبراعم فى أوعية التارو .

وبهذا تنتهى الطقوس الصغيرة ، ولا يتبقى بعد ذلك إلا المقايضة الكبرى مع أسرة عريس الفتاة وعلى كيتينى الا تغادر البيت حتى تتم هـذه أيضاً وتمر الأيام متباطئة ، وتمل الفتيات الصغيرات المبيت فى حى كالات ، ويقـل عدد البنات المرافقات للفتاة ، وعليها أن تستأنف نشاطها بصنع مصنوعات الخرز اللازمة لجهازها وأخيراً بعد انقضاء حوالى شهرين يكون كل شىء قد تم الاستعداد له من الساجو والخنازير والزيت وفى اليوم السابق للمقايضة الكبرى تتحلل الفتاة من كافة المحرمات ، وتفرغ نساء أهل البيت من إعداد عشرات الكرات من الساجو كل واحدة فى حجم البرتقالة ، وتوضع هذه الكرات فى أوعية كبيرة ذات زخارف تحملها القوارب ، أما كيتينى فإنها تتزين ببعض الحلى البسيطة من أسنان الكلاب والخلاخيل الخرز ، وعند نزولها إلى القارب تحملها جدتها فوق ظهرها ويتجه القارب بمن فيه إلى بقعة قاحلة خالية من أى مخلوق ، وهناك تتجمع نسوة القرية ، وتمتد قافلة القوارب إلى ما يزيد على خمسمائة قدم — بينما تحتشد النساء والأطفال والعجائز والبنات الصغار فى منبسط الجزيرة . وفى وسط هذا الجمع تقف كيتينى فى البحيرة الضحلة بينما تأخذ جدتها فى صب الزيت فوق رأسها وهى تنشد . و بعد ذلك تكسر الجدة إحدى ثمار جوز الهند من الحجم الصغير ، وتصب شرابها فوق الفتاة وهى تردد تعويذة أخرى .

وما أن تتم هـذه العملية حتى تثب كافة الفتيات إلى الماء فيقذفن كيتينى

برشاشه وهن يضحكن ويصحن ، وقد علا زبد البحر من حركاتهن وقفزهن ، و بعد أن تسبح الفتيات بعض الوقت يخرجن من الماء ويأخذن فى توزيع الحلوى والماء يقطر من أجسامهن وعيونهن ترمش بقطراته . وكانت هذه المرطبات عبارة عن كرات الساجو التى حملت بها القوارب المختلفة وأخيراً تعود الحملة إلى البيت ، وترتدى كيتينى ثياباً مزركشة ثقيلة تشابه ثياب العروس وتفتح كافة بيوت القرية صناديقها تفتش فيها لإلباس فتياتها وتزيينهن بعقود المحار ومرايل الخرز وأخيراً تركب كيتينى قارباً طويلا رفيعاً ، وقد توارى جمالها النحيل خلف ما تحملت به من ثياب وحلى ثقيلة ، و يمضى القارب متمهلا فى طرقات القرية فى موكب كبير وفى اليوم التالى تطوف القوارب بكل ما جمع من الساجو الذى يوضع فى أكوام عالية فى إحدى الجزر الصغيرة حيث يتسلمه الجانب الآخر وسط الخطب الرنانة .

وتظل ذكرى هذا الاحتفال ماثلة فى مخيلة الفتيات بعد أن يكبرن ، وحين يأتى ذكر يوم بلوغهن يحرصن جميعاً على تأكيد نفس الأشياء : عدد البنات اللاتى كن يبتن معهن ، والرشاش الذى أصابهن فى البحر ، وحجم الهدايا وطريقة عرضها وما قدم منها من أجلهن ، وكانت نجاليب المسكينة هى الفتاة الوحيدة التى بلغت قبل أن تعلن خطوبتها ، وعلى ذلك فقد كان الاحتفال الذى أقيم من أجلها غاية فى التواضع ، وتتذكر الفتيات حفل البلوغ على أنه حادث اجتماعى سار ، و يعتبرنه مثاراً للفخر والمباهاة بدون أن تقترن به أية ذكريات أليمة كالذكريات التى تصاحب الاحتفال بمناسبة لا تقل عن هذا أهمية وهى الاحتفال بزواجهن . واقتران حفل البلوغ بواقعة حيض الفتاة لا يبدو أنه على جانب كبير من الأهمية . فليس هناك من يعلق على عملية الحيض نفسها ، ولا يعلم عنها صغار الغلمان قليلا أو كثيراً فيما خلا الاحتفال الذى يقيم بمناسبتها ، أما تكرار حيض الفتاة فإن ذلك يصبح سراً تحتفظ به الفتاة فى مغاليق صدرها إذ أنه فى نظرها أمر مشين ، ولا صلة بينه و بين الحفلات العامة التى تقام لمناسبته وتبعث فى نفس الفتاة بالزهو والفخار . و يقام للفتيات حفل مشابه توزع فيه المشاعل ونشاء الساجو

غير الناضج ، وتلعب المياه فيه دوراً ويسمى مياندرا Memandra وهو حفل يقام قبيل عقد الزواج مباشرة .

وعند ما تثقب آذان إحدى الفتيات يتبادل أهل الأم وأهل الأب الهدايا ولكن هذا الحفل الذى سوف نقوم بوصفه وصفاً تفصيلياً عند معرض الحديث عن الأولاد ، يقل فى أهميته عن حفل البلوغ الذى يقام للفتيات .

و بعد أن تصل الفتاة إلى سن البلوغ وتتم خطبتها ، تتحدد محرماتها ولذلك فإن المتوقع أن تستقر وتستأنف أعمالها ، وتذعن صاغرة لما يفرض عليها من رقابة صارمة فإن أية شائعات تعنى فضيحة كبرى وتشنيعاً مبالغاً فيه . ومعظم الفتيات يؤثرن الاستسلام للأمر الواقع مثل نجالين Ngalen فيقمن بأعمالهن ويحلمن باليوم الذى يصبحن فيه زوجات فاضلات طيعات . ولا تستطيع أية فتاة أن تواصل إعلان العصيان طويلا . فطالما هى مذنبة فإن جميع أقاربها وأقارب خطيبها وخطيبها ، وشريكها فى الإثم ، وهى نفسها يكونون جميعاً معرضين للهلاك بفعل الأرواح الرقيبة الدائبة . ولكن إذا أغريت إحدى الفتيات فإنها سريعاً ما تجد نفسها شريكة فى جريمة جنسية ومن الأمثلة على ذلك حالة نجاليب Ngaleap فقد كانت فتاة ممتلئة القوام ضاحكة الوجه على قدر وفير من حسن الطباع وسرعة البديهة ورغماً عن بلوغها الثامنة عشر إلا أنها لم تكن تأخذ الحياة مأخذاً جدياً وقد خطبت هذه الفتاة لشاب يتبناه شخص فى قرية مجاورة ولم تكن قد رأت خطيبها أو سمعت عنه من قبل . وقد سئمت إلى درجة الهلاك اضطرارها لاختطاف طرحتها وإخفاء وجهها بها كلما مر شخص من قرية باتوسى ، حيث يعيش الخطيب ، ولم تكن باتوسى هذه تبعد عن بيرى بأكثر من نصف ميل ، ولذلك لم يكن ينقطع وفود الرجال منها و بالتالى كانت تضطر إلى الاختباء كلما أقبل واحد منهم فإذا كانت مشغولة بالصيد قطعت صيدها وفرت هاربة ، وإذا كانت فى زيارة لإحدى صديقاتها سارعت بمغادرة بيت الصديقة مما جعل حياتها لا تطاق ، ولما كان هؤلاء الرجال ممن تخالطهم طول حياتها فإنها لم تقتنع

بفكرة الاختباء منهم الآن وعدم مبادلتهم النكات كما كانت تفعل من قبل . ولذلك كانت القرية تنظر شذراً إلى سلوكها وتتهمها بالإهمال فى مراعاة محرماتها .

وحدث منذ سنتين أن قدم شاب يدعى كوندى Kondai فى زيارة لقرية بيرى وكان كوندى هذا شاباً طويل القامة ، حاد الطباع بلغ الثالثة والعشرين من عمره ولم يتزوج بعد ، وقد تعود على حياة العبث فوق إحدى المراكب التجارية حيث قضى عدة شهور يعمل بها . وقد حدث أكثر من مرة أن اضطر صاحب المركب إلى الإقلاع بها مسرعاً هرباً من غضب الأهالى الوطنيين لأنه سمح لكوندى بالنزول إلى البر . وكانت نجاليب Ngaleap تبيت فى دار عمها وفى صباح مبكر رؤى كوندى وهو يخرج متلصصاً من الدار . ولم يستطع أحد أن يثبت حدوث شىء بينه و بين الفتاة . ولكنها عوقبت وضربت بالسياط ضرباً موجعاً . وحدثت حالتا مرض عزيا إلى خطيئتها وأمر كوندى بالعودة إلى قريته ، و بعد مضى سنتان على هذا الحادث رسا المركب الصغير إلى جوار المدخل البحرى للجزيرة وتسللت نجاليب ، نجاولى Ngaoli وإحدى الأرامل التى كانت تعمل لدى الرجال البيض وذهب الثلاثة خلسة إلى حيث يرسو المركب فصعدن إليه وقضين ساعة هناك ، بينما أخذ كوندى القارب الذى جئن فيه وذهب للصيد . ولما عرف صاحب المركب هذا الخبر من غلمانه ، نقله بدوره إلى عم نجاليب . وقد أشيع أيضاً أن كوندى كان يعلن دائماً عزمه على الزواج من نجاليب . وانطلق العم ينادى على الفتيات الثلاث فى أنحاء القرية ، فجئن متعثرات يلتحفن بأوشحة التحريم ولم يعترفن بوقوع أية جريمة فيما عدا واقعة زيارتهن للمركب التجارى ، وأصررن على إنكار أى شىء خلاف ذلك . وثار العم ثورة عارمة وانطلق يصيح قائلا : « هذا المدعو كوندى ، لقد نالك من قبل . نعم إننى واثق أنه نالك من قبل . ولا زالت تفكرين فيه . ألم أحذرك من قوة سحره ، وأن تتحاشى مقابلته خلال وجوده بالقرية ؟ يا أيتها الفتاة الحقيرة لقد دفعت من أجل زواجك خمسة من الخنازير وألفاً من الساجو . من تظنين دفع لك كل هذا ؟ إنه أنا . أنا . أنا عمك . أين أبوك ؟ وأين أمك ، لقد ماتا .

فمن الذى يتكفل بنفقات زواجك إذا تخليت عنك ؟ لماذا تلطخين هذا البيت بالعار ؟ » .

أما أبو الفتاة الثانية نجاولى فقد سلك مسلكا مختلفاً . فقد كان رجلا ضئيل الجسم لا شأن له يذكر وليس على قدر كبير من الاتزان . ولقد تزوج خمس مرات ولم تحمل إحدى زوجاته أبداً ، أما إخوته فقد ماتوا جميعاً فتبنى هذه الفتاة . فلما سمع بواقعة المركب أصابته نوبات هستيرية فصار يرقص فى أنحاء الجزيرة ويعاير نجاولى بأنه آواها وأطعمها ورباها لجازته بإثم لا شك سيكون فيه هلاكه فستقتله الأرواح ، وسوف يموت ، وهو آخر رجل فى أسرته ، مذبوحاً بخطيئتها .

وبعد أن فرغ هذان الرجلان من سبابهما ، انضم إليهما أقارب آخرون من الرجال وشاركوهما فى السباب وزاد العدد وكبر الجمع وأخيراً كان جميع أهل القرية تقريباً متجمعين ، وقد التفت النساء بأوشحتهن ثم ذهبن إلى الفتيات المتهمات وصرن يلقين اللوم عليهن فى أصوات أكثر انخفاضاً من أصوات الرجال نظراً للعدد الكبير الذى كان محتشداً هناك . أما الفتيات الثلاث فقد وقفن صامتات وقد ظهر عليهن البؤس وليس لهن أى سلاح يدافعن به عن موقفهن . ومرت الأسابيع والفتيات يمضين فى طريقهن وقد نكسن رءوسهن وتحاشين ملاقاة بعضهن بعضاً . وظلت القرية تنتظر وتترقب ، ولم يمرض أحد ، وضعف وقع الحادث شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً . ولا بد أن الفتيات أقررن بخطيئتهن وإلا لما فات الأرواح أن تنزل عقابها على القرية . ولكن هذا الامتحان العملى لا يشفى النفوس الجريحة . فالفتاة البريئة تقف عاجزة حائرة أمام الأدلة الدامغة حين يمرض أحد أقاربها أو يموت . وسواء اعترفت بذنب لم ترتكبه ، أو أصرت على موقفها وأنكرته فإن مرض القريب أو موته دليل على ما لحق بها من عار .

ومنذ تاريخ البلوغ إلى يوم الزفاف لا تسهم الفتاة مساهمة كبيرة فى نشاط القرية : فهى تصبح أقل حرية ولكن أهميتها لا تزيد . وهى لا تعد طعام

الولائم ، ولا تقوم بأية صفقات ، وفى حفل تبادل الهدايا لا يزيد دورها عن التزين والتحرك بحساب كما لو كانت إحدى الدمى ، وما لم يصادفها أحد الشبان المستهترين فيتسلل خفية إلى بيتها ، أو يقتنصها بين أشجار الساجو والنهر ، فقد تمضى بها السنوات من لحظة بلوغها إلى يوم زواجها بلا حادث ذى بال . وكل ما تقتل به الوقت هو أن تزيد خبرتها عن نبات الساجو ، أو تتعلم حياكة القش أو تتم بعض مصنوعات الخرز ، أو تصيد السمك أو تخرج لجلب المياه والأخشاب .

وهى ترى وتسمع ممن حولها ، ومن وراء إطار الخرز الذى تضعه فوق رأسها وخلف أكتافها وهى مكبة على عملها ، كلا ما يدور حول تبادل الهدايا وعن تخطيط المشروعات ، وعن الاقتراحات القلقة وثرثرة عن السوق . وهى لا تساهم فى كل هذا ، كما أنها لا تتلقى أى تدريب مباشر ولكنها تتشرب يوماً بعد يوم أسرار حياة الكبار فتتعلم علاقاتهم ، وتاريخهم الاقتصادى القديم ، والمسؤوليات المفروضة على كل فرد فى المجتمع . وحين يقام أحد الاحتفالات فإنها تشهده مرغمة لأنها تعمل بالبيت ، وهى تراقب السحرة يخمرون الأوراق ويبصقون عصير البندق ، وقد استحال إلى لون الحناء ،فوق المرضى . وهى ترى دهاناً أحمر يجلب الثروة يصب فوق رأس العروس أو العريس كما أنها تساعد فى تزيين أخواتها المتزوجات أو زوجات إخوتها فى حفلات الميلاد .

ونظراً لأن ساعات نومها تقل عما كانت عليه وهى طفلة خصوصاً وأنه لم يعد مسموحاً لها بالخروج فى أية ليلة مظلمة ، فإنها تستلقى مستيقظة ، تستمع إلى مناجاة الأحياء للأرواح ساعات بأكملها .

وليس فى استطاعتها أن تتعلم فن الوساطة بين الأرواح والأحياء كما أنها لا تستطيع أن تساهم فى المبادلات التجارية . لأن الزواج شرط أساسى فى العمليتين ومع ذلك فهى مجبرة على أن تصغى وتستمع .

وهكذا تقضى الفتاة ثلاثة سنوات أو أربعة وهى مجرد متفرج مقيد غلب عليه الضجر . وخلال تلك السنوات تحفظ تقاليد مجتمعها عن ظهر قلب ، ولذلك

نجد أن معلوماتها عن الزواج تفوق معلومات زوجها بكثير وخصوصاً لأن دور المرأة فى الحياة الاقتصادية دور خاص . فعليها يقع عبء تخطيط المشروعات وحساب الديون حساباً ذهنياً . كما أنها تقوم بالمناقشات الشخصية الودية فيما يتعلق بالممتلكات ، ويعتمد الشاب والرجل الذى يكون حظه من الذكاء قليل على دهاء زوجته ، ومعلوماتها الخاصة وحصافتها فى تدبير شئونه . ولذلك فإن العروس الشابة التى لم يسبق لها أن قامت بطهى الطعام فى الولائم تأخذ مكانها بين أخوات زوجها بدون أى تباطؤ فقد رأت كل لون من ألوان الطعام يصنع أمامها مئات المرات . كذلك تشرف الزوجة على اختيار حبات الخرز وأصناف الطعام لوليمة المبادلة بثقة كبيرة . ولا عجب فقد قضت أربع سنوات أو خمس تتعلم عن طريق التأمل .

وهذه السنوات من حياة الفتاة هى فى العادة سنوات هادئة خالية من أى توتر أو إثارة مادام لم يتدخل فيها عقاب بسبب مغامرة جنسية عابرة . كما أن تلك السنوات لا تعتبر سنوات سلام وتفتح لشخصية البنت ، وإنما هى سنوات ترقب وانتظار ، وهى سنوات خاملة لا يميزها إلا كونها معبر بين مرح الطفولة السعيدة وبين مسؤوليات الزواج . وفى كثير من المجتمعات نلاحظ أن سنوات المراهقة المتأخرة تكون مجالا لنوع من التكيف الجنسى الإيجابى فمثلا قد يكون هذا التكيف على شكل علاقات غرامية متعددة كما هو الحال فى ساموا ، أو فى صورة دراسة هادئة للحياة الاجتماعية كما هو الحال فى مجتمعنا ، أو فى صورة بعض أساليب سلوك جرىء فيه شىء من الخلاعة كما يحدث عند بعض الفتيات فى المجتمعات الغربية ، ومهما يكن الأمر فإن وسائل اجتذاب الجنس الآخر تحتل لدى هؤلاء جميعاً مكاناً هاماً . أما فى مانوس فالفتاة ليست فى حاجة للبحث عن زوج ، فهو موجود ، وهى لا تستطيع أن تبحث عن حبيب ، كما أنها محرومة من عقد أواصر صداقة وثيقة مع غيرها من الفتيات . وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تنتظر ، ونراها تكبر ويزيد طولها ، وتنضج أنوثتها ، وتصبح رغماً عنها أكثر دراية بما يدور فى عالمها .

الفصل الحادى عشر

الشاب المراهق

لا تقام ثمة احتفالات خاصة ببلوغ الصبيان فى مانوس ، ولكن فيما بين سن الثانية عشرة والسادسة عشرة يحتفل بثقب أذنى الغلام ، متى سمحت ظروف أسرته المالية . وتقوم حفلات عيد ثقب الأذنين بسد نفقات العيد الفضى الذى أقامه الأب وقدم فيه المنح والعطايا . ولا يهم جسم الولد ولا سنه فى تقرير تاريخ ثقب أذنيه فقد يعود الولد يوم من لهوه مع أصحابه فيخبره والداه أنهما اعتزما ثقب أذنيه فى ذلك الشهر ، فإذا كان هو أول من يمر فى هذه التجربة من أقرانه ثار وأرعد . وقد يلين الأب ويستسلم لمعارضة إبنه ولكن العادة جرت أن يصر الأب على موقفه . وفى هذه الحالة يحضر إلى البيت وفد مؤلف من زوجات إخوة الأم ويقمن معها بالبيت أما عائلة الأب فتنهمك فى إعداد طعام الولائم ويرتدى الغلام أفخر ثيابه — فتبرق أسنان الكلاب حول عنقه الصغير ، ويلبس رداءً جديداً ضخما يشير إلى أنه موضع اهتمام خاص ثم يجلس بجوار أبيه منتصب القامة ، مستقيما وهو متردد بين ما يحس به من حرج واضطراب وبين زهوه بالمناسبة . ولا يحضر أصحابه هذا الحفل فهو قاصر على الكبار وصغار الأطفال فقط . ثم تأخذه عماته من يديه وينزلن به السلم إلى المرساة . وهناك يقوم خاله بثقب أذنيه بقطعة مدببة من الخشب . وبعد ذلك توضع فى الثقب شظية صغيرة من الخشب كما تحمى الإذن نفسها بقطع من لحاء خشب الساجو . ومنذ تلك اللحظة يوضع الصبى تحت نظام صارم من المحرمات . فمحظور عليه أن يستعمل السكين فى قطع أى شىء ، ومحظور عليه أن يشعل النيران ، ومحظور عليه أن يستحم خمسة أيام كاملة . ومحظور عليه أن يأكل الطعام مالم تقم زوجات خاله بطهيه له ، وإذا غادر الدار فعليه أن يجلس منتصباً مزهواً فوق حافة القارب

فى حين يحذف الصبية الآخرون له . و يبهر أصحابه بغرابة أحواله ولذلك فهم يرحبون بالتجديف له . وهم يحضرون له كل ما يمكنهم الحصول عليه من تبغ . وفى نهاية الأيام الخمس ، يستطيع أن يستحم وأن يتحرك فى حرية فى أنحاء القرية . أما سائر الممنوعات فتستمر مطبقة عليه إلى أن يقيم أهل أمه حفلا كبيراً يدعون إليه أقارب أبيه . وحتى يقام ذلك الحفل تظل أذناه فى حظر مالم يحترم ما عليه من محرمات و يطيعها .

و يلاحظ أن الفتاة المراهقة تحتاط فى مراعاة ما عليها من محظورات لمجرد الخوف من أن يصيبها شر إذ أهملت فى أحدها . أما فى حالة ثقب الأذن فهذه الإجراءات الوقائية ليست واجبة سواء من الصبى أو الفتاة . فهو إذا أهمل ما حرم عليه انقطعت أذناه وشوهتا إلى الأبد . ولن تكون حلمتا أذنيه طويلتين مثقلتين بالزينات . وعلى ذلك يكون الغلام طيعاً ، يمشى فى حذر كمن بدأ يستخدم قدماً مكسورة بعد أن ظلت موضوعة فى الجبس شهراً بأكمله . وخلال هذه الفترة لا تلقى إليه أية تعليمات ، ولا يشعر إنسان بأنه كبر عما كان ولكنه يظل جامداً رغبة فى الجمال لاغير .

و إذا تباطأ أقارب الغلام فى إقامة الحفل أعلن تذمره وعند إقامة الحفل يحمل الغلام فى قارب ملىء بالنساء مثل جدته لأبيه وعماته و بنات عمومته و يذهبن به إلى جزيرة العائلة ، حيث تنادى جدته أرواح الأسرة لتباركه ، وتهبه القوة فى الحرب والمهارة فى المبادلات والنشاط فى الاقتصاد و بعد ذلك يخلى سبيله و يترك ليذهب إلى أصحابه ، ولا يطالب الغلام بواجبات جديدة ، ولا يلقن أى معلومات جديدة بل يعود ليلعب قفزة الضفدع فى الجزيرة الصغيرة ، أو ليتسابق مع رفاقه فى ضوء القمر ، أو ليصيد السمك فى مصفاة من نسيج دقيق الصنع . وحين تلتئم جراح أذنيه فإنه يلصق بهما لفافات من أوراق الشجر من قبيل التأنق . و بعد ذلك يكون الغلام الذى عليه الدور فى ثقب أذنيه أقل مقاومة للعملية .

و يظهر فى حياة الصبى الذى بلغ الخامسة عشرة من عمره نوع واحد من التغيير — فإن الجماعة التى يلعب معها والتى يسيطر عليها و يتزعمها هو وثلاثة أو أربعة من أقرانه تخلو من البنات المماثلات له فى السن . و بدلا منهن يجب أن يتزعم فقط من بلغن الثانية عشرة ، وأن يطارد و يزعم أنه قبض على طفلة تترنح فى العاشرة من عمرها . ومن السهل عليه أن يسوس جماعة فى هذه السن عن الجماعات الأكبر من ذلك .

أما البنات من نفس سنه واللاتى نضجن جسمياً واشتدت سواعدهن ، وأصبحن سليطات اللسان ، و يعتبرن حجر عثرة فى طريق سيادته وسيطرته فقد ذهبن جميعاً . و بقى صغار الأولاد وهم و إن يكونوا مستقلين إلا أنهم له عبيد مخلصون . وليس أمام الأولاد أى عمل يقومون به فيما عدا نفس الألعاب القديمة وتتحول صداقاتهم إلى علاقات أكثر متانة . وهم يتجولون فى أزواج و يمارسون ذلك النوع من الجنسية المثلية المألوف فى الطفولة . وكثيراً ما يتخاصرون ، و يتهامسون بالحديث و يتقاسمون المخابىء الخفية التى يخفون فيها التبغ .

وقد تنفصم هذه الصداقات إذا تصادف وغاب واحد من الولدين كأن يذهب فى رحلة بعيدة مع والده أو يذهب لصيد الترسة مع جمع من الشبان و يكبر الصبية وتشتد أعوادهم ، وتزيد أوزانهم و يبرعون فى الملاحة وفى التسابق بزوارقهم حول البحيرة ، فقد تعلموا دقائق الملاحة وأصبحوا كفؤاً لحياة الكبار ولكنهم ليسوا مطالبين بالإندماج فيها .

وعندما يقترب سن الشاب من السادسة عشرة أو السابعة عشرة يبرز حد فاصل بين أسلوب الحياة القديم و بين حياة المراهق الجديد . فمنذ عشرون عاماً مضت أى قبل وجود حكومة جزر الأميرالية كان شباب تلك المنطقة على دراية وحذق بفنون الحرب . فهم مدربون على رمى قذائف من الحراب المدببة فتصيب مقتلا فى الحال ، كما أنهم مدربون على مراوغة الحراب التى تصوب نحوهم . كان

الشبان إذ ذاك جمعاً من المغامرين ، المتلئين حيوية المتعطشين للأخطار . وكان الدافع على الحرب موجوداً ، ولم يكن للمعارك الاقتصادية التى يقوم بها الكبار أى اعتبار عند أولئك الشبان ، كما أنهم لم يكونوا يعبأون بتحرى الأسباب التى تفرض على الكبار قتل أحد الأشخاص أو على الأقل أن يأخذوه أسيراً طمعاً فى الفدية .

ومع ذلك كانوا يرحبون بقيادة كبار الرجال لهم فى الحرب المجرد التسلية ، أو لمحاولة اختطاف إحدى النساء . ومع أن الأرواح تحرم عليهم مطارحة الغرام لنساء أهل القرية ، إلا أنها مثل معظم الآلهة هناك لا تهتم بنساء الأعداء . ولذلك كانت بنات قبائل اليوساى Usiai والبالوين Balowin ورامبوتشن Rambutchon فرائس طيبة . كذلك كانت بنات القرى الأخرى من جزيرة مانوس حرماً مباحاً لهم مادام هناك عداء بينهم وبين سكان تلك القرى ، وهكذا كان كبار الرجال يقودون شراذم من الشبان للقتال ، وكان الشبان يقومون بذبح الأعداء ، ثم يختطفون امرأة من قرية العدو متزوجة كانت أو غير متزوجة ، ويذهبون بها إلى إحدى الجزر الصغيرة حيث تسير نساء القرية كل يوم فى أمان واطمئنان وحيث الفتيات الصغيرات يرقصن ويلوحن بالجونلات القش كالأعلام المشرعة . أما تلك الأسيرة البائسة فإنها تغدو فريسة لكل رجل فى القرية شاباً كان أم رجلا . ويسكنها الرجال فى بيت الشبان ، أما الشخص الذى تولى مهمة اختطافها فيقوم بجمع ثمن الاعتداء عليها من كل من يرغب فيها . وأحياناً يأخذها ويطوف بها أنحاء القرى الصديقة ويجمع من ورائها النقود . ويلبسها الرجال ثياباً مزركشة نكاية فى نسائهم اللاتى يستنكرن العمل من أوله ويخالفن رأى الأرواح فى أن المسألة لا غبار عليها .

وحينما ذهب الرجال ذهبت معهم تلك المرأة البائسة وهم لا يجرأون على تركها فى أى مكان وإلا تعرضت لأذى نساء القرية ونقمتهن . ولكن الرجال

لا يحاولون أن يرقوا لحالها فهم لا يظهرون لها أى عطف أو تقدير . ومن العسير أن أستطيع وصف السم الذى يقطر من أفواه النسوة المتزوجات اللاتى بلغن الخامسة والثلاثين أو الأربعين وهن يصفن ما يكتنف حياة المومس من بؤس وشقاء . فإن الرجال يصبون عليها حقدهم على النساء ، ذلك الحقد الذى أثاره برود زوجاتهن والإرهاق المادى الذى يحمله الزواج . أما الشبان فهم ينفسون عن كل الطاقة المختزنة التى حرمت عليها مباهج الحب والمغازلات . وتهرم المومس وتشيخ بعد عام أو عامين ، وقد تحل محلها مومس جديدة . وإذ ذاك يخلى سبيلها ويسمح لها بالعودة إلى ديارها حيث تموت عادة بعد فترة قصيرة . وأحياناً تموت فى الأسر قبل أن تعود إلى قريتها .

فكانت الحرب ورقصات الحرب ، والعبث القاسى مع عشيقة رغم أنفها ، يستنزف طاقة الشبان فى الأزمان الماضية قبل أن يتزوجوا . ولم تكن السنوات التى تتخلل البلوغ وسن العشرين أو الثانية والعشرين تستغل فى التدريب على أى عمل نافع ، أو فى الإحاطة بتقاليد المجتمع وعاداته . ولم يكن للشبان عمل يقومون به إلا لماماً ، كأن يسهموا فى خلع سقف من البوص ، أو فى بناء بيت تشترك فيه كل القرية ، فكان الشبان إذن عبارة عن مجموعة من الأمصال القاطعة العابثة الصاخبة . فهم مصدر فزع لفتيات القرية وسياط لتأديب القرى الأخرى .

أما اليوم فقد تغيرت الحال تغيراً تاماً . فالحرب أصبحت ممنوعة ، واختطاف النساء ممنوع ولم يعد بيت الشبان إلا مجرد مكان ضيق يجتمع فيه شباب القرية فيركلون أرضه بأقدامهم فى صمت أو يتندرون على نشاط الكبار ويقلدونه فى سخرية مضحكة . أما الحراب فلم تعد لها فائدة إلا فى الرقص وغدت المشاحنات مع سكان الأحراش من اختصاص المحاكم . غير أن المجتمع لم ينجح بعد فى أن يحل مشكلة البطالة عند شبابه ، وقد قام الرجل الأبيض بهذه المهمة عنه ، فجمع

الشبان يسافرون بعيداً للعمل — أحياناً لمدة عامين وأحياناً لمدة خمسة أعوام وقد تمتد إلى سبع حيث يعملون عند الأوروبيين .

وهذه هى المغامرة الكبرى التى يتطلع اليها كل شاب ، ويهيىء نفسه لها فيتكلم الانجليزية الركيكة ، ويصغى بشغف إلى أحاديث الشبان العائدين . ويحاول الصبية فيما بينهم أن يقلدوا عادات الشبان العمال ، كأن يؤسسوا شركات فيما بينهم لاقتسام المكاسب ، فالجماعة التى كانت تشتغل عندنا وكلهم فى الرابعة عشرة من عمرهم كانوا يتقاسمون نصيبهم الأسبوعى من التبغ كما يفعل العمال ، ونظراً لعدم وجود بنك أو أى وسيلة أخرى لادخار النقود ، فإنهم كانوا يقتسمون رواتبهم كذلك . ولما كان راتبهم الشهرى يتراوح بين خمسة قروش أو عشر للفرد وهو مبلغ تافه لا يستطيع الشاب أن يشترى به شيئاً ذا قيمة فإنهم كانوا يجتمعون ويتفقون على أن يقبض كل منهم جملة الرواتب الشهرية على التوالى والنتيجة أن الولد الواحد كان يقبض أربعين أو خمسين قرشاً يستطيع أن يشترى بها بطارية أو مطواة أو صندوق خشبى . وكان نفس النظام متبعاً فيما يحصلون عليه من تبغ .

ولا يكف الشبان فى بيت الشباب عن التحدث عن أنواع الخدمات ومزايا العمل عند الانجليز والصينيين وأهل الملايو . وأقصى آمال الصبى الصغير واحد من ثلاث أن يعمل ضمن بحارة إحدى المراكب التجارية ، أو لدى واحد من البوليس أو يشتغل مربية أطفال . فعن طريق العمل الأول يستطيع أن يرى العالم وعن طريق الثانى يحصل على المركز والسلطان ، أما العمل الثالث فيجعله يجتمع بأحب الأشياء إليه وهى الأطفال ، كذلك يحتمل أن يذهب إلى سيدنى . وحين يعود الواحد منهم إلى قريته محملا بمشتريات دفع فيها أجر ثلاث سنوات تدق الطبول وتقام حلقات الرقص ويسود المرح من أجل كل هذه الهدايا . وعلى الشاب أن يكون كريماً فى توزيع هداياه على الكبار من أقاربه ، فإن لهم الحق الأول فيها لأنهم واروا موتاه التراب ، ودفعوا مهر عروسه .

وكان من العسير علينا أن نتتبع هؤلاء الغلمان خلال أعوام اشتغالهم . فبعضهم كان يعمل مع البوليس وحين عاد إلى القرية زاد تقديره واحترامه للسلطة وتعلم نظام الحكم الذى يسير عليه البيض ، كما تعلم احترام الوقت واحترام المجتهد ومثل هؤلاء الشبان يعملون عند عودتهم ممثلين للحكومة ، ويظهرون نشاطاً مرموقاً فى علاقاتهم المستقبلة مع مندوبى الحكومة ، وفى معالجتهم لأمور القرية أما البعض الآخر فكان يعمل فى الإقطاعيات المنعزلة وكان ينام ويأكل مع جماعة من أهل قريته . وهؤلاء يعودون إلى القرية ولم يستفيدوا فائدة تذكر من غربتهم . أما أولئك الذين كانوا يعملون بالبواخر التجارية فى جزر الأميرالية ، فيعودون وقد اكتسبوا قصاصات من اللغات الأخرى وبعض الأصدقاء من القرى المجاورة ممن يصبحون ذوى فائدة لهم فى المعاملات التجارية . ويخشى أى شاب من هؤلاء أن يعود وحيداً إلى قريته قبل باقى رفاقه . ولذلك نسمع هذه الرسالة تتردد من جزيرة إلى أخرى « ما هى المدة التى تعاقدت عليها ؟ » فيجىء الرد « سنة واحدة » وعلى ذلك فإن الشاب الذى يتلقى الرد يتعاقد على سنة واحدة فقط . وهكذا عن طريق إحكام خطتهم تعود جماعة تتألف من ثلاثة أو أربعة إلى القرية فى وقت واحد وتدق الطبول لأكثر من كومة من صناديق الهدايا ، وأقمشة التجارة .

وتختلف التجارب الجنسية التى يمارسها الشبان خلال غيبتهم عن القرية كما تختلف سائر تجاربهم الأخرى فبعضهم يذهب إلى رابول Raboul حيث توجد قلة من النساء ينقلبن بحكم الظروف إلى عاهرات . أما البعض الذى انعزل فى الإقطاعيات فيتجه إلى ممارسة الجنسية المثلية ، وهؤلاء يتركون الإقطاعية بعد انتهاء عقودهم فيها آسفين محزونين . فإن ما يتبادلونه من تعاطف وحب وتسامح واقتسام للنقود وكل ما يخلو منه الزواج فى قريته يتمثل فى علاقات الشبان هناك بأجلى معانيه . ومثل هذه العلاقات لا يمكن تجديدها عندما يتزوج الشاب فى مانوس حيث تحوطه القيود والمحظورات .

وكثير من الشبان يتعلمون بعض السحر ويدفعون بعض ما يكسبون ثمناً لتعويذة تسبب المرض وتشفى منه ، أو للاستحواذ على قلب امرأة أو لابتزاز أموال الناس . وهكذا يعود الشباب إلى قريتهم وقد حملوا معهم قليلا من الخبرة الأجنبية وقليلا من العلم ، وبعض الأشياء المادية ، وعدد من ريش عصفور الجنة وعظام النعام وسلال من بوكا Buka ، وأكياس من نينجوز Ninigos ودراية بخصائص كلورور الزئبق ، وحقد عميق على أهالى الملايو ، وسبحة ، وبعض الصلوات والأدعية بالانجليزية الركيكة ، وعدد من الملاعق والشوك المسروقة وصناديق قديمة من خشب أشجار الكافور ، وقد حفر على غطائها الحروف الأولى من اسم أحد رجال الجنس الأبيض ، وصورة ممزقة لواحد كانوا يشتغلون عنده . لقد عاشوا أعواماً ثلاثة فى عالم كله رجال ، عالم له عاداته ونظمه الخاصة واقتصادياته وأعياده ومعاركه وأساطيره ، وكل هذا لا يمت إلى القرية بصلة وإنما مرتبط بما تعلموه من خليط لغوى ، ومن ثقافة عمالية يستخدمون فيها الانجليزية الركيكة ، وقد اعتادوا تدخين التبغ ، والتعامل بالشلنات ويدعم من قوة وحدتهم فى غربتهم شعورهم القوى الذى زكى فى غربتهم بأنهم مختلفين عن الجنس الأبيض ، أما التجربة العاطفية الأساسية فى ذلك العالم فهى تجربة الحب بين أفراد الجنس الواحد ، وتدور أقاصيص ذلك العالم حول عالم البيض وما يقوم به الناس الغرباء من أعمال السحر ، ككرة البلور التى يستخدمها أهل سالاموا لتصيب بالمرض أو تشفى منه ، أو قد يحكون ما حدث لذلك الغلام القادم من بوكا عندما سرق زجاجة من الكونياك ، أو يذكرون تلك المرأة من سانت مانياس التى ماتت بسبب سحر خفى وصفه لها شاب من ايتاب Aitape ، كما يتحدثون عن عادات أهالى غينيا الهولندية الغربية والذين كانوا لا يستطيعون زيارة زوجاتهم إلا خفية ، أو قد يقصون قصة شاب من كيتا Kieta يملك تعويذة تجعل النقود التى دفعها لصاحب الحانوت تنتقل من خزانة المحل المغلقة إلى

صاحبها الأول ، أو حادث ذلك الرجل الذى ضرب شاباً من مانوس ثم وجد فى اليوم التالى مذبوحاً بسكين شبح والد الغلام المجنى عليه .

إنه عالم كثيراً ما يشعر الشاب فيه بالوحدة والاشتياق للوطن ، والإرهاق والجوع والحزن والانكسار والفزع ، كما أنه كثيراً ما يشعر فيه بطيب العيش والمرح ، وتكوين صداقات جديدة والقيام بمغامرات مثيرة ، فهو عالم ليس بينه وبين الحياة التى سيحياها بعد عودته إلى القرية أى تشابه . ولذلك فإن عمله خارج القرية لم يهيىء له إعداداً أصلح مما كان يتهيأ لأجداده عن طريق الحرب واغتصاب النساء فى الأزمنة السابقة . وبالإضافة إلى ذلك فإن كبار أهل القرية ممن يقبضون على زمام إقتصادها ولهم السلطة العليا فيها لم يذهبوا فى شبابهم للعمل خارج القرية ، ولذلك فقد كانت أحاديثهم تدور عن الحرب لا عن عالم الرجل الأبيض ؛ وقد وجب على الشباب إرضاء لأولئك الزعماء أن يتخلوا عن كل ما تعلموه من الانجليزية الركيكة فيما عدا بعض الاصطلاحات القليلة التى يفهمها الجميع حتى النساء مثل « work » ، « Sunday » ، « Christmas » ، « flash » ، « grease » ، « rice » . وفى عالم الجنس الأبيض كثيراً ما مارس أعمال السحر الشريرة التى قد تؤذى الناس ولكن مما يهون عليه الأمر أن الأرواح لم تكن تحاسبه على آثامه ولا جرائمه الجنسية . وهكذا يجد الشاب نفسه بعد عودته فى عالم غريب عليه يسبب له ذعراً خفياً لا يدرك سببه ، ولكن لا يستطيع أن يتجاهله فالأرواح التى تخلص منها ثلاث سنوات عاد فوجدها تهتم بالهدية التى أهداها سراً لكوماتال التى طال عودها وازدهر شبابها وهو غائب .

وتحتفل العائلة بعودته فتقيم حفلاً تجمع فيه بين بركات الأسرة وتعاويذها مع عيد العودة وتسمى البركات تشانى tchani أما الحفل كله فيطلق عليه اسم مختلط من اللغتين وهو عيد الوقت الذى انتهى "Kan-he-finished-time" — ويعد الطعام ويرسل إلى العائلات الأخرى التى سبق لها الاحتفال بنفس المناسبة فى الماضى . ويطعم الشاب حسب التقاليد بنشاء التارو ، ويقوم بإطعامه جده

لأبيه أو جدته أو عمته ، على حين تنشد هذه الرقية فوق رأسه :

كل هذا التارو

ودع فمك يتجه إلى أسنان الكلاب

ودع فمك يتجه إلى نقود المحار

إن نقود المحار قليلة

فاجعل التارو يدير فمك ناحيتها

ناحية الثروة

ناحية الجاه

ليتجه الفم ناحية المعاملات الصغيرة

فى اتجاه إهداء الطعام

دعه يكن صانع المعاملات الاقتصادية الكبيرة

دعه يفوز على الآخرين

من الأخوة الذين يوجدون معه

دعه يأكل من هذا التارو

دعه يصبح غنياً بأسنان الكلاب

فيجمع الكثير منها —

ويتجه إلى جمع مال كثير من قروش المحار .

☆ ☆ ☆

ويطعمه الشخص الآخر من التارو ، ويعطيه قطعة كبيرة يتعذر على الغلام

أن يحتفظ بها فى فمه . ثم يطوى قطعة أخرى فى يده ويقول منادياً أجداده وأسلافه : باواسو ، ساليناو ، پوتيك ، تشولاى : هيا أقبلوا

فإن التارو ملكى وملككم

إنى أهبه لابن پولو

وأهبه لابن نجامل

سوف يمتلك الثراء

بين كل أفراد عائلته

دع مانوى يصبح غنياً

ودعه يمشى داخل البيت بوقار

ويجب ألا يمشى فوق اللوح الأوسط

بل يجب أن يمشى فوق الثقوب وهى تقرقع

ويجب أن ينتظر تحت بجوار المرساة

ويجب أن ينادى ليسمح له بالدخول

ويجب أن ينادى معلناً حضوره للنساء

حتى يقفن ويستقبلنه

وبعد ذلك يمكنه الصعود إلى داخل البيت

دعه يأكل من التارو

دعه يترفع عن كل شر

أرجو أن يرتفع قدره مثلى

إنى أعطيه التارو مع قوة الحرب

وأنا الآن لم أعد مقاتلا

إنى أعطى هـذا التارو لحفيدى

فدعه يأكل هـذا التارو

إنى أنا الأكبر سناً وأبوك هو الأصغر

وإنى أمررها لهذا الغلام

أعطيه التارو ليأكله

أعطيـه القوة

فيذهب إلى الحرب

فليـكن جريئاً لا يخشى شيئاً

فليكونوا عشرين رجلاً

أو يكونوا ثلاثين رجلا

ولكنه سيخيفهم جميعاً

وسيثبت فى مكانه

وسوف يقف متحفزاً

وسوف يرونه

وسوف يسقطون حرابهم

وسوف يسقطون فؤوسهم الحجرية على الأرض

وسوف يفرون منـه

دعه يأكل من التـارو

إنى أعطيه التـارو وسوف يأكله

دعه يحيـا . يحيـا طويلا

حتى تعجز عينـاه عن الأبصار

كما عجزت عينـاى

دعه يكبر إلى عمر طويل مديد .

فهذه الرقية تباركه كما تبارك الرقية المماثلة الفتـاة المراهقة . وهى تعطيه القوة التى تمـكنه من أن يحقق المثل العليا لـكبار أسرته من كفاح يقوده إلى الثراء ، وسلوك جنسى قويم وشجاعة وقت الحرب ، وصحة قوية .

وليس هناك أية محرمات مرتبطة بهذا العيد ، وليس هنـاك أية واجبات مالية هامة فهو عيد عائلى للبركة . ويمضى الشاب فى سبيله كما كان من قبل ، وهو لا يزال أعزباً ، ولا يزال حراً من القيود المـالية والاجتماعية ، ومع ذلك فشبح الزواج المرتقب يطل عليه .

الفصل الثانى عشر

انتصار الكبار

تعرضنا فى الفصول السابقة لوصف الطريقة التى تطورت بها الطفلة الصغيرة من بنت مرحة أشبه بالأولاد إلى فتاة كاملة . فقد بدأت هذه العملية فى وقت مبكر وتمت فى منتصف العقد الثانى ولم تكن عملية صعبة . ولكن ترويض الشبان أكثر صعوبة فقد منحوا حرية أكبر من الفتيات . فالصبى الصغير الذى صفع أمه على وجهها وطلب أوراق الفلفل من أبيه ثم رماها إليه ثانية فى غضب حين أعطاه الأب نصف واحدة ، والذى أبى إنقاذ أسنان الكلاب حين رجته أمه وأخرج لسانه حين أمر بالبقاء فى البيت ، وسبح بعيداً تحت الماء . هذا الغلام كبر وأصبح رجلا تلازمه صفات العصيان ، وعدم التعاون وعدم الشعور بالمسئولية . لقد قضى سنى عمره فى عالم خيالى ، نظمته صناعات لم يتعلمها ، وربطته معاملات وعلاقات تجارية لا يدرى عنها شيئا ، وسيطرت عليه أرواح كان يتجاهلها . وإذا كان لهذا العالم أن يواصل وجوده فعلى ذلك الشاب أن يتعلم كيف يساهم فيه وأن يلعب الدور الذى قام به أجداده من قبل . إن عالم الكبار يواجه جماعة غير متجانسة ، جماعة تتكلم لغته ولكن فى اصطلاحات تستعمل للهو واللعب ، وتعرف آلهته ولكنها لا توقرهم ، وتحتقر كل نشاط مبعثه جمع الثروة .

ولا يواجه مجتمع مانوس هذا الموقف مواجهة واعية أو عن طريق التصرف الجمعى . والأغرب من هذا تلك الإهانات غير المتعمدة التى ابتكرها ذلك المجتمع . فلكى يخضع أحد الشبان فإنه يستغل شعوره بالخزى الذى تكون فى سن الثالثة ، ولم يتطور كثيراً بعد ذلك . فقد تعلم صغار الأطفال أن يشعروا بالخجل من أجسامهم ومما يخرجونه من فضلات . كما تعلموا أيضاً الخجل من

الأعضاء الجنسية . لقد أظهر الكبار استنكارهم وحرجهم وثورتهم ، فاستجاب الطفل لهم . ولما أصبح الأطفال شباناً ، استجابوا بنفس الطريقة للمحرمات المرتبطة بالخطوبة والزواج وما يتعلق بها من تقاليد مصطنعة .

ويتعلم الصبى الصغير ألا يأكل فى وجود زوج أخته أو فى حضور خطيبة أخيه . فالناظر إليه سواء كان زوج أخته أو زوجة أخيه يعبر عن نفس علامات الاستنكار ، وعدم الارتياح والشعور بالحرج مما سبق أن أبداه والداه من قبل حين أراد أن يتبول علانية . فعادة الأكل أمام أقارب معينين تدخل فى نطاق الأشياء المعيبة . كذلك يشتد ارتباك الصبى إذا جاء ذكر زواجه . فصبى الرابعة عشر ، يفر من البيت كما لو كان عذراء فوجئت بشخص غريب يدخل عليها وهى عارية فى الحمام إذا حاول شخص ما أن يريه صورة أخت زوجته . وهو يهرول منصرفاً إذا وجد أن الحديث قد بدأ يتجه ناحية قرية عروسه .

وكل هذه الأشياء تنطبق على البنات أيضاً ويضاف إليها وشاح التحريم الذى يجب أن تلتف به دائما وإخفاء عملية الحيض والتكتم عليها . ولا تمنح الفتاة هدنة بالنسبة لمراعاتها هذه المحرمات فهى دائما مقيدة بها ، تشعر بالخزى والحرج أكثر من الشباب ؛ ويبدأ هذا السلوك منذ اليوم الأول الذى تضع فيه ذلك الوشاح فوق رأسها إلى يوم زواجها حين تجلس فى قارب العرس ساكنة صامتة وقد أثقلت بالحلى ونكست رأسها إلى ركبتيها تقريبا .

أما فى حالة الشبان فهناك فترة من الحرية فعندما يبلغ الغلام سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة فإنه يكون قد أتم جميع تدريباته السابقة ، ولا يضاف إليها محرمات جديدة يجب أن يحفظها عن ظهر قلب . وكما كان الحال فى سالف الأيام فى عهد الحب والحرب أو فى مغامرات العمل لدى الجنس الأبيض نجد أن تقاليد الكبار لا تفرض عليه فرضا أكثر من ذى قبل . غير أنه يستمر فى الشعور بالخزى والحرج لنفس الأسباب ، وقد أصبح ذلك الشعور آلياً عنده بمضى الوقت .

وإذا حان حين زواج الشاب ، فإن أصحابه يستعدون ، كما يستعد أبوه أو أخوه أو عمه أو قريبه الذى سوف يتكفل بالمسئولية الاقتصادية الأساسية وهى تجهيز قيمة المهر وهى عادة عشر آلاف من أسنان الكلاب وبضعة مئات من مكاييل قروش المحار . أما العريس فلا يكون مستعداً بأى شىء . فهو لا يملك بيتاً ولا قارباً ولا أدوات للصيد . كما أنه لا يملك نقوداً ولا أثاثاً ولا يعرف سبيل الحصول على أى من هذه الأشياء .

ومع كل ذلك فلا بد من أن تكون له زوجة ، والزواج ليس ضد إرادته فإنه يدرك تماماً أن من يتزوج متأخراً يكون حظه أسوأ ، وقد سمع كثيراً أنه محظوظ لأن زواجه أمر مفروغ منه ، وهو يعرف أن الزوجات شىء نادر وأنه حتى على مستوى حياة الأرواح توجد مشاحنات مخزية حول النساء حتى أن الأرواح تتقاتل على روح المرأة الميتة قبل أن تغادر جسدها ، وهو يعلم أيضاً أن الرجال ليس لهم قيمة بلا زواج فلن يكون هناك بيت خاص بهم ، ولن يكون لهم نصيب يذكر فى تبادل الهدايا .

فالشاب لا يثور على فكرة الزواج كما أنه لا يستطيع أن يعترض مقدماً على خطيبته إذا لم يسبق له أن رآها من قبل ، وهو يعلم أن الزواج سوف يقيد حريته . فالزوجات يتطلبن أشياء كثيرة وعلى الأزواج أن يكدوا ويكدحوا مما لا يدع لهم وقتاً يمكنهم من الذهاب فيه إلى بيت الشبان ومع ذلك فلا بد من الزواج .

ولكنه يزداد توتراً وانفعالا ، كلما تتابعت ترتيبات الزواج . وهكذا كان مانوى Manoi زوج نجالين Ngalen يستمع إلى قرارات أعمامه وخاله وزوج خالته . وكان يفضل أن يعيش مع زوج خالته ، فقد كان يفضل دائماً أن يذهب إلى بيته ليبيت هناك . إذا رغب عن الذهاب إلى بيت الشبان ، ومنذ كان طفلا تعود أن يبيت حيث يشاء وكان يصرخ غضباً إذا لم تلب رغباته . ولكن الأمور

تطورت على غير ما يشتهى فإن عمه ندروسال الذى لم يكن مانوى يكن له كثيراً من الحب صاح به قائلا : « سوف تسكن الجزء الخلفى من بيتى ، وتخرج للصيد من أجلى فأنا رجل كثير المشاغل ولدى عمك الآخر إبن أخ يصيد له ، وعلى ذلك فسوف تحضر معك زوجتك حفيدة كيا Kea وتقيمان فى القسم الخلفى من الدار » . وظهر الارتباك على وجه مانوى فلم يسبق أن تعرض إنسان من قبل لملاقاته بزوجة المستقبل . ولم يسعه إلا الإذعان لهذا القرار صاغراً مهموماً . وبعد الزواج يشعر الشاب أن حياته قد تغيرت تغيراً تاماً . فليس الأمر مقتصراً على زوجة يجب عليه أن يعولها بل عليه أن يكون رهن إشارة أعمامه الذين تكفلوا بنفقاتها . وهو لم يفعل شيئاً بعد للوفاء بكل هذه الالتزامات . فقد وجدوا له زوجة — وهو شىء مخزى — وعليه أن يخرج فيصيد لهم ، ويذهب فى رحلات بعيدة فى خدمتهم ، ويذهب إلى السوق من أجلهم ، وعليه أن يتكلم بصوت خفيض فى حضرتهم . ومن ناحية أخرى فإن أعمامه لم يدفعوا بعد باقى نفقات زواجه وعليه إذن أن يمشى منكس الرأس كسيراً عند مروره بأقارب زوجته ، فهو لا يستطيع أن يواجه حتى أبو زوجته ، وكانت عائلة الزوجة تقوم بمبادلة تجارية هامة ومن المفروض أن يساعدهم فيها ولكنه لا يستطيع أن يقود قاربه ما دام حماه موجوداً .

فالظروف كلها تحتم عليه أن يكون خاضعاً ذليلا ، فهو فقير لا بيت له ، وهو جاهل ، وحتى زوجته الباردة التى تذعن مرغمة إلى عناقه الخشن تدرى من الأمور أكثر مما يعرف ولكنها كئيبة غير متعاونة . فالشاب يدخل بعد زواجه فى منطقة كسوف اجتماعى . فليس له أن يرفع صوته فى مشادة مع أنه وهو طفل صغير كان يسكت أكبر رجال القرية سناً . لقد كان فى ذلك الوقت طفلا مرحاً له امتيازاته ، أما اليوم فهو أكثر الأفراد الكبار حقارة وانكساراً . ويلتفت حواليه فلا يجد إلا نوعين من الرجال أولئك الذين يسيطرون على الجهاز الاقتصادى وقد استقلوا عمن سبق أن كفلوهم مالياً ودخلوا فى عمليات مقايضات

الهدايا ، وأولئك الذين فشلوا وما يزالون عالة يتحكم فيهم إخوتهم الأصغر سناً ، ويضطرونهم إلى الخروج للصيد كل ليلة حتى لا تموت أسرهم جوعاً . ولقد وصل أولئك الناجحون إلى نفوذهم الحالى بوسائل عنيفة ، وصراع مرير ، وبطرق دنيئة ، وبالاقتصاد وتدبير كل شىء تدبيراً دقيقاً فإذا أراد الشاب أن يصبح مثلهم يجب عليه أن يترك وراء ظهره كل أنماط السلوك الطيب الذى اعتاد عليه وهو صغير ، فاقتسام ما يمتلكه مع واحد من أصحابه لا يوصل إلى النجاح الاقتصادى فكلما ضعف استقلاله القديم وانكمش اعتداده بنفسه أمام عار الفقر ، زاد كبته للخصال الكريمة التى كان يتحلى بها فى صغره حتى يستطيع أن يستعيد حريته فى أحد الأيام .

ولا يفشل فى تحقيق ذلك الهــدف إلا الغبى أو الكسول وهؤلاء لا يستطيعون أن يكونوا كرماء أو أن يعقدوا صداقات لأن فقرهم يجعلهم موضع احتقار الجميع ، وعليه فإن مجتمع القرية يتألف من طبقات غاية فى غرابة التركيب ففيه جماعات عاتية صاخبة من الأطفال يملأون الجو ضجيجاً ، ولا تنصاع لرغبة إنسان . وفيه فتيات تساق كالنعاج . وفيه شباب منحط فوضوى يشق طريقه فى حياة القرية بأساليب همجية ، وبعد هذه الجماعات تأتى جماعة الشبان المتزوجين وهؤلاء أصبحوا طيعين ، صاغرين يتسللون من الأبواب الخلفية لبيوت أقاربهم الأغنياء . ولا يملك أى واحد منهم بيتاً خاصاً به وبأسرته . وكل ما يملكه الفرد منهم هو قارب سعة راكب واحد ، وأصبح هؤلاء الشبان وقد ماتت وقاحتهم، وتلاشت ألفاظهم البذيئة ، واستطاعت عبوديتهم لأقاربهم الأغنياء أن تروضهم وتخضعهم لمشيئتها .

ووراء جماعة الخامسة والثلاثين تأتى جماعة ذات شقين . أما الشق الأول فهو يتألف من الفاشلين الذين لا يزالون ضعافاً يعتمدون على غيرهم ، وأما الشق الثانى فيتألف من طبقة الناجحين الذين يجدون لديهم الشجاعة لاستئناف خشونة سلوك الطفولة فهم يدقون الأرض بأقدامهم ويصرخون فى وجوه مدينيهم ،

ويسمحون لغضبهم أن يعبر عن انطلاقاته بحركات هستيرية كلما أثيروا .

وعندما يشتهر أحد هؤلاء ويخرج من زوايا النسيان ، فإن زوجته تخرج معه وتشاركه متعة تبادل الشتائم والسباب الذى يعكر الحياة اليومية للقرية . إذن فالعزلة الإجبارية التى ضربت حولهم لم تعلمهم أى ضبط حقيقى للنفس ولا احترام الغير . ولم يتعلموا إلا أن الثراء هو طريق القوة وأن الجحيم لمن لا يجرؤ على أن يلعن الآخرين حين يروق له ذلك . وهم فى هذا يشبهون أطفالهم الصغار شبهاً تاماً ، غير أن التآلف الودى والتعاون ، وإطاعة القائد بروح مرحة ، والترحيب بالاشتراك فى الألعاب الجماعية ، والائتلاف الطبيعى بين الجنسين — وكل هذه الخصائص التى تتميز بها جماعة الأطفال عن الكبار — كل هذا لم يعد له وجود ولو لم يعش الأطفال طفولتهم هذه ، ولو تمسك كل أب بأن يجعل من ابنه رجل أعمال ، رزين ، سيىء الخلق ، يزن الأمور بميزان دقيق ، لما وصل أبعد مما وصل إليه مجتمع مانوس ؛ لقد انتصر المجتمع ، وقد يكون هيأ لأطفاله عالماً من الحرية والانطلاق ولكنه جرد شبابه حتى من احترام الذات . ولو كان بدأ بذلك بداية مبكرة لكانت وسائله أقل وقعاً . ولذلك نجد الفتيات اللاتى بدأن خضوعهن فى وقت مبكر قبل الشبان أقل شعوراً بالألم ، فالفتاة تسيطر على تقاليد قومها قبل الفتى ، ولكن نظراً لكونهما شابين ، فيجب أن يعيشا كزوج وزوجة حياة مغمورة بطريقة تسىء إلى كبريائهما . وحين يخرج الزوجان من هذا الظلام الاجتماعى الذى فرضه عليهما الزواج المبكر يكونان قد فقدا كل خصائص الطفولة السعيدة فيما عدا نوعاً من الشك يجعلهما عمليين بطريقة سلبية بالنسبة لعقائدهما الدينية ؛ فهذه الصفة الطيبة هى وحدها الباقية ، أما باقى الصفات فقد تلاشت لأنها لا نفع فيها للمجتمع ، ولأنه ليس هناك وسائل يقرها المجتمع للتعبير عنها .

القسم الثاني

مناقشة لبعض المشكلات التربوية الحالية

على ضوء تجربة مانوس

الفصل الثالث عشر

لنوصى بتقاليدنا خيراً

نظراً للتشابه الكبير الذى لوحظ بين المجتمع فى مانوس والمجتمع الذى نعيش فيه سواء من حيث الأهداف أو القيم فقد رأينا أن نعقد مقارنة بين أساليب التربية فى كل من المجتمعين ، فنضع النظريات التربوية الحالية موضع الاختبار بالنسبة لخبرات أهل مانوس . فالقاعدة فى تربية الأطفال فى أمريكا أننا لا نضغط عليهم كثيراً ، ولا نصر مثلا على أن ننمى فيهم احترام الكبار . وقد هلل بعض المتحمسين لهذا التهاون فى تربية الأطفال تربية خلقية واعتبروه نموذجاً لما يجب أن تكون عليه التربية فى كل مكان ، ومن بين هؤلاء أصحاب النظرية التى تستطرد فى اعتبار أن الطفل خير بطبيعته ، عطوف وغير محب لذاته ، له القدرة على التمييز وليس فى حاجة إلى أى تدريب أو توجيه من جانب الكبار . ومنهم أيضاً أولئك الذين يقفون فى سبيل أى تدريب للطفل على افتراض أن كل تدريب يعوق نمو الطفل ويشوهه . وكل أولئك المربون يبنون نظرياتهم على القول بأن هناك شيئاً ما يدعى بالطبيعة الإنسانية ، وأنها لو أفسح لها المجال ولم تطمسها النظرة الضيقة التى ينظر إليها الكبار لتفتحت وظهر جمالها .

والرأى الأكثر انتشاراً هو ذلك الرأى الذى يعتبر الطبيعة الإنسانية مادة خام ، يجب أن نقوم بتشكيلها بواسطة المجتمع الذى نعيش فيه ، وأنها لن يكون لها أى شكل يستأهل الاعتراف به ما لم تقومها وتهذبها التقاليد الثقافية ، وأن الطفل حين يبلغ مرحلة النضوج تكون ثقافة مجتمعه منطبعة عليه مهما كان الأسلوب أو الوسيلة التى نقلت إليه هذه الثقافة . فسواء تلقاها من المجتمع اعتباطاً أو تلقفها كما يتلقف الكلب قطعة من العظام ، أو درست له بدقة وعناية ، أو أنه انتقل إلى مرحلة النضوج ومر بها مروراً عابراً كما لو كان فى رحلة سياحية ، أى أنه مهما كانت الطريقة التى يستخدمها المجتمع فإن لها نتائج عميقة فى اتجاهات

الأطفال ونموهم والطريقة التى يواجهون بها عملية النمو ، كما أنها تؤثر فى تقبلهم أو مقاومتهم للضبط الاجتماعى الضرورى فى عالم الكبار .

ويعلم أهل مانوس أطفالهم وهم بعد فى طور طفولتهم الأولى مهارات يعتبرونها غاية فى الأهمية كالمهارات البدنية ، والحذر واحترام الملكية . إنهم يعلمونهم هذه الأشياء بإصرار وبدون أى تهاون ، وأحياناً بأساليب غاية فى الصرامة ، ولكنهم لا يعلمونهم احترام السن ولا العلم ؛ ولا يبثون فيهم آداب المعاملة ولا العطف على الكبار . كما أنهم لا يدربون أبناءهم على العمل ، ولا يرون فى سلوك الطفل أى خروج على الناموس الطبيعى إذا رفض أن ينقذ عقداً من الخرز مثلا بعد سقوطه فى الماء أو أن يذهب لإحضار قارب جرفه التيار . وإذا كان هناك ترميم فى أحد البيوت احتشد الأطفال فوق السقالات يتصايحون بلا أى نشاط مفيد . وإذا صادوا بعض الأسماك لم يحملوها إلى والديهم بل احتفظوا بها لأنفسهم . ورغماً عن تعلقهم بصغار الأطفال ، ورغبتهم فى تعليمهم إلا أنهم لا يتحملون أية مسئوليات تتعلق بهم . لقد تعلم أبناء مانوس السيطرة على أجسامهم ولكنهم تركوا لشهيتهم العنان . إن أيديهم قوية ثابتة ولكن ألسنتهم سليطة حادة . ولقد تعذر إعطاؤهم جرعات من أى دواء لأنهم قضوا طيلة حياتهم يبصقون أى شىء لا يستسيغون مذاقه ، كذلك لم يتعلموا أن يذعنوا لأى سلطة أو أن يقعوا تحت تأثير أى شخص بالغ فيما عدا الأب الذى يحبونه ولا يحترمونه ، وحين يضطرون للعمل لدى إخوتهم أو أعمامهم ، فإن هذه العبودية المفروضة عليهم لا تعطيهم أى إشباع أو رضى إذ تحولهم من أطفال منطلقين غير محتملين إلى رجال مشاكسين غير محتملين تجلجل نوبات غضبهم عبر البحيرة .

إنها ليست صورة جميلة . فكل ما يتعلمه الأطفال فى صغرهم ، يتعلمون كيف يتقبلونه ، ويتقنونه . ولكنهم لا يتدربون أبداً على الإسهام فى حياة الكبار أو على الشعور بأنهم جزء متمم لنشاطهم . وحين حان الوقت الذى يفرض عليهم الإسهام فى نشاط المجتمع قاوموه مقاومة الحر للعبودية . كما لم يتدربوا على احترام السن

أو العقل وعلى ذلك فإن معاملاتهم لمن هم أكبر منهم سناً مبنية على الخشونة والاحتقار . إنهم لم يذوقوا المذلة وهم أطفال صغار ولم يعرفوا معنى الكرامة حين أصبحوا كباراً ، فكبار القوم من أهل مانوس إنما وصلوا إلى مراكز السلطة والنفوذ على أكتاف الشبان المرغمين ، وهم يتظاهرون بالرضى ، ولكنهم لا يعرفون طعم السلام والطمأنينة .

وملامح هذه الصورة تشبه إلى حد كبير ملامح مجتمعنا اليوم . فإننا نهيىء لأطفالنا سنوات من الحرية والانطلاق يعيشون خلالها فى عالم آخر صنعوه بأيديهم . ولهم مطلق الحرية فى أن يعبروا عن آرائهم متى شاءوا ، وبالطريقة التى تحلو لهم ، ولهم أن يتجاهلوا أغلب تقاليد الكبار . ومن يحاول وقف التيار عُيِّر بأنه خامل ، (موضة قديمة) ، ضيق العقل ، فيفر فرار الشياطين إذا تليت الآيات الكريمة . وترجع هذه الحالة إلى أسباب حقيقية فى المجتمع الأمريكى . فإن المهاجر إلى أمريكا ينجح فى التكيف للظروف الجديدة أكثر من أبويه . كما أن التقدم السريع فى الاختراعات وتغيير الجانب المادى من الحياة قد جعلا كل جيل جديد من الأطفال أكثر خبرة ودراية من سابقه .

وهكذا فإن الجيل الجديد يستعمل التليفون بسهولة أكثر من أبويه . أما أبناء الجيل الجديد فهم أشد خبرة بالسيارات أكثر من آبائهم وأمهاتهم . وحين عاصر أجدادنا اختراع التلغراف والتليفون واللاسلكى والراديو والسيارات والطيارات فلا غرابة إذا فلت من بين أيديهم الأمر إلى أيدى أبنائهم الأكثر قابلية للتكيف . وبينما كان البالغون يلتمسون طريقة لتوفير الوقت أثناء النهار ، ومع ذلك كانوا يتأخرون عن مواعيدهم نجد أن أطفالهم الذين لم يتجاوزوا السادسة والذين لم يدركوا بعد مفهوم الوقت يستطيعون أن يميزوا معنى الساعة العاشرة وأنها قد لا تعنى العاشرة بالضبط ويمكن أن يقصد بها التاسعة أو الحادية عشرة . وفى البلد الذين يكون المحظوظون فيه هم الذين يسارعون إلى استخدام أحدث الاختراعات ، والذى ينظر إلى الأدوات القديمة بشىء كثير من الاستنكار حتى

كثيراً ما يصادف هذه اللافتات تعلن عن « تحف عتيقة وجديدة » أو « هل غيرت خاتم زواجك بآخر جديد » ؟ فالدنيا ملك للجيل الجديد ، فهو يستطيع أن يتعلم الأساليب الجديدة بسهولة أكثر من آبائه الذين قد يكونون على ثقافة أوسع ، وهكذا نجد الأطفال فى أمريكا يتعاملون مع العالم المادى من يوم ميلادهم بدون أى شعور بالنقص ، ويصبح استعراضهم للقوة مجرد دجل فارغ ، وعبارات جوفاء ، ومجرد كلمات رنانة .

وقد أضفنا إلى هذا العالم المادى السريع التغير عنصراً آخر ييسر لأصغر الأطفال أن يستغنى عن أية خبرات أو تدريب وهو عنصر المال ، وكانت النتيجة أن وجد مجتمع يشبه إلى حد كبير مجتمع مانوس فهو مجتمع كفؤ ، كامل الاستعداد نشط جعل الثروة هدفه الوحيد .

وبدلاً من أن يقاس الرجل بشخصه أصبح مقياس الفرد ثروته وليس لعامل السن أى مكان منطقى فى ميزان القيم عندنا . وفى هذا العالم ، الذى يقدر الشخص بماله من ثروة أو جاه ، ويعرف بما يرتديه من ثياب ، أصبحت هذه الأشياء هى الأصل لا من يملكها أو يلبسها .

ولكن هذه المعايير لا تبشر بحال من الأحوال فهى عبارة عما يملكه الشخص من عقار أو سيارات أو ثياب . وهذه الأشياء هى التى تحدد مركز الشخص فى النظام الاجتماعى وليس على الفرد إلا أن يكون لديه المال اللازم لكى يشترى إحدى الوسائل السابقة ليشق طريقه إلى طبقة ، وأفراد طبقة من الطبقات لا فرق بينهم وبين أفراد الطبقات الأخرى . والاختلافات التى تلاحظ فى هذا المجتمع الذى تحكمه المادة هى اختلافات طفيفة وليس لها أية أهمية تذكر . والفرق بين جماعة وأخرى يشبه الفرق بين طابق فى إحدى العمارات وبين باقى طوابق نفس العمارة ، أما فكرتنا عن الفردية فهى تماثل تماماً فكرة السيدة التى تسكن فى الشقة رقم ١٨ ؟ فى إحدى العمارات الكبيرة وتعاير جارتها الفقيرة التى تسكن فى الشقة رقم ٢٣ بأنها لا تضع سريرها فى مكانه المناسب

فالثروة لا شأن لها بالسن ، أو الجنس أو العقل أو الجمال أو الأخلاق أو المبادىء .

وما دامت الثروة هى طريق الحياة ، فلم يعد هناك أى ضرورة للأشياء الأخرى التى يجب أن نتعلمها والتى يجب أن نمارسها لكى نحسن فهمها .

ولا يجدى الحديث عن أهمية تدريب الأطفال على النظام ، أو بث روح احترام السلطة مما يهيىء لهم إحساساً بالتوازن ، فإن المسألة ليست مجرد استخدام سياطاً للتأديب أو ما يشاكلها فالمشكلة أعمق وأعقد من هذا بكثير ، وهى متأصلة فى صميم تكوين مجتمعنا . ولقد كتب الكثيرون عن اختفاء الصانع الماهر على أثر ظهور الآلات التى يمكن لصبى فى الثامنة عشر أن يديرها بعد أسبوع واحد من التدريب . ولهذا المثال مغزى بالنسبة للاتجاه العام لنظريات التربية الحديثة فى أمريكا . ففى الماضى كان المتقدمون فى السن من أفراد المجتمع أناساً لهم خبرات واسعة بالحياة ، وعلى علم تام بأسرارها ، وكانوا يحرصون على العناية بينابيعها الثمينة . وكان الشبان يشعرون أن لدى هؤلاء الكبار كنوزاً من الخبرة وعليهم أن يستفيدوا منهم تدريجياً فى حرص واحترام شديدين ، وكان الشبان إذا خاطبوا الكبار ، تكلموا فى صوت خافت ملؤه الخشوع والإجلال وبالمثل كانت أصوات أطفالهم ، غير أنها لم تكن تختنق كما هو الحال عند أهل مانوس أما فى مانوس وفى أمريكا فهذا المجتمعان متفقان على أن الحياة ليست فناً نتعلمه ولكنها أشياء نربحها . ومن ربح تلك الأشياء فله أن يسود من لم يربح ، ويتفق المجتمعان أيضاً فى كون شباب كل منهما لا ينظر إلى الشيوخ بعين الاحترام فهو لا يؤمن بأن الشيوخ على قدر أكبر من العلم أو الحكمة ولكنه يسلم بأنهم على ثراء يخول لهم تزعم المجتمع .

وقد نتشدد أحياناً فى أمريكا فنضطر أطفالنا إلى إلقاء التحية أو التعبير عن احترامهم لشخص ما ، ولكننا لا نتوقع إمكان غرس النظام السليم فى نفوسهم وكذلك الكرامة الحقيقية ، إلا إذا عدلنا من تقويمنا لأقدار الناس على أساس ما يملكه الشخص من مال وجعلنا معيارنا ما يتحلى به من صفات خاصة . فحين

يقدر المجتمع خصائص الناس لذاتهم — كأفراد — حتى لو كان أولئك الأفراد مجرد صيادين مهرة ، أو لاعبي سيف بارعين ، أو فرسان لا يشق لهم غبار بل وأكثر من ذلك إذا كانوا فنانين ، أو طلاب علم أو سياسيين فإننا نستطيع القول إذ ذاك بأن النظام موجود فى هؤلاء الناس . ففى مثل هذا المجتمع لا يتعلم الصغار مجرد المبادىء الأولية والمحرمات عليهم أو مجرد طريقة تقويم القوارب أو استعمال التليفون أو تقدير الأبعاد بين قوائم البيت أو إيقاف سيارة قادمة ، أو المساومة على كمية من أسنان الكلاب أو على بعض الأسهم المفضلة . ولكنهم يتعلمون قيمة جمال الحديث والحركة وتذوق الفنون الجميلة مما لا يصل إليه الفرد إلا بالنمو والخبرة . فحين يصيح الطفل فى ساموا قائلا « أوه لى — آلى » أى الرئيس فإنه يقصد بهذا القول شخصاً يملك خصائص القيادة من الكرامة والعقل والرزانة مما حدا بقومه إلى اختياره زعيما عليهم ، أما إذا قال الطفل من مانوس « أنه رجل قوى فهو يملك الكثير من أسنان الكلاب » أو إذا قال الطفل فى أمريكا « ياه ! إنه رجل غنى ! » فكلا الطفلين لا يتكلم عن الشخص نفسه بل عما يملكه . وهما لا يعتبران هذا الشخص أفضل منهما فى أى ناحية ، بل هما يبديان إعجابهما بثرائه ، أما هو شخصياً فيظهر ان له الطاعة الظاهرية لأنه إنسان ساعده الحظ على أن يحصل على مركز كبير . وقد كان هيلير بيلوك Hilaire Bellok يقول إن من محاسن أمريكا أن الرجل الغنى هناك لا يقدس تقديس العبد لسيده كما هو الحال فى أوروبا ، ولكن إذا نظرنا إلى المسألة نظرة أكثر عمقاً لوجدنا أن هذا من المساوىء عندنا . ففى أوروبا سار المركز ، والأصل والمسئولية منذ وقت طويل جنباً إلى جنب مع الثروة حتى أن الأوروبى الذى ينحنى أمام رجل غنى ، يرى فى عمله هذا أنه ينحنى لكل هذه الأشياء جميعاً . أما فى أمريكا حيث لا علاقة للثروة بأى معايير للسلوك فإن الشباب لا يعجبون بالفرد لشخصه ، ولكن لأنه يملك ثروة هم يتوقون أن يكون لهم مثلها ، ونحن لا نستطيع أن نفرض على أطفالنا أن يحترمونا كأصحاب لما نملكه من أشياء ، ولكن كل ما قد يكون فى استطاعتنا عمله هو أن نخضعهم وقتياً بأن نمنع تلك الأشياء عنهم وعن طريق

جلدهم بكرباج الحاجة الاقتصادية — وهم أصلا لم يعانوا الفقر المادى من قبل — فكما يفعل أهل مانوس نستطيع نحن أيضاً أن نروضهم ، ولما كانوا سيخجلون من فقرهم ، فإنهم سيعملون ليلا ونهاراً حتى يتمكنوا أو على الأقل حتى يتمكن أولادهم من الحصول على تلك الأشياء التى استطاع كبار القوم الوصول عن طريقها إلى النفوذ والقوة . أما عن نتيجة هذه الطريقة فيمكن أن نشاهد نموذجاً منها فى ذلك المنظر المؤسف فى ميدل تون Middletown حيث تعمل كل طبقة اقتصادية عملا متواصلا لكى تدفع بأطفالها إلى الطبقة التى تليها فى صعود طائش مجنون خلال سلاسل من الطبقات هى فى الأصل متشابهة .

وليس فى هذا المثال كثير من التدريب وأقل منه الشعور بالعزة والكرامة . فالأطفال يأخذون الكثير من آبائهم فهم يأخذون منهم الجهد ، والصحة والحياة نفسها ، يأخذون كل ذلك كما لو كان حقاً لا يناقش ، وهم يتقبلون اعتقاد آبائهم بأن الارتفاع بأبنائنا إلى الطبقة الاقتصادية التالية لنا إنما هى أعظم رسالة لنا فى الحياة . والأطفال إذ يأخذون هذه الضريبة الفادحة من الجيل السابق إلا أنهم لا يحترمون من دفعها ، ومع ذلك فقد قضت سنة الحياة على من بلغ مرحلة النضوج فى حياته أن تصبح فى حوزته تلك الأشياء التى يقدرها المجتمع مهما كانت طبيعتها سواء كانت الثروة أو العلم أو المطابع ، أو الصناعات اليدوية الدقيقة ... الخ . وقد نلقى بالشيوخ من فوق مقاعدهم ، وقد يحدث أن يحتل أحد الشباب مركزاً ، يفوق ما وصل إليه زملاؤه ، مع ذلك يظل عدد كبير من البالغين هو الذى يملك كل شىء . أما الأغلبية من الشبان فلا يملكون شيئاً . وينشأ عن الصراع بين أولئك الذين ملكوا زمام المجتمع وأولئك الذين لم يملكوه بعد نوع من التوتر يبدو وثيق الارتباط بمجرى التطور البشرى بما لا يدع مجالا للتخلص منه ، ولا يمكن تحاشى هذا التوتر إلا إذا كان المجتمع مفتقراً إلى العمق والأصالة كما هو الحال فى ساموا ، وعندئذ يمكن تجنبه ، ومما يزيد فى صعوبة الموقف أن يوجد إلى جنب الصراع بين الشباب والشيوخ صراع آخر بين

الأساليب الحديثة والأساليب القديمة كما هو الحال دائماً عندما يتطور المجتمع المعقد بسرعة . ولن يغير من هذه الحال أن نلجأ إلى عدم اتباع أى نظام أو أن ننزل بسن الزواج بدون موافقة الأبوين ، فقد يختلف العمر الذى يحدث الصراع فيه ، وقد يأخذ الصراع أشكالا متعددة ، ولكن سيظهر حتما فى صورة ما سواء تقبل الفرد نظام مجتمعه فى حماس أو بلا اكتراث ، أو رغم أنفه .

وكل المحاولات لتجاهل هذه الحقيقة فاشلة ، كما فى حالة الأم التى أزعجتها فكرة ما تحمله كلمة « أم » من مسئوليات ، فدربت ابنتها على أن تناديها « أليس » فما كان من الطفلة إلا أن صارت تشير إلى أمهات الأطفال الآخرين بقولها « أليساتهن » أى (أمهاتهن) . فالمواقف التى تتمثل فيها العلاقات الوالدية لا يمكن تجنبها .

وما لا يمكن تجنبه يجب مواجهته .

وهكذا نستطيع أن نصور عملية النمو بحيث يكون لها قيمة واعتبار . فإذا استطعنا أن نعوّد أولادنا على احترام الكبار ، وركزنا اهتمامهم على ما يمتاز به أولئك الكبار من خصائص جديرة بالتقدير ، فإنا بذلك نخصّهم بالإحساس بالتواضع ، ذلك الشعور الذى يضع مزايا الآخرين فى الصدارة دائماً ، أما ذات الفرد ففى مؤخرة الموقف ، أما إذا تركناهم بدون تنمية اتجاهات أخرى خلاف الغيرة والحقد والاستهانة بمن بيدهم الأمر ؛ فنحن نشجع بذلك شعورهم بالنقص مع التأكيد المؤسف على ما ينقصهم شخصياً ، لا على ما يمتاز به الآخرون ، فما لم يشعروا بالإعجاب نحو الكبار فلن يستطيعوا أن يقدموا لهم أى ولاء ؛ وبذلك ينقلب اهتمامهم نحو ذاتهم ، وحين يدركوا ما يفتقرون إليه من صفات ينتابهم شعور بالنقص .

وفى أمريكا الحديثة حيث تغيرت أساليب الحياة ، وحدثت اختلافات جوهرية فى الثقافة المادية ، وتدفقت جموع المهاجرين الذين نجح أبناؤهم فى التكيف للبيئة الجديدة نجاحاً فاق ما حققه آباؤهم بكثير ، وحيث أصبح الاهتمام يتركز

حول جمع المال والتحكم فى الثروة السائلة من النقود . كل هذه العوامل حلت محل الاحترام الواجب على الصغار نحو الكبار .

وقد يكون متعذراً ومن غير المرغوب فيه أن نعود القهقرى إلى تقليد قديم كان يحنى الفرد رأسه إجلالا لكبر السن ويحترم الأبوين بصرف النظر عن أخلاقهم وخصالهم . فما دامت أسطورة السن لم يعد لها مكان فى مجتمع اليوم ، ومهما كانت الأسباب التى أدت إلى انهيارها — كان من بين تلك الأسباب وجود عدة جماعات لغوية مختلفة ، والتطور السريع فى الاختراعات الحديثة ، وتخطيط الطبقات فى المجتمع على حسب إمكانياتهم المالية — فليس من السهل أن تستعيد مكانتها ولجهل الآباء والمدرسين بانتهاء عهد تلك الأسطورة ، فإنهم لا يزالون يصرون على وجوب احترام الصغار لمن هم أكبر سناً ، ولكن إصرارهم هذا إنما يقابل بالزراية والتهكم . فهم يؤكدون وجوب احترام المركز ، ولكن الشباب وقد اختبروا قيمة المركز المبنى على امتلاك الثروة فوجدوه لا يستحق الاحترام .

أما إذا أردنا استعادة نوع من النظام يهيىء لأبنائنا فرصة نمو أحسن وأسلم ، فيجب علينا أن نضحى بتمسكنا التقليدى بأن من واجبات الصغار احترام كافة الآباء وكافة المدرسين وكافة المربين . فنحن لا نستطيع أن نضحك على عقل شباب الجيل الحالى ونخدعه ، ولكننا مع ذلك نستطيع استغلال ذكاءه والاستفادة منه فإن الإصرار الذى أظهره الشباب فى تعقب خصائص بعض الكبار يمكن الاستفادة منه فى إجلال الآخرين .

إذا وافق الكبار على أن يغيروا فى خط قتالهم . فعالم الكبار يشبه خط قتال طويل غير متماسك ، يقوم بالدفاع عنه فى يأس وضعف أولئك الذين يتشبثون بالفكرة التقليدية التى تنادى باحترام أصحاب النفوذ ، وعدد المدافعين عن هذا المبدأ قليل مشتت ، فقد ذهب معظم حلفائهم واستسلموا للغزاة الشباب معلنين فى حسرة أن الحصن لا يستحق أى دفاع ، أما باقى المدافعين فقد امتدت

كتائبهم فى خط طويل يعلم كافة مواقع دفاعه ، و بسبب أن المدافعين يتمسكون بالدفاع عن كل المواقع فإنهم خسروا المعركة كلها .

ولقد حان الوقت للتسليم بعدم جدوى المطالب الحالية ، والاعتراف بأن قيمة الإنسان ليس لها علاقة بسنه أو مركزه ، أو نفوذه ، بل لا بد أن تتوفر له خصائص تميزه ، وتنزع له الإعجاب والإكبار . وعندئذ يستطيع أولئك الذين فروا من المعركة — فى كسل أو يأس أو فى تواضع حقيقى — أن يعودوا للدفاع عن عقائد أكثر تطوراً وأكثر تمشياً مع فكرة الأفضلية والامتياز .

و بهذه الطريقة أى بإعادة تخطيط العلاقة بين الشباب والشيوخ ، بحيث يتيسر لبعض الكبار أن يتفوقوا على بعض الشبان ، وفى نفس الوقت نسلم بأن بعض المتقدمين فى السن لم يحققوا ما يستحقوا عليه أى نوع من الاحترام ، يستطيع الكبار أن يقدموا خدمات للشباب تفوق ما يقدمه الشباب لأنفسهم .

أما إذا أصروا على موقفهم فإنهم يؤذونهم أشد الإيذاء . و إذا حدث وأغرت النزعات الداخلية الأطفال على أن يبنوا لأنفسهم سماء جديدة وأرضاً جديدة فإن على الكبار أن يساعدوهم فى ذلك أيضاً بأن يقفوا جانباً ويسمحوا للتجربة أن تأخذ مجراها . ولكن الأطفال لم يؤتوا هذه الموهبة الخلاقة ، وليس لديهم من خامات البناء إلا التقاليد الموروثة فإذا تركوا وشأنهم وجردوا من تلك التقاليد أو أبدلت بتقاليد لا يشعرون نحوها بأى احترام جاء بناؤهم خاوياً أجوف . و إذا بلغوا سن النضوج وجدوا أن عليهم أن يتهادنوا مع تقاليد الكبار ويقيموا فى نفس الأبنية و يساندوا نفس القيم . وعلى هذا فليس من الخير فى شىء أن ننشئهم على أن ينظروا إلى حياة الكبار فى كآبة وتذمر بليد .

واتباع التقاليد الموروثة هو المصير المحتوم لمعظم أفراد المجتمع . فإذا كنا نعجز عن تحريرهم من ذلك المصير ، فلا أقل من أن نقدم لهم تلك الحياة المستقبلة

بحيث تبدو على شىء من الأهمية والقيمة ، أما أن نعامل أطفالنا على طريقة أهل جزيرة مانوس فنترك لهم الحبل على الغارب فى صغرهم ، ونسمح لهم أن يكونوا أمراء على عالم خرافى أجوف ، يحتقرون فيه الكبار الذين يعملون من أجلهم فى جلد العبيد . ثم ينقلب أولئك الكبار فيسلطون عليهم سياط الخزى والعار حتى يروضوهم على نمط من الحياة لم يتعلموا أن يلمسوا فيه أى أثر للعزة والكرامة ، فإن هذا العمل يكون كمن يلقى بالحجارة فى وجوه أناس لهم كل الحق فى العيش النظيف .

الفصل الرابع عشر

التربية والشخصية

بالرغم من أن التربية لا تستطيع أن تغير الحقيقة التى تؤكد أن الطفل ينشأ على شاكلة الوسط الذى تربى فيه ، إلا أن لطرق التربية ووسائلها آثاراً بعيدة على نمو الفرد وعلى تطور شخصيته واتجاهاته وآرائه ، واختياراته العادية مما نسميه « شخصية » ولما كان سكان مانوس قد بالغوا فى تأكيد شخصية الطفل بصورة خرجت عن حدود المعقول لشعب يعيش فى دائرة ضيقة يحيطها إطار من التقاليد ، فإن ما يلاحظ من فروق بين كل طفل وآخر هناك يلقى ضوءاً قوياً على هذه المشكلة . فإن مشكلة الشخصية حين توجد فى إطار ثقافى متجانس فإنها تبـدو عارية من كل غطاء ومتجردة من كل التعقيدات المفتعلة التى يضيفها المجتمع المعقد على كل فرد يولد فى ظل تقاليده المختلطة ، ونحن نعزى نتائج هذه التعقيدات الثانوية إلى اختلافات شخصية فى حين أنها ليست كذلك . ولنحاول أن نقارن الاختلافات الممكنة فى التقاليد والمسموح بها للشخص البالغ فى مانوس بتلك الاختلافات التى تعتبر جزءاً لا يتجزأ من فردية كل رجل فى مجتمعنا . ولنبدأ بتلك الاختلافات البسيطة فى المظهر العام ، فنجد أن الرجل من أهل مانوس يستطيع أن يطيل شعر رأسه ويعقده حول رأسه أو أن يقصه ، وله أن يلبس قرطاً أو لا يلبس حلية على الإطلاق فى أذنيه ، وبالمثل يستطيع أن يدخل هلالاً رقيقاً من لؤلؤ المحار أو قطعة منقوشة من العظام خلال أنفه أو لا يفعل . وعلى أية حال يجب ثقب الأذن أو الأنف لتعليق تلك الحلى .

وقد يرتدى حزاماً لسرواله مصنوعاً من لحاء بعض الأشجار أو من القماش وقد يلبس حلياً مصنوعة من أسنان الـكلاب ونقود المحار ، فينظمها فى صفوف

فردية أو زوجية ، وقد يلضم معها بعض حبات الخرز الحمراء أو الحمراء والسوداء مع تغييرات بسيطة .

تعال بعد ذلك نقارن هذا بالاختلافات العديدة فى المظهر العام والتى تبدأ بثياب العمال إلى مختلف أنواع الثياب التى يرتديها الأفراد فى الولائم والتى توصف بأنها « ما يجب أن يرتديه الرجل الأنيق » وعند ما نتعرض لمسألة الأذواق ، والمعتقدات ، والآراء فإنا نكاد نضيق من المتناقضات عندنا . أما فى بيرى فقد لوحظ أن أشد الناس خروجاً على العرف وهو لا يزال شاباً صغيراً ، أظهر اختلافه عن أقرانه وهو بعد غلام ، بأن عاق حجاباً فوق ظهر إحدى بنات عمومته لـكيلا تعاقبها الأرواح على خطيئتها معه ، وعند ما تقدم به العمر أصبح يستخدم ألفاظاً جمعها من كبار الرجال فى مختلف القرى ، وكان هذا الرجل يقهقه فى مأتم أخته . هذه هى اختلافاته عن غيره وفيما عدا ما ذكر ، لم يكن يختلف عن سائر أهل عشيرته فى أى شىء آخر . فقد تزوج ثم تركة زوجته فتزوج امرأة أخرى . وكان يشتغل بالصيد وتجارة ثمار الحدائق ، أو يشترك فى المقايضات الاقتصادية ، كما كان يراعى الأسماء المحرمة من أقارب أصهاره مثله مثل أى رجل فى بيرى . وإلى جانب هذا الرجل كان فى بيرى رجل آخر واضح الاختلاف عن سائر أهل القرية ولـكن اختلافه يتجه وجهة أخرى . فقد بكى هذا الرجل فى حرارة وإخلاص عند ما توفيت زوجتـــه ، واحتفظ بجمجمتها وكان يحدثها فى بعض الأحيان ، وكان سلوكه هذا من دواعى تميزه واختلافه عن أهله وجيرانه . أما فى غالبية تصرفاته ومعتقداته ، فقد كان لا يختلف عن أهل القرية فى أى شىء .

والآن دعونا نتأمل عينة صغيرة من أنواع الأفراد الذين يعيشون بين ظهرانينا . ولنتأمل رجلين لهما نفس الصفات الشخصية العامة : أى أن كليهما مستبد ، مشاغب ، مجدد ، معتد بنفسه ولـكن قد يؤمن أحدهما بالثالوث المقدس وبالخطيئة الأولى فى حين أن الآخر ملحد لا يؤمن بشىء . وقد يعتقد أحدهما فى حرية التجارة وحقوق الدولة ، والحكم المحلى . أما الآخر فيأخذ بتطبيق

القيود الجمركية ، وشق الطرق ، والأخذ بالقوانين المحلية فى المشاكل الاجتماعية .

وقد يكون أحدهما مهتما بجمع صور قديمة لمدينة نيويورك ولـكن الآخر يفضل جمع الفراش . أو قد يؤثث أحدهما بيته على طراز المملكة آن فى حين أن الآخر يجمع فى بيته أثاثاً من نصف دستة مصادر مختلفة : وقد يكون لأحدهما أذناً موسيقية فى استطاعتها أن تميز بين أدق النغمات فى الوقت الذى يعلم الآخر عن الرسم ما يمكنه أن يعرف تاريخ كل صورة رسمها بيكاسو .

وقد يفضل أحدهما سابيل Cabell بينما يختار الآخر بروست Proust وهكذا يمكننا أن نعدد سلسلة طويلة من الاهتمامات ولـكى نكمل الصورة سوف نقارن أحد هذين الشخصين بكاتب شاب فى مدينة صغيرة تنحصر هواياته فى قيادة عربة فورد صغيرة ، والذهاب إلى السينما وقراءة النكت أما بيته فقد أثثه بصورة منافية للذوق السليم واشترى أثاثه بالتقسيط . وينتمى هذا الكاتب للحزب الجمهورى لأن أباه كان من هذا الحزب نفسه .

فإيراد ذوقين متناقضين لشخصين متفقان فى الشخصية وإيراد هذا المثل الثالث الذى يبين الاختلاف بين الأذواق البسيطة والمعقدة ، يمهد لنا أن ندرك العوامل المختلفة التى تكمن وراء الفرد فى المجتمع المعقد بصورة أقوى بكثير مما هو معروف فى المجتمعات البسيطة ، فالتذوق الموسيقى فى مانوس ينحصر فى استطاعة الفرد أن ينفخ فى مزمار أو صفارة سواء كان لاعباً حاذقاً أو رديئاً ، والفنان هناك هو من يرسم أشكالا دقيقة أو بدائية تناقلها الناس بعضهم عن بعض . ولـكن فى نطاق هذه الاختيارات التقليدية القليلة والاحتمالات البسيطة ، نجد اختلافاً بيناً فى الخصائص الشخصية للأطفال فى مانوس لا يقل عن اختلافات الأطفال فى الولايات المتحدة : فإننا نقابل هناك الطفل المستبد والطفل المسالم ، والطفل الرزين المتريث والطفل المندفع المتهور ، والطفل المبتكر الخلاق والطفل الذى يلجأ إلى التقليد دائماً . كل هذه الأنواع نلمسها بوضوح فى أطفال تلك الجزيرة. ولقد وجدنا فى مانوس حقلا صالحاً لدراسة تطور ونمو الجوانب الأساسية

فى شخصية الطفل نظراً لعدم وجود العوامل التى قد تتدخل فتطمس الصورة كالفروق المعقدة فى التقاليد ، أو التدريب أو التعليم .

ولهذه المشكلة قيمة ومغزى بالنسبة لنا لا يقل عن قيمتها ومغزاها بالنسبة للشعوب البدائية . فـكيف تتطور تلك النزعات التى تدفع الشخص إلى أن يختار نوعاً معيناً من السلوك دون الآخر ؟ لقد أظهرت دراسة سطحية للحضارات الحديثة أن هناك علاقة مباشرة بين المجتمع والصفات المزاجية .

فالشخص الـكثير التأمل الذى يهتم بقيم العالم الآخر ليس له أى قيمة فى أمريكا حيث يجب أن يكون الشخص نهازاً للفرص ، وحيث الأولوية دائماً للشخص المجتهد . وعلى العكس من ذلك نجد أن نشيط العقل الذى يزدرى المعضلات الفلسفية ، لا يجد له مكاناً فى مجتمع كالمجتمع الهندى القديم . وفى مجتمع الهنود الزونى Zuni يخشى الفرد الذى يتميز عن أقرانه بما له من طاقة خلاقة فى أن يتهم بأنه ساحر فيعاقب ويعلق من إبهامى قدميه أما ذلك الشخص الذى قضى حياته يبحث عن حلم أو رؤيا وفشل حتى بعد أن مزق أعصاب ظهره فإنه يوصم بالعجز عند تلك القبائل الهندية التى تسكن سفوح الجبال والتى لم تلجأ بعد إلى حرفة بيع وشراء الخبرات الدينية . فكل جماعة تتشابه فى اهتمامها بنوع رئيسى من أنواع السلوك الإنسانى .

وأولئك الأفراد الذين يظهرون ذلك النوع من السلوك سوف يغدون قادتها وقدّيسيها . وأولئك الذين يملـكون نفس الخصائص التى تسيطر على المجتمع ولـكن بدرجة أقل يقفون فى الصفوف التالية . أما أولئك الذين يبدون وجهات نظر تختلف عن وجهات نظر الساسة ورجال الصف الثانى ، فقد يكون مأواهم أحد مستشفيات الأمراض العقلية ، أو قد يزج بهم فى السجون لأنهم خطرون على الأمن العام ، وقد يحكم عليهم بالموت حرقاً بزعم أنهم كفرة ملحدين وأحياناً يسمح لهم بالحياة على الكفاف ، ويسمونهم بالفنانين . وما الرجل ، الذى يقال عنه أنه « ولد فى الوقت المناسب » أو أنه « ولد من أجل عصره » إلا رجلا

تلاءمت شخصيته مع التيار العام لمجتمعه ، واجتمعت له المواصفات الذهنية المطلوبة . ويستمر تطور المجتمعات وتقدمها ، وامتدادها عن طريق أولئك الأفراد الذين منحوا صفات تنسجم مع مطالب المجتمع . ولكنها تركد وتضعف وتضمحل تحت سيطرة من يجىء بتعاليم جديدة يكون قد أجهد نفسه فى إعدادها شخص ثار على الأوضاع القديمة ، ولكنه لا يجد ملاذاً روحياً فى المجتمع الذى نشأ فيه . وعلى عاتق الفريق الأول يقع عبء استمرار مجتمعهم ، وإعطائه شكلا أكثر تمييزاً وتحديداً . أما الفريق الثانى فعليه أن يقوم ببناء عوالم جديدة .

ومن الواضح أن على هذه الأنماط الثلاثة ومدى تناسقها وانسجامها يتوقف جزء هام من مستقبل المجتمع . فبدون وجود أناس متحمسين للأفكار الجديدة فلن يكون للمجتمع قادة ، وهو بهذا سوف يغوص إلى أعماق الركود ويمكن إيراد مثال على هذا النوع من حياة أمريكا السياسية فى الوقت الحاضر ، التى لا يتسلم مقاليدها أحسن الرجال فزعماؤها ليسوا من أصحاب الشخصيات الذين يمثلون وجهة النظر الأمريكية ، أو الذين يملكون الطاقة والحيوية التى تتوفر فى الأفراد الأقوياء الذين لا يتهاونون فى تطبيق المثل العليا الأمريكية . إن مستقبل أى مجتمع يتوقف على نوع الخامات التى يتغذى بها الخارجون على النظام التقليدى ، وما إذا كانت فلسفتهم عن التغيير تبنى على أسس تتمشى مع ثقافة المجتمع وتتلاءم مع التطور السليم أو أنهم يبنون آراءهم على نظريات غريبة تجعل منها مجرد أضغاث أحلام .

وأى مجتمع مهما كان منعزلا عن أى اتصال بالثقافات الأخرى ، يعتمد فى كل وقت على الاتجاهات الشخصية التى يكتسبها أطفاله . ففى حالة القلة من الأطفال الموهوبين الذين يولدون فى كل جيل من الأجيال ، يكون من الأهمية القصوى معرفة ما إذا كانوا يتحمسون لاستمرار الأحوال الراهنة أو أنهم يقضون حياتهم فى قلق مستمر منقبين باحثين عن شىء جديد . وعلى ذلك يمكن القول

بأن مصير حضارة من الحضارات رهين بنوع أفرادها ، ولا يعنى هذا أن ذكاء شعب يختلف عن ذكاء شعب آخر ولكن الاختلاف يكون فى درجة رضى أفراده الموهوبين عن نظامه فإما أن يضطرهم إلى التسليم به وقبوله مرغمين أو يشعل فيهم جذوة قوية نحو التغيير .

وتختلف استجابات الأفراد للعوامل المختلفة التى تشكل إطار المجتمع فبينما يستجيب لها أحد الأطفال بحماس ، يقابلها آخر بجمود ، ويتحاشاها بإصرار ولا نعرف إلا القليل عن أسباب هذه الاختلافات . وقد تكون أقوى ضربات صوبت نحو هذه المشكلة هى تلك التى جاءت من المحللين النفسانيين فإن شدة حماسهم لإدماج الحياة كلها تحت عنوان واحد قد قادهم إلى محاولة معالجة المشاكل التى ألقاها علماء النفس التقليديين جانباً . ومن أهم آرائهم وأكثرها فاعلية فكرتهم عن التقمص أى الطريقة التى يتشبه الفرد فيها بشخصية فرد آخر ، كان سبق له معرفته أو قرأ عنه أو تخيله إلى درجة تجعله يقلد ذلك الشخص فى قراراته واتجاهاته . وقد استخدم المحللون النفسانيون تلك الفكرة فى تفسير عشرات من المواقف التى تتدرج من التشبه بشخصية فى إحدى الروايات أو الكتب إلى عملية تقمص شخصية أحد الوالدين من الجنس الآخر مما يترتب عليه اتجاهات جنسية معكوسة .

واحتمالات الاختلاف فى الشخصية الناشئة عن عملية التقمص هذه متعددة ومتعارضة ، فقد يكون محور الاهتمام هو أحد الأبوين ، أو المدرس أو ممثل سينمائى محبوب ، أو لاعب كرة القدم ، أو شخصية فى كتاب أو تمثيلية أو أحد أبطال التاريخ أو أحد رفاق اللعب ، أو الله نفسه . والمصحات العقلية تغص بأولئك الذين ذهبوا فى تقمصهم لإحدى الشخصيات إلى مدى بعيد عن حدود العقل فمنهم من يؤمن إيماناً راسخاً بأنه نابليون أو يسوع المسيح الذى أساء إليه هذا العالم الأعمى القاسى .

ووجود هذه الظاهرة فى ساموا يؤكد رأينا فى أنها ليست ظاهرة قاصرة على مجتمعنا ، فقد وجدت فى ساموا رجلا كان يعتقد فى إصرار على أنه هو توفيل Tufele أى رئيس زعماء الجزيرة وكان يطالب وهو الفقير المعدم بمعاملته ومخاطبته بما يليق بأعظم الزعماء من إكبار وإجلال . و إذا تركنا جانباً الناحية المادية فإن النزعة إلى تقليد إحدى الشخصيات موجودة فى كل معجب بشخص آخر وفى كل تابع مخلص لقائد من القادة ، وفى كل إنسان يحاول أن يقلد ولو بدرجة قليلة سلوك شخص استحوذ على إعجابه .

وليس فى مانوس هذا المجال الواسع لاختيار الشخصية التى يمكن أن يتقمصها الفرد ، فلعدم وجود فروق بينة فى المركز ، ولعدم وجود زعماء دينيين ، ولا شخصيات تاريخية عظيمة ، ولا شخصيات أسطورية ، لا يجد الطفل أمامه وسيلة تعينه على اختيار نموذجاً يقتدى به كما هو الحال عندنا ، وفضلا عن هذا فإن ميل الطفل أو ما قد نسميه نزعة الطفل فى مانوس إلى أن يتخذ من أبيه مثالا يحتذيه قد أغنته عن البحث عن شخص آخر يتشبه به . ولا شك أن القارىء يذكر قوة الرابطة بين الأب وابنه الصغير ، وكيف يتبع الطفل أباه كظله خلال أعماله اليومية ، وكيف يراقبه وهو يضع الخطط أو هو يتشاجر ، وحين ينهمك فى عمله ، وحين يلهو أو حين يحادث أرواح أجداده وحين يصرخ فى زوجته ولقد رأينا كيف كان أطفال كبار أهل القرية يتميزون عن أطفال الشبان أو الفاشلين من أهلها ، وأكثر من هذا كله ، رأينا كيف حدث اتصال وثيق بين شخصية الأب البديل وشخصية ابنه بالتبنى كما لو كان ابنه الحقيقى ومن دمه ، وكيف فاقت هذه الصلة صلة الأب الحقيقى بابنه الذى فارقه بعد أن تبناه رجل آخر يختلف عن الأب الأصيل فى الشخصية والمركز الاجتماعى . ويؤكد هذا الدليل على أنه مهما كانت أهمية الوراثة — وهى عامل لا نستطيع قياسه حالياً — فإن الطفل يتأثر إلى حد كبير بصلته الوثيقة بأحد البالغين . وقد أوجد أهل مانوس عن طريق شدة رعاية الكبار لأطفالهم عاملا اجتماعياً ممتازاً يستطيع أن ينقل معالم الشخصية من جيل إلى آخر .

وليس هذا مجرد وسيلة لكى يحتفظ الجيل القادم بالتوازن الذى كان موجوداً عند الجيل الذى يسبقه بين الفرد الحازم والمتردد ، أو بين المشاغب والوديع ، فإذا أنجب رجل خمسة من الصبيان فإنه ينجبهم عادة فى مراحل مختلفة من حياته . وعلى ذلك يكون الابن الذى ولده فى شبابه ذا مزاج هادىء مسالم أكثر من الولد الذى ولد له فى قمة مجده . وقد يكون هذا هو أحد الأسباب التى من أجلها لم يكن للابن البكر نفوذ كبير فى مانوس ، بل إن الأبناء الأصغر يسيطرون عادة على إخوتهم الأكبر منهم سناً (وفى حالات فردية كان الاختلاف فى القدرة العقلية هو السبب فى تغلب الابن البكر) وقد ينحرف التوازن المزاجى من جيل لآخر تبعاً لأحداث الميلاد وتاريخ التبنى ، ولقد كان عند باليو وهو شخص كثير المشاغبة ، ولد واحد أما أخوه الهادىء الوديع المحافظ ماتشن فكان لديه أربعة أولاد ، ثم حدث أن تبنى باليو أحد أولاد أخيه ماتشن ولكن التبنى حدث فى فترة متأخرة بحيث لم يتيسر للغلام أن يتقمص شخصية أباه البديل بدرجة كبيرة ، وحيث نجد عشرة رجال أو خمسة عشر يتحكمون فى مصير المجتمع فإن ثلاثة أو أربعة أشخاص من ذوى الشخصيات القوية المشاغبة يؤثرون تأثيراً كبيراً فى هذا المجتمع .

ومن المثير أن نقارن أساليب أهل مانوس ، لا بأساليبنا فقط ، بل بأساليب شعوب أخرى من سكان جزر البحر الجنوبى كأهل جزيرة ساموا مثلا ، ففى ساموا تعتبر فكرة المركز الاجتماعى كأحد الدوافع للأطفال ولكنهم فى الوقت نفسه لا يتلقون توجيهاً فردياً بالنسبة لهذا الدافع ، نظراً لأنه غير مسموح لهم بالاقتراب من الأشخاص ذوى النفوذ الاجتماعى فالأطفال هناك يطردون من حضرة الكبار ، ويوكل إلى العجائز من النساء وإلى الغلمان مهمة رعايتهم ، وعلى هذا ليس هناك أى ضمان لكى يصبح ابن الرجل القوى قوياً مثل أبيه ، ولكن فكرة المركز لها بعض التأثير على شخصية الطفل ، فإذا كان ابناً أو قريباً لزعيم فرضت عليه بعض المستويات العالية ، وتكون محاولاته للاستجابة لها وللتمشى معها أقوى مما يقوم به زملاؤه . ولكن عبارة « إنك ابن الزعيم » تكون بمثابة

دافع لبذل الجهد ، وليست كبتاً كيدنا للبيت على نجاح الأب الذى يخيف ويشوه نمو الابن ، والتأثير على شخصية الطفل فى سلموا طفيف نسبياً ، فالأطفال الصغار يختلفون اختلافات بسيطة فيما بينهم ، وهى اختلافات تقل كثيراً عن مثيلاتها فى جزيرة مانوس ، وحين يكبر هؤلاء الأطفال ويصبحون شباناً يبدأ زعماء القرية فى الاهتمام باختيار من يخلفونهم على زعامتها ، وبذلك تتاح الفرصة للشبان — وقد تميزت معالم أخلاقهم — لتقليد الرؤساء ولكن قبل هذا الوقت ولفترة تتراوح بين الستة عشر أو السبعة عشر عاماً ، كان العامل البشرى المسيطر على سلوك شباب جزيرة سلموا هو الجماعة المماثلة فى العمر وليست شخصية أحد الأشخاص الأكبر سناً .

ولقد كان نفوذ الجماعة من نفس العمر من القوة على شخصية الطفل هناك بحيث أصبحت فكرة المركز ، والصلات التى تجىء متأخرة بأصحاب النفوذ من كبار الرجال قليلة الحيلة إزاءها ، وإذا قارنا رجال سلموا برجال مانوس ، لراعنا شدة التشابه بين أفراد الفريق الأول ، فإن العادات المكتسبة والسلوك العام الذى يتناسب والمركز الاجتماعى بدرجة تفوق تناسبه مع النزعات الطبيعية ، أو المواهب الفطرية ، قد أدى إلى صب هذا الفريق فى قالب واحد .

أما فى مانوس فليس لجماعة الأطفال الذين يجمعهم تقارب العمر أهمية كبرى بالنسبة للطفل ، فهم كأفراد يستجيبون للفروق الموجودة بين آبائهم ، وهى فروق أساسها الأول السن ، والمركز الاقتصادى ، والنجاح فى الحياة العملية ، ويتوقف هذا العامل الأخير على الذكاء إلى حد ما ولكنه يتوقف إلى حد أكبر على الشراسة ، والمبادرة ، وبذل الجهد .

وهكذا نجد فى مانوس ثلاثة أنواع رئيسية من الشخصية : شخصية الرجل المحب المشاكس العنيف فى تصرفاته ، المسيطر على غيره . ويوجد هذا النوع فى الرجال الأغنياء المتقدمين فى السن وفى الأطفال من أبناء أولئك الرجال الذين تبنوهم وهم بعد صغار ، والذين لم يصلوا إلى سن الزواج . أما النوع الثانى من

الشخصيات فهو شخصية الشبان المعتدين بذاتهم ولكنهم أقل شراسة وعنفاً من الفريق الأول لأنهم لم يصلوا بعد إلى مستوى الأمن الاقتصادى ، ولكنهم وجدوا فى طفولتهم بداية حسنة ، وكذلك أطفالهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة النضج . أما النوع الثالث فهم أولئك الرجال ذوى الشخصيات الهادئة المسالمة الخانعة ، وهم من المتقدمين فى السن الذين لم يحققوا نجاحاً اقتصادياً أو الذين بدأوا حياتهم بداية سيئة ، أو الذين لم يتمتعوا بقدرة عقلية كبيرة ، وكذلك أبناؤهم . ويحرص المجتمع هناك على أن يضم عدداً من الرجال الناجحين الذين حبتهم الطبيعة بالطاقة والقوة فى كل جيل من أجياله . وكما هو الحال فيما يزيد على نصف الحالات ، يلاحظ أن ورثة الرجال الناجحين . إما أبناؤهم أو على الأقل من أقاربهم ، الأمر الذى يترتب عليه وجود نظام يعتمد على ارستقراطية الشخصية ، ومن شأن هذا النظام أن يستمر عن طريق تدعيم نفسه ، وينتج عن هذا النظام فروق فردية قوية بين رجال أصغر القرى مساحة ، ويهيىء جواً ديناميكياً لا يوجد فى سلموا رغم أن الشخصية هناك مشبعة بفكرة الزعامة . فهذا الشعب اليقظ غير المستقر يشعر بالثقافات الأخرى التى يحتك بها ، وهو سريع فى اقتباس أفكار الجنس الأبيض واستغلالها فى مصالحه الخاصة . ولا تعتمد استفادة شعب سلموا من حضارة الجنس الأبيض على نشاط أفراد معينين ولكن على مرونة أسلوب الحياة هناك حيث لا يعطى اعتبار كبير للفردية ، وليس هناك مشاعر قوية أو آثاماً فادحة يجب دفعها . أما فى مانوس فيوجد صراع كبير ، وتصادم قوى بين كل نوع وآخر ، وهناك ميدان لنمو مشاعر أشد قوة . فنظام أهل سلموا نظام جميل يساعد على تحويل الجوانب الخشنة من الطبيعة البشرية إلى نواحى وديعة لا ضرر منها . أما نظام أهل مانوس فهو وسيلة لاحتكار الشخصية وتسخيرها لصالح المجتمع .

ونحن فى أمريكا لا نتبع واحداً من النظامين . فقد أدى ضمور دور الأب فى الأسرة وتحوله فى نظر أطفاله إلى مجرد زائر ليلى مرهق غير محبوب ، إلى تعذر تقليد الإبن له تقليداً مفيداً . وإذا عن لأحد الأطفال أن يتقمص شخصية أبيه

فإنه يتناول الجوانب البارزة العامة من سلوك الأب ، كثيابه ، وقوته البدنية ، وصوته العميق ، وتلك الجوانب التى يصعب على طفل الخامسة بالذات إتقان تقليدها . وكما ذكر لى صبى صغير ذات يوم فى أسى أنه لن يكون يوماً فى ضخامة حجم أبيه لأنه لا يستطيع إتيان نفس الصوت الذى يأتيه أبوه وهو يتمخط . فالأب هو الشخص الذى يمكنه أن يحمل الطفل بين ذراعيه ، والذى يأتى إلى البيت ليلا ، ولا يغادر البيت فى أيام الآحاد ، ويقود السيارة ويحضر النقود ، ويحلق ذقنه كل يوم وله صوت جهورى . ومثل هذه الصفات تنطبق على مئات الرجال فى أى مجتمع من المجتمعات . والطفل يضطر إلى أن يتمثل بإنسان يلبس بنطلوناً طويلا . ولا يمنح الطفل الفرصة التى تمهد له أن يتصل بأبيه اتصالا وثيقاً يمكنه من أن ينظر إلى أبيه كفرد متميز لا على أنه واحد من جنس الذكور .

ولقد جرى العرف فى مجتمعنا على اعتبار أن إنجاب الأطفال إنما هو من اختصاص النساء فقط ، وأنظر إلى الاهتمام الزائد الذى تبديه النساء بمشاكل التربية ، والصحة ... الخ . وقارنه بما تلاقيه هذه الموضوعات من إهمال الرجال لها فالطفل هو شغل أمه الشاغل حتى يبلغ السادسة أو السابعة ، وينشأ عن هذا مشاكل خاصة بالتكيف تشبه المشاكل التى تواجهها الفتاة فى مانوس ، فان التشبه بأفراد من الجنس الآخر أمر لابد من حدوثه فى عالم مختلط ، وحين يبلغ الطفل سن السادسة أو السابعة تتكفل به نساء أخريات تبدأ بالأم ثم المربية ثم المدرسة، ثم رئيس فريق اللعب ، وهكذا يمر الأطفال فى طابور طويل يحول بينه وبين أى اتصال حقيقى بالرجال ، ويقوم نفوذ النساء مقام ستار من الدخان تظهر من خلاله صورة الأب باهتة مطموسة وغير حقيقية ،وحين يستجيب الطفل للأب المسيطر فإنه لا يستجيب له بطريقة إيجابية مشوقة كما هو الحال فى مانوس ، ولكنه يستجيب بطريقة سلبية يملؤها شعور بعدم الارتياح والفشل المحتم ، ولو تسنى لأهل مانوس أن يروا الطابور الطويل من الأبناء الفاشلين الذين كان آباؤهم من أنجح الأشخاص عندنا لظهر الإشفاق على وجوههم لا سيما بالنسبة للفاشلين من أبناء مشاهير الرجال .

ومهما كانت ثقتنا فى القدرات الموروثة ، أو فى تأثير التدريب المبكر فإن الرجل القوى يجب أن ينجب أبناء أقوياء ، ويجب أن يحتفظ كل جيل بمكاسبه وينقلها إلى الجيل الجديد ، لا أن نبعثرها أو أن ندعها تسمم حياة أبنائنا التعساء . ومن الصور المحزنة ما نراه فى حياتنا المعاصرة المفتقرة إلى تدريب الصغار كما فى مانوس ، وإلى عنصر المركز كما فى ساموا كيف أن مكاسب أحد الأجيال لا يستفيد منها ذريته .

ويرجع فشل الأطفال عندنا فى التشبه بآبائهم إلى تذبذب المبادىء السريع وإلى اختلاف وجهات النظر بين الآباء والأبناء . وتؤكد نتائج دراسات ميدل تون Middletown هذا القول : فقد أبدى عدد قليل من الأطفال هناك رغبتهم فى أن يقوموا بنفس الأعمال التى يقوم بها آباؤهم فالطفل يميل إلى الاعتقاد بأن أباه عبارة عن قوة غامضة يجب أن يحسب حسابها ، ومصدراً لكسب العيش يكثر من الشكوى والتذمر ويرفض فى بعض الأحيان أن يسمح بالمصروف اليومى الذى يطالبه الطفل . وينظر الطفل إليه أيضاً كأحد أفراد العائلة الذى يمكنه الوقوف فى وجه أى مطلب مستغلا فى ذلك تفوقه الجثمانى ، وإمكانياته المادية ، وقد يرى فيه عجوز متزمتاً لا تلقى آراؤه العتيقة إلا الزراية والسخرية من الجيل الجديد .

وعلى الطفل الذكر إذا أراد أن يحقق أى تكيف مفيد مع الكبار ، أن يتشبه بطريقة ما بأبيه أو بأى شخص آخر من البالغين . ومهما كان متعلقاً بأمه ومهما كان حدبها عليه ، ومهما كانت مثاراً لإعجابه وولائه ، إلا أن الأم لا تستطيع أن تمنح طفلها الذكر أسلوباً يسير عليه فى حياته . وإذا كان تشبثه بها شديداً فقد يؤدى هذا التعلق إلى تعطيل نضوجه الوجدانى ، وإذا حاول أن يتشبه بها عرض نفسه لخطر أن تصبح شخصيته منحرفة أو على أحسن الفروض يتكيف تكيفاً عاطفياً غير سليم ويكون مبعثاً للسخرية . وأن الثمن الفادح الذى يدفعه الطفل فى حياته العائلية ينشأ عن مقاومته لأبيه وشدة اعتماده على أمه وهو غلام

أو طفل والعكس بالنسبة للبنت . وتدفع البنت فى مانوس هذا الثمن حين تتشبه بأبيها على حساب علاقتها بأمها ثم تكتشف حين تبلغ السابعة أو الثامنة ما ارتكبته من خطأ فى حق نفسها ، وأن أساوب الرجال لا يناسب شخصيتها بأية صورة من الصور .

ونحن لانهيء للصبيان ظروفا أحسن من هذه ، بل نحن نرتكب خطأ أكبر حين نلقى على عاتقه مسئولية واجبات فوق طاقته فنحن نحيطه بحنان الأمومة ، ونقدم له أبوه فى صورة صوت لاذع لكى نبرز له دور أمه فى صورة الحاكم العطوف . وخلال سنوات حياته الغضة يتفاعل مع نساء ، لا يستطيع أن يتخذ منهن نماذج يقتدى بها مهما كانت درجة اهتمامه بهن وإعجابه بسلوكهن . وهكذا حين يجد نفسه عاجزاً عن التشبه بالرجال القلائل الذين يعرفهم لأنه محروم من صحبة الذكور ، فإنه يضطر إلى أن يتحول نحو رفاقه فى السن وهنا يقع تحت تأثير رفاقه فى السن ذلك العامل الذى يساوى بين الأفراد ويمحو الفوارق بينهم . ويشتد عندنا اهتمام الشباب بأن ينال إعجاب رفاقه مع الاستهانة بآراء الأفراد الأكبر منهم سنا وعدم الاكتراث أو الشعور بالمسئولية تجاه الأطفال الأصغر سناً . وهكذا نفقد وسيلة ثمينة لنقل مكاسب جيل إلى الجيل الذى يليه فالكبار وقد فقدوا أى اهتمام بالأطفال لا يظهرون أية عناية ولا يستحثون الشبان على أن يهتموا هم أيضا بالأصغر منهم سنا . وهكذا أصبحت كل جماعة مستقلة فى دائرة خاصة بها ، تتحرك داخلها فى خمول وبلاده ، وليس لنشاطها أى فائدة أو تأثير .

أما مدى فاعلية نظام الجماعة وأثره على الفرد فيظهر فى ساموا ، فمن الممكن أن تسود معايير العمر العامة كل ما عداها من مقومات الشخصية الفردية ، كالمواهب الخاصة ، والفروق المزاجية ، وبذلك يتيسر للنظام الاجتماعى أن يستعيض عن هذه المظاهر الخاصة فى الفروق الفردية فى الحياة الإنسانية ، بحلقة من الصور التى تمتد من الميلاد حتى أقصى عمر فى الشيخوخة ، وتعتمد كل صورة

منها على معايير العمر ومستوياته ، بيد أن قبول المجتمع لمبدأ معايير العمر معناه التضحية بالفردية ، ولا شك أن هذا المقياس مطاط ، يسهل الوصول إليه ولكنه غير مثمر فى نواحى الخلق والابتكار . إن معايير الكبار التى طورتها السنون الطويلة من الحياة الواعية العميقة يمكن أن ينقلها الأب إلى أولاده ، والمدرس إلى تلاميذه ، ولكن لا يمكن أن نقوم بتوزيعها بالجملة عن طريق السينما أو الراديو أو الصحافة اليومية . وإذا وجه نداء عن طريق إحدى هذه الوسائل إلى الآلاف من المستمعين أو القراء فإنه لا يحدث الأثر المرجو لأنه لا يكون من العمق أو الحرارة بحيث يستطيع أن ينتقى نواحى معينة من مزاج الطفل فيعطيها الشكل والتنظيم . أما الاتصال الشخصى بالكبار الراشدين المهتمين برعاية شئون الشباب ، وتنمية شخصياتهم واهتماماتهم فهو العامل الوحيد الذى يمكنه أن يوقف تيار الوسائل التجارية التى تبين كيف يشعر الشاب فى التاسعة عشرة وما رأى ناظر المدرسة الثانوية

وعلى هذا فنحن نقاسى من مثالب التربية فى ساموا وفى مانوس وفى نفس الوقت لا ننعم بمحاسن أحدهما . ففى ساموا لا يحمل الطفل أى ولاء عاطفى لأبيه أو لأمه . بل إنه يندمج فى جماعة منزلية كبيرة تتألف من الكبار البديلين عن الأب والأم . ولما كان الطفل طليقاً من أى قيود وجدانية ، فإنه يجد إشباعاً كافياً فى علاقاته مع أفراد جماعة من نفس السن ، فالطفل فى ساموا لا ينتظر ثواباً ولا عقاباً فى حياة الأسرة . أما أطفال مانوس فإن قيود الأسرة تشدهم إليها بصورة يستحيل معها أن يقوموا بأى تكيف خارج إطارها . ولكن إلى جانب هذا فإن الطفل الذكر من مانوس يتلقى أحسن ما يمكن أن تقدمه له هذه الروابط الوثيقة ، وهو الشعور النابض الحى بشخصية أبيه .

والأطفال فى أمريكا ليسوا كأطفال ساموا ، طليقين من أية مطالب من ناحية الشعور القوى ، وهم ليسوا أحراراً يتلمسون الطمأنينة فى بشاشة رفاقهم ورضاء الجماعة عنهم . كما أن أطفالنا ليسوا كأطفال مانوس من ناحية العلاقة

الوثيقة التى تربطهم بآبائهم والتى تيسر لهم فرصاً للتمثل بهم والاقتداء بهم بصورة سعيدة . فهم مقيدون بجماعة الأسرة حيث تمتص الأم كل عواطفهم ، ومع ذلك لا تهيىء لهم مثالا يستطيعون الاقتداء به ، فهى تفرض عليهم عدة التزامات تقلل من شعورهم بالسعادة مع رفاقهم فى السن . كما أن ظل أبيهم يقف حائلا بينهم و بين نشاطهم ويحول دون الاستمتاع به .

وفتياتنا أحسن حالا من فتياننا ، فإذا كانت الفوارق بين وجهات نظر البنت والأم ليست شاسعة بسبب تغير المقاييس الاجتماعية ، كان فى استطاعة البنت أن تبدأ فتتشبه بأمها التى تهيىء لها أسلوباً من الحياة تسير على منواله . والصراع بين الأب وابنته ليس فى قوة الصراع بينه و بين ابنه ، وعلى ذلك فليس للأب على ابنته ذلك الأثر الكئيب الذى يشعر به الابن .

ومن الممكن التكهن بأن حياة البنت العاطفية تكون أكثر انطلاقاً من حياة أخيها نظراً لأن الأم تهيىء لابنتها أسلوباً من الحياة تسير عليه ، أما بالنسبة للابن فإن أمه تمثل عائقاً انفعالياً يجب عليه أن يتخطاه .

وفى المدرسة كما فى البيت نجد الفتيات أكثر حظاً من إخوتهم . ولا يخفى علينا أن الاهتمام بالفنون واستغلال أوقات الفراغ ، ونمو الشخصية كل هذا قاصر تقريباً على نساء هذا البلد . كما لا يخفى علينا أن دراسات الأدب الانجليزى تتجه إلى اجتذاب الممتازات من الفتيات ، والضعاف من الفتيان . وتدل دراسات البلاد الأخرى على أنه ليست هناك مواهب أدبية خاصة عند الفتيات . بل إن الذين يدللون على نظرية تخلف الفتيات يجدون الكثير من الشواهد التى تدحض نظريتهم هذه . أما فى أمريكا فالاشتغال بالآداب لا ينظر إليه على أنه عمل يليق بالرجال وقد يعود السبب الأكبر فيما آلت إليه الآداب من مركز منحط إلى كونها تدرس على يد مدرسات من الأناث لا يمكن للطلبة الذكور أن يتشبهوا بهن

وليس من صالح أى مجتمع أن يتجاهل أهمية وسائل اختيارات أطفاله ،

أو أن ينكر على الجنس الذى يستأثر بحرية أكبر فى المساهمة فى خدمة مجتمعه ، حق وجود مثير لا يمكن الحصول عليه إلا عن طريق العلاقات الشخصية الوثيقة ففكرة الأولاد الذكور فى أمريكا عن مرحلة الرجولة فكرة مشوشة ، عامة ، ليست فيها أية اختلافات . أما رغباته فهى لا تفضل فكرته فى أى شىء ، فهو يرغب فى جمع الثروة ، فى أن يحقق النجاح فى حياته العملية ، ولكنه لا يشير إلى أية اهتمامات خاصة . والفرق بين ما يمكن أن نصنعه من أبنائنا وما نصنعه فعلا بهم هو مثل الفرق بين قطع فنية جميلة صنعها فنان شغوف بفنه و بين قطع أخرى كانت من إنتاج بعض الآلات . غير أن الاعتراضات التى تقول بأن الحياة تصبح أكثر إمتاعاً عن طريق الآلات وما توفره من وقت وجهد لا يمكن أن تنطبق على الكائنات البشرية انطباقها على قطع الأثاث والتحف الفنية . أما أولئك الذين يدعون أن عصر الآلات الذى نعيش فيه هو الذى جعل الأفراد يتحولون إلى نوع واحد متشابه فهم يستنتجون هذا الرأى عن طريق معالجتهم للمشكلة من زاوية واحدة و بطريقة فيها الكثير من التحيز وقصر النظر .

ورغماً عن أن هناك اتجاهات قليلة تعارض قيام المدرسات الإناث بتربية الذكور من الأطفال ، فهناك عدة مدارس قاصرة على الذكور ، يقوم بالتدريس فيها مدرسون من الرجال ، وهناك تصريحات صريحة من الإخصائيين الاجتماعيين ومن المحللين النفسانيين تنادى بحاجة الطفل إلى وجود الأب . إلا أن معظم أطفالنا الذكور لا زالوا تحت قبضة النساء . ويبدو أن أولادنا الذكور محكوم عليهم أن يتحولوا بالأحرى إلى صورة بليدة خاصة « بجنس الذكور » لا أن يصبحوا هم أنفسهم « رجالا » لهم اعتبارهم وقيمتهم الفعلية الواقعية .

الفصل الخامس عشر

إطلاق العنان للخيال

تعرضنا فى الفصل السابق للطرق التى تتكون بها شخصية الطفل العادى ، والخسارة التى تلحق بالمجتمع إذا فشل أفراده المبرزون فى إنجاب أولاد لهم نفس خصائصهم . وقلنا إن التشبه بأشخاص من الأحياء من بين الوسائل التى تحفظ على المجتمع بعض صفاته الهامة ، وتضمن للجيل القادم قادة أقوياء جديرين بالمهام التى تنتظرهم منذ ساعة مولدهم . وهناك عملية لها نفس الأهمية إن لم تزد أهميتها ، وهى عملية تشكيل تلك الشخصيات التى كتب عليها القدر فى صفحاته مهمة تغيير المجتمع ، وبناء دعائم جديدة للفن أو للفكر ، وأحياناً تحقيق الأحلام البعيدة كالقيام بثورات اجتماعية أو سياسية . هؤلاء الأشخاص الموهوبون الذين يقفون مدافعين عن القضايا الجديدة ، أو يضيفون أحداثاً فى الأدب أو الفن ، لم تكن نزعاتهم هذه وليدة تقمص شخصية أحد ممن يعرفونهم (ولو أنه قد تؤدى ثورة الفرد ضد أبيه أو ضد من يقوم على تربيته إلى اختيار هذا الطريق) . بل إنهم يبنون خلال اتجاههم هذا مفاهيم شاذة وغريبة عن الحياة ، وقد تهديهم لمحات من بعض الأحداث الماضية ، أو الحضارات الأخرى . ومن مزيج هذه العناصر يستخرجون عنصراً جديداً .

ولكن أكثر هؤلاء المجددين عبقرية لابد وأن يعتمد على عاملين : الأول الحاجة الاجتماعية الخاصة التى أحس بها فى حياته الشخصية والثانى هو المواد الخام الوفيرة التى بنى بها أفكاره الجديدة . فبدون الشعور بالحاجة ، لا يكون هناك مثيرات لقدرات التخيل ، وبدون المواد الخام لا يكون هناك ما يغذى تلك القدرات . وعلى هذا فمن المفيد هنا أن نقارن بين إمكانيات الخلق التخيلى التى يهيئها كل من مجتمعى مانوس وأمريكا لأطفاله .

ونحن نقصد بالحاجة المحددة اجتماعياً تلك الحالة التى تهيىء فى المجتمع نوعاً خاصاً من العلاقات الإنسانية يقرأ الطفل أو يسمع عنها ولكنه لا يلمسها ، فى حياته الخاصة ، بل يشعر بافتقاره إلى وجودها لديه هو شخصياً . وهذه الحاجات تكون على عدة أنواع : فقد يتعلم الطفل من المجتمع أن كل طفل يجب أن يكون له أب وأم أو مربية أو مربية فرنسية أو مدرسة أو صديقة أو إله .

ومثل هذه الحاجات قد تختلف فى طبيعتها من عدة وجوه . ولكن مهما تكن تلك الحاجات فإن بعض الأطفال قد يستجيبون لها ببناء قلاع خيالية وكلنا يتذكر الرفيق الغير منظور ، والأب الخيالى وتجربة الحب التى نتخيل مرورنا بها. أما مالا نستطيع إدراكه بوضوح فهو أن هذه كلها ليست من حاجات الإنسان الأساسية . فالمجتمع الذى يعتمد على ممارسة أعمال السحر لا يعلم أطفاله أنهم فى حاجة إلى إله ، أو أية شعائر دينية خاصة ، والمجتمع الذى لا يعترف بالحب العاطفى لا ينتج شخصاً مثل جيمس برانش سابل James Branch Cabell ولا مثل ألدوس هكسلى Aldous Huxley والأطفال الفقراء لن يتشدقوا بوجود مربية فرنسية ليست موجودة فعلا ولن يأسفوا لأنهم لا يستخدمون واحدة .

ومن أكثر الحالات التى تتيح للطفل فرصة تخيلها هى حالة وفاة أحد الوالدين ، وأحياناً حين يفشل الأب فى تحقيق فكرة الطفل عما يجب أن يكون عليه الأب من صفات . وتحدث هذه الحالة الأخيرة حين يقع الطفل تحت تأثير قراءاته أو تحت تأثير الأطفال الآخرين ، فيجد أن والديه لا يحققان صورته عنهما فعندئذ يختلق القصص عن تبنى شخص آخر له ، أو عن حادثة خطفه وهو لا يزال طفلا صغيراً ويؤكد المشتغلون بعلم نفس الطفولة تكرار حدوث هذه التخيلات لدى أطفالنا ولم يصادفنى فى مانوس أطفال حرمهم المجتمع من الوالدين . فإن ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال ، وما يكنه الكبار من شغف بالأطفال وتقدير لقيمتهم جعل الكثيرين يتوقون دائماً لتبنى طفلا من اليتامى . ولم يكن هناك إلا طفلا واحداً فقط فى بيرى وهو بوباو Bopou مات أبوه ولم يجد له بديلا .

وكان هو الطفل الوحيد الذى ادعى أنه يخاطب الأرواح وأن روح أبيه سورى Sori تحدثت معه . ولكن حتى هذا الغلام لم يتشبث بذكرى والده إلى درجة رفض شخص آخر يحل محله ، بل نحن نتذكر أنه رحب متلهفاً بقبول باتاليان ليكون أباً بديلا له فى الفترة القصيرة التى قضاها معه وقبل ذلك كان يتابع خطوات ابن عم له كان أكبر منه سناً وهو يرجو و يأمل أن يتبناه . إن الضغط الاجتماعى فى مانوس هو الذى يجعل كل طفل راغباً فى حصوله على أب عطوف أقوى مما نلمسه عندنا ، ولكن عادة التبنى ، وقلة عدد الأطفال هناك جعل وجود طفل بلا أب من الحالات النادرة .

وضرورة اجتماعية أخرى ، وهى ضرورة من الصعب إشباعها عندنا وهى شعور الأطفال اليتامى عندنا . فمن الحالات البارزة التى صادفتنى حالة طفلة غير شرعية كانت أمها تدافع عن حق المرأة غير المتزوجة فى إنجاب أطفال . ولم تكن الطفلة تعلم شيئاً عن والدها ؛ فهى لم تره من قبل ولم تسمع أحداً يذكر إسمه أمامها . ومع ذلك فإنها عندما ذهبت إلى روضة الأطفال وسمعت الأطفال الآخرين يتحدثون عن آبائهم ، بدأت هى الأخرى تمارس سيلا متدفقاً من الصور الخيالية عن أبيها . فقد كانت تصيح بأمها مثلا « ماما لماذا أذهب إلى النوم مبكرة ؟ إن أبى لا يدعنى أنام قبل منتصف الليل » أو « فى بيت أبى يظل الجميع ساهرين طول الليل » أو « لقد أعطانى أبى حفنة من النقود أنفقها كما أشاء » وفى هذه الأمثلة نرى الدور المزدوج الذى تلعبه تلك الصور الخيالية ، فهى تعوض الطفلة عن إحساسها بالاختلاف عن باقى الأطفال ، وتعطيها وسيلة لنقد أمها ، ونظام أمها فى الحياة . أما فى مانوس فيعوض الطفل عن نقد أبيه بأن يقوم رجل آخر بتبنيه بدلا من الأب المتوفى و بذلك يملأ الأب الجديد الفراغ بطريقة واقعية محسوسة ولا يدع فرصة لأى مخلوق خيالى أن يخطر فى مخيلة الطفل .

وطفلة أخرى فى الثالثة من عمرها كان والداها من الأدباء . وكان كثيراً

ما يؤم منزلهم جماعات من المشتغلين بالأدب ، ولما كانت هى الطفلة الوحيدة فإنها كانت دائمة الاختلاط بالكبار ، ولم تكن تسمع إلا الأحاديث الأدبية . ولكى تأخذ لها مكاناً مناسباً فى ذلك العالم المحدود ، لجأت إلى اختراع فرقة كاملة من الأصدقاء الأدباء كانت تقول عنهم إنهم شعراء ولا يهتمون بالنثر نكاية منها فى أبويها اللذين كانا يشتغلان بكتابة القصص . وكانت الأحداث التى تخترعها غريبة فى تعقيدها وفوق مستوى تفكير طفلة فى الثالثة من العمر ، وفى اليوم الذى وصلت أسرتها إلى انجلترا عمدت إلى ابتكار شخصية ناقد إنجليزى أطلقت عليه فى عبقرية مذهلة مستر ستس واتس Mr. Stuts Watts ، وعندما ذهبت إلى فرنسا لجأت فى الحال إلى اختراع جماعة من الأصدقاء الفرنسيين وسمتهم أسماء لها رنين فرنسى ولهم سلوك الفرنسيين . ونظراً لأنها كانت طفلة ذات قدرة خارقة فى مجال الخيال فإنها تعتبر مثالا ممتازاً لعملية ملء الفراغ . فإن الوسط الاجتماعى الذى كانت تعيش فيه تطلب منها أن تتخيل أصدقاء من الأدباء ، وعلى ذلك فقد اخترعت هؤلاء الأصدقاء فى الوقت الذى كان فيه الأطفال الآخرون يخترعون أصدقاء أشداء السواعد أو ممرضات يرتدين ثياب التمريض . أما الخامات التى كانت تتكون منها هذه الصور الخيالية فقد استمدتها من الأحاديث الأدبية التى كانت تجرى من حولها .

وطفلة أخرى كان لها أخ واحد بينما كان لكل أصدقائها ولكل الشخصيات التى قرأت عنها فى الكتب أخوات من البنات . وعلى ذلك فقد تخيلت قصة طويلة عن أخت توأم لها اختطفها اللصوص عند مولدها ، ولا زالت ترجو أن تعود اليهم فى أحد الأيام . وقد ظلت هذه الطفلة خلال أربعة أعوام والبحث عن تلك الأخت التوأم يشغل معظم أحلام يقظتها ، وكانت فى بعض الأحيان تذهب فتبحث فى المغارات المهجورة وفى الخرائب المهدمة حيث كانت تعتقد أن اللصوص يختبئون هناك ومعهم الأخت التى كانت تتلهف على وجودها واتخاذها رفيقة لها وموضع أسرارها .

ولا يوجد فى مانوس مثل هذا الفراغ فى حياة الأطفال الاجتماعية فيما عدا بعض حالات نادرة فليس هناك طفل بلا رفيق يلعب معه ولذلك فليس هناك ما يدعو إلى توهم صاحب خيالى ؛ ولا يحب الأطفال أرواح الأطفال الموتى فليست لهم حيوية الأطفال الأحياء وهم لا يشبعون حاجة أو يسدون فراغاً . ولا يهتم الأطفال بأمهاتهم مع أنهم موجودات .

ولا تشعر جماعات الأطفال بأيه رغبة فى تقليد حياة الكبار الاجتماعية ؛ فقد تعلموا منذ الصغر أن يتجاهلوا الكبار ، وهم لا يشعرون بأى حاجة لكى يبنوا لأنفسهم نموذجاً لدنيا الكبار ، مثلهم فى ذلك مثل أبناء الأغنياء الذين لا يلجأون إلى ادعاء تمثيل أساليب حياة الفقراء ، أو من يستهينون بأمرهم والنتيجة أن الأطفال هناك ، أفراداً كانوا أو جماعات ، لا يشعرون بالحاجة إلى الخيال يبنون فيه قلاعاً من نسيج أحلامهم . فألعابهم وأحاديثهم صريحة واقعية ولا يرجع السبب فى هذا إلى فقرهم فى القدرة على التخيل . فقد حدث ذات مرة أن صبياً صغيراً من مانوس كان يعمل لدى أسرة من البيض فى دار الحكومة وقد سمعته مخدومته وهو يقص على أحد الزائرين قصة رائعة عن رحلة زعم أنه قام بها إلى مدينة سيدنى والعمل الذى التحق به فى إحدى البواخر ، والثياب الفاخرة الرسمية التى كان يرتديها والتى كانت هدية من أهل مدينة سيدنى لبراعته فى لعبة الكريكيت ، وأخيراً كيف عاد إلى مانوس لأن الجو فى سيدنى لم يعجبه . لقد كان هذا الطفل يتلهف إلى أن يكون فرداً هاماً من العمال العائدين ؛ ولما كان يعمل فى جزيرته الأصلية ولا يبعد عمله عن مسقط رأسه إلا مسافة لا تستغرق أكثر من ساعات قليلة ، فكان فى الواقع صغير الشأن فى القرية ولذلك فإنه انتهز أول فرصة صادفته ليقص على ضيف ساذج ما قام به من مغامرات نسجها خياله ، وقد استمد أحداث قصته هذه من القصص التى كان يرويها العمال عند عودتهم من زيارتهم لمدينة سيدنى حيث كانو يقومون بتربية أطفال البيض .

ولا يشعر الصبيان بأية حاجة اجتماعية إلا بعد بلوغهم العقد الثانى من عمرهم فعند ما يفقدون آباءهم فإنهم يشعرون بالوحدة الشديدة و بأنهم أصبحوا عاجزين اجتماعياً . وفى هذه السن يلجأ الصبى إلى اللعب الإيهامى ، فيقيم الشبان جلسات زائفة لاستحضار الأرواح فى دار الشبان . (كما أنهم يعيدون تمثيل حوادث الزنا التى كان مسموحاً بها فى الجيل السابق بدون أى عقاب) و ينطلق خيال الصبى طليقاً بلا قيد متصوراً أباه فى عالم الأرواح ، وهنا نصادف النزعة التخيلية الوحيدة حياة مانوس . أما خرافاتهم فهى باهتة بدائية ، لا تعدو قصاصات من التقاليد الخاصة بجنسهم . وحياتهم اليومية حياة قوامها الواقع العملى والأحداث الحقيقية . وتسيطر المصالح الاقتصادية على علاقاتهم الاجتماعية ، ولهذا فإنها هى الأخرى واقعية مادية ولغة أهل مانوس لغة جرداء بسيطة لا تتخللها أية استعارات أوتشبيهات تخيلية ، ولا تثير فيهم أية رغبة لنظم الأشعار . كذلك رقصهم رقص تقليدى بحت وهو لا يسمح بأى مجال للتجديد . ويلعب خيالهم دوره فى مجال واحد هو ذلك العالم المجهول الذى تحتله الأرواح . ولكن خيالهم بالنسبة لهذا العالم خيال تافه بسيط . فهم يدعون أن الأرواح تهتم اهتماماً شديداً بالسلوك السوى للأحياء ، ومراعاتهم لقواعد الشرف ، ولذلك فإن الفرد يتخيل أباه بعد انتقاله إلى العالم الآخر فى صورة شخص مستقيم ، يمقت الإثم و يهتم بدفع الديون و يدافع عن القيم الخلقية بحماس أعمق مما كان عليه فى حياته . وتحلى الأرواح بالأخلاق الكريمة ودفاعها عنها هو المصدر الرئيسى للمبادىء الخلقية عند أهل مانوس . فهم يؤلهون الشخصيات بعد وفاتها و يخلعون عليها قدرات خارقة لتنفيذ مشيئتها فى الأحياء . و إننى لا أرجع منشأ الدين فى مانوس إلى شطحات الخيال عند جيل معين أو جماعة معينة من الرجال ، ولكن الصورة الغريبة التى تتخذها التقاليد الروحية عند مجتمع مانوس وانفراده بها دون سائر الثقافات المحيطة به والتى نشأت نتيجة لعوامل تاريخية واحدة ، تسمح لنا بأن نرجع هذه التقاليد الروحية إلى الابتكار الفردى .

و بالإضافة إلى هذا الحزم الخلقى الذى يرجعه الناس إلى الأرواح ، فإن هناك شطحات أصغر لخيال أهل مانوس . فهم يتخيلون أن الأرواح تمارس ذلك التقليد اليهودى الذى يسمح للرجل بالزواج من أرملة أخيـه أو من زوجة أبيه بعد وفاته ، وهم يعتقدون أيضاً أن أرواح الرجال المتقدمين فى السن تلجأ دائماً إلى اختطاف أرواح الشابات اللاتى لم يتزوجن فى حياتهن . ويجد هذان التقليدان مرتعاً خصباً لدى سكان المناطق البرية ، ولـكن أهل مانوس يستنكرون هذه الأعمال بشدة .

ونحن لا نعلم عن يقين ما إذا كانت هذه العادات متبعة فى مانوس فى يوم من الأيام ثم أقلع عنها الأهالى ، أو أنها مجرد أنماط من السلوك يمارسه جيران مانوس و يحـدجم أهل مانوس عليه . وعلى أية حال فهى من السلوك المحظور ممارسته ولذلك فقد أفسح لهـا الخيال مكاناً فيه يسمح للموتى بممارسة هذين التقليدين . و بالمثل يقول بعض الناس أنه ليس على الأرواح مراعاة تقاليد التحريم فتتحاشى أصهارها مما يقوم حاجزاً فى طريق حرية التنقل فى مانوس . وفى الواقع نجد أن عالم الأرواح يسمح للأب بالزواج من زوجة إبنه (وقد قيل إن هذا كان سبباً فى وفاة أحد الأشخاص . فقـد أعلنت إحدى وسيطات استحضار الأرواح أن زوجة هذا الرجل تمارض فى زواجها من أبيه العجوز ، لذلك ما كان منها إلا أن قتلت زوجها الحى لـكى توفر على نفسها مؤونة الزواج من الأب المتوفى) .

ويعرف أهل مانوس أن تقاليدهم عن التحريم ، ليست معروفة لدى شعب ماتنكور Matankor الذى يقيم فى جزيرة بالوان Balowan القريبة من مانوس . فهناك يستطيع الخطيب أن يلتقى بخطيبته وجهاً لوجه ، ويتبادلون الأحاديث الودية كما يحضر كل من أبوى العريس والعروس دخول العريس بالعروس علناً . ولذلك فإن ضيق أهل مانوس بمحرماتهم يلجئهم إلى تخيل موتاهم وقد تحرروا من هذه القيود .

كذلك الاتصال بالبيض الذى يسبب للرجل هناك الخزى والانكسار ، يأخذ طابعاً مختلفاً فى عالم الموتى . فقد اتخذت إحدى العائلات الكبيرة فى بيرى أرواحاً حارسة من بعض الموتى من الجنس الأبيض . وكلما بلغ أحد أفراد هذه الأسرة من الذكور مبلغ الرجولة ، يطلب من الروح الأولى البيضاء التى قامت على حراسة الأسرة وهى روح رجل أبيض قتل منذ سنوات مضت فى جزيرة مبوك Mbuke — أن يختار بمعرفته روح رجل أبيض آخر اشتهرت بحسن السلوك والرزانة لـكى تقوم على تنفيذ رغبات الأسرة بما عهد فى الجنس الأبيض من حذق ومهارة ولـكن بلا خيلاء أو غطرسة ، وكان لأفراد بعض العائلات الأخرى أرواحاً حارسة من الجنس الأبيض . كما اختلق آخرون وجود زوجات من الجنس الأبيض لأرواح موتاهم الحارسة فهم يشبعون رغبتهم للاتصال بعالم الجنس الأبيض عن طريق رسم الخيال عن عالم الموتى وما يجرى فيه . وعالم الأرواح يعوض النساء كذلك عما يشعرن به من حقوق مسلوبة بالنسبة لأبنائهن من الذكور . فصغار الصبيان الذين كانوا فى حياتهم يسخرون من أمهاتهم ويخرجون لهن ألسنتهم ، و يبصقون عليهن و يصرخون فى وجوههن ، أو يركلوهن لأية بادرة تأتيها الأم لإيقاف الطفل عند حده ، هؤلاء الأطفال يصبحون بعد الموت وفى الدقيقة التى يدخلون فيها إلى عالم الأرواح ، أطفالا مسالمين مطيعين لا يتذمرون من أداء الخدمات التى يطلب إليهم القيام بها . كذلك لا تقيم أرواح النساء بعد موتهن فى بيوت أقاربهن الذين يتسلمون جثثهن و يقومون بدفنهن فى مقابر الأسرة ، ولـكنهن يقمن مع أزواجهن من الأرواح . فرباط الزواج الذى كان فى حياتهن واهناً ضعيفاً ، تصبح له قيمة بعد الموت .

و إذا قارنا هذه الخيالات بما تهيئه لنا دنيانا بما فيها من تعقد وتشابك فإنها تبدو بسيطة تماماً وهى من عمل الكبار ولا دخل للأطفال فيها . فالمجتمع فى مانوس يفرض على الكبار لا على الصغار أن يتوسلوا بهذه الأساليب الخرافية لاستثارة تخيلاتهم ، وهذه المحاولات الخيالية البسيطة تفسر لنا كيف يستغل

الأحياء هذا العالم المجهول الذى يسمى بعالم الموتى للتعويض عما يشعرون به من حاجة أو نقص ، ومن المعقول أن نفترض بأن اعتماد هذا المجتمع المتزمت فى تطبيق قوانينه الأخلاقية على نفوذ الأرواح جعلها من العوامل الفعالة فى بناء المثل الثقافية هناك . ولا تشترك الشعوب المجاورة والتى تماثل مانوس فى الثقافة من عدة نواحى فى هذا التزمت المبالغ فيه . فلا يهتم الموتى فى نظر تلك الشعوب إلا بمراعاة الأحياء لتقاليد الجنازات . وعلى ذلك نجد أن شابات اليوسياى Usiai لهن الحرية قبل الزواج بالرجال المتقدمين فى السن أو الرجال من ذوى النفوذ والسلطان ممن يستطيعون شراء ما يشاءون من النساء ويتخذون منهن زوجات ثالثات أو رابعات ، أن يمضين عاماً بأكمله فى الاستمتاع بمغامرات جنسية طائشة فى مؤسسات خاصة بذلك تضم شباباً من الجنسين . وقد عاد العمال الذين كانوا يعملون عندنا من زيارة لجزيرة بالوان العابثة وهم يرددون جملة واحدة يتناقلهـــا الشبان هناك وهى « تعالى إلى الأحراش لننام معاً » . والذين سمموا عن التقاليد المسيحية الخاصة بالعلاقات الجنسية من القبائل المجاورة كانوا يطلقون على أهل مانوس « رجال التبشير » ويضحكون على شدة استمساكهم بالتقاليد . أما أهل مانوس فهم يرون فى هذا التزمت من جانبهم تطوراً جديداً . أما العصر الذهبى فى نظرهم فهو ذلك العهد الذى لا يذكره أكبر الرجال سناً والذى كانت الأرواح فيه متهاونة بالنسبة لهذا الموضوع ، ولكنهم يضيفون تفسيراً لاتجاه الأرواح الجديد أنها بعد أن رأت الناس يقتلون بسبب جريمة الزنا ، فإن قلوب الأرواح تحجرت وتولت بنفسها عقاب من يقترف تلك الجريمة منذ ذلك الحين . وهكذا عن طريق عكس هذه الرغبة البشرية فى الانتقام على الموتى ، اتسعت المعايير الأخلاقية وزادت صرامتها .

وبالمثل فإن قلق الناس بشأن ما عليهم من ديون والتزامات مالية يجب أن يوفوها عُزيتْ هى الأخرى إلى الأرواح التى أصبحت رقيباً يفرض على الناس الأمانة التجارية . [وتقف المعايير العالية للمعاملات التجارية فى مانوس على قدم المساواة مع أية معايير لأى شعب من شعوب العالم ؛ وقد يختلف اثنان

على قيمة الدين ولكن هذا يعود إلى عدم وجود نظام التسجيل ولكن لا تكاد تحدث أية محاولات للتملص من أية التزامات مالية أو التزوير فيها] ونستطيع القول بأن أهل مانوس ألقوا على الموتى بعض المسؤوليات الجديدة التى تسيطر على حياتهم وتميزهم من باقى جيرانهم .

أما عملية توليد الأحلام وتنميتها ، فإن أسسها واحدة ، عند أهل مانوس ، وعند الأفراد فى مجتمع متحضر ، وإن تميزت فى هذا الأخير بكثير من التعقيد فبينما نجد أن أهل مانوس يستمدون خيالهم من الفروق الطفيفة بين ثقافتهم وثقافات القبائل المجاورة ، أو من الفروق بينهم وبين المستعمرين البيض الجدد والذين لم يفلحوا بعد فى فهم أساليبهم ، فإننا نستمد أحلامنا من التاريخ والأدب والفن خلال العصور المتلاحقة . ويستطيع الرجل من أهل مانوس أن يستخدم أباه المتوفى وعن طريقه يستغل العالم الروحى مع تأكيد الخصائص التى يتصف بها أهل مانوس أنفسهم أو العادات الجريئة الشاذة الموجودة عند اليوسياى والبالوان أما الطفل الذى فقد أباه أو أمه فى مجتمعنا ، أو الطفل الذى لا يرضى عن سلوك والديه أو الطفل الوحيد الذى يتلهف على صاحب أو رفيق يلعب معه ، أو الرجل الذى يبحث عن رفيق يشاركه حبه العاطفى فلا يجده فى مجتمعنا حيث أمليت أنماط تقليدية لهذا الحب . فإن كلا من هؤلاء يستطيع أن يبنى لنفسه أباً خرافياً أو حبيباً خيالياً مقتبساً حياته من حياة نابليون أو المسيح أو الإلياذة أو شكسبير أو من لوحات ميشيل انجلو أو من أوبرات واجنر أو من قصائد الشاعر كيتس . ويستطيع الصبى أن يتخيل له أباً فى جمال أبولو وأماً فى جمال العذراء كما رسمها رفاييل أو إحدى ملائكة ليوناردو ، وقد يتصور أباه فى بطولة وليام تل أو روبرت البروس أو فى ورع وطهارة القديس فرانسيز أو فى شجاعة قيصر أو الإسكندر . وقد خلقت عبقريات العصور المختلفة صوراً للمسيح ويستطيع الطفل أن يستعير إحدى تلك الصور ويتخيل فيها ملامح أبيه .

وقد يضع الطفل الشخص الذى يتمثله فى عالم يصنعه من قراءاته فى التاريخ

اليونانى ، أو الأساطير الإيرلندية أو الشعر العربى أو أساطير البوذية . وقد يستغل الطفل أكثر الأفكار شذوذاً ، وأبعد الأحلام احتمالا وروايات من الثقافات القديمة وأعمال الفنانين الخلاقين ، ويمزج هذا الخليط العجيب ليملأ به الفراغ الذى خلفه فقده لأبيه أو لأمه ، أما فى سنوات نضوجه فإنه يستغل ذلك الخليط لكى يملأ به الفراغ القائم بين المجتمع الذى يعيش فيه والعالم الذى نسجه خياله وحين تطغى هذه الأحلام على العالم الواقعى وتظهره فى صورة باهتة لا يمكنه احتمالها بالقياس إلى الخيال، فقد ينتهى أمر هذا الشخص إلى الجنون أو الانتحار فهذه الخيالات لها خطورتها دائماً، ولكن يمكن أن نبنى عليها صوراً لها من القوة ما تفزع به مخيلات الناس أو تجعلها تتسمر فى مكانها إلا إذا اكتشف هذا الخيال اللامع البراق إنسان له موهبة الفنان أو موهبة الزعامة على الناس وقيادتهم .

وأى إطار اجتماعى ينادى بإشباع حاجات معينة سواء كانت هذه الحاجات هى التعويض عن فقد الأب أو الأم أو الأصحاب أو الأحباء ، لن يستطيع دائماً أن يواجه هذه المطالب التى خلقها من قبل . فسوف تكون هناك ثغرات فى حياة بعض الناس ، وهى ثغرات يسعون لملئها حتى يمكنهم أن يعيشوا فى تكامل سلمى يعرفه المجتمع بأنه الصورة الصحيحة للفرد. وليس لدى أهل مانوس من المواد ما يمكنهم من إعادة بناء صور موتاهم وهى الثغرة الوحيدة الخطيرة التى تواجههم فى مجتمع يتكفل بإيجاد الآباء والأصحاب للجميع وليس لديه أى فكرة عن الصداقة أو الحب العاطفى ، أما نحن فلدينا من الخامات المتعددة والمصادر الكثيرة ماننبنى به مفاهيم جديدة ، وعليها، أى على هذه الصور التى يبنيها الإنسان والتى لها القدرة على أن تجعله دائماً منشوقاً إلى مصدر أحلامه ، يقع عبء إحداث تغيرات هامة فى أسلوب حياتنا الرتيب .

وإذا لجأنا إلى تعميم العلاقات الإنسانية ، ولم نطلب منها ما هو فوق طاقتها فإننا لن نشعر بوجود هذه الثغرات ومواطن النقص التى تشجع الأطفال على أن يحلموا أحلام اليقظة . وقد نخسر فى هذه العملية القدرة الخيالية الخلاقة التى تساعد

هؤلاء على أن ينبشوا أغوار التاريخ بحثاً عن مواد يبنون بها أباً جديداً بدلاً من الأب الغائب ، أو حباً مثالياً ، وهذا ليس بالسلوك الآلى كما يعتقد بعض المفكرين ، فالطفل لا يولد وهو فى حاجة إلى أب ، ولكنه يتعلم هذه الحاجة عن طريق ممارسة نعمة وجود أب عند الآخرين . وخير مثال لذلك ما يحدث فى ساموا ذلك المجتمع الذى أفسدت العلاقة بين الأب والابن عشرات العلاقات الأخرى بين الطفل وأشخاص بالغين ، أقول لم يحدث أن طفلا فى ساموا قد حلم بصنع أب مثالى له ، كما أن أهل ساموا وقد وجدوا الرضى والإشباع فى أقرانهم الذين لا يقدمون لهم أى نقد لم يحاولوا أن يبنوا جنة ينعكس ظلها فوق الأرض ، كذلك لا نجد الطفل فى مانوس أو حتى الكبير ، يحاول أن يكون لنفسه صورة عن الزوجة المثالية أم الأم المثالية ، وذلك لأن المجتمع لا يقتنع بإمكان وجود هذه الزوجة أو الأم .

وإذا كنا نستبدل علاقة الأب بابنه والمدرسة بتلميذها واتصالات التلاميذ بالكبار من أفراد من الجنس الآخر ، وإعجاب الرفاق ، ونعوض عن كل هذا بأن نقيم مستويات للعلاقات العابرة بين الجنسين فتكون علاقات ليست قوية ولا تحمل بين طياتها أية مسئوليات ، فحتى هذا لن يضمن لنا وجود أفراد من الأفذاذ يستطيعون تسخير الخامات الكثيرة والمواد المختلفة التى ورثها لهم المجتمع واستخدامها استخداماً جديداً مستعينين فى ذلك بخصوبة خيالهم .

وبالإضافة إلى هذا فإن قلة المادة التى تحت تصرف الأطفال فى مانوس تبرز لنا الحاجة إلى ضرورة إمداد أطفالنا بموارد يمكنهم أن يستغلوا خيالهم فيها ، فقد أظهرت تجربة مانوس أن الأطفال لا يبدعون فى خيالهم من تلقاء أنفسهم ، ولكن هذا يحدث استجابة لما يهيأ لهم من مواد يهيؤها لهم عالم الكبار .

ونتيجة للأخذ بالطريقة الآلية فى تعليم الأساسيات الأولى للعلوم ، وعن طريق تقدم وسائل تعليم مبادىء القراءة والكتابة والحساب أصبحت المدارس تواجه مشكلة ازدياد وقت الفراغ . وكما ندرك مما لا يقبل الشك أنه ليس من المهم أن يدرس التلاميذ تاريخ الثورة الأمريكية سنة بعد أخرى لمدة خمس

سنوات ، وأن الوقت الذى ننفقه فى تعليم المواد التقليدية يمكن اختصاره إلى درجة كبيرة بالوسائل السليمة ، كذلك نحن ندرك أن الوقت الذى يقضيه التلميذ تحت إشراف المدرسة يجب أن يزيد وتطول ساعاته بدلا من اختصارها . فقد أدت حياة المدن إلى وجود أخطار فى اللعب فى غياب المشرفين ، بل أصبح هذا اللعب متعذراً . فالشقق التى تسكنها الأسر لا تهيىء للأطفال أية ملاعب ، وازدياد عدد الأسر التى تسكن هذه الشقق ، وهجرة الناس من الريف إلى المدن ، واشتغال عدد كبير من النساء المتزوجات فى وظائف تحتم عليهن التغيب عن أطفالهن — كل هذا وغيره من العوامل أدى إلى زيادة أهمية الدور الذى تلعبه المدرسة ، وضرورة زيادة عدد الساعات الواجب أن يقضيها الطفل داخل المدرسة وتحت إشرافها ، وتحاول المدارس النموذجية أن تملأ هذا الفراغ بتحسين طرق التعلم التقليدية وتزويدها بمعلومات عن المجتمعات الأخرى — كاليونان ومصر وأوروبا فى العصور الوسطى . ولذلك نجدها تدرس المعلومات الأساسية خلال النشاط الترويحى الذى يدور مثلا حول بناء بيت يونانى قديم أو صنع أوراق البردى ، ومهما كانت الاعتراضات الشائعة عن هذا النوع من التربية ، فإنه ولا شك قد تعرف على نقطة غاية فى الأهمية وهى وجوب العناية بموضوعات المادة ، وهذه النقطة تتعارض تماماً مع ما وصف فى دراسات ميدلتون Middletown حيث يركز الاهتمام حول الدراسات العملية البحتة التى تقيد الطفل بقيود أقوى ، وتشده إلى الحياة كما هى معروفة فى ميدلتون ولا يكفى أن يدرك الأطفال الثقافة الأمريكية كما نعرفها حالياً ، ودقائق أساليبها الهامة ، فإن الثقافة الأمريكية متماثلة ، وقد انتهى الصراع بين الجماعات الأجنبية التى وفدت علينا من أوروبا حاملة معها تقاليد وثقافات أوروبية متناقضة وليست مفهومة فهماً تاماً إلى سلبية ما تساهم به كل من هذه الثقافات وحيادها .

وإذا كنا نريد ازدهار الفنون والآداب عندنا ، وإذا كنا نرغب فى إيجاد ثقافة أكثر خصباً أو أكثر خلقاً وابتكاراً ، فيجب أن نزيد اهتمامنا بمحتوى

ما ندرسه من مواد بحيث يقوم هذا المحتوى كما هو الحال مع أية أفكار جديدة على التجارب المختلفة التى قامت بها الثقافات السابقة والأكثر تخصصاً .

وإذا أردنا لخيال الأطفال أن يزداد خصوبة فيجب أن نغذيه ، ورغماً عن أن الطفل الممتاز قد يخلق شيئاً من صنعه شخصياً ، إلا أن الغالبية العظمى من الأطفال لن يتخيلوا حتى مجرد وجود دب تحت السرير ما لم يخلق الكبار لهم هذه الفكرة . ويمكن تزويد السنين الطويلة التى يحبس فيها الأطفال فى المدرسة بمواد غنية بالإثارة يمكن أن تغذى مخيلة الأطفال . والأطفال الذين يجدون الحياة جميلة وممتعة ، سوف يكونون أول من يساعد على استمرار ثقافة مجتمعهم لأنهم درسوا ثقافات المجتمعات الأخرى وأحيطوا علماً بمكوناتها ، أما هؤلاء الذين يشعرون بالحاجة إلى إعادة بناء بعض جوانب حياتهم ، وملء ثغرات تركت خالية ، فيمكنهم أن يستغلوا هذه المواد فى تحقيق أحلام تزيد مجتمعهم غنى وثروة ، عما كان عليه حين تسلموه من آبائهم .

الفصل السادس عشر

اعتماد الطفل على تراث مجتمعه

لقد رأينا كيف أن مجتمع مانوس مثل مجتمعنا يعوّد أطفاله على احترام أشياء قليلة جداً ولا يسلحهم بأية أدوات تمهد لهم أن ينموا نمواً صالحاً ، ورأينا أن إنجاب أطفال يحقدون على الكبار ويحتقرونهم إنما يضر بالأطفال مستقبلا ولا ينفعهم . وقد رأينا أيضاً كيف يهتم أهل مانوس بتقوية شخصية الأولاد الذكور منهم على الأخص وكيف نهمل العناية بشخصية أبنائنا ونحرمهم من الاتصال الوثيق برجال يمكن أن يتخذوهم قدوة لهم .

ورأينا أيضاً أننا أغنى بكثير من ناحية التراث المادى الذى يمكن أن يمد الأطفال الموهوبين بالخامات اللازمة وندرك فى الوقت ذاته أننا معرضون لخطر إضعاف العلاقات الإنسانية وجعلها فى صورة موحدة بحيث لا يشعر الفرد بفائدة استغلال تلك المواد . كل هذه نقط خاصة بنا ألقت عليها تجربة مانوس الأضواء لتفسيرها . ولكن ماذا عن التربية عامة ؟ ماذا تقترحه دراستنا لمجتمع مانوس ؟

لقد تتبعنا الطفل فى مانوس خلال سنوات نموه إلى أن صار رجلا رشيداً ورأينا عدم اكتراثه بحياة البالغين ثم إسهامه واهتمامه بنشاطهم ، ورأينا سخريته وازدراءه للأرواح ينقلب فى رجولته إلى شغف بتعرف رغبات الأرواح وتحقيقها ، كذلك رأينا شيوعيته تنقلب إلى حرص على ممتلكاته الفردية وتمسكه بها . وبذلك تمت عملية التربية . فقد أصبح الطفل من أبناء مانوس ، الذى جاء إلى هذا العالم بلا أية عادات حركية ، وبلا أية لغة ، ولا أى نوع محدد من السلوك ، وبلا أية عقائد أو اهتمامات ، أصبح هذا الطفل رجلا بالغاً بكل ما تعنيه هذه العبارة ولم يفته أى عنصر من عناصر ثقافة مجتمعه ، ولم يحد عن تيار التقاليد التى

ينقلها الكبار بطريقتهم غير المنظمة إلى أطفالهم ، والتى تنتقل إليهم بطريقة تبدو لنا غاية فى التشويش ، ولم يسبقها أى تخطيط ، بل إنها فى أغلب الأحيان تبدو قاسية بالنسبة لغاياتها النهائية .

وما يقال هنا عن التربية فى مانوس ينطبق على التربية فى أى مجتمع بدائى متجانس ، ومهما كانت الطريقة المتبعة سواء كانت طريقة تدريب الصغار ، أو إلقاء المحاضرات عليهم ، أو التعليم المباشر ، أو السماح لهم بأن يفعلوا ما يحلو لهم حتى ولو أدى ذلك إلى التصادم مع الكبار ، فإن النتيجة واحدة فى كل الحالات . فإن طفل مانوس يصبح رجل مانوس ، والهندى الصغير يكبر ويصبح هندياً كبيراً . وحين تكون المسألة خاصة بنقل مجموعة تقاليد بسيطة من جيل إلى جيل فإن النتيجة الوحيدة التى يمكن توقعها من هذه المصادر البدائية المختلفة هو أن كل الطرق سواء . فإن قوى التقليد تكون أقوى بكثير من أى أسلوب يطبقه الكبار . واستعداد الطفل لإدراك البيئة المحيطة به أهم جداً من أية منبهات أو حوافز حتى أنه ما دام الكبار الذين يحتك بهم الطفل متشبعين بمبادىء معينة فلا مفر من تشبع الطفل بنفس المبادىء .

ورغماً عن أن هذا ينطبق انطباقاً كاملاً على المجتمع المتجانس فقط ، إلا أن له نتائج بعيدة المدى على نظريات التربية خصوصاً فى تلطيف حدة النظرية الأمريكية التى تؤمن بأن التربية هى علاج لكافة الأمراض . فكل التفاؤل الجميل الذى يتمسك به أولئك الذين يؤمنون بالأمل فى المستقبل وأن فشل جيل يمكن أن يعوض عنه الجيل اللاحق ، إنما هو كذبة كبرى .

فالأب الأمى الذى لا يعرف القراءة أو الكتابة قد يبعث بابنه إلى المدرسة ، ويرى ابنه وقد تعلم ما لم يستطع هو أن يتعلمه . والمهارة التى يفتقر إليها أحد الأجيال يمكن إيجادها فى الأجيال الأخرى ، ويمكن أن يتعلمها ابن ذلك الجيل الناقص. وعند ما تصبح هذه المهارة جزءاً من الميراث الثقافى فإن نسبة اعتبارها

حقاً عاماً تختلف من جيل إلى جيل . ولـكن الطريقة الفذة الأخاذة التى أصبح بها أبناء الرجال الأميين مثقفين أخذت خطأ على أنها كل العملية التربوية . (وصاحب هذه النظرية ينسى آلاف السنين التى مرت قبل اختراع فن الـكتابة). والواقع أن المهم هو نوع الوسائل الممكنة فى نقل الأنواع المألوفة — كنوع التربية الذى يناقش فى مناهج «تعليم مبادىء الحساب» أو «الهندسة الـكهربية» فإذا كان الغرض هو دراسة هذا النوع الخاص من التربية الشكلية فلن نستطيع إستنتاج أية أوجه شبه بمقارنتها بالمجتمعات البدائية . حتى ولو حدث كما يحدث أحياناً أن إحدى القبائل استوردت أسلوباً جديداً جاء به أسير حرب أو امرأة أجنبية ، وتعلم جيل بأسره من فرد واحد ، فإن هذه العملية لا تكون ذات أهمية كبرى لنا . فإن الطرق العقيمة الآلية التى تنتقل بها هذه المهارات لا تشبه بأى وجه من الوجوه أساليبنا الواعية فى التربية المتخصصة .

ويجب أن نفهم جيداً أننى حين أتكلم عن التربية فإننى أعنى بذلك تلك العملية الواعية التى تعرف الفرد النامى بميراثه الاجتماعى ، ولا أقصد بتاتاً تلك الأساليب الخاصة التى تلقن التلاميذ المهارات المعقدة للحياة الحديثة وقد اصطفوا فى صفوف وراء بعضهم داخل فصول المدرسة . وبما أن الفصل هو أحد وسائل التربية بل ومن الوسائل الهامة ، فلابد من التعرض له فى هذه المناقشة : أما أن تعليم طريقة للـكتابة تفضل طريقـة أخرى أكثر إرهاقاً ومشقة ، فليست هذه هى المشكلة ، فإن هذه التربية التى تهدف نحو الإعداد المهنى إنما هى تطور حديث ، نتج عن اختراع الـكتابة وتوزيع العمل ، وهى مشكلة تتعلق بنقل ثقافة المجتمع نقلاً كمياً لا نوعياً . وأن التبـاين الملموس بين العدد القليل من الأشياء التى يجب على الطفل البدائى أن يتعلمها ، والمعلومات الـكثيرة التى يجب على الطفل الأمريكى أن يتعلمها ليدل على أنه رغماً من الاختلاف الـكبير فى الـكمية إلا أن العمليتين متشابهتان من حيث النوع .

ثم إن على الطفل الأمريكى أن يتعلم لكى يكبر ويصبح أمريكياً كبيراً تماماً

كما يكبر الطفل فى مانوس و يصبح رجلاً فى مانوس . واستمرار حياتنا الحضارية يتوقف على الطريقة التى يتلقى بها الأطفال الانطباعات النهائية لتقاليدهم الاجتماعية ومهما كانت طريقة معاملتهم سواء دللوا أو ضربوا ، أو ارتشوا أو سيقوا إلى حياة الـكبار — فليس لهم إلا الإذعان لمصيرهم كأفراد من الـكبار مثل آبائهم . ولـكن مجتمعنا ليس مجتمعاً متجانساً فإن كل جماعة تختلف عن الأخرى ، وكل طبقة تختلف عن باقى الطبقات ، وقيم فئة معينة من أصحاب الوظائف تختلف عن قيمة أصحاب وظيفة من نوع مخالف . كذلك فإن المذاهب الدينية التى تختلف اختلافاً كبيراً فى تعاليمها مثل المذهبين الـكاثوليكى والمسيحية العلمية يتطلبان عدداً كبيراً من الأنصار يكونون مستعدين دائماً لضم أطفالهم وأطفال الآخرين ضمن جماعتهم الخاصة . وقد يختار أربعة إخوة من أبوين عاديين أربعة مسالك مختلفة حتى أنهم عند بلوغهم سن الخمسين لا يكون هناك أى تفاهم بينهم بل قد يتنافسوا فيما بينهم على أمر ما . فالمقارنة بين المجتمعين البدائى والمتحضر تعجز هنا ، كما أن التربية تعجز عن أن تكون عملية آلية وتصبح المسألة الحيوية هى : ما هى الطريقة الواجب السير عليها ؟

ليس هناك شك فى وجاهة هـذا الاعتراض . ففى داخل التقاليد العـامة توجد جماعات متعددة تحاول أن تسبق وتجاهد فى الاحتفاظ بولائها ونشره على الجيل الجديد . ولا تقيم هذه الجمـاعات وزناً لطرق التربية فى حد ذاتها دائمـاً بالنسبة لعلاقاتها ببعضها . خذ مثلا مدينة صغيرة تقيم بها ثلاثة طوائف دينية . وليس المهم أن تكون مدرسة الأحد فى تلك المدينة شيئاً إجبارياً يذهب إليها الصبى ، ويضرب بالـكرباج إذا لم يحفظ درسه أو أضاع قرشاً من نقود التبرعات ، أو إذا كانت مدرسة الأحد مكاناً بهيجاً يتلقى فيها الجوائز بسخاء ، وتقدم له فيها المرطبات من المدرسين لطلبتهم المعجبين بهم . ولا يهم أى شىء من هـذا ما دامت المدارس الثلاثة تستخدم نفس الطرق . أما إذا اعتمدت إحدى تلك المدارس على تهديدات الأب لإبنـه ، ولجأت الثانية إلى أسلوب الجوائز ،

واستخدمت المدرسة الثالثة الحفلات المختلفة كنوع من الرشوة ، فهنا تظهر مشكلة الطريقة وتبدو أهميتها . وفى الوقت نفسه تكون العملية قد فقدت صفتها التربوية وأصبحت مجرد دعاية لا غير .

لذلك إذا كنا نريد تعريف التربية بأنها عملية نقل التراث الثقافى إلى الجيل القادم أو فى حالات خاصة إلى أفراد من ثقافة أخرى ، كما هى الحال حين يحتك شعب بدائى فجأة بعوامل حضارية منظمة . فإن الدعاية يمكن تعريفها بأنها هى الطرق التى تلجأ إليها جماعة من الجماعات داخل ثقافة معينة لكى تزيد من عدد أنصارها على حساب الجماعات الأخرى . ويقع خارج هذين التقسيمين التعليم المباشر لمهارات القراءة والكتابة ، وبعض الصناعات والعزف على البيانو ، وصناعة الصابون ، والحفر .. الخ .

وتعتبر أمريكا نموذجاً للعمليات الثلاثة ، وهى تجرى فى ارتباك كبير . فإن التيار العام للتراث الثقافى — كاللغة والسلوك ، والاتجاهات نحو الثروة ، ونحو الدولة ونحو الدين — كلها تلقن للطفل بدون أى مجهود ، فى حين أن الأساليب الأكثر دقة وتعقيداً تنتقل إليه فى صعوبة ومشقة عن طريق المدرسة ؛ وهنا وهناك تقع عمليات الدعاية ، كالمسيحية العلمية ، والشيوعية والنباتية ، والضرائب الموحدة ، والانسانيين ، والجماعات الصغيرة من أصحاب الفلسفات الدينية أو الاجتماعية ، إلى جانب المساهمين فى التيار الثقافى العام فى معظم النواحى الأخرى ، ويلاحظ أن التجمع السريع للآلاف من أبناء المهاجرين عن طريق المدارس العامة قد أعطى الأمريكيين إيماناً خاصاً بالتربية ، وهو إيمان لا يمكن وجوده فى مجتمع يكون أقل تخليطاً ، ولأننا نجحنا فى تحويل أطفال الألمان والطليان والروس واليونان إلى أمريكيين ، فإننا نصر على أن فى استطاعتنا أن نفعل بأطفالنا ما نشاء ، كذلك لأننا رأينا حضارات البلاد المختلفة تتلاشى الواحدة بعد الأخرى فقد تمسكنا برأينا فى أن كل شىء يمكن تحقيقه بالطرق الصحيحة ، وأن التربية تستطيع أن تعالج أية مشكلة ، وتقوّم أى اعوجاج ،

وتدرب السكان على الحياة فى إتيوبيا (المدينة الفاضلة) إذا طبقت الوسائل الصحيحة .

وإذا نظرنا إلى الأمر نظرة أعمق فإننا نرى أن إيماننا بالطريقة إنما هو مستمد من تجميعنا للمهاجرين ، ومن التدريس الناجح لمهارات أكثر تعقيداً لأعداد متزايدة من التلاميذ أو من نجاحنا فى إفساد دور إحدى الجماعات من أنصار أحد المذاهب بواسطة أنصار ماكرين من مذهب آخر ، ففى كل من هذه الأقسام نجد أن الطريقة لها أهمية كبرى . والمعلم الماهر يمكنه أن يختصر من وقت التعلم ، ويزيد من مهارة الأطفال فى علم الحساب أو مسك الدفاتر . والتوزيع العادل اللبق للحلوى ، والشارات ، والثياب الرسمية قد يزيد من عدد تلاميذ مدرسة الأحد أو من جماعة الشبان الشيوعيين . والأب الذى يكفّر عن لغته الركيكة بأن يصر على تصحيح لغة ابنه قد يربى طفلا يتكلم لغة سليمة . ولكن لغة الغلام لن تكون أسلم من لغة أولئك الذين لم يسمعوا فى حياتهم انجليزية ركيكة .

فبالطريقة نستطيع الإسراع فى عملية السيطرة على المهارات الحالية ، أومضاعفة عدد أنصار دين معين . ولكن كلا من هذين التغيرين ما هو إلا تغير فى الكم لا فى النوع ؛ فهما فى الأصل ليسا خلاقين . كما أن النجاح فى تحويل أطفال المهاجرين الأجانب إلى أطفال أمريكيين لا يعتبر ابتكاراً لشىء جديد ؛ إنما هو مجرد نقل تراث موجود فعلا إلى أولئك الأطفال القادمين من أماكن بعيدة .

وأولئك الذين يعتقدون فيما أحدثته التربية من تغيرات يشيرون مزهوين إلى انتشار نظرية التطور . ولكن هذا أيضاً مجرد تعليق كمى لا غير . فإن التغير التدريجى فى الفكر الإنسانى والذى أوجد علماء مثل داروين Darwin بدلا من واحد من نمط توماس الأكوينى Thomas Aequinas ، قد حدث فى المكتبة وفى المعمل وليس فى حجرة الدراسة ، ومما لا شك فيه أن مدرسى العصور الوسطى وأسلوبهم الاستنباطى فى التفكير قد انتزعوا أولا من الجامعات قبل تدريس

الطريقة الاستقرائية فى المدارس . وخلال ذلك مهما كانت وسائل تدريس الاستقراء والقياس سواء بالسوط أو بالابتسام فإنها لم تكن تدرس بصورة مباشرة مطلقاً ، فإن كل هذا لم يكن له أى قيمة أو أهمية بالقياس إلى العادات العقلية التى كونها الأطفال والتى كانت تتفق وعادات المدرس أو الأب .

إن الذين يقولون إن فى استطاعة التربية إنقاذ العالم إنما يعتمدون على الرأى القائل بأن هناك عدة نزعات ، وقدرات كامنة كانت موجودة فى عهد الطفولة ثم خمدت عند النضوج . « وحب الأطفال الطبيعى للفن » وحبهم « للموسيقى » و « للكرم » و « للاختراع » كلها أقوال صدرت من أنصار طريق الخلاص هذا ، وهم يقومون بتخطيط برامج تربوية تهدف إلى تنمية مواهب الأطفال وتقويتها كأجزاء من شخصية البالغ . وهناك بعض من الصدق فى هذا الرأى . ولكنه صدق سلبى وليس إيجابياً . فمثلا « حب الأطفال للموسيقى » مع استثناء تلك الحالات النادرة التى نسميها « الموهوبين » إنما هو مجرد قدرة لم تطمس على تعلم الموسيقى . وقد كان فى استطاعة أطفال مانوس تحت سن السادسة أو الخامسة أن يستمعوا إلى لحن من الألحان ثم يحاولون أن يقلدوه بطريقة ساذجة ، ولكن الأطفال الأكبر سناً كانوا لكافة الاعتبارات مصابين بالصمم من ناحية النغمات . فبينما كنا نجد الطفل الصغير يحاول أن يردد اللحن بدرجة معقولة من النجاح كان الأطفال الأكبر سناً والبالغون لا يتبينون إلا تغييراً فى القوة . فكانوا يعيدون اللحن مع الضغط على المقاطع التى تدل على الطبقات العالية ولكن بدون أن يغيروا فى اللحن نفسه ، وكانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنهم كانوا يسترجعون الأغنية بكل ما فيها من نغمات . ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا صبى واحد كان يستطيع أن ينشد أى لحن وقد تلقى تعليمه فى إحدى المدارس فى المدن فى دراسة متواصلة لمدة ست سنوات .

وعلى ذلك فإذا كنا نقصد بالعبارة « أمر طبيعى لدى الأطفال » أن الطفل يتعلم بسهولة ما حدده له الكبار ثقافياً ، وما عينوه له بوسائل شتى ، فإن الطفل لن يتعلم ذلك إلا بصعوبة قصوى ، ومن المسلم به أن أية مهارة لم يصر المجتمع على

وجوب تعلمها سوف تبدو سهلة التعلم بالنسبة للطفل عنه فى حالة الكبار . وعلى ذلك فإن أطفالنا يبدون أخصب خيالا من الكبار بسبب أننا نضع التأكيد على السلوك الواقعى الذى نؤكد أنه أهم شىء فى عالم الخبرات الحسية . وبالمثل فإن أطفال مانوس يبدون عمليين وأكثر واقعية من الكبار فى نفس المجتمع ممن يأتمرون بأمر أرواح غير مرئية تسير ألوان نشاطهم وتوجهه .

وسيعجب أى عالم تربوى يعمل بين أطفال مانوس بما لديهم من قدرات علمية ، كما يدهش العالم عندنا بما يراه لدى أطفالنا من قدرات تخيلية وفى كلتا الحالتين تتفق الملاحظات مع الوضع الحضارى القائم .

فبالنسبة لأطفالنا نجد أن نزعاتهم التخيلية تغذيها لغة زاخرة بالمعانى وتراث أدبى متعدد الجوانب ، ولكن هذه النزعات تتقلص عندما يكبر الأطفال وتصبح نادرة مكبوتة ، ثم تشتتها مطالب التكيف للظروف المادية . أما فى مانوس فإن استفساراتهم السليمة وانشغالهم بما يمكن أن يرونه أو يلمسونه ، أو يسمعونه ، يتأثر جميعه بالقوانين الخاصة بعالم ما وراء الطبيعة الذى يقضى على هذه النزعة العلمية ويقمعها . ولكن المربى الذى يتوقع من هذه القدرات — التى لا تتفق وتقاليد الكبار — أن تزدهر وتؤتى ثمارها رغماً عما يحيطها من عالم غريب عنها لا يقرها ، فإن مثل هذا المربى لا يعمل حساباً للتقاليد الثقافية — وهى تقاليد تؤكد حقوقها فى وجه أى اعتداء عليها فى هذا العالم .

ولنأخذ مثالا من مانوس عن مهارة نحاول نحن أن نطورها وننميها عن طريق بعض الأساليب التربوية . وهى مهارة — الرسم — ولدينا بعض المربين ممن يشعرون أن ثقافتنا الراهنة ناقصة من ناحية الميول الفنية أو التحصيل الفنى ، ولذلك فإنهم يجمعون جماعات من الأطفال الأمريكيين ، ويمدونهم بالمواد الخام ويوفرون لهم وقت الفراغ والتشجيع ثم يطلبون منهم أن يرسموا ، بعد أن يرى الأطفال فوق جدران المدارس وفى كتبهم نسخاً من أعمال مشاهير الرسامين فى أوروبا ، وبعد المحاولات الأولية مع مشاكل الأبعاد يبدأ التلاميذ فى الرسم فى

حدود قواعد نص عليها كبار الفنانين الذين عاشوا فى عصور كانت تقدر فن الرسم وتخصص له جوائز ثمينة . فإذا نحينا جانباً النتائج الجميلة التى تأتى اعتباطاً والتى تتكرر كثيراً فى رسـوم الأطفال ، تلك النتائج التى تجىء نتيجة للجدة والبساطة ، والتى نحصل عليها مصادفة بتنظيم خطوط الرسم تنظيما مبتكراً ، فإننا ولا شك سوف نقع أيضاً على إنتاج كثير جيد من بين إنتاج مثل هذه الجماعة من الأطفال . ولسوف يشير المدرس فى زهو وإعجاب إلى ما يمكن عمله بمجرد تهيئة الفرص للنزعة الفنية لكى تزدهر وتثمر تحت ظروف ملائمة .

وعلى العكس خذ مثلا تلك الرسوم التى أنجزها الأطفال فى مانوس حيث لانجد فى ثقافتها أى تراث فنى فقد أعطينا الأطفال حرية كاملة ، وسلمنا لكل واحد منهم قلماً وورقاً وسطوحاً ملساء يمكنهم أن يعملوا فوقها . ولم نقم بتقريظ المجد منهم أو بنقد من فشل ؛ وكنا أحياناً نشجع صغار الأطفال ولكن فى عبارات عامة لا تعنى شيئاً معيناً . ولقد ظل أولئك الأطفال لمدة شهور يملأون ورقة بعد أخرى برسوماتهم يملؤهم الاهتمام بعملهم ، وقد اندمجوا بكافة حواسهم فى هذا العمل الجديد المسلى . وقد لمسنا فى إنتاجهم الفردى معظم الاتجاهات التى نجدها ناضجة متطورة فى الإنتاج الفنى لمختلف الشعوب ، كالاتجاه التقليدى والواقعية والمنظور ، والرمزية ، واستعمال وحدات الرسم غير المفيدة ، وطمس معالم الموضوع لكى يناسب المجال ... الخ . ولكن وهذا هو أهم ما فى الأمر ؛ لم نجد بين هذه الرسوم رسماً يمكن أن نسميه عملا فنياً ، وذلك فى حين توجد على مقدمة القوارب ، وعلى كسارات البندق ، وعلى حافة الآنية نقوشاً غاية فى الجمال والروعة والكثير منها من صنع القبائل المجاورة ، ومع ذلك لم يتخذ الأطفال من هذه الأشياء نماذج لرسومهم وقد ظهر فى إنتاجهم هذا النقص . فهم إذ يعملون بدون أن توجههم ثقافة المجتمع ، يجىء إنتاجهم مثيراً للاهتمام ولكنه لا يؤيد النظريات التى تقول بأن الأطفال سوف يأتون بالمعجزات إذا حصنوا ضد تأثير الكبار . ومع ذلك فليس هناك ما يدعونا أن نناقش الأمر من زاوية بعض نظريات الأجناس التى تقول إن أولئك القوم إنما يفتقرون إلى الموهبة الفنية لأن النقوش

الخشبية التى يقوم بها جيرانهم من نفس الأصل السلالى تقف على قدم المساواة مع أرق أعمال فنية من نوعها . فلو أعطى لكل طفل مبراة وطلب منه أن يحفر بها لكانت النتائج أحسن بكثير مما هى . ولنعد الآن إلى جماعة من الفنانين الأطفال فى إحدى المدارس التجريبية بأمريكا . فتحت تأثير الثقافة الفنية السليمة ، وبتهيئة الوقت الكافى للرسم ، والفرص المناسبة لاتقان مهارات هذا الفن فى مرحلة مبكرة من عمر الطفل ، وعن طريق اعتراف المجتمع بنجاح هؤلاء الفنانين الصغار مما لا يتيسر لأى واحد من كبار فنانينا ، فقد يصبح فى الإمكان تخريج فنانين من هذه المدرسة ولكنهم سوف يكافحون فى يأس ضد تنكر المجتمع لهم ، أو يضطرون إلى الفرار إلى أوروبا حيث يعيشون نصف غرباء . ونظراً لاستطاعتنا الوصول إلى ثقافات أخرى كتلك الثقافات الممتلئة حيوية ومادة والتى يمكن أن نقتبسها من موطنها الأصلى ، ونقيمها بين جماعة من التلاميذ فمن الممكن فى هذه الحالة أن ينشأ الأطفال وهم متعلقين بذلك النوع من الثقافة المختلف عن ثقافة بلادهم . وهذا قد يكون مستحيلا فى حالة أى شعب بدائى . ولكن المدرس الذى ينمى فى تلاميذه حب ثقافة تخالف ثقافة بلده وعلى حساب الأخيرة لا يخلق شيئاً جديداً . إنما هو يوجه التيار الثقافى بحيث يستطيع التلميذ أن يرتوى منه بدون أن يشعر أن هذا المنبع غريب عنه . والطفل بهذا الإجراء قد تضلله شباك الواقعية ، وإيديولوجية معينة ، ومقاييس عالم آخر حتى ينتهى به الأمر أن يشعر بانتمائه إلى ذلك العالم الجديد لا لحضارة وطنه الأصلى . وحين يكبر هذا الطفل ويبلغ مبلغ الرجولة فإنه إذ يتلفت حواليه ، لا يستطيع أن يتعرف على تلك الثقافة التى لم يلعب فيها أى دور ، مما يشير بوضوح إلى صحة الرأى بأن التربية تستطيع أن تحقق أى شىء .

ولكن هذا صحيح جزئياً فقط . فلو تسنى لأطفال مانوس رؤية أعمال الفنانين المجيدين ولو لاقوا التشجيع على الإعجاب بتلك الأعمال ومحاولة تقليدها ، وعوقبوا على فشلهم وأثيبوا لنجاحهم ، لأثبت إنتاج هؤلاء الصغار الذين ينتمون لآباء يجهلون كل شىء عن فن الرسم أن فى استطاعتهم تعلم مبادىء

وأسلوب وأصول فن — تهيأت لهم فرصة التدريب عليه ، ولا تستتبع المهارة فى فن الحفر والولع به إطاراً من الآراء المرتبطة به بحيث يجعل الفنان معترفاً به فى مجتمع مانوس . فإنه إذا أدى به انهماكه فى إنجاز عمله وانشغاله به إلى درجة رفضه أن يخرج للصيد أو للتجارة ، أو لبناء القوارب والبيوت ، فإنه يصبح فى الغالب رجلا عالة على المجتمع .

وحين نتلفت حولنا إلى مختلف الحضارات ونلاحظ أساليب الحياة المتعددة الألوان والتى فرض على الأفراد أن ينضووا تحت ألويتها ، وأن يساهموا فى تطويرها ، نشعر بأمل جديد فى الإنسانية ، وفى قدراتها وإمكانياتها . ولكن هذه الإمكانيات تصبح سلبية عاجزة بلا وسط ثقافى يمكنها من النمو . وهكذا تهيأت لأطفال مانوس فرص تنمية الشعور الاجتماعى السليم كما تهيأت لهم فرصة ممارسته فى لهوهم .

ولكن هذه المشاعر الجماعية الطيبة لم تستطع أن تقف وحدها فى دنيا الكبار ، حيث أصبح هدف الحياة هو الكسب الفردى الأنانى ، فحين كان الرجال أطفالا كانوا يتقاسمون السيجارة الوحيدة فيما بينهم و يقتسمون اللابلاب Laplap الواحد ، ولكنهم وقد كبروا أصبح الواحد منهم يشكو الآخر فى دار القضاء من أجل قدر من الفخار أو عقد من أسنان الكلاب .

وعلى ذلك فإن المفكرين الذين يعتقدون فى إمكان تحويل مجتمعنا عن تطاحنه من أجل الثروة ، وذلك بتربية الأطفال فى عالم من المشاركة المتساوية إنما لا يحسبون حساباً لتعذر تحقيق هذا . فإن فى إمكانهم خلق مثل هذا العالم من أجل جماعة صغيرة من الأطفال يضعونها تحت إشرافهم الكامل ، ولكنهم إذ يفعلون ذلك إنما يوجدون اتجاهاً لا يجد قبولا فى مجتمع الكبار . فالطفل إذا درب بهذه الصورة قد يصبح ظاهرة مريضة أو كافراً بالقيم الاجتماعية ولن يستطيع أن يعيش فى سلام مع مجتمعه إلا إذا كفر بالاتجاهات التى تدرب عليها فى طفولته والتى لا تجد لها مكاناً فى المجتمع . وإن التجربة الهائلة التى تجرى فى

روسيا ، يجب أن تثبت أقدامها أولا بين الكبار قبل أن يتعلمها الأطفال . فليس هناك طفل فى إمكانه أن يربط بين مجتمعه وبين فلسفة غريبة عن ذلك المجتمع .

ولا يمكن بناء هذه الروابط دفعة واحدة بل هى تنمو تدريجياً ، وفى صبر وأناة على أيدى الممتازين والموهوبين . وليس الطريق لبناء العالم أن ننمى فى الأطفال خصائص واتجاهات غريبة عن حضارة مجتمعهم . فكل ديانة حديثة وكل نظرية سياسية مستحدثة بدأت أولا تبشيرها بين الكبار حتى تستطيع أن تكون حولها نواة ثقافية ينمو فى إطارها الأطفال . وتقدم لنا تجربة ميدلتون نموذجاً لطريقة تعليم الآداب والفنون والموسيقى والتاريخ واللغات القديمة فى المدارس ، مع أنها مهملة تماماً ولا مكان لها فى حياة الكبار من أفراد ذلك المجتمع. ولاشك أن أولئك الأطفال الذين يتعلمون تلك المهارات على أيدى مدرسين ليست لهم دراية حقيقية أو حماساً حقيقياً لتلك المهارات . وحتى لو فرض وأمكن إيجاد أحسن المدرسين فإن نتائج التعلم لا تستطيع أن تقاوم الضغط المضاد الناتج عن الحياة فى ميدلتون وأن الجماعات الصغيرة من الرسامين والكتاب الذين يتكتلون منعزلين فى أماكن بعيدة فى أمريكا أو يجتمعون فى مقاهى باريس لا يهزلون بعملهم هذا . فإن احتكاكهم بثقافات وأفكار حضارات أخرى أعطاهم قوة دافعة لكى يحيوا حياة الفنان الذى لا يمكن أن يعيش داخل إطار المجتمع العادى. و بالرغم من أن تخريج الفنانين الموهوبين الذين يتحتم عليهم الهروب من الثقافة التى كان لها فضل تكوينهم مبدئياً خير من عدم تخريج فنانين على الإطلاق ، إلا أنها نتيجة اجتماعية يؤسف لها لو قورنت بما يمكن أن يتم فى حدود ثقافة نشطة فعالة متجاوبة .

ورغماً من أن من أنه من الممكن أن نقدم لبعض الأطفال نوعاً من

التراث الثقافى الغريب عنهم فإن هذه العملية لا ترتقى بالأطفال إلى مستوى أعلى من تراثهم الأصلى بمعناه الواسع . فلو فرضنا واستبدلنا الإنتاج الفنى التجارى بإنتاج الفن الإيطالى ، وأبدلنا موسيقى الجاز بموسيقى نوابغ الألمان فإن ما يحدث هو أن الأطفال لا يطورون النوع الجديد ولكنهم يتعلمون ما يختاره لهم الكبار من التراث الآخر الثمين ، لذلك فالتغير الحقيقى لا يتم إلا عن طريق مساهمة الكبار وعندئذ نستطيع أن نقول إن إسهام نشاط الجيل الجديد له نتائجه الهامة .

ولهذه النتيجة الحقيقية مثال حى فى مانوس حيث تهول الجماعة الكثير من مشاكلها التربوية وتؤجلها إلى طور الرجولة ، وحيث تسمح للشبان الثائرين أن يسخروا من مقدسات المجتمع ، ولا يطيعوا أوامره ومع ذلك نجد أن الشبان فى آخر الأمر لا يملكون إلا الإذعان للعرف السائد فى المجتمع والانضواء تحت لوائه ، لأن ثقافة مجتمعهم قد أصبحت هى مدار حياة الشباب وأساسها . فالطفل هناك يتلقى المضمون العام لثقافة مجتمعه مهما كانت الوسيلة التى تنقل هذا المحتوى إليه ، وهو يتشرب هذا المضمون على أى حال ، ولكنه يعتمد اعتماداً كلياً وبصورة يائسة على نوع ذلك المضمون .

ويلاحظ أن إهمالنا عموماً للمحتوى وعنايتنا بالطريقة ، وثقتنا العمياء فى أن ما نحتاجه هو معادلات ميكانيكية ، يتمثل بوضوح فى نوع المناهج التى تدرس فى معاهد إعداد المعلمين إذا قورنت بالمناهج فى كليات الآداب والفنون . فإن هؤلاء الطلبة المدرسين يتعلمون طرق تدريس أى موضوع تحت الشمس ، ولكنهم يتعلمون معلومات قليلة جداً عن الفنون والآداب والتاريخ كعلوم فى حد ذاتها ، والنتيجة أن المدرس ينقل إلى تلاميذ مجموعة من المواد الهزيلة التى لم يحسن هضمها أو فهمها وبطريقة معقدة جدباء . وفى معاهد إعداد المعلمين هذه يهتم القائمون عليها بتدريس هذه الموضوعات مثلا « قيمة دراسة تواريخ الحوادث » ، « فوائد استعمال الخرائط » . بدلا من قراءة التاريخ نفسه . وبالإضافة إلى هذا يتلقى الطلبة ثلاثين ساعة من المحاضرات فى دراسات التربية ، كطرق تدريس

التاريخ أو الأحياء ، وينظر إلى هذه المحاضرات على أنها أهم بكثير من التعمق العلمى فى هذه العلوم . والذى يحدث أن أولئك الطلبة المدرسون ينتمون إلى طبقة ليس لها خبرة كبيرة بالتراث الثقافى ، وعند دخولهم فى كليات التربية لا تحاول المناهج المقررة أن تعوض من فقرهم فى هذه النواحى . وعلى ذلك فنحن لا ننقطع عن الاعتماد على المدرس الفرد لنقل التراث الثقافى الزاخر والتراث العلمى الموجود عندنا اليوم .

فإذا أردنا أن نستغل هذه المواد ، وأن نغذى ثقافتنا وننميها فعلينا ألا نعتمد على المدرسين الأفراد أو أن نيسر لهم أساساً أقوى خلال سنوات إعدادهم . وإذا كنا نريد من مدرسينا أن يصبحوا فى طليعة رسل الحضارة فعلينا أولا وقبل كل شىء أن نمكنهم من تفهم تلك الحضارة .

وحل آخر هو أن نقلل من اعتمادنا على المدرسين ونبحث عن وسائل أخرى لنقل محتويات الثقافة . وتتمثل هذه الطريقة فى خطة تربوية حديثة يقوم بها أحد المتاحف الكبرى بإحدى مدن الولايات الشرقية وهى أن المتحف يبعث بشرائح ميكروسكوبية إلى عدد من المدارس الثانوية ثم يتجمع طلبة المدرسة فى إحدى قاعات المحاضرات بالمدرسة فى ساعة محددة ، ويأتى أحد خبراء ذلك المتحف فيلقى محاضرة بالراديو مع التوضيح بعرض تلك الشرائح . وحتى إشارات تغيير الشرائح تعطى بواسطة الراديو . فمثل هذه الطرق التى تستخدم فيها الراديو أو المصباح السحرى ، أو السينما ، أو مجموعة كبيرة من الكتب يمكن أن تستخدم فى تقديم كميات وافرة من المعلومات والحقائق للتلاميذ ويمكن لعدد قليل من المربين الممتازين أن يشرفوا على إعداد المناهج المقررة على ملايين الأطفال فى المدارس ، فهذه الطرق الحديثة تقوم بالتدريس بنفسها على عكس الكتب المقررة التقليدية ، أما وظيفة المدرس فى هذه العملية فهى لن تتعدى أن يكون مجرد مساعد على حفظ النظام وأمين للوثائق والتقارير فالاعتماد على مادة ينتشر إشعاعها بطريقة ميكانيكية ، وبدون اتصال شخص من مصادر بعيدة ولكن

موثوق بصحتها يفضـــل دائماً الطريقة الحالية حيث يطلب من المدرسة التى لا تعرف شيئاً عن الشعر بتفسير أشعار شكسبير .

وقد تكون استخدام هذه الوسائل الآلية من الأهمية بحيث يجب أن نطبقها فى الأحوال الاضطرارية إلى أن نتمكن من إعادة النظر فى مناهج إعداد المدرسين بكليات التربية ، وحتى نستطيع أن نهيء لمدرسينا فرص الجمع بين غزارة المادة ، والزعامة والقيادة الشخصية .

وفى كلتا الحالتين ، فإن على هؤلاء الذين يرغبون فى تطوير ثقافتنا ، ويعتنقون الآمال المثالية والتى قد لا تكون عسيرة التحقيق فى إمكان حدوث هذا التغيير ، أن يبدأوا أولا بحشد عدد كبير من الكبار الذين يشاركونهم رغبتهم ولو بصورة أقل فى إعادة النظر فى تنظيم اتجاهاتنا القديمة التى تقف أمام عقولنا المشبعة بالثقافة . وينطبق نفس الكلام على أولئك الذين يريدون أن يستوردوا بعضاً من ثقافات المجتمعات الأخرى . فهؤلاء أيضا يجب عليهم أن يبدأوا بنموذج مصغر متناسق لثقافة الكبار قبل أن يقدموا على تربية جميع التلاميذ بالوسائل الجديدة — حتى ولو كانوا يعتقدون فى تربيتهم عن طريق الراديو . فمثل هـذه التغيرات تطرأ على اتجاهات الكبار فى بطء وتعتمد اعتماداً كبيراً على الأفراد الموهوبين أو الحكماء أكثر من اعتمادنا على مشروعات التعليم بالجملة .

وإلى جانب أن تشجيع هذا التفاؤل لا محل له ، فان هذه المغالاة فى تقدير العملية التربوية ، وعدم تقدير القوة الفولاذية للحوائط الثقافية التى يستطيع أى فرد أن يعمل داخلها قد تنشأ عنه نتيجة أخرى سيئة . فإنها تحكم على كل طفل يولد فى المجتمع الأمريكى بأن يصبح ضحية لمائة من المبشرين الذين لن يتوانوا أو يتريثوا فى بناء ثقافة متميزة يستطيع الطفل أن يترعرع فى ظلها وينمو نمواً متكاملا مشجعاً . فمثل هذه الجماعة تلغى جهود الجماعات الأخرى والضحية هو الطفل الحديث الذى يتعرض لمآس وكوارث لم يعرفها أطفال مانوس الذين تربوا

جدون أن يدركوا حدودهم إدراكا واعياً حتى بلغوا طور الرجولة ، ولن نستطيع أن نبدأ فى معالجة مشكلاتنا التربوية إلا بعد أن نقتنع تماماً بأن الثقافة الهزيلة لا يمكن أن تصبح يوماً ثقافة غنيـة غزيرة ، حتى ولو عممناها ببعض الطرق التربوية لعدد لا حصر له من التربويين . كما أن الثقافة الخصبة والتى لا تملك نظـاماً تربوياً معيناً يكون أطفالها أسعد حالا من أطفال نشأوا فى ظل ثقافة هزيلة حتى وإن كانت تملك أحسن نظام تربوى فى العالم .

وبمجرد أن نفقد الثقة فى الوظيفة الغامضة للتربية ، وفى الطريقة السحرية التى تخلق بهـا التربية شيئاً من لا شيء عن طريق استغلالها لقدرات الأطفال السلبية ، فإننا نستطيع بعد ذلك أن نوجه اهتمامنا للمشكلة الحيوية الخاصة بتنشئة أفراد يمكنهم ، إذا ما بلغوا طور الرشد والرجولة ، أن يعيدوا تشكيل نظمنا القديمة بصورة أكثر تقدماً وأعم فائدة .

ملحقات

ملحقـــات

- ١ -

الاتجاه الاتنولوجى فى علم النفس الاجتماعى

تم إجراء هذا البحث على أساس افتراض أنه من العسير دراسة الطبيعة الأولى للانسان بطريقة مباشرة إلا فى نطاق تلك الظروف البسيطة المتشابهة التى درسها واطسون Watson فى أولى تجاربه . وهى تبنى على افتراض أن الطبيعة الأولى للطفل ، معرضة لتأثير الظروف البيئية وأن الوسـيلة الوحيدة للوصول إلى طبيعته الحقيقية هى عن طريق دراسة اختلافاتها فى الظروف البيئية المتعددة . وأنه لابد أن يأتى الوقت الذى يعطينا فيه تـكرار هذه الدراسات أساساً أقوى للتعميم والاستنتاج أكثر مما لو قصرنا ملاحظاتنا على أفراد داخل الأسوار الضيقة لبيئـة اجتماعية واحدة . وقد نقوم بملاحظة الآلاف من الأطفال فى بيئتنا الخاصة ونقوم بإجراء الاختبارات وإعادتها فى مجتمعنا الخاص وقد تأتى بنتـائج طيبة ولـكنه بمجرد محاولة تعميم هذه النتائج خارج حدود المجتمع فإنها فى الغالب تنتهى بالفشل .

وقد تبين أنه إذا نقلنا إحدى التجارب من داخل مجتمعنا حيث نستطيع ضبط كافة العوامل وعلى الأخص اللغة إلى أحد المجتمعات البدائية حيث يصعب بل يتعذر ضبط الظروف المؤثرة ، وحيث يستوجب الأمر تعلم لغة جديدة ، فإنه لا بد من التسليم بأنه لا مفر من التضحية بنصيب كبير من الدقة التجريبية . ولـكننا نشعر فى الوقت ذاته بأن هذا العيب فى الطريقة يعوض عنه ما نجنيه من فوائد لدراستنا لجماعة متجانسة . ونحن نستطيع أن ندرس فى مجتمعنا عدداً كبيراً من الحالات متساوية فى العمر الزمنى ولـكننا يجب أن نتساهل فى أمر هذا المجتمع الثقافى غير المتجانس الذى يصعب على أى باحث فيه أن يسيطر على كافة نواحيه . أما فى حالة الجمـاعة البدائية فإن الباحث يواجه حالات أقل فى العدد ، كما أن عمرها الزمنى ، وعمر آبائها وقت ميلادهم ، وترتيبهم فى الميلاد وطريقة ولادتهم ،

كل هـذا لا يمكن الوصول إليه بالضبط . أما فيما يختص بعـادات وصفات وأخلاق ، وعقـائد ، ومحرمات ، ومتناقضات ومحرمات تلك الجماعات فـكلها متشابهة وقريبة جداً من معيار ثقافى واحد . وفى الدراسات الخاصة بالشخصية ، والتكيف الاجتماعى . . . الخ أى فى تلك الأبحاث التى توجه الاهتمام الأكبر إلى البيئة الاجتماعية نجد أن دراسات الجماعات البدائية تعطينا نتائج غاية فى الأهمية ، ويمكن عن طريق تحليل الوضع الثقافى نفسه أن نصل إلى العقائد الدينية والعـادات الجنسية ، وطرق التربية الخلقيـة ، والأهداف الاجتماعية لأولئك الذين تتـكون منهم أسرة الطفل ، ولا يختلف الفرد داخل ذلك النوع من الحضارة اختلافاً بينـاً عن غيره من نفس العمر أو الجنس فيما يتعلق بهذه الأمور السابق ذكرها . ويجب أن نذكر أنه فى ثقافة مثل ثقافة مجتمع مانوس حيث يوجد تقسيم للمسئوليات بين الأفراد بحسب نوعهم (يوجبه طبعاً تقسيم للواجبات بين البيئات المحلية) ، وحيث لا نجد طبقة من رجال الدين اختصوا بالمعرفة والعلم دون سواهم ، وحيث لا نجد لديهم أية وسـيلة لتسجيل الأحداث فإن التراث الثقافى يكون من البساطة بحيث يسهل على الشخص البالغ من أفراد هذه الجماعة أن يعى أحداثه فى ذاكرته . والباحث الذى يذهب إلى هذا المجتمع وقد سبق أن قام بتدريب إثنولوجى يمهد له أن يسجل الظواهر التى لاحظها على ثقافة أهل مانوس ويصنفها فى فصائل وأقسام يجيد فهمها ، وعن طريق تفوقه وامتيازه الهائلين على الأهالى واستطاعته أن يسجل كتابة كل جانب من هذه الثقافة كما تتعلم وتُكتسب . مثل هذا الباحث يكون فى مركز ممتاز يسمح له بالدراسة فى وقت أقصر من المحدد . وقد استطعت بحكم عمل زوجى كباحث فى نشأة شعب مانوس أن أقلل من مدة تلك المرحلة التحضيرية . وعلى هـذا فأنا أعتقد أن الثقافة البدائية تـكون أقل تعقيداً كبيئة اجتماعية من أكثر قرانا الريفية عزلة وبعداً عن مجتمعنا ، لأنه فى تلك القرى على بعدها وعزلتها تهب تيارات وأصداء من مئات الأنواع من التعقيدات الثقافية المتشابكة .

ودراسة النمو الإنسانى فى المجتمع البدائى له هاتان الميزتان : الميزة الأولى أنه يقدم لنا نمطاً يختلف عن بيئتنا الاجتماعية ويقدم لنا زوايا جديدة من الطبيعة البشرية ، وكثيراً ما يبين لنا بالأدلة الداحضة أن السلوك الذى يصدر تقريباً من كافة الأفراد الذين ينتمون إلى مجتمعنا لا يرجع إلى الطبيعة الأولى وإنمـا يعود إلى الوسط الاجتماعى ؛ والميزة الثانية أنه يقدم لنا بيئة إجتماعية بسيطة التركيب ومتناسقة فى مكوناتها يمكن السيطرة عليها بسهولة ويمكن فى ضوئها أن ندرس تطور الفرد ونموه .

ويضع عالم الأجناس نتائج الأبحاث النفسية لعالم النفس الذى يعمل داخل مجتمعنا موضع الاختبار والملاحظة فى إطار تلك المجتمعات الأخرى . وهو لا يحاول مطلقاً أن يبرهن على أن تلك النتائج غير صحيحة ، ولـكنه فى ضوء مادة اجتماعية واسعة المجـال يحاول أن يختبر التفسيرات التى يمكن أن تطبق من خلال هذه الملاحظات . فأسلوبه إنما هو أسلوب خاص لتحليل المجتمع البدائى تحليلا سريعاً . ولـكى يكتسب خبرة بهذا الأسلوب فإنه يسخر وقتاً طويلا لدراسـة مختلف المجتمعات البدائية ، وتحليل الأنماط الاجتماعية التى تميز كل منها ، كما يقوم بدراسة اللغات الأخرى غير الهندوروبية لـكى يستطيع أن يكيف تفكيره للفصائل اللغوية الغريبة عنا . كذلك يقوم بدراسة أساليب النطق حتى يستطيع التعرف على أنواع النطق ومخارج الـكلمات وأن يسجل الأصوات التى يصعب علينا أن نميز بينها ، والتى تزيد صعوبتها حين نحاول أن ننطق بها ، لا سيما إذا كنا معتادين على طريقة مختلفة فى النطق ويقوم عالم الأجناس أيضاً بدراسة الأساليب اللغوية المتقاربة واكتساب السرعة فى معالجة الفصائل المتقاربة حتى لا يكون الجهل بالأسلوب اللغوى لأهل مانوس مثلاً عائقاً محيراً وخصوصاً أن الأفراد من نفس الجيل قد يتفاهمون بمصطلحات أجدادهم . فتعلم هذه النظم يساعد على نقل الأفكار إلى الباحث بوضوح واستنارة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الباحث يجب ألا يتردد فى الاستغناء عن مقومات

الحياة الراقية ، ويعرض نفسه عدة شهور لمضايقات الحياة الشاقة ومتاعبها بين أفراد شعب يختلفون عنه اختلافاً تاماً فيما يتعلق بسلوكهم الشخصى ووسائلهم الصحية وطرق تفكيرهم . وعليه أن يكون مستعداً لتعلم لغتهم ، وأن يندمج فى عاداتهم ، وأن يحفظ ثقافتهم عن ظهر قلب ، وأن يستنكر ما يستنكرونه ، ويهلل لما يهللون له . ففى مانوس مثلاً كان من المهم أن نتعلم كيف نعبر تعبيراً صادقاً عن رعبنا وارتياعنا إذا ما تقابل قريبان محرمان على بعضهما ، كذلك لا بد أن نتعلم عدم النطق بأية كلمة محرمة ، وأن نشعر بالحرج والندم لسقطات اللسان فى هذا المجال ، كذلك كان علينا أن نتعلم أن نعقب على كل حالة مرض أو موت بسؤالنا عن الروح المسئولة عن ذلك . فمثل هذه الأبحاث تتطلب جهداً كبيراً فى تنظيم التفكير ، وتعلم عادات يومية غريبة . فسلاح دارس الأجناس الذى يعالج به المشكلات السيكولوجيــة هو استعداده للقيام بتلك الدراسات وعنايته بخطة السير فيها . فهو يرد على عالم النفس الذى يجرى دراسة طويلة دقيقة داخل نطاق مجتمعنا قد يصل عن طريقها إلى بعض الحقــائق القاطعة أو لا يصل بقوله : « دعنى آخذ استنتاجاتك هذه وأضعها موضع اختبار جـديد . لقد تمت بتصميم كذا وكذا من النتائج عن محتوى تفكير صغار الأطفال والعلاقة بين النمو العقلى والنمو الجسمى ، والصلة بين نوع معين من الحياة العائلية واحتمال السعادة الزوجية ، والعوامل التى تدخل فى تكوين الشخصية . . الخ » وإنى أجد هذه النتائج هامة وذات مغزى ، وعلى ذلك دعنى أختبرها فى بيئة اجتماعية مختلفة وفى ضوء هذه التجربة وعلى أساس بحثنا المشترك ، وعلى أساس تحديدك الأصلى للمشاكل والمشاهدات فى مجتمعنا ، يمكن أن نخرج معاً بنتائج تقف حائلاً دون الاتهامات التى تقول بأن الوسط الاجتماعى لم يحسب له حساب فى التجربة . فعندئذ يمكنك أن تقسم مشاهداتك على الأفراد من وسطنا الثقافى إلى قسمين : القسم الأول ويتضمن معلومات عن سلوك الكائنات الآدمية كما عدلته الحضارة الحديثة ،

وستكون هذه المعلومات غاية فى الأهمية عند تناولنا للمشكلات التربوية والنفسية لدى أفراد من نفس الوسط الاجتماعى . أما القسم الثانى فيتضمن النظريات عن الطبيعــة الإنســانية الأولى وقدرات الإنسان التى وصلنــا إليها عن طريق ملاحظاتنا معاً » .

ولا يسع الباحث السيكولوجى الذى يهتم بحل المشكلات النظرية الأساسية إلا أن يقبل هذا العرض . وقد يقول الطبيب النفسانى ، والإخصائى الاجتماعى ، والمربى وغيرهم ممن يهتمون بالتكييف السريع للفرد ، ولهم العذر فى قولهم هـذا : « نحن نقبل ما تقـدم من أدلة على أن الكثير من مظاهر الطبيعة البشرية فى مجتمعنا والتى نعتبرها راجعــة إلى التركيب الجسمى للشخص ، إنما هى فى الواقع تعود إلى الظروف الاجتماعية . فمن الناحية النظرية نحن نعتقد أنك على صواب . ولكن فى الحقيقة أمامنا خمس حالات من عدم التكيف علينا أن نعالجها سريعاً . وما نحتاج إليه لعلاج هذه الحالات الخمس هو نتائج الدراسات التى عُملت لحالات من السلوك المماثل حتى ولو كانت هذه النتائج مبنية على سلوك أفراد من مجتمعنا لأنها تناسب الزمان والمكان . أما عن الحالة الأولى فهى إحدى حالات الاستعراض الجنسى . ومما يلفت النظر أن نعلم أن مثل هذا السلوك لا يمكن حدوثه فى ساموا حيث لا يعترف الناس باستنكارنا لهذا السلوك . ولكن الصبى جون من النوع الاستعراضى ويجب فحص حالته وتشخيصها فى ضوء حالات الأطفال الآخرين فى مجتمعنا » .

ونحن نعطف جداً على المشكلة التى تواجه هؤلاء الإخصائيين العمليين ؛ ولكننا لا نشعر بأى عطف على أولئك الذين يقفون وراءهم ممن يبنون نظريات عن الطبيعة الإنسانية تأخذ بها النظم التربوية ومدارس علم النفس .

فمن الأمور التى تعتبر غاية فى الأهمية أن يكون المشتغل بعلم النفس على دراية واسعة بإمكانيات التجريب والبحث فى الثقافات الأخرى ، وأن يكون

وثيق الاتصال بالدراسات الحـــديثة فى نشأة الأجناس لأن وضع هذا العلم غريب فى بابه .

وفى بعض العلوم ، قد يهمل الباحثون ميداناً من ميادين الدراسة ومع ذلك لا يترتب على ذلك الإهمال أية نتائج خطيرة . فقد يتناول جيل آخر من الباحثين ما أهمله الجيل السـابق ، فيقتلونه بحثاً ودراسة مما قد يعود بالخير على ذلك الميدان الذى سبق أن أهملت دراسته .

ومثال لذلك ما حدث فى ميدان علم الحيوان حيث أجريت التجارب على الفيران البيضـــاء التى نمت سجينة فى أقفاصها . ونحن نفترض أن عدد الفيران الممكن الحصول عليها لن يقل فى الجيل القادم عن سابقه ، فإن السرعة التى تتكاثر بها الفيران تجعل منها عناصر صالحة لإجراء التجارب عليها .

ولـكن إذا كان المشتغل بعلم نفس الحيوان يجد أن التجارب على الثدييات المتوحشة فى غاية الأهمية ، ويجد فى نفس الوقت أن غزو الحضارة المستمر لأجزاء العالم النائية حيث تعيش تلك الثدييات سوف يؤدى إلى انقراضها نهائياً ، فإن فى هذه الحالة يكون له كل الحق فى أن ينزعج ويهيب بزملائه من علماء النفس وبمعاهد الأبحاث العلمية أن يسرعوا بإجراء دراسات على هذه الثدييات الضارية قبل أن تفنى وتفوت الفرصة إلى الأبد . وحتى فى مثل هذه الظروف لن يكون لانزعاجه ومخاوفه نفس الخطورة كانزعاج المشتغل بعلم النفس الاجتماعى إذ يمكن الاحتفاظ بزوج واحد من الغوريلا وإجراء التجارب عليه وعلى نسله فيما بعد .

ولـكن الوضع يختلف بالنسبة لعلم النفس الاجتماعى فنظراً لـكوننا لا نقتصر فيه على دراسة الجنس الإنسانى فى حد ذاته بل لا بد من أن ندرسه تحت المؤثرات البيئية ، كان محتماً علينا أن نهتم بدراسة عدة أنواع مختلفة من البيئات الاجتماعية لاستخدامها كعوامل ضابطة . وقد أدى انتشار الحضارة الغربية بصورة سريعة على وجه الـكرة الأرضية إلى أن بدأت المجتمعات المختلفة تتقارب شيئاً فشيئاً وتأخذ طابعاً حضارياً أقل تبايناً واختلافاً ، أما إذا زادت درجة اختلاف

أحد المجتمعات زيادة خارجة عن الحدود المعقولة للطابع الحضارى الشائع فإن هذا المجتمع يتلاشى تماماً . وهناك حالات من هذا النوع موضوعة تحت الاختبار الدقيق وتستبعد أسبوعاً بعد أسبوع كلما تغلغلت المثالية المسيحية والنظم الصناعية داخل بلاد اليابان والصين ، وتعمقت فى أغوار الأفغانستان البكر ، أو كلما مات أحد أفراد قبائل المريورى Moriori أو من جزر لورد هاو Lord Howe وهى البقايا الباقية من تلك الثقافات المنقرضة التى لا تستطيع الصمود أمام تيار الجنس الأبيض .

ومن البلاهة أن نظن أن تقاليد الجنس البشرى ستصبح واحدة فى يوم من الأيام أو أن الاختلافات الفردية داخل إطار الجماعات سوف تزول ، ولـكن ما نرجح حدوثه أن مع تقدم وسائل النقل ، والمواصلات لن تصبح هناك مجتمعات منعزلة بالمعنى الصحيح ، ولن يسمح لإحدى الجماعات الصغيرة أن تستقل بثقافتها الخاصة بدون أى اتصال بالعالم الخارجى فى المائة سنة القادمة كما كان الحال فى الماضى .

كذلك لن يسمح لإحدى القارات بأن تعالج مشاكل تـكيف سكانها البيئى بدون الالتجاء إلى النفوذ الخارجى ، كما عالج هنود أمريكا مشكلة زراعة الذرة مثلا . فطبيعة تقاليدنا المادية التى تتجه نحو التجمع قد أصبحت فى حالة قد تكون هى نهاية مرحلة لن يتيسر تـكرارها . وفى نفس الوقت لا تزال هناك جماعات تعيش فى غينيا الجديدة وفى أندونيسيا وفى أفريقيا وفى أمريكا الجنوبية وفى بعض أجزاء من آسيا ، يمكن أن تجرى عليها أبحاثاً قيمة ، ونجعل منها ضوابط لـكافة التجارب العلمية التى تهدف إلى تفهم الطبيعة البشرية .

وسوف يقول عالم النفس الاجتماعى بعد مرور خمسمائة عام من اليوم :
« لو تسنى لنا أن نقوم باختبار هذه النتيجة على أناس نشأوا فى ظل إطار اجتماعى مختلف ، لوصلنا إلى نتائج مختلفة جد الاختلاف أما الآن فهذا غير ممكن إذ ليست لدينا مثل هذه المجتمعات التى يمكن دراسة المشكلة من خلالها ؛ ولا يمكننا حتى إذا شئنا ، أن نخلق مجتمعات تجريبية ونهيىء لها الظروف الضرورية التى تحدث التناقض المطلوب للقيام بالتجربة ، إن أيدينا مغلولة إزاء هذه المشكلة » .

ونحن لم نصل بعد إلى مثل هذا الموقف العاجز فإن المجتمعات المختلفة

المتعارضة لا زالت موجودة بيننا ومن يشاء فليتقدم لدراستها . ولدينا عدد متزايد من علماء الأجناس وهم مسلحون بوسائل البحث المطلوبة . ولكن يتوقف نجاح مثل هذه المغامرة على ضمان قيام التعاون بين عالم النفس وعالم الأجناس وإذا كنا نريد استغلال خبرة عالم الأجناس استغلالا تاماً فلا بد من أن يقضى معظم وقته أو على الأقل خلال السنوات الأولى من تدريبه فى الميدان حيث يجمع بأسرع ما يمكنه تلك المعلومات الثمينة التى أوشكت على الاندثار والتى تتعلق بقدرات الطبيعة البشرية ومرونتها وتكيفها . أما واجب عالم النفس فى المعمل وفى المكتبة فهو ينحصر فى صياغة المشكلات التى يكون لإسهام عالم الأجناس فى حلها أهمية عظمى .

وينظر دارس المجتمع البشرى اليوم إلى الوراء بيأس وقنوط إلى حيث بدأت الحضارة ، فهو يدرك تماماً أن بعض المشكلات كمشكلة نشأة اللغات لا يمكن الوصول إلى حل لها ، وأن مجرد التكهنات بشأنها هى كل ما يمكن تقديمه ، وأن تلك التكهنات يجب أن تبقى مجرد استنتاجات . ويعتبرها أصحاب العقول المفكرة نقطة ضعف كبيرة ، ولكننا لا نعفى أجدادنا من أبناء العصر الحجرى من اللوم . ومما لا نستطيع إنكاره افتراض أن هؤلاء الأجداد لم يستطيعوا تسجيل هذه التجارب الهامة المفيدة عن الكلام والتى ميزت الإنسان القديم عن أسلافه الأقل منه ثقافة . ولكننا لا نملك من الشواهد ما نقدمه دليلا على هذا . وعندنا الآن تجارب اجتماعية كل ما يجب علينا عمله بشأنها هو أن ندرسها ونحتفظ بهذه الدراسة . وعندنا أيضاً ميادين للأبحاث لن تتيسر للاجيال القادمة . وقيام التعاون بين علماء النفس والأطباء النفسانيين والأطباء البشريين هو الطريق الوحيد لصياغة المشاكل التى تقوم فيها تلك المجتمعات بدور حقول للتجريب للتوصل إلى وسائل العلاج . ولن يكون لجهود عالم الأجناس قيمة كبيرة ما لم يستحثه عالم النفس ويدفعه إلى العمل . أما إذا اهتم عالم النفس بما يجمعه عالم الأجناس من معلومات ، وإذا عود نفسه على فحص هذه المادة بقصد التعرف

على مكوناتها ، وإذا بنى نظرياته على أساس واعيه وإدراكه لتأثير البيئة الثقافية ، فإن هذا يسهل كثيراً من مهمة عالم الأجناس . فهو لا يريد أن يحبس نفسه داخل الحدود الضيقة لنشاط سلبى يقوم فيه بتفجير نظريات سبق أن صيغت على أحد المجتمعات ثم تداعت أسسها حين تعرضت للاختبار ، كما أنه لا يملك الوقت الكافى أو التدريب المناسب لكى ينزوى فى المكتبة أو المعمل حيث يبدأ فى وضع نظريات سيكولوجية جديدة لنفسه . وهو لا يستطيع أن يقوم بهذا بدون أن يخون ولاءه لعلمه . فإن واجبه الأول هو أن يسخر خبرته ومرانه من أجل تسجيل المعلومات عن المجتمعات البدائية قبل أن تنقرض هذه المجتمعات وتندثر من الوجود ، والعمل الميدانى شاق ومرهق . وعلى عالم الأجناس أن يقوم بدراساته الميدانية فى شبابه ، أما ما يضعه من نظريات فعليه أن يقوم به بعد أن يتقدم به السن ويفقد لياقته البدنية . وفى تلك الأثناء يجب على عالم النفس أن يقوم بتقديم المقترحات لتسهيل سير البحث . وكثير من دراساتنا الميدانية الحالية والتى نعتبرها دراسات لها أهمية تاريخية عظمى ، لأنها تضيف الكثير إلى معلوماتنا عن المجتمع البشرى ومدى تأثيره فى السلوك الإنسانى ، كانت قيمتها تتضاعف ، إذا تناولنا معها بعض المشكلات النفسية وعالجناها فى الوقت نفسه .

إننى أقدم هذه الدراسة كمثال لنوع الظروف السائدة فى المجتمع البدائى ، وكاقتراح لمدلول تلك الظروف ومغزاها بالنسبة لمشاكل التربية ، وتطور نمو الشخصية . وإننى لشديدة اللهفة لكى أرى المفكرين فى الميادين الأخرى يقومون باختبار هذه المادة فى ضوء المشكلات التى يحتمل أن تساهم هذه الدراسة فى حلها ، ولست متلهفة على أن يتفقوا معى فيما وصلت إليه من نتائج نهائية . إن علم النفس الاجتماعى لا يزال فى دور طفولته . ولذا فمن الأهمية بمكان أن نستغل كافة الوسائل والطرق الممكنة وخصوصاً تلك التى سوف تندثر بعد فترة وجيزة .

أساس الدراسة الحالية

لكى نعالج مشكلة خاصة Melanasian قمنا بدراسة الأطفال الميلانيز مررنا عليها مروراً سريعاً فى هذا الكتاب وهى : العلاقة بين التصور التلقائى للجماد فى صورة كائنات حية أى حيوية المادة animism وبين خصائص التفكير لدى الأفراد غير البالغين وخصوصاً الأطفال تحت سن الخامسة أو السادسة. ولقد كانت نتائج هذه الدراسة سلبية ، أى أن ما جمع من وقائع أثبت الرأى القائل بأن تصور الجماد فى صورة أشخاص حية تتحرك وتفكر ليس شيئاً تلقائياً فى تفكير الأطفال ، كما أنه لا ينشأ نتيجة لأى نوع من التفكير الذى يتميز به ذوو النمو العقلى الناقص ؛ فوجوده أو غيابه فى تفكير الأطفال يتوقف على عوامل ثقافية ، كاللغة والأدب الشعبى واتجاهات البالغين . . . الخ . ونستطيع أن نقول إن جذور هذه العوامل الثقافية موجودة فى تفكير الأفراد الكبار وليس فيما يردده الأطفال من أفكار خاطئة . وسنتناول هذه النتائج بالتعقيب المفصل فى مكان آخر .

ولقد اخترنا ميلانيزيا Melanesia لتكون ميدانا لهذه الدراسة لأنها منطقة تضم عدة جماعات بدائية لم تطمس معالمها الأولى نسبيا ، وهى تعرف فى ميدان علم الأجناس بأنها منطقة مليئة بالظاهرة التى اصطلح على إدراجها تحت عنوان حيوية المادة animism وقد اخترنا إقليما محليا منها على أساس تحديد المناطق المجهولة نسبيا أولاً ثم اخترنا منه جزر الأدميرالية Admiralities كجزء من ذلك الإقليم الذى لا نعلم عنه إلا النادر القليل . أما قبيلة مانوس فقد وقع اختيارنا عليها بالذات لعدة أسباب عشوائية : أولها أن ضابط إحدى المناطق زكاها لنا وذكر أنه من السهل الإقامة فيها . وثانيها أن أحد المبشرين وضع بعض المؤلفات عن لغة هذه الجزر . وثالثها أننا استطعنا أن نستصحب تلميذاً من رابول Raboul قام بدور المترجم فى الفترة الأولى من إقامتنا هناك . ولما كنا

لا نعلم شيئاً عن القبائل المتعددة المقيمة فى جزر الأدميرالية ، فإن اختيارنا هذا كان مجرد اختياراً عشوائياً . وإننى أسجل هذه الحقيقة لما لاحظته من تطابق وتشابه عجيب بين اتجاهات أهل مانوس ولغتهم وبين ما وصلت إليه من نتائج . فأنا لم أختر هذه الحضارة بالذات بسبب اتجاهاتها نحو الأطفال ، ولا بسبب لغتها العارية الجدباء ، ولا من أجل النتائج التى وصلت إليها . وإنما اخترت بمحض الصدفة إحدى الحضارات الميلانيزية فى ظروفها البدائية التى قد تمكننى من دراسة التربية والنمو العقلى لصغار الأطفال هناك .

أما خطة البحث قد بنيت أساسا على ملاحظة الأطفال تحت ظروف عادية فى ألعابهم، وفى بيوتهم، وبين أهليهم . ولدراسة بعض المشكلات الخاصة ، قمت بجمع الرسوم التلقائية للأطفال وطلبت منهم أن يفسروا ما تعنيه بقع الحبر ، وجمعت تفسيرات عن بعض الأحداث ، وقدمت بعض الأسئلة عن بعض المشكلات لأنها قد تلقى ضوءاً على مفاهيمهم عن نظرية حيوية الجماد . ولم يسبق للأطفال أن أمسكوا قلماً ، ولذا بدأت بإعطاء من هم فى سن الرابعة عشر أقلاما وأوراقاً واقترحت عليهم أن يرسموا أى شىء وتركت لهم حرية اختيار موضوع الرسم .

وفى اليوم التالى أعطيت المجموعة الأصغر عمراً أدوات الرسم ، واستمر هذا الحال إلى أن وصلت إلى الأطفال ممن وصلوا إلى سن الثالثة . وقد شعرت أن هذه الطريقة هى أقرب وسيلة إلى طرق التعلم العادية التى يمكننى أن أستخدمها بدون أن أسمح للكبار بأن يرسموا وإلا لتغير الغرض من البحث . وقد احتفظت بتلك الرسوم مع كتابة الإسم والتاريخ وما قدموه من تفسيرات . أما تحليل الرسوم بالتفصيل فهو مشكلة سوف نقوم بها فى المستقبل .

ولهذه الدراسة أساس آخر هو الإلمام الدقيق بالثقافة ، والنظام الاجتماعى والنظام الاقتصادى ، والمعتقدات الدينية والشعائر المتصلة بها . ولقد تتبعت جميع

الأحداث الجارية بالقرية مع الاهتمام التام بمدلولها الثقافى والدور الذى تلعبه تلك الأحداث فى حيـاة الأطفال . كذلك سجلت العلاقات بين الأطفال والوالدين وتم ذلك فى ضـوء المعلومات الدقيقة عن الأبوة وتاريخ الطفل ، وشخصية الأب ومركزه الاجتماعى . وكنت فى كل حالة من الحالات أقوم بدراسة الطفل و بيئته الاجتماعية ، وأسرته مع دراسة أقاربه بالتفصيل ، وكذلك دراسة ثقافته .

وقد يقال عن هذا البحث أنه دراسة توصلنا فيها إلى إدراك الموقف العام بمعنى أن أسـاس البحث قام على بحث مقومات ثقافة بسيطة لعدد من السكان لا يتجاوز تعدادهم مائتين وعشرة نسمة . وقد استطعنا التحكم فى ظروف البحث وضبطها بصورة لم تكن تتيسر فى مجتمع معقد الحضـارة يزيد تعداده على هذا المجتمع البسـيط .

وكانت لغة التفاهم مع أهل البلدة هى اللغة الأصلية للقرية ولو أننى كنت ألجأ أحياناً إلى التفاهم عن طريق الإنجليزية المخلطة باللغة الصينية مما سهل على متابعة أحاديث الصبية وألعابهم باللغتين . أما أحاديثى مع النساء وصغار الفتيات فقد كانت كلها تدور باللغة الوطنية .

وقد قمت بإعداد تسجيلات للأحاديث ، والتفسيرات بلغة أهل مانوس . أما حين كنا نضطر للترجمة فقد توخينـا مراجعتها بواسطة ذلك التلميذ المترجم الذى كان يعرف قدراً كبيراً من اللغة الإنجليزية كما أنه كان يتكلم الإنجليزية الخليط بطلاقة . وكان يصلح من أخطائى وأخطاء زوجى اللغوية .

إن هذا الـكتاب يعرض جوانب الدراسـة التى قمت بها والتى أعتقد أن لها اتصالا مباشراً بمشكلات التربية . فإن وصف طرق التربية هناك والتى يتبعها شعب بأسره ونتائجها على شخصـية البالغين لا بد وأن يكون ذا فائدة للمشتغلين بالتربية ممن يضـعون النظريات عن القدرات الفطرية للكائنات البشرية وعن أحسن الطرق لتنمية هذه القدرات وتطويرها .

وأود أن أضيف أيضاً عبارة تفسيرية عن الاصطلاحات التى استخدمتها . فقد تجنبت بقدر استطاعتى استخدام الاصطلاحات الفنية ولم يكن هـذا جهلاً منى بأن العلم يكسب الشىء الكثير إذا ما عرف عن طريق اصطلاحات دقيقة خاصة . ولـكننى لست مقتنعة كل الاقتناع بأن هناك اصطلاحات معينة تستطيع دون غيرها أن توطد مركزها بحيث يمكن التنبؤ بخلودها بخلاف الاصـطلاحات الأخرى . وفى الوقت ذاته فإن لمثل هذه الدراسـة حدوداً مرسومة . ففى خلال السنوات القليلة القادمة ، سوف يفد على بيرى جموع المبشرين ، وستفتح المدارس ولن يصبح المجتمع هناك مجتمعاً بدائياً فطرياً .

ولهذا فمن المستحسن تقديم هذا الوصف فى لغة الروائى حتى يمكن فهمها إذا فات الوقت على التركيبات اللغوية المستخدمة حاليا ، وتغيرت أسـاليب المناقشات . ومثل هذا الاتجاه له فائدة أخرى فهو يسهل على الدارسـين من الميادين الأخرى فهم المادة واستيعابها .

الملحق الثاني

مذكرات عن دراسة أهل شعب مانوس

قام مستر فورتشيون Fortune بدراسة أصل حضارة شعب مانوس دراسة مستفيضة ، ومن شاء فليرجع إلى هذا البحث إذا رغب فى دراسة الكتاب الحالى فى ضوء الإطار الثقافى بدقائق تفصيلاته .

تضم جزر الأدميرالية حوالى أربعين جزيرة بالقرب من أرخبيل بسمارك إلى شمال غينيا الجديدة وتقع تلك الجزيرة بين خط عرض ١ و ٣ جنوباً وبين خط طول ١٤٦ و ١٤٨ شرقاً . وتبلغ مساحة كبرى هذه الجزائر حوالى ستين ميلا فى الطول . وإذا قسنا كل الجزر مجتمعة لبلغت جملة مساحتها حوالى ستمائة ميل مربع . أما عدد سكانها فيقدر بحوالى ثلاثين ألف نسمة . وقد قسمنا سكان المنطقة — لكى نتمكن من دراستها — إلى ثلاثة جماعات رئيسية : جماعة مانوس ، أو سكان المنطقة البحرية ثم جماعة « اليوسياى » Usiai ، ويسكنون الجزيرة الكبرى ، والجماعة الثالثة هى جماعة الماتانكور Matanokr ، ويعيشون فى الجزر الصغيرة حيث يقيمون بيوتهم ويستخدمون القوارب فى قضاء شؤونهم . ويعتبر أهل مانوس الجماعة الوحيدة المتجانسة بين هؤلاء ، فإن كلا من اليوسياى والماتانكور يتكونان من قبائل تتفاهم عن طريق لهجات ولغات غير مفهومة فيما بينها ، كما أنها مختلفة فى عاداتها وتقاليدها . وهذا التقسيم العام من صنع أهل مانوس وهم أكثر أهل تلك المنطقة نشاطاً كما أن اصطلاحاتهم هى التى نجحت فى إغراء الجنس الأبيض على تعلمها .

ويبنى أهل مانوس بيوتهم فوق أعمدة مثبتة فى قاع البحيرة قريباً من الجزيرة الكبرى أو فى ظلال البحيرات الصغرى . وينتشر أهل مانوس البالغ عددهم حوالى ألفى نسمة فى إحدى عشر قرية وهى : بابيتالى Popitalai على

الشاطىء الشمالى ، وباماتشو Pamatchau ، ومبونى Mbunei ، وتشالالو Tchalalo ، وبير Pere (وفى هذه الدراسة نسميها بيرى Peri لأن الهجاء الأول للاسم غير مفهوم من أولئك الذين يجهلون لغات سكان المحيط) . ثم تقع قرى باتوسى Patusi ولويتشا Loitcha على طول الشاطىء الجنوبى ، إلى جانب تلك المستعمرات الصغيرة القريبة من جزر مبوكى Mbuke ، تاوى Taui ، موك Mok ، رامبوتشن Rambutchon . وكلها جزر موازية للشاطىء الجنوبى .

وتنقسم اللغة الشائعة هناك إلى لهجتين : واحدة تنطق حرف ل بدلا من الراء والثانية تنطق كلا من الحرفين ل ، ر (ينطقون الحرفين فى بيرى) وهذا مجرد اختلاف فى النطق ولكن كلا من اللهجتين مفهومة لأصحاب اللهجة الأخرى .

ويسود القرى التى تتكلم لهجة واحدة جو عام من الاتحاد ضد أولئك الذين يتفاهمون بلهجات مخالفة . ولا ترتبط قرى مانوس بأية محالفات سياسية ، ولو أن الحكومة أقامت أخيراً رجلاً قوياً من قرية مبونى Mbunei رقيباً على علاقات تلك القرى بالإدارة . ويجتمع أهل القرى المختلفة كوحدات فى مناسبتين : — أولا فى الأعياد القليلة التى تشترك فى الاحتفال بها كل القرى ولا يقام من هذه الأعياد إلا عيد أو عيدان خلال جيل كامل ؛ والمناسبة الثانية فى بعض حالات الحرب . وكان يحدث أحياناً أن يخطف رجال إحدى قرى المانوس امرأة من قرية أخرى ويحملونها إلى قريتهم حيث تعامل معاملة العاهرات . ولكن الصورة العامة للعلاقات المتبادلة بين القرى لم تكن فى الأعياد الكبيرة وما يتخللها من شعائر التحدى ، واستعراض تنافسى يأخذ طابع الحرب نفسها . بل كانت العلاقات عبارة عن شبكة تربط الأفراد والعائلات فى القرى المختلفة . وكان هناك كثير من الزيجات بين القرى ، وكل عقد زواج جديد يستتبعه أداء عدة التزامات اقتصادية واجتماعية من أقارب الطرفين .

ويعيش أهل مانوس باستثناء سكان جزيرة مبوك ، الذين يبعدون كثيراً عن الجزيرة المركزية على الصيد ، ويتاجرون فى السمك لقاء ما يشترونه من خضروات من جيرانهم من اليوسياى أو من الماتانكور وتقام الأسواق يومياً

لتبادل المواد الغذائية وشراء الضروريات كالليف لصنع الأسبتة وكذا الحراب ... وتتخصص الجماعات المحلية فيما عدا أهل مانوس فى إحدى الصناعات ثم يتاجرون فيها مع أقرب قرية من مانوس لقاء مبادلتها بمقادير من السمك أو القدور كما فى مبوك ، ثم تحمل تلك البضاعة إلى مختلف المناطق البعيدة من قرى مانوس الأخرى وجيرانها عن طريق القوارب . وهذه القوارب من النوع الكبير البارز وله شراعان ثابتان ، وقمرة صغيرة مغطاة . وتطوف هذه القوارب لتوزيع حمولتها فى كل الأنحاء . وينفرد أهل مانوس بالتجارة فى الشاطىء الجنوبى ، وفيما عدا سكان مبوكى الذين يشتغلون بصناعة القدور لا يقوم أهل مانوس بأية صناعات أخرى غير بناء البيوت والقوارب لاستعمالهم الخاص ، والخيوط لمصنوعات الخرز ولبعض ما يستعملونه من أدوات الصيد . أما شباك الصيد الدقيقة فيشترونها من لو Lou وغيرها من المستعمرات البعيدة التابعة لماتانكور . وهم يعتمدون على الأسواق اليومية والبضائع التى لا ترد بانتظام من وراء البحار فى سد حاجاتهم الضرورية ، ويتاجر أهل مانوس مع اليوسياى فى نبات الساجو واليام والتارو وأوراق التارو وثمار البندق والفلفل ومسحوق الليمون ونوع من أشجار الصمغ ، والليف لعمل الحبال والدوبارة والسلال ، ومصافى الزيت والحقائب اليدوية .. الخ .

وهم يشترون القدور من أهل مبوكى ويشترون البيام والأوانى المنقوشة والمصنوعات الخشبية الدقيقة وشباك الصيد ومسحوق الليمون وقناطيس الزيت والحراب والأدوات الحادة من جيرانهم من أهالى البالوان ولو . أما سكان رامبوتشن وناونا Nauna فيبيعونهم الأسرة المنقوشة . ويشترى أهل مانوس تعاويذ الحرب من باك وهذه التعاويذ عبارة عن رءوس منقوشة وريش بعض الطيور الجارحة . أما زيت جوز الهند وجوز الهند نفسه فيشتريه الأهالى من كافة الجزر .

وتعتبر قرية بيرى Peri أكبر القرى المجاورة للمنطقة البرية ؛ ويتمتع سكان

بيرى بميزة إضافية وهى ما يملكون من مزارع الساجو والتى يحصلون عليها عن طريق زواجهم بنساء من اليوسياى أو عن طريق الغزوات القديمة ، ولذلك فإنهم أكثر استغناء عن السوق المحلى من سواهم . وعملة المحار المتداولة بين أهالى جزر الأدميرالية عبارة عن خيوط علقت بها أصداف بيضاء اسطوانية الشكل تشبه عقود الصدف التى يتحلى بها أهالى جنوب غربى الهند اليوم . ويقوم بصناعتها أهالى الماتانكور من قرى بونام Ponam على الشاطىء الشمالى ويتاجرون فيها فى كافة أنحاء الجزيرة . ويحتكر أهالى الشاطىء الشمالى أيضاً صيد السمك الدجنج وسمك الترسة . وقد كانت الحروب فى الأيام السابقة تقوم بين سكان هذه الشواطىء وبين أهل مانوس لأن هؤلاء الآخرين كانوا يعتدون على حقوق الماتانكور فى الصيد . ويوجد بالشاطىء الشمالى أيضاً مركزاً لصناعة الفخار الأبيض فى جزيرة هوس Hus . أما سكان الشاطىء الجنوبى فهم يستخدمون الفخار الأسود الذى يصنع فى جزيرة مبوكى .

وبينما نجد أن أهل مانوس ينفردون بالسيطرة على التجارة فى الشاطىء الجنوبى ، نجد لهم منافسين فى الشاطىء الشمالى حيث يقوم الأهالى بصناعة قوارب قوية ويمتازون بالبراعة فى الصيد . ويحتل أهل مانوس الجزء الأوسط من منطقتهم ولذلك فإنهم ينظمون الصيد ويسيطرون على المرور عبر البحار ، كما أنهم يشتغلون بنقل المنتجات بين اليوسياى وجزيرة ماتانكور . وبالرغم من أن بعض أفراد مانوس قد تعلموا فن النقش من قريب لهم فى قبيلة أخرى إلا أن أهل مانوس كجماعة لم ينتجوا عملا فنياً واحداً فيما عدا أشغال الخرز . ولم ينتجوا أيضاً أية مصنوعات للتصدير اللهم إلا القدور التى تصنع فى مبوكى . ولا يهتم الأهالى بجمع أية أعمال فنية ، وإذا كنا نجد الأرفف وقد تكدست عليها مختلف الأدوات والحاجيات إلا أن كل هذا للتجارة فقط . فهم لا يترددون عن بيع أجمل وعاء لديهم من صنع البالوان وأجمل قطعة منقوشة من صنع اليوسياى بكل سرور وارتياح . وإذا حدث وباعوا كل ما لديهم من مصنوعات سبق أن

قاموا بشرائها من جيرانهم ، فإنهم لن يتوانوا عن أن يعرضوا على الرجل الأبيض عظام موتاهم أو شعورهم المزينة بالخرز كثمن لما يريدون شراءه من بضاعة .

وهم يعرفون النقود ويستعملون عملة من المحار وأسنان الكلاب ومع ذلك فهم يلجأون كثيراً إلى المقايضة فى الأسواق اليومية وفى تجاراتهم الخارجية . وتستخدم المقايضة لإجبار الأهالى على إنتاج أو بيع السلع الأكثر رواجاً . وعلى هذا فكثيراً ما تجد أحد القوارب القادمة من بلدة موك وقد حمل بجوز الهند من أشجار منطقة الماتانكور المجاورة ، وأقلع متجها إلى بيرى . وهناك يطلبون النشاء ويرفضون أن يتقاضوا ثمن بضاعتهم نقداً . وعلى ذلك فإن مهمة تحويل النقود إلى نشاء الساجو تنتقل إلى أهل بيرى ؛ وكل ما على أهل موك عمله فى الانتظار ببضاعتهم حتى تلبى رغبتهم .

وبالمثل نجد أهل بالوان الذين يصنعون نماذج لبيض الدجاج من الطين ويبيعونها للشاطىء الجنوبى وهم يستبدلون كل ثلاثة بيضات بإثنتين من أسنان الكلاب ولكن إذا عرض عليهم شخص ما حزمة من الساجو ، فإنهم يعطونه عشر بيضات فى مقابل تلك الحزمة التى يستطيعون شراءها من المنطقة البرية مقابل اثنين من أسنان الكلاب .

وإلى جانب تبادل هذه السلع المادية وتصدير المنتجات إلى مختلف الجهات المحلية بالأرخبيل ، تقوم عمليات تبادل التعاويذ السحرية : منها تعاويذ لها قدرة على أن تبتلى إنساناً ما بالمرض أو تشفيه منه ، وتعاويذ أخرى تدفع المدين إلى دفع ما عليه من دين ، وتعاويذ تغرى أقارب الشخص على المساهمة بسخاء فى مشروعاته الخاصة تهمه ، وهناك تعاويذ أخرى تحمل الزوج على العودة إلى بيته فى مواعيد الغذاء أو تنسيه زوجته الثانية (والزواج من اثنتين قليل نسبياً ولكنه معروف هناك) . ويتداول سكان المناطق المختلفة هذه التعاويذ فيما بينهم . وكلما كثرت الأيدى التى تتداولها كلما ارتفع ثمنها . وتسافر النساء المتلهفات على أن

يصبحن وسيطات أرواح من قرية إلى قرية للاجتماع بوسيطة شهيرة والتتلمذ على يديها . وتسمع فى القوارب المحملة بالمسافرين ، وبأنواع السلع والتعاويذ ، أنباء المواليد والوفيات ، وأخبار آخر جلسات الأرواح . كل هذا والقوارب تطوف من قرية إلى أخرى ويتصادف أحياناً أن تنقسم أسرة مفككة الروابط إلى قسمين وينتقل النصف الثائر إلى قرية أخرى . وحين يحدث هذا الانقسام تنشأ قرابة إسمية بين القريتين ؛ وتثار مسألة تلك القرابة إذ كان الأمر متعلقاً بمشروع زواج .

ولكن القاعدة العامة هو أن يسكن الأقارب فى نفس القرية . والعائلات صغيرة وبعضها يتألف من عدد لا يتجاوز العشرة أشخاص وقد تقتصر الأسرة على شخصين أو ثلاثة . وإذا قل عدد أفراد الأسرة بحيث لم يزد على اثنين من الأقارب الذكور فإن تلك الأسرة إما أن تنضم إلى أسرة أخرى صغيرة العدد أيضاً وإما أن تذوب نهائياً فى إحدى العائلات الكبيرة . ففى بيرى الآن نجد أن مالين هو الوحيد الباقى على قيد الحياة من أسرة كابت Kapet وقد تبناه ندروسال وهو فى الغالب سوف ينشأ كأحد أفراد بيرى كذلك نجد أن بوكاناس، بولى هما الباقيان من أسرة لوبور Lopwer كما أن كيا Kea هو الذكر الوحيد الباقى من أسرة كاماتاشو Kamatatchau وقد انضم الرجال الثلاثة إلى أسرة كالو Kalo الصغيرة وبدأ الناس يعتبرونهم من أفراد تلك الأسرة .

وإذا حاولنا أن نفسر أسماء العائلات فى بيرى فإننا نجدها جميعاً مأخوذة من أسماء أدوات الصيد المختلفة التى ورثت الأسرة حقوق الانفراد بصنعها . والمفروض نظرياً أن يبنى أفراد الأسرة الواحدة بيوتهم متجاورة متقاربة ولكن تقليد نقل البيت إلى مكان آخر بعد موت أحد أفراده يكسر هذه القاعدة . (ويمكن إدراك هذا بالرجوع إلى تخطيط القرية) .

والاتجاه العام نحو الانتماء إلى أسرة معينة هو اتجاه مطاط فى مانوس . فالقرابة مزدوجة ولكن الطفل ينسب عادة إلى أسرة الأب ما لم يقيم أحد أخواله بتبنيه .

وينادى أبناء الأختين بنفس الألقاب التى ينادى بها أبناء الآخرين ، مع إضافة هذه العبـــارة : « المنتمى إلى البيت الآخر » إذا كان من الضرورى إضافة هذا التفسير . ويعتبر البيت كلفظ مقابل له « من جهة الأب » ، وكلمة مكان تعتبر مماثلة لـ « أقارب الأب » ويعكس هذا بدقة الشعور بأن الشىء المهم هو مكان الإقامة . وتنعكس فروق السن فى نظام القرابة : فمثلاً الإخوة الكبار ينضمون إلى صفوف جيل الأبوين ، أما الإخوة الصــغار فيقفون فى صف واحد مع جيل الأبناء .

ويدور نظام القرابة كله حول قرابة الأخ بأخته وقرابة أبنائهما . فلأخت الأب ونسلها من الإناث الحق فى تبادل المداعبات مع أبناء الخال كما أن لهن الحق فى أن يلعنّ أو يباركن هولاء الأبناء . أما أبناء العم أو الخال من الذكور فإنهم يؤلفون الشركات عن طريق تفضيل زواج الأقارب . ورغماً عن جمود هذا النظام إلا أنهم يبيحون كل إجراء فى سبيل وضع كل فرد فى المكان الاقتصادى الملائم له سواء من حيث نظام الزواج أو عقـده . وعلى ذلك قد يعتبر أحد الأفراد ابناً لأخت أقارب زوجة أبيه الجديدة أو زوجة أخيه الأكبر ، وبهذه الوسيلة يصبح من حقه أن يذهب إليهم ويطلب زوجة لابنه من بين بناتهم . والزيجات الأولى هى التى تتم عادة بين الأقارب . ولما كانت هذه الزيجات لا تهتم برأى الطرفين الذين يعنيهما الأمر ، أى العروسين ، فإن هذه الزيجات أكثر تعرضاً للفشل .

وأهم سبب لانفصام روابط الزواج هو اختـــلاف الزوجين فى الذكاء وخصوصاً من ناحية أقارب الرجل . فهم أحياناً يغرون الزوج على طلاق زوجته الغبية والزواج من أخرى أكثر ذكاء حتى تستطيع أن تقدم له النصح ، وتساهم فى شئون المجتمع معه . ومن الجدير بالذكر أن أغنى الرجال وأقواهم نفوذاً فى مانوس هم أولئك الذين تزوجوا من زوجة واحدة وظلوا على ولائهم لها مدة طويلة . وهناك عده تفسيرات لهذه الظاهرة . فقد يقال أنهم نجحوا فى زواجهم وفى حياتهم

العملية لأن كلا من الزوجين كان على درجة عالية من الذكاء . وأن هذا الذكاء وتلك الطاقة هما السبب فيما حققه الزوج من نجاح . (ولكن هذا الرأى يدحضه أن هناك بعض الأشخاص ممن استمر زواجهم مدة طويلة وأنجبوا عدداً كبيراً من الأطفال من زوجة واحدة ولكن تلك الزوجة كانت خاملة غبية وليس لها أى دور فى حياة المجتمع) . وقد يقول قائل آخر إن تكرار زواج الرجل ثم طلاقه ثم زواجه مرة ثانية وهكذا يؤدى إلى إرهاقه مالياً . فإن الزواج الذى ينتهى بموت الزوجة يسوى بطريقة كريمة عن طريق المبادلات التى تتم بمناسبة الموت ، أما الزيجات التى تنتهى بالطلاق فإنها تترك عدة مسئوليات ، ومسائل معلقة وتنتهى بخسائر مادية فادحة للأفراد الذين ساهموا فى مشاريعها . وعلى ذلك لا يثق الناس فى الرجل الكثير الزواج والطلاق . وهو فى نظرهم لا يستحق المغامرة بالمال من أجله ، ولذلك يفضل الناس دائماً أن يشتركوا بأموالهم فى مشروعات تدور حول الزيجات الثابتة المستقرة وهناك عائلات تتمسك ببعض الامتيازات الخاصة نظراً لما لها من بقايا أصل مجيد وتسمى تلك العائلات لابان Lapan ويقابل هذا اللقب من الناحية الأخرى عائلات متواضعة الأصل يطلق عليها اسم لو Lau . وامتيازات اللابان معظمها مجرد كماليات . فلهم الحق مثلا فى أن يعلقوا الأصداف فى البيت والقارب وحول أحزمتهم ولهم الحق فى أن يلضموا مائة من أسنان الكلاب بدلا من العدد المألوف وهو خمسين سناً ، ولهم حق بناء بيوتهم بالقرب من إحدى الجزر الصغيرة وأهم من هذا كله لهم الحق فى المباهاة بأنهم من اللابان وهم يستطيعون إهانة أحد أفراد فئة اللو إذا اشتبك معهم فى معركة . وفى كل قرية يخرج من إحدى اللابان قائد حربى يسمى لولوى Luluai ، وهو فى العادة أقوى رجل فى الأسرة . ويمثل هذا الرجل قريته فى الأعياد المشتركة بين القرى . وفيما عدا هذه المهام ، وإلى ما يتمتع به من مزايا لقبه لا يملك أية سلطة على أفراد قريته وليس له أية التزامات عليهم . فوحدة القرية عبارة عن نظام ديمقراطى مفكك يتميز بفرد

واحد يتفاهم بالإنجليزية الدارجة ويعرف باسم « الصبي الذي يتكلم كل شيء »
فالقرية ما هى إلا تكتلات من الأقارب تنقصها دقة التنظيم وتجمعها روابط
الإلتزامات المادية التى تنشأ نتيجة لاتفاقيات الزواج بين أفرادها ، وكذا تلك
الإلتزامات التى تطالب بها أرواح الموتى عن طريق الوسيطات . وقد تقوم القرية
وتعقد لمجرد احتفال ببلوغ إحدى بناتها ، ويتصرف كل فرد من أفرادها
باعتباره أحد الأقارب لا بصفة واحد من أفراد القرية .

الملحق الثالث

الصلات الحضارية فى مانوس

أنشئت محافظة حكومية فى جزر الأدميرالية عام ١٩١٢ ومنذ هذا التاريخ دخلت جزر الأرخبيل تحت نفوذ الحكومة ، فجمعت الضرائب ومنعت الحرب وصيد الرءوس واختطاف النساء الغريبات وحملهن على ممارسة الدعارة ، كما ألغيت أيضاً عادة إقامة إحدى البغايا فى بيت الرجال بأمر القانون ، وأصبح السجن عقاباً لمن يرتكب إحدى هذه الجرائم . وقد نظم ضباط الحكومة دوريات للمرور عدة مرات فى السنة أحياناً بقصد التفتيش الطبى ، وأحياناً لجمع الضرائب وما إلى ذلك .

ويمثل السلطة الإدارية فى كل قرية ضابط يعين من أبنائها ويسمى (الضابط التنفيذى) Kukerai يساعده أحد التراجمة tultul فى إدارة شئون الحكومة وكذلك صبى طبيب . وكانت قرية بيرى تنقسم إلى وحدتين إداريتين ويرجع تاريخ هذا التقسيم إلى صراع أهلى نشب منذ عشرة أعوام حين هاجم شبان إحدى المناطق امرأة من اليوسياى وتصادف أنها كانت زوجة لأحد أقارب الضابط التنفيذى للقرية . وعلى أثر هذا الحادث شكلت أقسام إدارية مستقلة فأصبح فى بيرى ضابطان تنفيذيان ومترجمان واثنان من صبيان الأطباء .

وكان كل إدارى من الوطنيين يتسلم قبعة رجل الشرطة يعفى من ضريبة العشرة شلنات وكان الاختيار يقع عادة على أشخاص يتميزون بقوة الشخصية وكان اختيارهم لتلك المناصب يضاعف من نفوذهم على أهل القرية . ولم يحاول هـذا النظام أن يغير من حياة أهل القرية ، ولو كان الإداريون ساسة مهرة

حاولوا استغلال مناصبهم هذه لصالحهم الخاص . أما صبيان الأطباء فكانوا يؤمنون بنفس اعتقادات الأهالى عن الأمراض ووسائل علاجها ، ولم يشذوا فى ذلك عن أهل القرية . ولم يضف أصحاب القبعات شيئاً على حياة القرية فيما عدا بعض لمسات بسيطة على الحياة الاجتماعية للقرية .

وإذا مات « أحد من حصلوا على قبعات » نعاه باقى أصحاب القبعات وتجنبوا بعض المحرمات مثل الإقلاع عن تدخين أحد أنواع التبغ حتى تنتهى آخر مراسيم الجنازة والمأتم . ويقيم بعض الضباط التنفيذيون المهمين ولائم تسمى « وليمة الأجانب » أو Kan pati yap وفى هذه الولائم تعد الموائد بوضع ألواح من الخشب العريض فوق كتل خشبية ، ثم تغطى الألواح بقطع من القماش بمثابة أغطية للموائد . وكل من عنده أدوات للمائدة أو صحون يأتى بها . ويتألف طعام الوليمة عادة من الأرز ولحم البقر . ولكن هذه الولائم قليلة وهى تدل على رغبة الوطنيين فى أن يقدموا رمزاً على ولاء الموظفين الوطنيين للهيئة الإدارية العليا من الجنس الأبيض . ويرمز الوطنيون فى غينيا الجديدة إلى حضارة الجنس الأبيض باستعمال أغطية المائدة وما يضعونه من زهور فوق الموائد ، وقد لوحظت نفس الظاهرة فى بابوا Papua ، وهى نتيجة لكثرة اتصال أهالى الأحراش بالعادات المنزلية المتحضرة عن طريق خدمتهم فى منازل البيض .

وتجد السلطة الحاكمة فى مناصب ذوى القبعات من الأهالى ونزعتهم إلى اعتبار أنفسهم طبقة خاصة لها ميولها المشتركة وآمالها وأهدافها وفى زهوهم بقبعاتهم ورغبتهم فى إحاطتها بجو من الاتزان السياسى والشعائرى تربة خصيبة تترعرع فيها جهودها الإدارية . ولأهل مانوس تقاليد معينة بالنسبة للمركز الاجتماعى والقيادة الوراثية فى الحرب ، وملابس خاصة بالأصل والامتيازات الشخصية . ولكن لسوء الحظ لا تجد هذه التقاليد أى صدى فى الحكم اليومى

القرية . ونتيجة لهذا نجد أن حياة القرية لا تحكمها أية قوانين ، ولا تربطها إلا المبادلات والمقايضات الاقتصادية التى تربط العائلات بعضها بروابط واهية . ولا يتناسب هذا الوضع مع أية مشروعات جماعية . لكن فكرة الوظائف الحكومية التى أنشأتها الحكومة تقع فى أيد صالحة . ومن السهل محو الأفكار القديمة عن المركز الاجتماعى والزعامة الحربية ، والاحترام الذى تنفرد به عائلات معينة ، بواسطة النظام الجديد ويمكن إحلال نظام للحكم المحلى يكون أكثر صلاحية إذا غيرنا قليلا من حياة السكان .

ويسجل الأهالى دائماً فى خطبهم فى المناسبات الهامة زوال عهد الحروب ، وما يتصف به العهد الحالى من سلام ورفاهية منذ أن نزلت « القبعات » بأراضيهم . ولما كان الأهالى تجاراً بالسليقة فقد رحبوا أشد الترحيب بالنظام الحكومى الذى أمن طرق التجارة بين القبائل ، وزاد من عددها . ولما كانوا يعشقون كل شىء قانونى فإنهم رحبوا أيضاً بفكرة رفع قضاياهم إلى دار القضاء ولكن كثيراً ما تؤدى المناقشات الطويلة باللغة الانجليزية الخليط وما يتخلل الأمور الاقتصادية هناك من تعقيدات إلى أنواع مؤسفة من سوء التفاهم . فقد ترفع قضية إلى ضابط المنطقة تدور حول خنزير يطالب به أحد الأشخاص ويقول إنه لم يتلق أى تعويض عنه . وبفحص الشكوى يجد الضابط أن هذا الخنزير قد تسلمه (ب) من (ا) فى إحدى اتفاقيات الزواج ، ثم يتبادله بعد ذلك ما يزيد على الثلاثين شخصاً وفى كل مرة يتسلم شخص جديد ذلك الخنزير ، ويتحمل مقابل ذلك بعض الالتزامات بدلا من ذبح الخنزير وأكله ودفع ثمنه بالعملة النقدية ، وما دام الخنزير لم يذبح ويؤكل فهو يدخل ضمن العملة المتداولة . ويحاول المدعى عليه (ب) أن يفسر للضابط كيف أنه فى انتظار تقاضى ثمن الخنزير من هذه السلسلة من الدائنين الذين يبلغ عددهم ثلاثين شخصاً ، وكلهم تبادلوا الخنزير بعد صاحبه الأول . ويدافع الرجل عن نفسه فى انجليزية ركيكة فيقول :

الآن أنا أعطيت الخنزير إلى رجل وهـذا الرجل هو زوج أختى . وقد أعطى هذا الرجل الخنزير إلى رجل فى پاتوسى Patusi . وكان ذلك الرجل الأخير يعتزم تزويج إحدى بناته ، وهى لم تكن ابنته الحقيقية و إنما حل مكان أبيها بعد موته . وعلى ذلك فقد أعطى الخنزير لذلك الشخص . ولم يأكل هذا الرجل الخنزير بل إنه سلمه إلى زوج أخته ، وكان لزوج أخته هذا أخ أصغر منه يعمل فى إحدى الإقطاعيات التابعة للملايو . وسينتهى عقـد عمله فى القريب العاجل . وعندما ينتهى عقده سيتسلم مبلغاً كبيراً من المـال فهو سيقبض ثلاثة جنيهات مع أشياء أخرى كثيرة . والآن هذا الرجل الذى هو أخ زوجة خطيبة ابنة أخ زوجتى إنه ...... الخ »

وعند هذا الحد ينفذ صبر ضابط الناحية ، فينفجر فى المدعى عليه قائلا « الأخ له أخت والأخت لها أخ والأخ له أخت . والآن من الذى يملك الخنزير منكما ؟ » ولو أدرك الضباط البيض أن تبادل الخنزير يتم بنفس الـكيفية التى يتبادل بها الناس أوراق النقد لما ضاقوا بهذه الجولة الطويلة التى تقوم بها تلك الخنازير من ملـكية فرد إلى ملـكية آخر .

كذلك ترفع القضايا إلى ضابط الناحية إذا أراد أحد الأشخاص استرداد ما دفعه من نفقات لأهل عروسه ثم حدث ما يستوجب عدوله عن إتمام الزواج . وفى الحالات العادية تتفق أسرة العروس على تقسيط الدين على أقساط سنوية فيردون ما تسلموه من أسنان الـكلاب ونقود الحجار فى صورة عدد من الخنازير والزيت ونشاء الساجو . ولـكن العريس الغاضب قد لا يرضى بالدفع البطىء لأنه لا يستطيع التعاقد على زوجة جديدة و بذلك يصر على طلب دينه كما دفعه بالضبط وإذا كان ضابط الناحية جديداً فى القرية وليس خبيراً بتقاليـدها فإنه يحاول أن يتعقب طريقة دفع الدين فى رحلاتها العديدة إلى موك ، ورامبوتشن ثم إلى بيرى مرة أخرى . . . الخ . ولا يملك فى النهاية إلا أن يصيح قائلا : « إنكم أيها الناس تبعثرون أموالا كثيرة على زوجاتكم وهى

طريقة خاطئة فى الزواج . والأولى بكم أن تسيروا على طريقة الجنس الأبيض فيما يتكلفه من نفقات بسيطة فى هذا » والبحث الدقيق فى عادات الوطنيين بخصوص الزواج يرينا أنهم لا يشترون زوجاتهم بالمعنى الحرفى وأن كل شىء من مهر الزوجة يقابله شىء آخر سبق تحديده مثل دفع نفقة الطعام وعلى هـذا التبادل المستمر لهذه الممتلـكات الثمينة يقوم الهيـكل العـام لعلاقات القرية الداخلية والخارجية فى وقت واحد . وتحت ضغط هذه المقايضات المتوالية ، يصنع الطعام ، وتشترى الخنازير وتصنع الأوانى والجونلات القش بكميات كبيرة مما يكفل للناس مستوى عال من المعيشة وأساساً قوياً لحياتهم الاقتصادية . ومن الخطورة بمكان أن يحاول إنسان التدخل فى هذا النظام و إلا تعرضت القرية كلها إلى التفـكك وتعرضت مبادئها الأخلاقية للانهيار .

ولعل خير ما يمكن للتربية الشكلية أن تقدمه إلى أهل مانوس فى حالتهم الراهنة هو نوع من الدراية بمبادىء الحساب ، وطريقة بسيطة لمسك الدفاتر وبهذا يستطيع الأهالى الاحتفاظ بالحسابات الخاصة بكل عملية مبادلة مما لا يجعل تلك الأمور المـالية مجالا للخلافات ، ويمنع حدوث تلك المشاحنات التى تعكر حياة القرية فى الوقت الحاضر .

أما الآن فإن الحكومة لا تقوم إلا بتسجيل المنازعات القضائية ولو كانت هناك وسيلة يستطيع بها الأهالى فض تلك المنازعات بأنفسهم لقل عدد ما يعرض منها على دار القضـاء وخصوصاً لأن أهل مانوس يتصفون بالأمانة وتنتابهم حالات من القلق النفسى بالنسبة لما عليهم من ديون . ولقد وجدنا خير طريقة للحصول على ما نحتاجه من أسماك بصورة منظمة أن ندفع ثمنها مقدما كميات التبغ بدلا من مجرد الإعلان عن استعدادنا لدفعه نقداً . فقد قام الأهالى بدفع التزاماتهم بمنتهى الأمانة ؛ وإذا حدث وكان الصيد قليـلا فى أحد الأيام فإنهم كانوا يحملون ما صادوه ومعه بضع شلنات كانوا يدخرونها فيدفعونها فرقاً لثمن التبغ الذى سبق أن تسلموه ، مفضلين رد الثمن على بقاء هذا الدين عبئاً ثقيلا على

ضمائرهم . ولو كان هؤلاء يجمعون بين هـذا الحرص على الوفاء بديونهم و بين طريقة صحيحـة لتدوينها لـكان نظامهم الاقتصادى من أحسن النظم الاقتصادية .

ويتعامل الأهالى بالعملة الانجليزية إلى جانب عملتهم من نقود المحار ومن أسنان الـكلاب . وتقويمهم للسلع والمشتروات على أساس العملة القديمة أو على أساس البضائع معترف به من الجميع ، وتستخدم العملة النقدية لدفع نفقات الولائم الصغيرة ، مثل تكاليف إحدى العمليات السحرية الصـغيرة وكذلك نفقات العمليات التجارية العـادية بين أفراد القبائل المختلفة . وللتبغ مكان هام بين العملة التى تستخدم فى إقامة الولائم فهو جزء لايتجزأ من شعائر المـآتم . وفى الوليمة الأخيرة التى يختتم بها المأتم يدفع لـكل من المعزين الذين باتوا فى دار أهل الميت بعضاً من التبغ (وفى هذه المناسبات كان الأهالى يطلبون استعارة التبغ من عندنا . ورغماً عن بعد نظرهم فيما يتعلق باستعدادهم لأى نشـاط اقتصادى عدة شهور سابقة على موعده ، إلا أنهم لا يستطيعون التكهن بوفاة شخص ما قبل وقوعها . ولذا لم يكن من السهل عليهم أن يقوموا بجمع التبغ اللازم لهذه المناسبة والذى يجب تقديمه عقب الوفاة مباشرة) . ويتقاضى من يقدم مساعداته فى بنـاء أحد البيوت ثمن هذه المعونة فى صورة قطعة من التبغ بالإضافة إلى ثمار البندق وأوراق الفلفل التى تقدم لهم فى صحاف طعامهم . ويقوم التبغ مقام ثمـار البندق فى إحيـاء بعض المناسبات ، كما يستعمل أيضا بدلاً من أسنان الـكلاب فى الاتفاقيات الصغيرة .

أما الشلنات فتقوم مقام عقود نقود المحار فى دفع نفقات بعض المناسبات . أما فى الصفقات الـكبيرة فلا يستعمل فيها التبغ ولا العملة النقدية بل تستخدم فى ذلك آلاف من أسنان الـكلاب .

ولا تتداول العملة الانجليزية الأصغر حجما من الشلن فالقطع من الست بنسات تنزلق بسهولة من بين أصابعهم واحتقار الوطنيين لهذه العملة الصغيرة يجعلهم يدفعون فيما يشترون نقوداً تزيد على ثمنه الحقيقى بدون أى داع . فالسلع التى يبلغ ثمنها شلناً ونصف شلن مثلا يشتريها الشخص بشلنين . و يحصل الأهالى على تلك العملة عن طريق تجارتهم فى الخيزران ونشاء الساجو وعن طريق المزادات التى تقام من وقت لآخر لبيع محار السلحفاة البحرية ومحار اللؤلؤ الذى يستعمل فى عمل الأزرار الصدفية . كما أن الشبان العمال يحملون عند عودتهم إلى القرية بعض هذه العملة وكذا بعض البضائع . و يستخدم جزء من هذه الحاجيات فى المتاجرة بها مع المخازن البعيدة — وهى تبعد عن القرية مسيرة خمس ساعات أو ست بالقوارب — ويحتفظ بالجزء الباقى لدفع الضرائب — وتبلغ عشر شلنات على كل شخص سليم البنيـة فيما عدا موظفى الحكومة فهم يعفون من الضرائب . و بعكس سائر المجتمعات الأخرى لا يعترض أهل مانوس على هذه الضريبة بل أنهم يفخرون بمـا يدفعونه من ضرائب فى كل عام و يشيرون إلى سجل ضرائبهم كما يفعل الناجحون من رجال الأعمال عندنا دلالة على مدى ما وصلوا إليه من ثراء وغنى. وليست هذه الضريبة شيئاً يثقل كاهل أهل مانوس فإنهم فى سعة من العيش ، وهم يستمتعون فى مقابلها بالسلام والتحرر من الحرب مما كفله وجود الحكومة بينهم . أما فى حالة اليوسياى فإن هذه الضرائب ترهقهم مما يضطر الـكثيرين منهم إلى إيفائها عن طريق العمل بالمجان .

وأهم عاملان دخلا على الأهالى من جراء اتصالهم بالجنس الأبيض وغيره من ثقافتهم المادية هما إدخال الصلب والملابس . فقد استبدل الأهالى آلاتهم القديمة المصنوعة من الحجر والمحار وحجر الصوان بأدوات جديدة من الصلب كالسكاكين والفؤوس والمخارز والمناشير ولقد تم هذا بدون الإضرار بأية صناعة محلية ولا تزال البيوت والقوارب تبنى بنفس الطرق القديمة ، ولـكن

تلاشى فن صناعة المصنوعات الدقيقة من الأصداف التى كانت تلبس حول اسطوانات من المحار . كما أن إدخال السكاكين لم يؤد إلى إتقان فن الحفر الدقيق بل على العكس لم نعد نرى تلك السلاطين الكبيرة التى كانت من أهم ما يميز فن جزر الأدميرالية ، أما السلاطين الصغيرة فنقوشها لم تعد لها نفس الدقة التى اشتهرت بها .

ورغما عن تسرب بعض الأطباق الخزفية أو المصنوعة من الأصداف إلى بعض القرى إلا أن الشائع لا يزال هو استعمال الأوانى المصنوعة من الفخار الأسود ، ويوضع فيها الزيت والماء وتستخدم فى طهو الطعام . وقد يكون من عوامل استمرار صناعة الأوانى الفخارية السوداء هو أنها تدخل ضمن صفقات المقايضات عند الزواج . ولقد اختفت الثياب المصنوعة من لحاء الأشجار تماماً من مانوس ، غير أن أهل المناطق البرية ولديهم كميات متوفرة منها مع فقرهم المادى لا زالوا يحتفظون بتلك الثياب لاستعمالهم اليومى وفى المناسبات أيضاً ، وخامة الثياب المصنوعة من لحاء الأشجار رديئة وتستخدم بعد طرقها بشدة فوق سطح خشن لإحدى كتل الأخشاب . ولا يتحمل هذا النوع من الثياب الماء ولذلك فقد رحب أهالى المنطقة البحرية بإدخال أثواب القماش ترحيباً شديداً . والآن استبدل الرجل حزامه النباتى بحزام من القماش وهو أحياناً يرتدى قطعة طويلة بأكملها تسمى بالانجليزية الخليط لابلاب laplap . ولا تزال النسوة يحتفظن بالجونلات المصنوعة من القش ولكنهن استبدلن ثوب التحريم القديم بوشاح كبير من القماش ، وكان ذلك الثوب عبارة عن غطاء من لحاء الأشجار يطوى من نصفه ثم تخاط أطرافه من جزئه الضيق فيصبح مثل الطرطور ولكنه يغطى الرأس والظهر (ولا يزال هذا الرداء مستعملا كغطاء واق من المطر مما منع إدخال المظلات التى لو دخلت لأفسدت منظر الاحتفالات الوطنية هناك) أما غطاء الرأس المصنوع من القماش فهو عبارة عن طولين من القماش خيطاً مع بعضهما وربطا من أحد الطرفين لكى تستطيع المرأة أن تحكم وضعه فوق رأسها . وخياطة

الثوب رديئة جداً كما لا يعنى بثنى أطرافه . وبعد بضعة غطسات فى الماء تمتزج ألوان الثوب ويتحول اللون الأحمر القانى أو الألوان الزاهية الأخرى إلى ألوان باهتة قبيحة . وعلى ذلك لا نجد الألوان الغربية الجميلة تقلل من كآبة لون القرية الداكن إلا فى أيام الأعياد . وتستعمل البطاطين ، وكل بيت يمتلك واحدة أو اثنين كأثواب للتحريم يتغطى بها النساء .

ولقد عرفت المرايا والسكاكين والشوك والأمشاط طريقها إلى القرية ولكنها تستعمل ضمن الحلى التى تتزين بها العروس . وهذه الأدوات لا تستعمل ولكنها تثبت فى أطواق تلبسها العروس حول ذراعيها أو تحملها معها فى الاحتفالات وينظر الأهالى إلى الصناديق المصنوعة من خشب الكافور على أنها من النعم الكبرى ولا غرو فهم قوم يهتمون بالمحافظة على مقتنياتهم ، وترى الآن فوق كثير من الصدور العارية حزمة من المفاتيح الحديدية معلقة فى طوق من الخرز فى الأصل كان طوقاً لأحد رؤوس الموتى . وقد صنعت الأقفال بطريقة تجعلها لا تفتح إلا بعد إدارة المفتاح فيها عدة مرات وفى كل مدة ينطلق من القفل صرير موسيقى يكشف اللص إذا حاول فتح القفل . وتعتبر الصناديق والفؤوس من البضائع الأساسية التى لا بد للعمال الشبان من إحضارها معهم بعد عودتهم إلى القرية . وقد يحضر بعض الشبان مصابيح زجاجية ولكنها تعلق ولا تستعمل نظراً لعدم وجود غاز البترول بالرغم من احتمال وجوده فى أحد البيوت . وقد يحضرون البطاريات التى تلقى جانباً بلا استعمال بعد استهلاك أول بطارية كذلك قد تستعمل الساعات المكسورة على أنها من بين أدوات الزينة .

ولعل أكبر انقلاب حدث هناك وهو يفوق فى أهميته إدخال المعادن بدلا من الحجر والقماش بدلا من لحاء الشجر هو إدخال الخرز : فقد كان لأهل مانوس تقليد وهو أن يربطوا النقود المحار المستديرة مع بعضها بواسطة دوبارة رفيعة مصنوعة من لحاء الأشجار .

وكانوا يصنعون بهذه الطريقة مرايل بأكملها من النقود الصدفية كذلك الأطواق التى تلبس حول الذراعين والخلاخيل التى كانت تزين عادة بالنقود الصدفية والحبوب السوداء والحمراء : ثم وجدت تجارة الخرز طريقها إليهم فقابلها أهالى مانوس بحماس شديد أما أهالى المناطق الأخرى من جزر الأدميرالية فكان حماسهم أقل نظراً لأن لديهم صناعاتهم المحلية الخاصة : وحل الخرز محل نقود المحار و بذور النبات فى تزيين الحلى كما استخدم فى صنع حلى جديدة . وصارت النساء يطرزن شعور الموتى فوق حقائب مسطحة مصنوعة من الخرز وتسير بها الأرملة وقد علقتها بحزام فوق كتفها . وتفننت النساء فى استغلال الخرز فصنعن منه قبعة الأرملة التى تلبسها حداداً على زوجها ، وكذلك أكفان الموتى ، وعُلاقات مشدات الصدر . وتزين هذه الأشياء برسوم هندسية ، لا تدل على شىء وهى إما مقتبسة من بعض الرسوم الأوروبية التى دخلت مع التجار أو مأخوذة من نقوش المنسوجات الغربية .

وحين تكون تلك المصنوعات جديدة فإنها لا تمت بقرابة كبيرة إلى الأعمال الفنية ولكن بعد أن تغمرها مياه البحر المالحة وتهذب من ألوانها فإنها تبدو جذابة وتضفى على أى اجتماع فى القرية صبغة الأعياد . ويتركز استخدام الخرز فى تزيين ثوب الحداد وفى تزيين العروس وأحياناً فى زينة العريس كما تستخدم تلك المصنوعات كإحدى العملات المتداولة هناك . فالأحزمة المصنوعة من الخرز والتى هى عبارة عن عدة صفوف من الخرز تفصل بينها مسافات من ألوان أخرى من الخرز تعتبر من البنود الأساسية فى الصفقات التى تعقد بين الأصهار . ولكنها ليست على جانب كبير من القيمة المادية فهى لا تستبدل مثلا بالخنازير أو بالزيت كما هو الحال مع أسنان الكلاب أو مع قروش المحار . ولكن يمكن استبدالها بكمية من نشاء الساجو أو بعض الأطعمة المطهية

وهذا العامل الجديد فى النظام الاقتصادى يبين بوضوح النفوذ غير المباشر للتجارة الأجنبية على اقتصاد مانوس الداخلى . فإن أهل مانوس يشترون الخرز

ويصنعون منه الأحزمة ثم يستبدلونها فى صفقاتهم ، وبذلك يزيدون قيمة مايدفعه الزوج حرصاً على الفخر والمباهاة . ولابد لأهل العروس من إنتاج مزيد من الساجو لمواجهة ثمن هذه الأحزمة ، ويباع هذا الساجو الإضافى لأحد التجار الذين يفدون على المنطقة مرة كل شهر ثم يشترى أهل مانوس بجزء من ثمن الساجو خرزاً جديداً تصنع منه أحزمة جديدة تدخل ضمن مواد التعاقد فى الصفقة مما يستوجب صناعة المزيد من نشاء الساجو . وهكذا بدون إحداث أى تغيير فى مستوى الحياة نلاحظ أن هذا النشاط التجارى يغير من حجم وفخامة ما تعرضه العائلة ويراه الناس فى الحفل .

وكانت أسنان الكلاب هذه تستورد من الصين ومن تركيا خلال الحكم الألمانى لتلك الجزر ، وقد زادت الكميات المستوردة منها زيادة كبيرة أحدثت تضخماً فى العملة وصلت نسبته إلى حوالى ثمانمائة أو تسعمائة فى المائة . وقد أدى هذا التضخم إلى ارتفاع أسعار بعض الضروريات ، وفى حالات أخرى احتفظت بعض السلع بأسعارها القديمة فى الصفقات المالية مما أدى إلى اختلال موقف طرفى الصفقة . وفى حالات ثالثة أدى ذلك التضخم إلى زيادة الثروة السائلة . فحيث كان الرجل يدفع ألفاً من أسنان الكلاب إلى والد عروس ابنه ، فقد أصبح يدفع عشرة آلاف . كذلك أدت زيادة عدد الشبان المشتغلين عند رجال الأعمال البيض وما استتبع ذلك من زيادة مجموع ما يقبضونه من أجور إلى زيادة عدد ما يمكن شراؤه من خنازير من الرجال البيض و بالتالى زاد عدد الخنازير فى المجتمع حتى يستطيع أقارب الزوجة مواجهة ما يدفع لهم من أسنان الكلاب .

أما التغيير الحقيقى الهام الذى أحدثه وجود الجنس الأبيض فى تلك الجزر فهو نجاحهم فى منع الحروب ومنع ظاهرة أسرى الحرب . فإن إلغاء العادات التى كان يتشبث بها الشبان ، فى مجتمع كان يحرم العلاقات الجنسية على الفتيات وعلى النساء المتزوجات ، كان من الممكن أن يؤدى إلى نتائج وخيمة ما لم يقترن بإلغاء

الحروب وجوب خروج الشبان للعمل فى الاقطاعيات، و بذلك كان الشبان يغادرون قريتهم فى تلك الفترة التى يصعب على المجتمع أن يطوعهم لتقاليده ولقد أدى خروجهم إلى أن يصبحوا من بين الموارد الاقتصادية بدلا من أن يكونوا جنوداً لا نفع فيهم لمجتمعهم . وفى بعض المجتمعات المحلية التى تمتلك ميراثاً ثميناً من فنون السحر وخبرات سرية يلقنها الآباء لأبنائهم ، يعتبر غياب الشبان هذا كارثة على المجتمع . فإن هؤلاء الشبان يعودون إلى قراهم بعد موت آبائهم فيجدون أنفسهم حرموا إلى الأبد من ميراثهم الشرعى . ولو أننا لم نبحث هذه المسألة بالتفصيل إلا أن لدينا من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذا هو الحال منطقة الإيسياى Isiai الزراعية التى تعتمد اعتماداً كبيراً على أعمال السحر .

كذلك قد يقاسى المجتمع الزراعى من قلة كميات البذور المخزونة نظراً لغياب الشبان فى موسم التخزين وكان الأولى بهم أن يكونوا فى حقولهم يحصدونها بأنفسهم . ونلاحظ كذلك أن كافة المجتمعات التى تعتمد على مساهمة أبنائها فى فترة مبكرة من حياتهم فى نشاط المجتمع وصناعاته ، تقاسى من انتزاع أبنائها انتزاعا مفاجئاً من ميدان تربيتهم الأصلى . وإذا جاء انقطاع الأبنـاء عن النمط التقليدى للتربية بمحض الصدفة فى نفس الوقت الذى تحاول فيـه البعثات التبشيرية أن تمحو الثقافة المحلية فإن هذين العاملين يعملان معـاً على إيجاد حالة من الاضطراب الاجتماعى وسوء التكيف . ومن حسن الحظ لم يتسبب نظام غياب الشبان عن القرية فى مانوس فى أى نتائج خطيرة . ففى الوقت الذى يجب على الشبان مغـادرة القرية يكونون قد أتموا ما هيـأه لهم المجتمع من تدريب و إعداد قبل الزواج فيما عدا التدريب الخاص بالحروب ونظام البغاء والذى ألغى نهائياً من الاطار الاجتماعى . فبقاؤهم بالقرية يكون فيـه تهديد للاتفاقيات الاقتصادية . ولما لم يكن أهل مانوس متخصصين فى شئون السحر التى تتطلب حفظ الكثير من التعاويذ فى صبر وأناة فإن الشبان لا يخسرون ميراثاً سحرياً يؤثر فى زراعتهم أو فى اقتصادهم أو فى نجاحهم الاجتماعى كالشبان الذين ينتمون

لمجتمعات تعتمد على السحر وطقوسه . فشبان مانوس يعودون إلى قراهم أغنياء و بذلك يكونون فى وضع يمكنهم من أن يكونوا موضع احترام الكبار أكثر مما لو بقوا فى قريتهم ولم يغادروها . وحالما يعودون إلى القرية يبدأوا فى دفع ما عليهم من ديون لمن تكفل بنفقات جنازة آبائهم أو أقاربهم الأقربين . ورغماً عن أن دين الزواج يظل معلقا فى أعناقهم سنين طويلة ، إلا أن النظام الحالى الذى يهدف إلى أن يقتصد الشاب ما يكسبه من نقود ثم يقوم بدفع ما عليه إلى دائنيه يتلاءم تماما مع النظام المالى فى مانوس كما أنه يحضر معـه بضائع أجنبية كالأدوات الجديدة والثياب التى أصبحت من الضروريات للقرية .

و إذا كان لأهل مانوس أن يستوردوا نظام العمل فى الشرق إلى بلادهم الواقعة تحت الحماية الأجنبية و يستبدلون به نظاماً أقل كفاية هو النظام الميلانيزى و بذلك يبقى الشبان فى قراهم منذ بلوغهم إلى أن يتزوجوا فمعنى ذلك وجوب إعادة النظر فى عادات المجتمع وتقاليده فإن تمسك المجتمع بالطهارة التامة لنساء مانوس لا يمكنه أن يستمر جنباً إلى جنب مع تحريم الحكومة لممارسة البغاء وتأخير سن الزواج . وليس من المعقول أن يسمح بممارسة البغاء مرة ثانية لأن احترام أهل مانوس لشرف نسائهم يجعل من الضرورى أن تكون البغى من أسيرات الحروب .

والحروب أصبحت ممنوعة ولا يمكن قيامها بدون علم الحكومة . وعلى ذلك فالحل الأخير هو إما أن ينخفض سن الزواج للجنسين وخصوصاً للرجال أو التساهل فى النظام الأخلاقى المعمول به حالياً .

وقد حل أهل اليوسياى هذه المشكلة بطريقتهم الخاصة . فهـذه القرية لا تعرف فكرة إحضار أسيرات الحرب ليعملن عاهرات ، ولذلك فقد أوجدت هذه القرية طريقة لإشباع الحاجات الجنسية تحت الإشراف الدقيق . فمنح الشباب من الجنسين عاماً كاملا من الحرية يعيشون خلاله مع زميل أو زملاء من اختيارهم

فى بيت كبير يضم أفراداً من الجنسين . و ينفق على هذا البيت واحد من أغنياء القرية أقام هذا البيت خصيصاً لإحدى بناته وصويحبات يماثلنها فى السن . وعُين لهن مشرفون دائمون لمنع أية انفجارات وعنف ضد من لا تكون بها رغبة فى الاتصال بأحد الزملاء ولضمان استتباب السلوك اللائق ، ويعتبر هذا العام بمثابة مدرسة للتدريب على آداب السلوك والمعاملات الاجتماعية . وفى نهاية العام تعود الفتيات إلى قراهن حيث يتزوجن رجالا أكبر منهن سناً قاموا بدفع نفقات زواجهم ، أما الشبان فيتزوجون أرامل أقاربهم المتوفين . فاقتران الحرية الجنسية قبل الزواج بفكرة الزواج المبكر من رفيق أكبر سناً وخبرة بحيث يستطيع أن يقوم بدور القيادة فى الشئون التى تتطلب الخبرة والحكمة كان هو الحل الذى اهتدى إليه أهل اليوسياى .

ولقد كان هذا الحل حكيماً عملياً ، كما أنه متكامل ومتسق مع الإطار العام للعلاقات الاجتماعية . ومن سوء الحظ أن المبشرين تدخلوا وأفهموا السلطات أن السماح بهذا الإجراء إنما هو تصريح بالإباحية واستهتار بالأخلاق ولذلك فقد أوقف هذا النشاط فى نفس الوقت الذى أغلق فيه بيت الدعارة فى مانوس والذى كان يسمى خطأ بنفس اسم البيت الأول وهو "House bomak".

رأينا أن الأثر الأكبر لحضارة الجنس الأبيض على حياة سكان مانوس يدور حول الجوانب الاقتصادية أما من الناحية الدينية فحتى هذه الساعة لم تحاول الحضارة البيضاء أن تتعرض لأهل مانوس بصورة جدية فيما عدا أهل بابيتالى Papitali ، والصلوات التى أدخلت حديثاً فى مبونى Mbunei . وتقع بابيتالى هذه على الشاطىء الشمالى و بعد موقعها عن المنطقة يجعل نفوذها على قرى الشاطىء الجنوبى ضعيفاً محدوداً ، وقد بدأ النشاط التبشيرى فى مبونى Mbunei على يد رجل من الوطنيين أثناء وجودنا فى بيرى . فقد عاد بعض الشبان من أعمالهم وأعلنوا اعتناقهم لإحدى العقائد الدينية ولكنهم لم يكونوا خبراء بتعاليمها بحيث يستطيعون أن ينشروها بين أهليهم . ولم يحفظ أولئك الشبان سوى عبارات

متفرقة مثل « سيحرقكم المسيح فى نار جهنم » وهى تعطى الأهالى فكرة غريبة عن معنى المسيحية . وهم يعرفون أيضاً البعثتين الكبيرتين فى شمال البلاد وهما بعثتا الروم الكاثوليك و بعثة الميثودية Methodists وقد فاضل الشبان بينهما على أثر ما لاحظوه من اتجاهات كل منهما . أما الميثوديون فيقولون إن مذهبهم لا يصلح لهم لأن أفراده يوجهون اهتمامهم الأول نحو العشور و يعرضون أعضاء الكنيسة من المذنبين للعقاب العلنى و يجبروهم على إعلان خطاياهم .

أما الروم الكاثوليك فهم موضع ترحيبهم لأنهم لا يطالبون بأية عشور . و يدرك المرسلون الكاثوليك عظم المسئولية الملقاة على عاتقهم إقناع مائة من الشعوب المختلفة فى غينيا الجديدة وحملها على اعتناق المسيحية . ولذلك فقد استقر أفراد تلك البعثة هناك و بدأوا عملا ستبقى آثاره على مدى الأجيال القادمة ، وأسسوا مزرعة واسعة خصبة ، وانضم إليهم جماعة قلب يسوع المقدس وغيرها لمساعدة الأخوة والأخوات فى رسالتهم الدينية . كذلك علم أهل مانوس بأخبار الاعترافات السرية التى يقوم بها الكاثوليك ورأوا أنها تغنيهم عن التقليد السائد بينهم والذى يرغم كل شخص على أن يعترف بما اقترفه من إثم أمام الجيران والأقارب . ومن أسباب ترحيب الأهالى بحضور المبشرين استعداد هؤلاء لتعليمهم القراءة والكتابة وقد ابتاعت الإرسالية الكاثوليكية إحدى الجزر الصغيرة فى بيرى ولذلك ففى الغالب أن الأهالى سيصرون على بقائها عندهم وخاصة أن ما سمعناه منهم يجعلنا نؤمن بأن بقاءها هذا مرغوب فيه .

كذلك لمسنا بعض آثار الاتصالات المسيحية هنا وهناك . كما حدث فى جزيرة مبوك Mbuke حيث أشيع أن البيض يعبدون الشمس لأنهم ينظرون دائماً إلى أعلى وهم يتلون صلواتهم . ولكن بصرف النظر عن هذه الملاحظات العابرة المشوهة فإن صميم حياة الوطنيين الدينية لم يمس فيما عدا ما يشعرون به من اطمئنان كلما فكروا فى أن اعتناقهم للدين الجديد سيمكنهم من إلقاء أرواحهم الحارسة المتقلبة فى ماء البحر . أما فى الوقت الحالى فلا يزال نفوذ الأرواح وطيد الأركان .

وقد تمكنت الحكومة من تنفيذ تعليماتها ضد الاحتفاظ بجثة الميت عشرين يوماً وغسلها يومياً فى ماء البحر وقد أطاع الأهالى هذا الأمر بدون اعتراض كبير لأن المعارك التى قامت بين الأفراد و بين القرى بسبب التقاعس عن تنفيذ هذا الأمر كانت تبلغ إلى الحكومة أولا بأول وقد اختصر وقت الاحتفاظ بالجثة إلى ثلاثة أيام ، كما أن التقليد الذى كان يشترط قتل أحد الرجال لإنهاء فترة الحداد أو على الأقل اختطاف أحد الأشخاص و إنفاق الفدية التى يدفعها أهله على جنازة الميت ، قد عدل واقتصر الأمر على ذبح ترسة من الحجم الكبير . وأصبحت جثث الموتى توضع فى الجزر الصغيرة البعيدة حتى تبيض عظامها وعندئذ يأتى أهل الميت فيأخذوا جمجمته و بعضاً من عظامه حيث توضع فى وعاء الجماجم التقليدى . وقد روجعت مراسيم الحداد ، ونظام المعاملات التجارية لتتلاءم والأوضاع الجديدة ولكنها ظلت محتفظة بإطارها الأصلى .

ونستطيع أن نلخص علاقات مانوس بالجنس الأبيض بأنها علاقات طيبة إلى حد كبير . فقد استطاع البيض منع الحرب وصيد الرجال ، وممارسة البغاء . وكان فى إرسال الشبان للعمل فى المزارع الأجنبية علاج لما قد ينشأ من مشكلات اجتماعية نتيجة لهذه الإجراءات ، فقد اتفق نظام العمل خارج القرية وما يصاحبه من فوائد مادية مع نظام المجتمع الاقتصادى وعن طريق التجارة مع الجنس الأبيض حصل الأهالى على الخرز الذى مكنهم من تنمية مواهب زخرفية جديدة وهيأ لهم حوافز لزيادة إنتاج مواد الطعام ؛ أما نظام الحكم السلمى فقد هيأ هو الآخر فرصاً طيبة للتبادل التجارى بين القبائل .

إن أهل مانوس الحاليين قوم مسالمون يعملون بجد و يواجهون ظروفهم البيئية بصورة تدعو إلى الإعجاب و يقاسون بعض الشىء من الأمراض الممكن توقيها . ويتفق نظامهم الأخلاقى مع عقائدهم الخرافية مما يعطيه قوة وعمقاً . وهم لا يحاولون أن يقللوا من عددهم وخصوصاً أنهم يجهلون تماماً وسائل تحديد النسل الطبية (مثل جهلهم بخصائص الأعشاب نظراً إلى طبيعة حياتهم البحرية) .

ونادراً ما يلجأون إلى الوسائل الآلية . أما بالنسبة للحكومة فيلاحظ أنهم يتكيفون بصورة حسنة للواجبات القليلة التى يفرضها عليهم اتصالهم بالجنس الأبيض (وهذا لا شأن له بنوع الشخصية التى تنميها وسائلهم التربوية واتجاهاتهم نحو الحياة العائلية والزواج . فكل هذه أمور دقيقة ومن الصعب على الحكومة أن تتولاها) .

الملحق الرابع

التقاليد الخاصة بالوضع والحمل ورعاية الأطفال

من الخصائص المميزة لمجتمع مانوس حيث ترتبط كافة الشعائر بالعوامل الاقتصادية أنه رغماً عن احتفال الأهالى بحوادث الحمل والولادة والبلوغ ... الخ . واهتمامهم بها ، إلا أن الأشخاص الذين يعنيهم الأمر أكثر من غيرهم لا يساهمون فيها إلا بمراعاة قليل من المحرمات فمثلا محرمات ما قبل الولادة التى تعتمد على سحر تقليدى تحذر على المرأة أن تأكل إحدى ثمار الموز المزدوجة لئلا تلد توأمين ...

هذه المحرمات تقتصر فى مانوس على منع المرأة الحامل من استعمال سكين أو بلطة فى قطع الأسماك أو الأخشاب لئلا تقطع أحد أطراف الجنين . وكل تشويهات فى جسم المولود كالعمى أو الصم أو السيقان المعوجة وغيرها تعزى إلى أن أحد الوالدين قد أهمل وعصى أحد المحرمات التى تحمى المقتنيات ، وتسمى هذه المحرمات الأخيرة Sorosol فالذى يملك إحدى الأشجار يجب أن يضع عليها سوروسول أما إذا لم يكن يملك شجرة فإنه يستأجر شخصاً آخر ليقوم بهذا العمل . وتحمل محرمات السوروسول هذه عقاباً سحرياً تنفذه فيمن يستهين بشأنها وهذا العقاب على عدة أنواع . فعدد من السوروسول يتسبب فى إجهاض المرأة الحامل ، أو فى ولادة الطفل ميتاً . وأحياناً يعزى ميلاد الطفل ميتاً إلى أعمال شريرة تقوم بها الأرواح . وإذا ماتت الأم عند ولادة الطفل ثم مات الطفل بعدها بقليل قيل أن الأم قد أخذت طفلها معها .

وطبيعة الأبوة الجسدية معروفة والطفل عبارة عن اتحاد حيوانات الذكر المنوية مع دم حيض الأنثى . ويعتقد الرجال أنهم السبب فى حيض زوجاتهم ، وعند ما تحمل الزوجة يوقفون دم الحيض . وهناك اعتقاد غامض تؤمن به النساء وهو أن خصوبة الأنثى تتوقف على أرواح أسرة زوجها . فإذا شاءت الأرواح

أن يكون لها نسلا يخلفونها أعلنوا أن المرأة سوف تحمل . وهم يمارسون قدرتهم هذه بنفس الطريقة التى يسيطرون بها على كمية ما يصطاده الشخص من أسماك أى أن الأرواح تعمل متعاونة مع القوى الطبيعية . ويتوقع الشخص من الروح التى تحميه أن تساعده بدفع السمك وتجميعه فى المياه القريبة له وكذلك هو يعتقد أن الأرواح يمكنها تسهيل مسألة حمل الزوجة ولكنه لا يؤمن بأن الأرواح تستطيع أن تجعل الفتاة غير المتزوجة حاملا بدون أن تتصل اتصالا جنسياً بأحد الرجال . والاتصال الجنسى مسموح به خلال الحيض وخلال فترة الحمل . ولكنه ممنوع لمدة ثلاثين يوماً بعد الولادة . ولكن هذا المنع يبدو شيئاً طبيعياً ما دام لا يسمح للزوجة بمجرد رؤية زوجها خلال هذه الفترة . والنساء يحسبن فترة الحمل بما يوازى عشرة شهور قمرية ابتداء من آخر حيض . وهن يحتفظن بحزم صغيرة من العصى يستعملنها فى العد . وتاريخ الحمل يعرفه كل شخص يخصه هذا الأمر نظراً لما يستلزمه من استعدادات اقتصادية . ويستلم أخو الزوجة مكان الولادة قبل موعدها ببضعة أيام . وفى هذه الحالة يتكفل أخو الزوجة بالترتيبات الاقتصادية المتعلقة بالصفقات التى تتم بينه و بين الزوج . وقد يقوم بنفس المهمة أبو الزوجة أو أحد أبناء عمومتها ... وعلى كل فرد أن يقوم بتخطيط نشاطه الاقتصادى حتى تتكاتف جميع الجهود ويستطيع من يعطى الساجو والقدور اليوم أن يتسلم حقه من مصنوعات الخرز غداً . ولا يستحب قيام نفس الشخص بتكاليف ميلاد كل طفل يولد و بعض النساء ولدن أربع أو خمس مرات وفى كل مرة كان يتكفل قريب مختلف من أقاربها بأمر نفقات الولادة . وفى حالات أخرى كان قريبان للزوجة يتبادلان هذه المسئولية . واستلام مكان الولادة يحدد ما إذا كان على الزوج أن يغادر بيته و يطلب من أخى الزوجة أن يحل محله هو وعائلته ، أو إذا كان على الزوجة أن تترك البيت وتذهب للاقامة فى بيت أخيها . والمعروف أن هذا متوقف على مشيئة الأرواح ؛ وهى فى الغالب توافق على رأى الأخ وخططه .

ولا يسمح بحضور الولادة إلا لنساء سبق لهن الحمل والولادة ، ويستبعد

الرجال والفتيات والأطفال من المكان . ولقد كان شعورهن ضد حضور أى امرأة لم يسبق لها أن ولدت من القوة بحيث لم أستطع التغلب عليه . ولقد خشيت إن أنا أصررت على معارضة هذا الشعور أن يصيب ما أقوم به من دراسة ضرر بليغ وعلى هذا لم أتمكن من مشاهدة امرأة ساعة الولادة والمعلومات التى دونتها هنا إنما سمعتها من بعض من حضرن هذا الحادث .

فهم يقولون إن المرأة ساعة الولادة تجلس راكعة على الأرض وقد تشبثت بحبل من الخوص تدلى من السقف . ويقطع الحبل السرى بقطعة من الخوص ، ويتفاءل الناس بالحبل السرى أما المشيمة (الخلاص) فيعتبرونه شيئاً مكروهاً ، يجلب النحس . ولذلك فإنهم يقطعون الحبل إلى أجزاء صغيرة و يطرون جزءاً منه مع المشيمة فى قطعة من القماش . أما باقى الحبل فإنه يجفف و يحتفظ به جلباً للحظ . وعادة التخلص من الحبل السرى للتأثير على مستقبل الطفل ، غير معروفة هناك . و بعد الولادة تنتقل الأم إلى مربع مصنوع من كتل خشبية مرصوصة فوق الأرض ، وتجلس على قطع من السجاد كما تعلق الستائر فوق رأسها لتحميها عن باقى أجزاء البيت ، وتشعل نار بجوارها . وهذه النار خاصة بها وحدها ، ولها أيضاً أوان لا يستعملها أحد غيرها حيث يطهى فيها طعامها . أما قطعة القماش المحتوية على المشيمة وقطعة الحبل السرى فتلصق فى الجدار وراء ظهرها و يلقى بها فى مكان بعيد فيما بعد .

وتقوم قريبات الزوج والزوجة بعمل حمام للطفل والعناية بأمره ، وتتغذى الأم على مزيج يطلقون عليه اسم بولوكول Bulokol وهو مصنوع من لبن جوز الهند ونشاء التارو . ولا يرضع الطفل قبل مرور عشرين أو أربع وعشرين ساعة على مولده . و بعد ذلك يعطى قليلا من لبن إحدى النسوة اللاتى لازلن يرضعن أطفالهن ، وكذا قطعة صغيرة من التارو بعد أن تمضغها الأم مضغاً جيداً . ولا ترضع الأم طفلها بنفسها قبل مرور ثلاثة أيام أو أربعة على الولادة . وتقوم نسوة أخريات بإرضاعه و يتناوبن هذه الخدمة وهن يثبن على هذه الخدمة فيما

بعد . و إذا حدث وكانت الأم مريضة لا تستطيع إرضاع طفلها فترة من الزمن فإن عليها أن ترد هذا اللبن لأطفال المرضعات حين تسترجع صحتها .

ويعتقد الأهالى أن عقم إحدى النساء ينشأ نتيجة لالتجاء أخت الأب أو ابنة أخت الأب إلى قدرة الأرواح على إلحاق الضرر بها . و يعتبر الناس قدرة الأرواح على جعل الأخ أو الخال لا ينجب من بين اللعنات ، ولكن الزوج والزوجة اللذان لا يريدان مزيداً من الأطفال يعتبرانها نعمة كبيرة . وتبارك قريبة الزوجة ، من ناحية أبيها ، أمومتها الجديدة فى احتفال تقليدى وتطالب من الأرواح ألا تجعلها تحمل مرة ثانية قبل أن يستطيع المولود أن يمشى وأن يعوم . وتسمى المرأة العاقر بيلالوكس Pilalokes . ويضع أهل مانوس النساء العقيمات اللاتى لم يرزقن بأطفال قط ، والنساء اللاتى مضت مدة طويلة لم يحملن أو يلدن فى نفس القائمة و يقال عنهن إنهن مربوطات ، والكلمة التى ترادف سن اليأس فى لغة أهل مانوس معناها « التى لا تستطيع أن تفعل شيئاً بعد الآن » أما المرأة المتزوجة التى مضت عليها مدة طويلة ولم تحمل بعد آخر مولود لها فتسمى « انتهت » وهى لن تنمو بعد ذلك .

ويعامل الإجهاض معاملة الولادة بالضبط ويعطى الطفل إسماً و يسير الأقارب فى الصفقات الاقتصادية إلى آخر إجراءاتها . وتعرف النساء موعد تحرك الطفل فيقلن « لقد أصبح كائناً حياً ، وها هى روحه » .

وولادة التوائم تحدث أحياناً ، ولكنهم لا يعلمون عن إمكان ولادة ثلاثة أطفال دفعة واحدة ، وعندما سمعت إحدى النساء أن إحدى نساء أمريكا ولدت خمسة توائم صاحت تقول بالكلمات الانجليزية الركيكة التى تعرفها « إن مانوس ليست بالمكان المناسب لهذا الحادث » .

و يتغذى الطفل بالتارو منذ البداية . وعدم وجود جوز الهند بكميات كافية من عوامل سوء تغذية الأطفال . كذلك لا يوجد قصب السكر بوفرة .

ويعتبر لبن ثمار البابايا Papayas من الأغذية المفيدة إذا أمكن الحصول عليه . ولكن الغذاء الأساسى هو التارو فإن الساجو يعتبر ثقيلا على معدة الطفل، أما السمك فيسبب عسر الهضم إلى أن يبلغ الطفل الثالثة من عمره ، ويعطى الأطفال السجائر وقشر البندق فى سن الثانية أو الثانية والنصف . ولا يفطم الطفل عادة قبل هذه السن إلا إذا حملت الأم مرة أخرى و إذا مات الطفل الثانى استأنف الطفل الكبير رضاعة ثدى أمه من جديد . ولكى تفطم الأم طفلها فإنها تربط ثدييها بحزمة من الشعور الآدمية .

ونسبة الوفيات بين صغار الأطفال عالية جداً ، وتتبُّع الأسباب الوراثية لوفيات الأطفال غير موثوق بها لاسيما وأن الأم لاتستطيع أن تفرق بين الإجهاض وولادة الطفل ميتاً وموت الطفل بعد ولادته ببضعة أيام . ولكن فى حالات عديدة يموت الطفل قبل الاحتفال بمرور ثلاثين يوماً على ميلاده .

ويقام هذا الاحتفال بمناسبة عودة الزوجة إلى زوجها أو عودة الزوج إلى زوجته ، وهو من الحوادث الهامة التى لا يتغير تاريخها ولذلك اتخذنا منه نقطة نؤرخ بها . وأنا أقدم هنا عينة من المواليد الذين ذكرتهم إحدى النساء التى تعتبر حجة فى أحد أحياء بيرى وقد أيدت أقوالها نسوة أخريات .

وتشير البيانات التى جمعناها عن العائلات المختلفة إلى أن أعلى نسبة للوفيات تحدث خلال الشهور القليلة الأولى من عمر الأطفال ثم بين سن الثلاثين والأربعين عند البالغين . وفى كلتا الحالتين توجد نسبة عالية للوفيات بين الذكور ويمكن أن يرجع هذا إلى تعرض الرجال إلى الحياة الشاقة حيث أن عليهم أن يقضوا الليل كله فى الصيد ، وعدد كبير من الوفيات فى تاريخ العائلات فيما سبق كانت بسبب الحروب .

وصحة الأهالى وأجسامهم منهكة بتأثير مرض الملاريا ، وهى تنقلب فى بعض الأحيان إلى ملاريا فى المخ مما يتسبب عنها وفاة المريض وفى حالات أخرى

تنقلب الحال إلى التهاب رئوى . ولا يفهم أهل مانوس شيئاً عن الدواء . وهم يلجأون فى علاج مرضاهم إلى القوى الخفية إما بمحاولة استرضاء الأرواح أو بتلاوة بعض الرقى الخاصة ، وعادة يتولى هذه العملية نفس الشخص الذى يعتقد أن سحره كان سبب المرض. وتعالج كسور العظام بتثبيت الجزء المصاب فى وضعه الطبيعى و باستعمال الحرارة التى تستعمل أيضاً فى الجروح والكدمات ... الخ كما تستخدمها عند أول حيض لهن وكذا النساء بعد الولادة .

واعتقادى أن ارتفاع نسبة الوفيات بين صغار الأطفال يعود إلى سوء نظام الرضاعة وعدم كفايتها (فإن ابن الأم يستهلك بعد انقضاء أعوام فى إرضاع كبار الأطفال) ولا يستمتع الأطفال بالشمس وليس هناك ما يقيهم شر تقلبات الطقس . والثقوب بين الألواح الخشب تعرض الأطفال دائماً للتيارات الهوائية وانخفاض الحرارة درجة واحدة يجعل القرية كلها ترتعد من البرد . وليس لدى الأهالى ملابس تناسب تغير الطقس . ويتعرض صغار الأطفال أيضاً للجروح . وعلى ذلك فإن الطفل الذى يجتاز السنة الأولى من عمره بسلام لا بد وأن يكون قوى البنية . وعدد الأمراض بين الصبية قليل نسبياً فيما عدا عدوى الملاريا وبعض قرح المعده فى المناطق الحارة . وقد أدت النسبة العالية لوفيات الأطفال ووفيات الرجال المتوسطين فى العمر إلى زيادة قلق أهل مانوس بالنسبة لخطاياهم والتركيز عليها دائماً . فأى وعكة بسيطة تصيب أحد الأفراد معناها وجوب اعتراف واحد من أقاربه بما اقترفه من ذنب مع دفع أتاوات للتكفير عنه ولا تمر إحدى الليالى بدون أن نسمع صفير الوسيطة فى بيت يرقد فيه شخص مريض .

وتعتبر الملاريا من العوامل الأساسية لإثارة المخاوف بشأن الأخطاء الصغيرة، و بعد تقديم الترضية اللازمة للأرواح يأخذ المريض فى التماثل للشفاء ، وبذلك يستدل أهله على أن غضب الأرواح قد انفثأ .

الملحق الخامس

رسم تخطيطى للقرية يبين ملكية البيوت

وأفراد كل أسرة ومسكنها

تخطيط قرية بيرى

١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧

٦ ٧

٤ ٥ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١

٤٢

٤٣ ٤٠ ٤١ ٣٩ ٣٨ ٣٧ ٣٦ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥

١ـ٢

ح

٣ ١ ب

رقم البيت	صاحبه	العائلة	نائب رب البيت	عائلة	قرابته لصاحب البيت
١	بومالات	م			
٢	توباز	م	بولاد	م	ابن عمه
٣	بوكانو	بو			
٤	لويل	م	سوت	ب	أخ غير شقيق
٥	تشاوموتش	م			
٦	درو بال	بو			
٧	نجانديليو	لو	دروجا	بات	زوج عمة زوجته
٨	ليس به أحد				
٩	ما كو	بات			

رقم البيت	صاحبه	عائلته	نائب رب البيت	عائلته	قرابته لصاحب البيت
١٠	كامبوين	بو			
١١	نجابو	كت			
١٢	سيلان	بو			
١٣	نجاموتو	كت	بونجى	بات	زوج ابنة أرملته
١٤	بوبى	م	نجانيدرى	بو	زوج الإبنة
١٥	بوميلى	لو			
١٦	كالوين	بو			
١٧	بويو	م			
١٨	تونو	ب			
١٩	بوساى	م			
٢٠	بومات	ب			
٢١	بويسيو	ب			
٢٢	باايو	ب			
٢٣	نجابوتشالون (أرمله)	كت			
٢٤	نانى	لو			
٢٥	بانيا لو	ب			
٢٦	بوندراميت	م	بومو	م	زوج الإبنة
٢٧	ندروسال	ب	سيس	لويتشا	زوج ابنة الأخت
٢٨	بوكاناس	لب	ماليان	ل ب	ابن متبنى — وهو ابن أخت له
٢٩	كيا	كم			
٣٠	تاليكاوا	ب	كالا	ك . م	قريب بعيد للأم
٣١	خادم البيت		كالوى		

رقم البيت	صاحبه	عائلته	نائب رب البيت	عائلته	قرابته لصاحب البيت
٣٢	تشانان	كت			
٣٣	نخابوليون (أرملة)	كم	كالوى	ك ت	ابن الأرملة
٣٤	بيت لعب كالات				
٣٥	سانو	كو			
٣٦	توين	كو			
٣٧	يولى	لب			
٣٨	نجاماسو	كو			
٣٩	ندرانتش (أرملة)	لو			
٤٠	كيمى	لو	بولن	ر	ابن متبنى
٤١	تاليكاى	ب			
٤٢	كوروتون	ب	تشولاى	ب	ابن
٤٣	نجاميل	ب			

يلاحظ أن الأرقام تدل على المنازل أما الحروف فبيانها كالآتى :

(ا) جزيرة بونتشال — قشلاق — مكان إقامتنا مدة شهرين .

(ب) جزيرة پيرى — بيتنا .

(ح) جزيرة پيرى — الثانية .

اختصارات أسماء الأقارب

م	ماتشوپال
ب	پيرى
بو	پونتشال
لو	لو (من أبناء الأخ تشالا لو الذى غادر البلده)
كو	كالو
كت	كالات
لب	لوبور
كم	كاماتشو
كب	كابيت
بات	من أفراد قرية باتومى
ر	رامبونشن

تعليق

يلاحظ أن فى إقامة الرجال الأصغر سناً يوجد تباين ملموس بين أسلوب العائلات الغنية الناجحة التى تسمح لشبانها بأن يعيشوا مع آبائهم أو آبائهم بالتبنى أو إخوتهم الكبار ، وبين أفراد العائلات الفقيرة حيث يبيت أفرادها فى أى مكان يتيسر لهم . ومن بين الفقراء أوالذين لم يتزوجوا بالطريقة المألوفة ، « وخير مثال لذلك المدعو سيسى وهو رجل يقيم بالبيت رقم ٣٧ وقد سرق زوجة رجل آخر ولم يدفع مهرها إلى الآن وكانت هذه الزوجة سبباً فى قيام الخلاف بينه وبين أخيه الأكبر الذى طرده من البيت ، ولم يجد بيتاً آخر يضمه فى قرية لويتشا » ويوجد اتجاه قوى أن الفرد لا بد أن يقيم مع أصهاره ، ولكن هذا الوضع يجعل موقف الرجل حرجاً نظراً لأن حماته محرمة عليه ولا يمكن التخلص منها . وعند دراستنا لتقاليد الزواج اقتصرنا على الزيجات التى تمت بالطريقة العادية أما الحالات الشاذة ، أو الحالات التى لم يوفق الرجل إلى تدبير نفقاته بصورة لائقة فقد استبعدت نظراً لتدخل عوامل تبالغ فى تعقيد الصورة .

الملحق السادس

صور من حياة القرية كما تراها اثنتان من البنات إحداهما فى الخامسة والأخرى فى الحادية عشر مع بعض التعليقات التفسيرية

لا يستطيع البنين أو البنات أن يميزوا بين تفرعات أقارب كل أسرة . فكلهم يعرفون بيوت الكالات (الأقارب) لأنهـا تكون عادة متجاورة وتستعمل كلمة Kawa لتعريف ذلك الجزء من القرية الذى تقع فيه بيوت بونتشال Pontchal ، ماتشوبال Matchupal . وقد جعلت الحكومة من بونتشال وحدة إدارية لها موظفيها . وفى هذا الإطار كان الأطفال ينظرون اليهـا . ولا يعرف الأطفال أسماء أصحاب البيوت المختلفة ولا يعرفون أقارب عائلات النساء. وهم يجهلون أيضاً الأرواح الحارسة للبيوت الأخرى ولا يعرفون إلا الروح الحارسة لبيتهم وإذا كان بالبيت عـدة أرواح حارسة فإن الأطفال لا يعرفون كافة أسمائها .

ويبين التخطيط السابق شكل القرية كما يراها أى شخص بالغ ولـكن من العسير علينا أن نتبين مدى نفوذ المصالح الشخصية أو الاهتمامات الخاصة فى وجهة نظر أى شخص عن القرية . لأن الشخص قد يذكر عدة معالم لا تثير اهتمامه . فهو يرى مناطق تجمع الأقارب وأفراد العائلات فى قريته بنفس الطريقة السطحية التى نرى بها الولايات المختلفة وعواصمها فى بلدنا .

صور القرية(١)

يبين الجدول التوضيحى قرية بيرى كما تظهر للفتاة كاوا Kawa ويبلغ

(١) سجلنا هنا تعليقات الفنانين ، ويجب أن يكون معلوماً أن الأولاد لا يعطون مثل هذه التعليقات : فهم يقضون وقتاً أقل مع النساء ولا يعرفون إلا القليل عما يدور داخل البيوت .

عمرها الخامسة (بيتها هو رقم ١٢) وللفتاة نجاسو وتبلغ الحادية عشر (بيتها رقم ٢٢) مع بعض المذكرات عن البيوت موضع التعليق .

رقم البيت	تعليق كاوا(١) (٥ سنوات)	تعليقنا على كاوا	القرية فى نظر الفتاة الأخرى ذات الحادية عشر عاماً
٤	١ — أخت أبى تعيش هنا .	١ — تشير كاوا إلى مولنج زوجة لويل . وكانت مولنج هذه إبنة تبناها نجانديليو وهو أخ بالتبنى لوالد كاوا . أما أبوها الحقيقى فهو كالى وهو عم قام بتمويل زواج نجانديليو ويناديها أبو كاوا (سيلان) بقوله « يا أختى » وتناديها كاوا « يا عمتى »	أن هذا هو بيت باليو وهو أخو لويل . ويقع الجزء الخاص بسكنى لويل فى مقدمة الدار ويسكن هنا كالوين وبيون . أما سوت فيسكن فى الجزء الخفى . وزوجة لويل هى وزوجة سـوت تفران من باليو لأنهما محرمتان عليه .
	٢ — بيون يسكن هنا .	٢ — أن بيون طفله صغير فى الثالثة من عمرها وهى إبنة مولنج بالتبنى . ولم تذكر كاوا ابن مولنج واسمه كالوين ويبلغ التاسعة من عمره .	
	٣ — أظن أن بوندريل يسكن هنا .	٣ — أن بوندريل هذا طفل ذكر فى الثانية من العمر وهو ابن سوت وهو أخ غير شقيق لـ للويل ويعيش مع زوجته فى مؤخرة البيت .	

رقم البيت	تعليق كاوا ٥ سنوات	تعليقاتنا الخاصة	تعليق نجاسو (١١ سنة)
		٤ — أما بوندريل فقد تبناه بوكاناس وزوجته يامبولا وهى أخت زوجة أبى سوت الأولى ويقضى بوندريل معظم وقته مع يامبولا التى ستأخذه نهائياً بمجرد إتمام فطامه . وهى لا تستطيع أن تأخذه قبل الآن لأنها عاقر وليست أم ثكلت طفلها وإلا لاستطاعت أن تقوم هى بإرضاعه . ولم يرزق سوت بأطفال غيره ولذلك فهو شديد التعلق به . ولكنه سيتنازل عنه لبوكاناس وزوجته لأن بوكاناس هو الذى أنفق على زواجه كما أنه غنى ويمكنه أن ينفق على زواج بوندريل فيما بعد .	
٥	١ إن ايثونج تعيش هنا . ٢ — نجاليب كانت تعيش هنا .	١ — ايثونج طفلة فى الخامسة من العمر . ٢ — نجاليب هى أبنة ابن أخى أبو أم ماتشن المتبناه . فعندما مات أبوها وأمها تبناها ذلك الرجل وعاشت فى بيته . وكانت طفلة مرحة محبوبة من من الأطفال الآخرين . ولكن بعد أن حدث لها حادث مشين	هذاهو بيت جدى وهو أخو باليو ويعيش هنا أيضاً بيسا وكابامالى وايثونج وسونجان ولقد سقطت نجاليب من الأرجوحة فكسرت ركبتها

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
		أخذها عمها لتعيش معه معتقداً أن ماتشن لم يكن ولى أمر حازم .	ويقول سين لبوبولى (وهو ابن باليو بالتبنى) أنه إذا لم يأو إلى فراشه فسوف تكسر ركبته هو أيضاً .
	٣ — لقد كسر ماتشن ذراع زوجته	٣ — كسر ماتشن ذراع زوجته أثناء شجارهم بسبب صحفة من الطعام أرادت أن تحملها إلى عيد ميلاد زوجة أخيها . أما ماتشن فكان يريد أن يشترك فى وليمة بمناسبة إقامة أعمدة بيت من أجل أولاد أخ غير شقيق له . وقد حدث فى اليوم التالى أنها لم تذهب لإحضار الطبق الذى بعثت به إلى أخيها ولما سألها عنه ردت على زوجها رداً قاسياً على غير عادتها لاسيما حين أخبرها أن المرأة التى تسكن بالبيت المجاور أخذت الطبق فما كان منه إلا أن كسر ذراعها .	
	٤ — بينـدروبال تقيم هنا	٤ — بندروبال هذه طفلة فى السابعة وهى إبنة ماتشن (ويوجد فى هذا البيت أيضاً ثلاثة أولاد ذكور تبلغ أعمارهم الثالثة والعاشرة والثانية عشر ولكن كاوا لم تذكر شيئاً عنهم).	

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق تجاسو (١١ سنة)
١	لا تعرف شيئاً عن هذا البيت		يقيم هنا صبى الطبيب بمنطقة بوتشال وقد رزقت زوجته بطفل وأقام باليو وليمة عند مولده .
٣	١ — هذا هو البيت الذى لجأت إليه أمى حين غضب أبى منها لأنه لم يكن عندها بيتاً .	١ — لم يكن لزوجة سيلان أى أقارب فى بيرى لأنها جاءت من جزيرة توى وهناك شخص يمت إليها بصلة القرابة البعيدة وهو بوكانو . وهو يملك البيت رقم ٢ . وقد لجأت إليه مانون زوجة سيلان وهى فى الوقت نفسه أم كاوا .	٣ — هذا بيت كولكيرى، بوتشال وهى دائماً على خلاف مع باليو .
	٢ — إن لماما عيناً واحدة وكذلك سورى .	٢ — ماما طفلة فى الرابعة من عمرها وهى إبنة بوكانو . وقد فقدت إحدى عينيها من أثر إصابتها بالرمد . أما سورى فهو أخو ماما الطفل وهو الآخر له عيناً واحدة . ولم تذكر كاوا شيئاً عن بوميتشين أكبر أبناء بوكانو ويبلغ السادسة من عمره .	

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليقات تجاسو (١١ سنة)
	٣ — أعتقد أن بوباو ينام هناك	٣ — بوباو هو ابن الأخ الشرق لبوكانو ، سورى ولا يهتم أحد بهذا الغلام . وبالرغم من أن بيت بوكانو هو بيت بوباو الرسمى إلا أنه نادراً ما يرى هناك . ويتميز بوباو بأخلاق هادئة منعزلة ، وتفضله كاوا عن بوميتش لأن الأخير كثير الجلبة . والعزوز .	
٦	لا تعليقات .		
٧	١ — هذا هو بيت جدى	١ — هذا هو بيت نجاندليو وهو الأخ الأكبر لسيلان ويدعوه سيلان يا «أبى» وتدعوه كاوا «ياجدى» وتعيش فى مؤخرة بيت نجاندليو خالة زوجته وزوجها الشيخ ولكن كاوا لم تذكر شيئاً عنهما .	١ — هذا بيت عمى وتعيش جدتى هناك أيضاً (وهذه هى زوجة نجاندليو وهى أخت غير شقيقة لباليو وكوماتل زوجة بوتيك وأم بالتيى لبانو وهو أبو باليو ونجاسو)
٨	لا يعيش أحد هنا .	١ — أصبح هذا البيت مهجوراً بعد موت صاحبه . وقد فرت أرملته وتزوجت مرة أخرى قبل انقضاء فترة حدادها ولم يكن له أقارب وكان البيت قديماً متداعياً ، وقد لجأ إليه جوبو فترة حين أصبحت الحياة	

رقم البيت	تعليقات كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليقات نجاسو (١١ سنة)
		فى منزله مستحيلة لما كان يقوم بين زوجتيه من معارك . ولم يكن يستطيع الانفاق على كل من زوجتيه فى بيت مستقل .	
٩	١ — أن ألوبوا مقيمة هنا .	هذا هو بيت ماكو العجوز وقد تزوج خمس زوجات ولكنه لم يرزق بأطفال وقد مات أربع من زوجاته أما الخامسة واسمها ميلن فقد سبق لها الزواج مرتين قبل أن يتزوجها . ولم تنجب أطفالا من زوجها الأول وقد هربت منه وتزوجت تاليكاك من ماتشوبال الذى أنجبت منه ست بنات . أما الأولى فتزوجت فى مبونى ولها ستة أطفال مات منهم بنتان وبقى أربعة أولاد وأما الثانية فقد تزوجت فى بانوس وولدت بنتين ماتت واحدة وعاشت الثانية . ثم ماتت اثنتان من بنات ميلن بسبب الأنفلونزا (بسبب أرواح الأجانب) ولا تزال اثنتان تعيشان معها ومن بينهما البنت الكبرى واسمها كومبون وكانت بطلة	هذا هو البيت الذى تقيم فيه زوجة بوبو الأخرى . وألوبوا تقيم هنا هى الأخرى ولكنها دائماً خارج القرية فى زيارة مبونى

رقم البيت	تعليقات كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليقات نجاسو (١١ سنة)
		لمغامرتين ونتج عن إحداهما أن ولدت طفلا غير شرعى من سيلان . وقد فر سيلان إلى الشمال بعد الحادث وبعد أن أقر بجريمته لباليو . وحين ظهرت علامات الحمل على كومبو وعرفها الجميع ألبسها أهلها لباس العروس وحملوها إلى بيت الأخ الأكبر لسيلان واسمه نجانديليو حيث كان يقيم سيلان . ولما علم نجانديليو بقدومهم هرب إلى الأحراش بعد أن أحكم رتاج الدار . وقد مات الطفل بعد ولادته بقليل وتورطت كومبو فى مغامرة ثانية مع بوبو الذى كان متزوجاً وله عدة أولاد . ولكنه تزوجها تحت ضغط أقاربها . وابنهما يدعى توبال وهو يعيش بعض الوقت معها ولكنه يقضى معظم وقته مع أبيه رغم أن زوجة أبيه تسىء معاملته . ولكومبون طفلان آخران هما كيليباك وعمره ثلاث سنوات وطفلة أخرى صغيرة . وقد	

رقم البيت	أقوال كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	أقوال نجاسو (١١ سنة)
		نشب الخلاف بينهما وبين بوليو مما دعاها إلى ترك البيت المهجور الذى يملكه ساكانون (رقم ٨) حيث كانا يقيمان والعودة إلى بيت الزوج الثالث لأمها ويدعى ماكو . أما أختها الصغرى فقد أصيبت بالجنون وهى تخاف الرجال ولم تتزوج مطلقاً . أما ألوبوا التى جاء ذكرها فى حديث كاوا فهى بنت صغيرة فى العاشرة من عمرها وهى إبنة أيه ابن أخ ميلن وكلاهما متوفى .	
	١ — كاندرا تقيم هنا . إنها بنت شريرة .	هذا هو بيت كامبوين وزوجته نجاتن . لقد سبق لكامبوين أن تزوج ساما من باتوس وولدت له أربعة بنات ماتوا جميعاً وهن بعد أطفال ثم ماتت الأم هى الأخرى . ثم تزوج من نجاتن وقد سبق لها الزواج من تاليكوتش فى باتوس ورزقت منه بطفلين ولد وبنت ماتا صغيرين	هذا هو بيت كاندرا وهى بنت بكاء

رقم البيت	تعليقات كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليقات نجاسو (١١ سنة)
		وقد هجرته وتزوجت كامبوين وبذلك أصبحت هى زوجته الثالثة وأصبح هو زوجها الثانى . وقد ولدت لكامبوين ولداً مات وهو طفل رضيع وقد عزت موت هذا الطفل كما هى عادتها عند ما مات طفلاها من زوجها الأول إلى السحر الشرير الذى يلقنه جدها الذى لم يعف عنها منذ أن سرقت شباك السمك من عنده وهى فتاة .	
	٢ — مانوى يسكن هنا	٢ — ثم ولدت لكامبوين ولداً يدعى مانوى وكان طفلا معتل الصحة فى الثالثة من عمره . ١ — وكانت كاندرا هى الأبنة الصغرى لزوجة بوبو الأولى من الأخ المتوفى لكامبوين وكان يدعى بامباى . وقد تبناها كامبوين ولكنها كانت سريعة الغضب ، عصبية المزاج ، وكان الأطفال يعاكسونها لأنها تقابل معاكساتهم هذه بهياج شديد . وقد مات أبوها منذ كانت فى الخامسة . وهى تكره	

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
		كامبون وتهدد نجاتين بثورتها ، وتقسم وقتها بين بيت كامبون وبيت أمها . وقد اتفق أهلها على تزويجها من شاب فى باتوس وتعيش فى نفس البيت امرأة عجوز تدعى كامويت تزوجت ثلاث مرات مرة من رجل من ماتانكور فى لومبروم ورزقت منه بطفلة توفيت ثم تزوجت من رجل فى مانوس ولم ترزق منه بأطفال وأخيراً تزوجت من أخ للزوج الثانى لأم نجاتين زوجة كامبون وقد أحضرت معها ابنة أختها ياميت التى تزوجت أحد زعماء القرية وهو تاليكاى ولكنها رفضت أن تقيم فى نفس البيت مع زوجته الأخرى . وقد أقسم تاليكاى ألا يذعن لرغبتها ويبنى لها بيتاً مستقلا وعلى ذلك فهى مستسلمة ولكنها توزع وقتها بين هذا البيت حيث تقيم خالتها كامويت وبين بيت أمها حيث يعيش ابنها مع جدته .	

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
٢	هذا هو بيتى ويعيش فيه أبى وأمى وكباب . وأمى حامل	تزوج سيلان من ماتوين من قرية ثاوى . وأمها من أهالى جزيرة مبوكى ولذلك فليس لها أقارب فى بيرى وهى لا تختلط بالناس كثيراً . وعندما يكون بينها وبين زوجها خلافات فانها تلجأ إلى بوكانو بحجة أن بوكانو هو ابن لبعض الناس فى باتوس من جهة الأم . وهؤلاء الناس من أبناء عمومة ماتوين ولم يتزوج سيلان زوجة أخرى ولكنه تورط فى مغامرتين جنسيتين إحداهما مع كومبون زوجة بويو والثانية مع مين التى ترملت خمس مرات والتى هى أخت تشالو المذنبة . ومن أقرباء سيلان نجد أمه وأسمها بووكى وهى من باتوس وقد تزوجت بوبوت من ثاوى وكان يسمى لا بان وكانت له بعض الامتيازات فكان مسموحاً له أن يتحلى بأسنان الكلاب فيلبسها منحرفة فوق صدره وقد أنجبت بووكى ثمانية أطفال منهم ثلاثة بنين لا يزالوا أحياء وخمس	كاوا مقيمة هنا وأمها حامل. وقد تشاجر أبوها مع اللولى وقد سمعه أبوها يتحدث بالسحر فى الظلام.

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
		بنات توفين جميعاً . وقد مات ثلاثة منهن بعد الزواج ، وولدت واحدة طفلا ذكراً لا يزال حياً أما الثانية فماتت وهى حامل وولدت الثالثة طفلا ذكراً مات بعد قليل . وقد أقام الأخ الأكبر فى ثاوى ولكن بعد موت بوبوت ، رجعت بووكى مع أبنيها الآخرين نجانديليو وسيلان إلى قريتها بانوس وتزوجت كالى من تشالالو وولدت من كالى هذا مولنج (بيت رقم ٤) وقد مول كالى زواج نجانديليو الذى تبنى فيما بعد أخته غير الشقيقة مولنج ومول زواجها . وكان تشوكال قد تبنى سيلان ولم يكن يمت له بصلة القرابة . أما روح سيلان الحارسة فهى توبال وهو أخ بالتبنى لسيلان كان تشوكال قد تبناه هو الآخر . ويقوم سيلان الآن بدور الوسيط ويوجهه فى ذلك توبال وخول تشوكال لسيلان حق استثمار حقول الساجو التى يملكها . ولما مات تشوكال تكفل نجانديليو بتمويل زواج سيلان الذى منحه ابنه الأكبر توبال . ويجىء بعد توبال ، كاوا وهى أكبر طفلة فى البيت . وهناك بعدها طفلة صغيرة أسمها إيسوين اختنقت وماتت وهى صغيرة . والمعتقد أن روح رجل من ثاوى خنقتها (جاء أبو سيلان وأم ماتوين من ثاوى . وهذه هى قصة الأم عن موت الطفلة وهى قصة تتكرر كثيراً عند موت الأطفال فالأمهات يرجعنه دائماً إلى أرواح الأب الشريرة) وهناك الطفل كياب وهو صبى فى الثالثة من عمره . وماتوين حامل تنتظر طفلا فى فى بضعة أسابيع .	

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
١٨	هذ هو البيت الذى سوف تموت فيه الوبوا وبذلك سوف نحصل على بعض التبغ	هذا هو بيت تونو ابن كوماتول وبوتيك . وزوجته تدعى ألوبوا . وهما والدى يبون (بيت رقم ٤) الذى تبناه لويل الأخ الأصغر لتونو والذى هو زوج لمولنج التى فقدت طفلها حديثاً وتستطيع	هـذا بيت عمى الاصغر تونو . تونو هو أخ لويل أيضاً . إن زوجة تونو تحتضر . ويقول اليوسياى إن هناك ثعباناً

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
		ارضاع ابن ألوبوا أثناء مرضها لقد ولدت ألوبوا طفلا تقوم أم زوجها برعايته ، وتقيم أم الزوج فى مؤخرة بيت نجانديليو. وتعانى ألوبوا مرضا شديداً من إصابتها بعدوى عقب الولاده مباشرة ، وقد استنفدت عائلتها كل ما تملك لتدفع أجر ما يحلم به اليوسباى ، وسحرة الماتانكور مما أثار غضب الأرواح فى مانوس كما بلغتهم عدة وسيطات . لقد اعترفت ألوبوا بكل ما اقترفت من آثام بما فيها مغامرة جنسية عابرة مع بانو الذى مات منذ سنتين فى حادث انقلاب أحد الزوارق. وتعيش هناك أيضا أخت ألوبوا وهى طفلة فى التاسعة من عمرها وتدعى بواسا وهى تدعو أختها « أمى » وتنادى أمها الحقيقيـة ندرانتش « جدتى » .	فى بطنها دخل فيها على أثر تسلقها إحدى أشجار البندق . إن بواسا تعيش هناك وقد ذهبت ذات يوم إلى البحر مع تاليو تشالون وكادت أن تغرق لقد ضاع منهما طعامهما وكانت بواسا تبكى
٤٣	البيت الذى يعيش فيه بونكوب ؟	هذا هو بيت نجاميل وهو رجل متقدم فى السن من يبرى يعيش مع زوجة نجاتشومو	البيت الذى يعيش فيه بونكوب وناونا ستتزوج

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
	وناونا	(انظر الفصل الثانى)	من سابا وهو شاب من كالو
٤٢	بيت اللولوى إنه يتقاتل مع أبى	إن اللولوى الأعمى يستغل درايته بالسحر وعماه مما يجعلانه محصنا ضد سجن الحكومة عندما يتهرب من دفع ديونه . ولقد نشب خلاف كبير بينه وبين سيلان بخصوص خنزير دفعه له سيلان فأكله ولم يوف بثمنه . ولقد توعد اللولوى أنه سيقتل سيلان ، ولذلك فقد ذهب سيلان إلى باتيليان الذى يجيد السحر لكى يعصمه من سحر اللولوى. ويعيش مع اللولوى ابنه تشولاى الذى تزوج فى سن مبكرة لكى يراه أبوه متزوجاً قبل أن يصيبه العمى الكامل وزوجة تشولاى تنتسب إلى قرية ثاوى وله منها طفلان سالبادى فى الثالثة وطفل ذكر صغير ثان . ويسير تشولاى فى الطريق منكساً رأسه من الخزى لأن أباه لا يدفع ديونه ولم يدفع مهراً لائقاً لعروس ابنه . وتعيش مع اللولوى	هذا بيت اللولوى وهو يأكل خنازيره قبل أن يدفع ديونه وهو لم يدفع نفقات زواج تشولاى بعد .

رقم البيت	تعليق كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
		الفتاة تاليا وهى ابنة زوجته المتوفاه التى كانت أخت مين . إن تاليا هى التى تقود أباها حينما ذهب أما أختها الكبرى نجاكاكيس فقد تبنتها نيامبولا زوجة بوكاناس .	
٤٠	بيت بويتش وهو بيت الحداد	هذا البيت هو بيت كيماى وإسالى ولقد مات فيه بويتش وهو الأبن الأوسط لنانى ابن ابن أخو جد كيماى . ويقام الحداد عليه فى بت اخو نانى الأكبر الذى يناديه « أبى » وقد قامت إسالى بدور الوسيطة فى كل جلسات الأزواج التى إنعقدت عند مرض بويتش وبعد موته . وكانت إسالى تتصل بالأرواح عن طريق نشاط ميليو الذى مات بسبب مغامرة ابنة ابنة عم كيماى مع سيلان وهو أبو كاوا وتعيش كيسابوى فى كيماى وهى إبنة ياميت من زوجها الثالث . إن كيسابوى فى الخامسة عشر من عمرها وكانت قد خطبت ولكن	بيت بويتش وهو بيت الحزن لقد غنا هناك وعقدت إسالى جلسة للازواج وقالت إن تشوماليو قال ان أبى ضرب بويتش على ظهر عنقه بالبلطة ثم خرجت أمى ونجاسو وأنا وقالت إسالى ان دما وجد فوق الأرض

رقم البيت	تعليقات كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليق نجاسو (١١ سنة)
		مفاوضات الخطوبة انقطعت مرات عديدة . وقد جاء أبوها من تشولالو وهو قريب لكيماى ولذلك تبناها كيماى . وتعيش أيضاً لوبان إبنة وإسالى . (انظر الفصل الثامن) وبومات أيضاً (انظر الفصل السادس) وهو ابن أخت إسالى المتوفاة . وهناك أيضاً مين ، ونانى ، وزوجته واثناهما كوتان وبوسيومن . وقد جاء تشاوميلو وموى للمشاركة فى الحزن على بويتش . ويعيش هنا أيضاً كالوين ابن أم تشالالو . وقبل أن يموت بويتش ، سقط بوسيومن ابن نانى مريضاً وقالت الأرواح التى كانت تتكلم عن طريق إسالى أنها تأمر كالوين (وكانت تنتابه نوبات من الجنون عند ما كان يذهب إلى حافة البحر ويبنى عليها أحجاراً على طريقة النساء فى بناء الجزر الصغيرة) أن يأخذ بوسيومن إلى نانى	ولكنه ليس دم بويتش ولكنه جاء من جرح فى قدم ناونا حين تعثر فى صدفة سمك مكسورة وتعيش لوبان هنا وقد كان لها مغامرة مع بوان وقد حلقت رأسها ولذلك مات بويتش أن إسالى تكره باليو . وكل أهل او لا خير فيهم .

رقم البيت	تعليقات كاوا (٥ سنوات)	تعليقاتنا	تعليقات نجاسو (١١ سنة)
		ويذهب ويعيش هناك هو وزوجته تشومولى وابنهما الصغيرين سليمون واينونج ولم يبق بالبيت إلا العجوز كالى وهو والد نانى ومولت والزوج الثانى لأم سيلان . فقد بقى فى بيت نانى حيث مات بويتش وحيث تخلت الروح الحارسة للبيت عن مهمتها وتركت بويتش يموت . وقد استقر الرأى على إزالة البيت وإعادة بنائه فى مكان آخر بجوار جزيرة تشالالو القديمة وتعيين بويتش روحا حارسة له أن تجف رأسه وتعد بصورة مناسبة . ولقد قدم الناس عدة تفسيرات لموت بويتش ومنها أن بانو ضربه ببلطة لأنه حقد على نانى الذى كان استعد لإقامة ذكرى زواجه (الفصل الثالث وقد عنفته إيسالى بعد وفاته فى إحدى الجلسات حين كانت تظن أن أرملة بانو وساليكون ونجاسو مستغرقين فى النوم .	

معلومات نجاسو عن البيوت

التى لا تعلم عنها كاوا أى شىء

١٩ بيت بوساى . وهو بيتنا أيضاً وزوجة بوساى امرأة جاءت من مبوكى

٢٠ بيت الـ تاتل ، وهو رجل ضعيف الشخصية وزوجته امرأة سخيفة ولا يتكلم طفلها (بوب) كثيراً (الفصل ٦) .

٢١ بيت بويسيو . لقد تشاجر مع زوجته لأن نادن قضى ليلة فى منزله ورأى الزوجة وقد خلعت ملابسها .

١٣ ويقيم هنا بولام . وهو ولد مضحك ولا يلعب مع الآخرين . وأمه هى زوجة تاليكاى الثانية (بيت رقم ١٠) وتقيم بالبيت نفسه امرأة عجوز لا تغادر الدار قط (هذه العجوز هى أم باميت زوجة تاليكاى) .

١٤ تشوكال يقيم هنا . وهو دائم التشاحن مع الآخرين يبدو أصغر من سنه الحقيقى ، ويعيش هنا نادن وهو ليس بالولد الطيب لقد ادعى أنه اعتدى على شرف ساليكون (أخت نجاسو) وهذا كذب والحقيقة أنه اعتدى على لويان ولذلك فقد حلقت رأسها .

١٥ هنا تعيش ميلين أخت سين والناس تنادى زوجها « ابن لالينج » (لالينج هذا هو باليو وهو فى نفس الوقت أبو نجاسو بالتبنى) لقد دفع لالينج نفقات زواج ميلين ، و بيتهم متهالك وقد تسقط أرضه إذا تجمع فوقها عدد كبير من الناس .

١٦ كالومين يسكن هنا ، وقد كان مقيما فى بيت نانى ثم انتقل إلى بيت كيماى بعد موت بويتش ، ولكن هذا هو بيته الأصلى ، وسيزوج ابنته

إينونج من بوكس ولـكن إينونج لا تزال صـغيرة ولا تفهم شيئاً مما يدور حولها بهذا الصدد .

١٧ تعيش هنا بونياما الزوجة الأولى ليوبو ، وهى تتشاجر مع كومبون طوال الوقت وأطفالها هم كيسابوى وكاندرا ولـكن كاندرا تعيش فى بيت كامبوين وهى مخطوبة وعلى وشك أن تتزوج .

٢٢ هذا هو بيت بالبو حيث يعيش الآن وقد كان ملـكا لأبى قبل أن يموت. إن رأس أبى فى ذلك الوعاء المعلق هنا ، إن بوبولى (ابن بالبو بالتبنى) سيحلق رأسه قريباً ، ولقد كدس بالبو ثمار جوز الهند فى مؤخرة البيت للاحتفال ببلوغ ساليكون ، إن ارض هذا البيت قوية متينة ، وحين مات ذلك الرجل القادم من مبونى نقـلوا جثته إلى هنا لأن ارض بيت ملين ليست متينة .

٢٣ تقيم هنا ام سين واسمها نجاونشالون ويجب ألا تذكر اسمها امام باليو فهذا ممنوع وهى لا تغادر البيت مطلقاً ولـكن بوبولى يذهب اليهـا دائماً ويصرخ طالباً طعامه ، وعنـد ما مرض بانالو رقد هناك نزولا على إرادة روح بوبولى الحارسة ، وقد اخذ بانيالو صندوقه معه ولم يكن لباليو أى رغبة فى بناء ذلك البيت .

٢٤ هذا هو بيت نانى وسيقوم بهدمه لأن بوبتش مات ، لقد ذبح الترسة بالأمس .

٢٥ هذا هو بيت شقيق باليو ، إن له أربعة أولاد منهم طفل رضيع ، و بيته صغير قذر ، إن أولاده لا يلعبون ولـكنهم دائماً فى قارب أبيهم .

٢٦ هذا هو بيت بوندرامات وزوجته مريضة مرضاً خطيراً ويقول باليو إن مرضها بسبب محاولتها ربط دوبارة حول وسطهـا (لقد حاولت إجهاض نفسها وماتت لهذا السبب) .

٢٧ إن عينى زوجة ندروسال تؤلمانها لأن ندروسال قذف بمسحوق الليمون فى عينيها لأن طفلتهما كانت تبكى ، إن الطفلة دائمة البكاء ، ويعيش هنا أيضاً سيس وبوندريت (أنظر الفصلين الثانى والتاسع) لقد سرق باليو بوندريت من أجل سيس وعلى أية حال فقـد تزوج زوج بوندريت من واحدة أخرى .

٢٨ هذا هو بيت بوكاناس ، ونحن نقيم هنا فى بعض الأحيان . وزوجته أمهر منه بكثير وهى وسيطة استحضار الأرواح وليس لهما أطفال الآن ، ولبوكاناس إبنة هى كوماتال وستتزوج قريباً وهى لا نستطيع أن تذكر اسم سين لأنهـا سوف تتزوج ولداً من كالات ، ولقد ضرب بوكاناس نيامبولا فى الأسبوع الماضى فأرسلت تستدعى أخاها ندروسال ، وقد جاء وضرب أم بوكاناس وعقب ذلك تصارع هو و بوكاناس ووقع الاثنان فى الماء ، إن عروس توى تقيم فى الجزء الخلفى من البيت ، وقد غضبت منى لأنها ضبطتنى أتلصص عليها . إنها لا تحبنى .

٢٩ إن منتون إبنة كيالصة وأنا لا العب معها كثيراً فهى تلتقط الأشـياء من أسفل البيوت ، وزوجة كيا مجنونة تتشاجر مع كل إنسـان وتعتقد أن الناس كلهم كذابون .

٣٠ إن تاليكاوا هو صبى الطبيب فى بيرى . ولقـد كان أبى هو صبى الطبيب فى بيرى قبله . لقد ولدت زوجته الجديدة حديثاً وجاءته بغلام ، وقد كان له زوجتان أخريان ولـكنه طردهما . لقد عادت إبنته الصغيرة مولنج لتوها من مولا .

٣١ هذا هو بيت الشبان ونحن نستطيع الذهاب اليه إذا كان خالياً من الشبان وحين رجع شقيق سين من رابول ، احضر معه عدداً ضخماً من الصناديق وظل وأصحابه يرقصون طول الليل .

٣٢ هذه هى كالات ، إن سين من كالات ، إن اخى (وهو غائب عن القرية) سيتزوج الفتاة التى بلغت حديثاً فهى خطيبة اخى ولا يمكننى ان اذكر إسمها ، ويعيش هنا ايضا تامابوى ، وسيتزوج من فتاة فى باماتشو .

٣٣ إن هذا البيت ملك لأرملة بوليون وعند ما بلغت خطيبة اخى كنا نبيت هنا كل ليلة وكنا نأخذ للشاعل والساجو ونطوف أنحاء القرية .

٣٤ فى هذا البيت يلعب جميع اطفال كالات لأنهم لا يملكون إحدى الجزر الصغيرة .

٣٥ إن ساناو يعيش هنا ولم تلد زوجته اطفالا وثدياها يشبهان ثديى الطفلة الصغيرة .

٣٦ هذا هو كالو ، وهذا البيت ملك لتوبن (وهو خالى) إنه سيغادر القرية ويذهب ليعيش فى بيت كيماى عندها يذهب كيماى إلى تشالالو للصيد .

٣٧ هذا البيت هو الآخر ملكا لكالو ، وامى قريبة لكالو وكذلك سين وهى قريبة كالات فى نفس الوقت .

٣٨ هذا هو البيت الذى تقيم فيه سابا ، إنها ستتزوج ناونا وهى تعلم ذلك ولذا فهى لا تستطيع أن تأتى لتلعب فى جزرتنا .

٣٩ إن أم كابيلى تقيم هنا وكذلك كابيلى .

الملحق السابع

نموذج لإحدى القصص الخيالية

قصة الطائر وندرامى

تزوج ندرامى من القوقع كاسومو وأراد أن يعمل فى صناعة الساجو فقال لزوجته كاسومو « أعطنى بعضاً من الساجو فى فمى لآكله » . فردت كاسومو قائلة « ندرامى ، إننى مريضة » فوضع ندرامى الطعام فى فمه ، وبعد أن أكل أخذ الساجو والسكين ومنخل الساجو وحقيبة من الحبال للساجو ، وذهب ليصنع الساجو . وغابت الشمس ولما عاد إلى القرية وقال لزوجته « اعطى الساجو فى فمى ، سوف آكله » . فكذبت كاسومو وادعت أنها مريضة ، ودهنت نفسها بالرماد . أما ندرامى فوضع الطعام فى فمه وأكله وذهب ليصنع الساجو . ووقفت كاسومو ولبست جونلة جميلة من القش ، وأخذت حقيبة فوق كتفها وحملت فيها ليموناً و بندقاً وورق الفلفل وذهبت إلى المستنقع . ووقفت تنادى الطائر كاريبو ، وتقول « لا تهتم بسمك الكايلو ولا بسمك المواس ولا بسمك اليايتشا . لقد ذهب ندرامى . تعالى وسنجلس نحن الاثنين معاً » .

وجاء كاريبو ، وجلس الاثنان معاً ، الاثنان معاً ، الاثنان معاً . ثم قالت كاسومو « هذا هو وقت عودة ندرامى إلى القرية . أنت تطير وأنا أذهب إلى القرية » ولما عادت إلى القرية وعصبت رأسها . وربطت بطنها جيداً . ودهنت نفسها بالرماد .

ونامت فى بيت الرجال . وجاء ندرامى وقال « كاسومو أريد بعضاً من الساجو فى فمى . لكى آكل » فقالت كاسومو «ندرامى إننى مريضة . من هو الذى يريد أن يصنع الساجو أو يأكله ؟ » فوضع ندرامى الطعام فى فمه . وأكل . ونام .

وفى الفجر أخذ سكين الساجو وذهب إلى عمله . أما كاسومو فقطعت الرباط واغتسلت ولبست جونلة نظيفة وأخذت حقيبة الكتف والبندق وورق الفلفل والليمون ونادت « كاريبو . لا تهتم بسمك الكايلو ولا بسمك المواس ولا بسمك البابيشا . لقد ذهب ندرامى فتعال عندى » وجاء كاريبو ووقف الاثنان معاً .

وعاد ندرامى إلى القرية وأخذ سكين الساجو وأخذ الصدفة التى يفرغ فيها الساجو ، وأخذ يبحث عن كاسومو ، ولم يجدها . فذهب إلى المستنقع ووجد معها كاريبو ، الاثنان معاً . وفى ثورة غضبه أخذ حبلا وضرب كاريبو فوق عنقه ، وأصبح لكاريبو عنقاً طويلا ، وكسر كاسومو ، ولذلك نجد الكثير من القواقع على شاطىء المستنقع .

***

هذا نموذج من القصص الخيالية التى يتناقلها أهل مانوس مع الشعوب الأخرى من منطقة الميلانيز ولكنهم لا يولونها اهتماما كبيراً ، ولا يستشهدون بها فى مناقشاتهم عن الظواهر الطبيعية . وتصورهم لأبطال القصة على أنهم طيور وقواقع ليس له تأثير كبير فإن هناك أشخاصاً يسمون بنفس الأسماء ؛ أما الأطفال الذين يستمعون إلى هذه القصص فإنهم يميلون إلى تخيل أبطالها على أنهم من البشر وأنهم كانوا أحياء ذات يوم .

كما أن ورود حوادث الزنا فى القصص بهذا الأسلوب البليد لا يثير اهتمام الأطفال ، ولو أن الكبار أرادوا استثارة تساؤل الأطفال لبدأوا بهذا الاستهلال « هل تعلمون لماذا نجد لطائر الكاريبو هذا العنق الطويل ؟ » ؛ أو « هل تعلمون سبب وجود هذا العدد الكبير من القواقع بالقرب من المستنقع ؟ » . ثم يبدأون القصة . فمثل هذه البداية المثيرة تشوق الأطفال إلى سماع القصة .

الملحق الثامن

تحليل التركيب الاجتماعى لسكان بيرى

٢١٠	نسمة
٤٤	عدد الزيجات حالياً
٨٧	عدد الأطفال تحت سن البلوغ أو من بلغوا حديثاً
٩	عدد الشبان الذين اجتازوا مرحلة البلوغ ولم يتزوجوا بعد
٢٠	عدد الأرامل
٦	عدد الرجال الأرامل .
١٫٩	نسبة عدد الأطفال لكل زوج وزوجة
٥٣	عدد البيوت
١٫٦	نسبة عدد الأطفال فى كل بيت .

من الـ ٨٧ طفلا وجدنا ٢٤ ٪ أو ٢٦ ٪ منهم أطفال بالتبنى .

نسبة الجنس بين من تقل أعمارهم عن ٤٠ سنة هى ١٠٠ ٪ أى متساوية

أما نسبة الأناث إلى مجموع السكان هى ٨٦٫٩٢ ٪ (وهذا راجع إلى زيادة عدد النساء العجائز من الأرامل) .

تقارير خمسة عشر امرأة من بيرى

اسم المرأة	مرات الزواج	المواليد	الجنس	الأطفال: تاريخ الوفاة	الأطفال: عمر الأحيــاء
نجاسو	١	×			
	٢	١	أنثى		
		٢	ذكر	أقل من شهر	
		٣	أنثى		ثلاث سنوات
		٤	»		شهران
إلان	١	١	ذكر		ثلاث سنوات
		٢	أنثى		ستة شهور
بوايلب	١	×			
إندالو	١	١	أنثى	أقل من شهر	
		٢	ذكر	» »	
		٣	أنثى	» »	
		٤	ذكر	» »	
	٢	٥	»	عند الولادة	
		٦	أنثى	» »	
		٧	»		٤ سنوات
		٨	ذكر		سنة واحدة
اندولو	١	١	ذكر		١٢ سنة
		٢	»		١٠ سنوات
		٣	أنثى		٧ سنوات
		٤	»		٥ سنوات
		٥	ذكر		٥ سنوات

اسم المرأة	مرات الزواج	المواليد	الجنس	الأطفال: تاريخ الوفاة	الأطفال: عمر الأحياء منهم
نجالين	١	١	ذكر	أقل من شهر	
		٢	»		٣ سنوات
	٢	٣	»	» »	
		٤	أنثى	» »	
ماتوين	١	١	ذكر		٧ سنوات
		٢	أنثى		٥ سنوات
		٣	»	عند الولادة	
		٤	ذكر		٢٫٥ سنة
		٥	»		طفل رضيع
ياميت	١	١	»	ولد ميتاً	
	٢	١	»	» »	
		٢	»	أقل من سنة	
		٣	»	» »	
		٤	»	» »	
		٥	»	» »	
		٦	»	» »	
مبلين	١	١	أنثى	أقل من شهر	
		٢	»		٣ سنوات
باتالس	١	١	»		٨ سنوات
	٢	٢	ذكر	أقل من شهر	
		٣	أنثى		٣ سنوات
سين	١	٢	»	شهر واحد	

اسم المرأة	مرات الزواج	المواليد	الجنس	الأطفال: تاريخ الوفاة	الأطفال: سن الأحياء منهم
مين	١	١	أنثى	شهر واحد	
	٢				
	٣				
	٤				
	٥				
نجاكام	١	×			
	٢	١	»		١٣ سنة
		٢	»		١١ »
		٣	ذكر	أقل من شهر	
		٤	أنثى	» » »	
		٥	»	» » »	
	٣	٦	»		٦ سنوات
		٧	ذكر	أقل من ٣ شهور	
		٨	»		٢½ سنة
		٩	أنثى		٣ شهور
نجاكوم	١	١	ذكر	إجهاض	
	٢	٢	»	تحت ٣ شهور	
	٣	٣	»	تحت سنة	
		٤	»		½ سنة
نجاتشومو	١	١	»	تحت ٣ شهور	
		٢	»	» » »	
		٣	»	» » »	
		٤	»	» » »	

اسم المرأة	مرات الزواج	المواليد	الجنس	الأطفال: تاريخ الوفاة	الأطفال: سن الأحياء منهم
		٥	ذكر	تحت ٣ شهور	
		٦	»		٨ سنوات
		٧	أنثى		٥ »
		٨	ذكر		٣ »
		٩	أنثى		١½ سنة

ومن تحليل هذه النتائج ظهر لنا أن :

١٥ امرأة لا يزلن فى سن الحمل .

٣٠ عدد الزيجات .

٦٥ عدد المواليد .

٣٤ طفلا ماتوا تحت سن الثالثة ، ٣١ تحت سن ٣ شهور ومن هؤلاء المواليد كان هناك ٤٠ طفلا ذكراً مات منهم ٢٥ ، أما الأطفال الإناث مقدرهم ٢٥ مات منهن ٩ .

النتيجة : ١٥ ذكراً ، ١٦ أنثى .

الملحق التاسع

جداول جمع البيانات التى استخدمت فى هذه الدراسة

جدول بيانات عن الأسرة

رب البيت   أسرته   نسبة   كيف فشلت

زيجاته

أطفال كل زيجة   عمر وأسباب وفاة من مات منهم

المكان الحالى لأولئك الأطفال

علاقته بزوجته الأولى

اسم من قام بتمويل زواجه

اسم الروح الحارسة له

هل يمكنه استلهام الوحى ؟

هل يملك مزارع للساجو أو له حق صناعة الساجو ؟

ما هى صفقات الميلاد التى مولها ؟

ما هى الزيجات التى مولها ؟

اسم زوجة رب البيت   أسرتها   نسبتها

زيجاتها   أسباب فشلها

أولادها من كل زيجة   عمر وأسباب وفاة من مات منهم

علاقتها بزوجها الأول

من الذى قام بتمويل زواجها ؟

من الذى قام بتمويل أعياد ميلاد أولادها ؟

هل هى وسيطة لاستحضار الأرواح ؟

ما هى الروح التى تسيطر عليها ؟

هل تملك أى مزارع للساجو أو لها حق صناعته ؟

أولادها الحقيقيين   العمر . الجنس . المخطوبين المتبنين وإسم من تبناهم

أولادها بالتبنى   العمر . الجنس . المخطوبين . إسم الأقارب الذين أنجبوا هؤلاء الأولاد

الأشخاص الآخرين الذين يعيشون فى نفس البيت   السن . الجنس . مركزهم فى الزواج . قرابتهم

هل التحريم القائم بين زوجة الإبن وحميها قائم أم زال ؟

إذا كان الزوج قد رمى عظمة الإلهام ، لماذا ؟

إذا كانت الزوجة أبطلت عملها كوسيلة فما السبب ؟

جدول بيانات عن الأطفال

رقم بيت الأسرة

اسم الطفل

اسم الوالد   رقم البيت   أسرة الوالد

اسم الأم   » »   » الوالدة

هل هو متبنى

هل هو مخطوب

هل لا يزال رضيعاً   تاريخ الفطام   نوع الطعام

ما يمضه ، بندق ، ورق فلفل ، يدخن ، غليون ، يدخن سجاير

هل يلبس ملابس   هل يتبول علناً   هل يرقص

هل يعوم   هل يعوم تحت الماء   هل يجذف بزورقه

هل يجذف بقارب كبير

هل يملك قارباً

هل يلبس أطواقاً حول ذراعيه ، حزام ، خرز

هل يصطاد أسماكا صغيرة   ،   هل يستعمل الحربة ، القوس

البيوت التى يدخلها

دائرة لعبة الجغرافية

اهتمامات الأبوين

الرفاق المفضلين

الألعاب التى يلعبها :

١   ٢   ٣   ٤

١ — لعبة الخيال . وتعتمد على التعرف على شخصية صاحب الخيال الذى يبذل جهده فى التمويه على رفاقه .

٢ — لعبة كوكيرو . وهى تشبه لعبة رمى المنديل حيث أن الشخص الذى يلقى المنديل وراءه يحاول رميه بالتالى خلف أحد الجالسين فى الدائرة .

٣ — كاليبوش . وهى نوع من الألعاب يؤخذ فيها الطفل سجيناً .

٤ — مولى بول : وهى نوع من كرة القدم مع استعمال الليمون غير الناضج .

ولاشك فى أن الألعاب رقم ٢ ، ٣ ، ٤ هى ألعاب جديدة أدخلت هناك .

الثمن

المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة